

ليزا سي

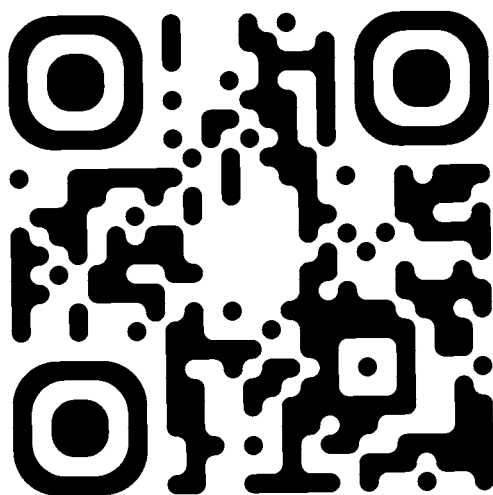
جزيرة نساء البحر

مكتبة

رواية

المركز الثقافي العربي





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ليزا سي
جزيرة نساء البحر

العنوان الأصلي للرواية:

Lisa See

The Island of Sea Women

© 2019 by Lisa See

All rights reserved

First published by Scribner

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكتاب

جزيرة نساء البحر

تأليف

ليزا سي

ترجمة

زياد حسون

الطبعة

الأولى، 2024

الإيداع القانوني:

2024MO1649

التقييم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-80-8

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

ليزا سي

مكتبة

t.me/soramnqraa

جزيرة نساء البحر

رواية

ترجمة: زياد حُسُون



المركز الثقافي العربي

اليوم 1 : 2008

مكتبة

t.me/soramnqraa

على الشاطئ تجلس امرأة مسنة، ثمة وسادة مربوطة بعجيزتها فيما هي تعمل على فرز الأعشاب البحرية التي جرفتها الأمواج إلى الشاطئ. كانت معتادة على قضاء الوقت في الماء، لكنّها حتّى حين تكون على اليابسة، فهي متيقّظة دائماً حيال البيئة المحيطة بها. جيجو هي موطنها، جزيرة تُعرف عنها الوفرة في ثلاث: الريح والحجارة والنساء. الريح وهي الأكثر تقلّباً بينها؛ اليوم ما هي إلّا نسيمٌ عليل. ما من سحابة واحدة تلتّخ كبد السماء. تدفّى الشمس رأسها، وعنقها، وظهرها عبر طاقيّتها وملابسها الأخرى في إحساسٍ مريح جدّاً. يقع منزلها على الشاطئ الصخري المطلّ على البحر. هو ليس بالشيء الكثير - بناءً صغيراً فقط شُيّد بأحجار محلّية، لكنّ موقعه... حسنٌ، لقد اقترح أبناؤها وأحفادها أن تسمح لهم بتحويل البناءين إلى بارٍ ومطعم. «أوه، جدّتي، ستصبحين ثريّة. سوف لن تكوني مضطّرةً للعمل مجدّداً». كانت إحدى جاراتها قد نفّذت ما طالب به الجيل الأصغر. إنّ منزل المرأة الآن عبارة عن دار ضيافة ومطعمٍ إيطاليّ؛ على شاطئ يونغ-سوك، وفي قريتها. لن تسمح أبداً أن يحدث شيء كهذا لبيتها. «ما من مال في كلّ الجيوب الكورية مجتمعة يكفي لدفعي إلى الرحيل» كيف لها أن

ترحل؟ بيتها هو العش الذي تخبئ فيه أفراح وضحكات وأحزان
وندم حياتها.

هي لا تعمل على الشاطئ وحدها. نساء أخريات في مثل سنّها
تقريباً - في الثمانينيات والتسعينيات من عمرهنّ - يلتقطن طحالب
البحر التي جاءت لتستريح على الرمال، وتضعنّ ما يمكن بيعه منها
في أكياس صغيرة وتترك الباقى. هناك في الممشى الذي يفصل هذا
الخليج الصغير عن الطريق، يتمشّى أزواجٌ في مستقبل العمر - يقضون
شهر عسلهم في الغالب - يداً بيد، مسندين رؤوسهم إلى بعضها،
وفي بعض الأحيان يتبادلون القبل أمام الجميع في ضوء النهار. ترى
عائلةً من السيّاح ينتمون بوضوح إلى البرّ الرئيسيّ. يمكن تمييز
الأطفال والأب بسهولة مع قمصانهم المنقطة المتطابقة وسراويلهم
الخضراء القصيرة. ارتدت الزوجة نفس القميص المنقط، لكنّ كلّ
سنتيمترٍ من جسدها بخلاف ذلك كان محميّاً بواسطة بنطال طويل،
أكمام طويلة، قفّازات، قبّعة، وقناع قماشيّ. أطفالٌ من القرية
يتسلّقون الصخور التي تنسلّ عبر الرمال إلى داخل البحر. سرعان ما
صاروا يلعبون في الماء عند الأعماق الضحلة، يقهقهون ويتحدّون
بعضهم حول مَنْ يصل أولاً إلى أعماق صخرة، أو مَنْ يعثر على قطعةٍ
من زجاج البحر، أو قنفذ البحر إن كانوا محظوظين بما يكفي لرصد
أحدها. تبتسم لنفسها. لكم سوف تكشف الحياة عن نفسها على نحوٍ
مختلف بالنسبة لهؤلاء الصغار...

تلاحظ أيضاً أشخاصاً آخرين يحدّقون إليها - بعضهم لا يحاول
حتّى أن يخفي فضوله - قبل أن ينتقلوا بنظراتهم إلى بعض المسنّات
الأخريات المتواجدات على الشاطئ اليوم. أيّ واحدة من الجدّات
تبدو الألف؟ أيّهنّ الأكثر ألفة؟ ما لا يعرفه هؤلاء الناس أنّ
يونغ-سوك وصديقاتها يجرون أيضاً تقييماتهم بالمقابل. هل هؤلاء

علماء، هل هم صحفيون، أم مؤثّقون؟ هل سيدفعون المال؟ هل هم على دراية بالهينيو - نساء البحر؟ سيرغبون في التقاط صورة لها. سيدفعون بميكروفون أمام وجهها، ويبدوون بطرح نفس الأسئلة المتوقّعة: «هل تعتبرين نفسك جدّة البحر؟ أو تنظرين لنفسك أكثر كحورية؟». «تصنّف الحكومة الهينيو كأحد كنوز التراث الثقافي - كشيء يوشك على الاندثار ويجب الحفاظ عليه حتّى لو كذكرى فقط. ما هو شعورك لكونك من بين القلّة القليلة المتبقّية؟». إذا كانوا أكاديميين، فسيرغبون في التحدّث عن ثقافة جيّجو الأمومية مع توضيح «أنّها ليست نظاماً أمومياً، بل مجتمعاً يركّز على النساء» ثمّ سيبدوون في طرح الأسئلة الاستقصائية: «هل كنت حقّاً الشخص المسؤول في أسرتك؟ هل كنت تدفعين لزوجك أجراً؟». ستحظى في الغالب بامرأة شاتبة لتسألها السؤال الأكثر تداولاً الذي سمعته يونغ-سوك طوال حياتها: «هل من الأفضل أن تكوني رجلاً أم امرأة؟». كانت بصرف النظر عن السؤال تجيب دائماً بـ: «لقد كنتُ أفضل هينيو!». هي تفضّل ترك الأمر عند هذا الحدّ. وحين يصرّ الزائر، ستقول له يونغ-سوك بفظاظة: «إن كنت تريد معرفة المزيد عني، اذهب إلى متحف الهينيو. يمكنك رؤية صورتي هناك. يمكنك مشاهدة الفيديو المصنوع عني!». وإذا أصرّ هكذا زوّار على عدم الرحيل... حسنٌ، عندها كانت تصبح أكثر مباشرة وجِدّة. «دعني وشأني! لديّ عملٌ لأقوم به».

في العادة تعتمد استجابتها على حالتها الجسدية. الشمس اليوم مشرقة، والماء يتلألأ، وهي تشعر في عظامها بانعدام وزن البحر، واندفاع الموج الذي يتسبب بآلام عضلاتها؛ الموج المغلّف ببرودة تقوم بدورها بتبريد حرارة مفاصل يونغ-سوك - هي تشعر بكلّ ذلك رغم أنّها تجلس على الشاطئ فحسب - لذا فهي تسمح اليوم بالتقاط

صورٍ لها، حتّى أنّها ترفع طرف طاقيتها كي يتمكن شابٌّ ما من «رؤية وجهكِ على نحوٍ أفضل». راقبتهُ وهو يمضي قدماً نحو الموضوع الذي لا مهرب من التطرّق إليه إلى أن توصّل أخيراً لطرح سؤاله: «هل عانت عائلتك خلال أحداث الثالث من أبريل؟».

رباه، بالطبع لقد عانت. بالطبع. بالطبع. «كلُّ مَنْ في جيّجو عانوا»، تجيب يونغ-سوك. لكنّ هذا هو كلُّ ما ستقوله بهذا الشأن على الإطلاق. الأفضل لها أن تخبره أنّ هذا هو أسعد أوقات حياتها، وهو كذلك بالفعل. هي لا تزال تعمل، لكنّها ليست مشغولةً جدّاً بحيث لا تتمكّن من زيارة الأصدقاء والسفر. يمكنها الآن أن تنظر إلى بنات أحفادها وتفكر؛ تلك فتاة جميلة. تلك هي الأذكي بينهنّ. أو من الأفضل لتلك أن تزوّج. يمنحها أحفادها وأبناؤهم أعظم إحساسٍ بالفرح. لماذا لم تتمكّن من التفكير على هذا النحو حين كانت أصغر سنّاً؟ لكنّها ما كانت في ذلك الوقت لتخيّل المال الذي ستؤول إليه حياتها. ما كانت لتتمكّن من تخيّل يومها هذا حتّى في المنام.

يستأنف الشاب تجواله في الأرجاء. يحاول التحدّث إلى امرأةٍ أخرى تدعى كانغ غو-جا كانت تعمل على بعد عشرة أمتار إلى يسار يونغ-سوك. ما كانت غو-جا العصبية دائماً لتنظر إليه حتّى. يمضي قدماً نحو شقيقة غو-جا الصغرى، غو-سُن التي تصرخ في وجهه «اغرب من هنا!» ما جعل يونغ-سوك تطلق زفرة استحسان.

تقف حين تمتلئ حقيبته الصغيرة مرتجفةً على قدميها وتجرجرهما إلى مجموعةٍ من الأكياس الأكبر التي كانت تملؤها. حالما تُفرغ الحقيبة الصغيرة، ستذهب لتمشيط منطقة من الشاطئ لم تعمل عليها الأخريات. تستقرّ مجدّداً، وتضع الوسادة تحتها على نحوٍ مريح. يداها رشيقتان رغم عُقدهما الكثيرة وتجاعيدهما العميقة

بفعل سنواتٍ من العمل المجهد والتعرّض لأشعة الشمس . صوت البحر . . . عناق الهواء الدافئ لها . . . معرفة أنّها محمية بواسطة آلاف الآلهة الذين يعيشون على هذه الجزيرة . . . حتّى شتائم غو-سُن النابضة بالحياة ما كانت لتفسد مزاجها .

ثمّ تلمح يونغ-سوك عبر رؤيتها المحيطية مجموعةً عائلية أخرى . هم لا يرتدون ملابس متشابهة . الزوج أبيض ، والزوجة كورية ، والطفلان - صبيّ صغير وفتاةٌ مراهقة - مختلطان العرق . لم تستطع يونغ-سوك إلّا أن تشعر بعدم الارتياح لرؤية ذينك الطفلين النصف - نصف : الصبي يرتدي سروالاً قصيراً ، وقميص بطلٍ خارق وحذاء لعبة التنس الثقيل ، أمّا الفتاة فكانت ترتدي سروالاً قصيراً بالكاد غطّى ما يُفترض به أن يغطّيه ، سماعات الموسيقى مقحمة بأذنيها ، والأسلاك تتدلّى وصولاً إلى ثدييها الصغيرين جداً . خمنت يونغ-سوك أنّهم أمريكيان ، وأخذت تراقبهم بحذر فيما هم يقتربون . - «هل أنتِ كيم يونغ-سوك؟» ، تسأل المرأة الشاحبة الجميلة . حين ردّت يونغ-سوك بإيماءةٍ صغيرة ، تابعت المرأة قائلة : «اسمي جي-يونغ لكنّ الجميع ينادونني جانيت» .

جرّبت يونغ-سوك وقع الاسم على لسانها «جانيت» . - «وهذا هو زوجي جيم ، وطفلاي كلارا وسكوت . نحن نتساءل إن كنتِ تتذكّرين جدّتي؟» ، تتكلّم جانيت . . . ماذا تتكلّم بالضبط؟ إنّها ليست الكورية ، لكنّها ليست لهجة الجيجو أيضاً . «كان اسمها مي-جا . واسم عائلتها هان —» .

- «أنا لا أعرف ذلك الشخص» . تنغصّن أرقّ تكشيرة في المساحة الصغيرة التي تعلو أنف المرأة . لكن ألم تعيشا في هذه القرية سويّاً؟» .

- «أنا أعيش هنا . لكنني لا أعرف عمّن تتحدّثين» . يخرج

صوت يونغ-سوك الآن أعلى وأكثر حدّة من صوت غو-سُن، ما جعل الأختين كانغ تنظران إليها نظرة: هل أنت بخير؟ لكنّ المرأة الأمريكية لم ترتدع. «دعيني أريك صورة لها». أخذت تنبش في حقيبتها، ثمّ سحبت منها مظروفاً، بحثت بداخله حتى وجدت ما كانت تبحث عنه. مدّت يدها وعرضت على يونغ-سوك صورةً بالأبيض والأسود لفتاة ترتدي زيّ استحمام أبيض من الأيام الماضية. كانت حلمتا نديها أشبه بعينيّ أخطبوط تحدّقان من غياهب كهفٍ في قاع البحر. شعرها مخفيّ تحت وشاح أبيض مطابق للرداء. وجهها مدوّر، وذراعاها النحيلتان تبدوان كأفضل تجسيدٍ تشريحي للعضلات، ساقاها مشدودتان، وابتسامتها عريضة لا يشوبها أيّ خجل.

- «أنا آسفة. أنا لا أعرفها»، تقول يونغ-سوك.

- «لديّ المزيد من الصور».

إذ عاودت جانيت التمحيص في مظروفها؛ تقلّب بين ما يجب أن يكون المزيد من الصور، ابتسمت يونغ-سوك للرجل الأبيض. «هل تحمل هاتفاً؟»، تسأله بإنجليزية أدركت على الفور أنّها بدت أسوأ حتّى من اللغة الكورية التي تحدّث بها زوجته، ثمّ ترفع هاتفاً خيالياً إلى أذنها. استخدمت هذا التكتيك مرّاتٍ عديدة كي تتخلّص من الدخلاء المزعجين. إذا كانت الدخيلة شابةً صغيرة، قد تقول لها يونغ-سوك: «أحتاج أن أتحدّث إلى حفيدي قبل أن أجيب على أسئلتك». وإذا كان رجلاً - أيّاً يكن عمره - كانت تسأله: «هل أنت متزوّج؟ لدى أخي حفيدةٌ جميلة، وهي تدرس في الكلية أيضاً. سأطلب منها القدوم كي تلتقيا سوياً» كان مذهلاً عدد الذين وقعوا ضحيّة خدعها الصغيرة. أخذ الرجل يربّث على جيوبه بحثاً عن هاتفه. ابتسم كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض ومستقيمة تماماً مثل

أسنان القرش. لكن الفتاة المراهقة تخرج هاتفها أولاً. إنه أحد أجهزة الآيفون الجديدة، يشبه تماماً تلك الأجهزة التي اشتريتها يونغ-سوك لأحفادها في أعياد ميلادهم هذا العام.

قالت كلارا دون أن تتكبد عناء نزع سماعات الأذن: «قولي لي الرقم»، أثار وقع صوتها اضطراب يونغ-سوك. تحدثت الفتاة بلهجة جييجو. لم تكن مثالية، لكنّها مقبولة، وطريقتها في لفظ مخارج الحروف تسبّبت ليونغ سوك بقشعريرة سرت على طول ذراعيها.

تُملّي يونغ-سوك الرقم على كلارا التي أخذت تنقر أزرار الهاتف. وحالما انتهت هذه الأخيرة قامت بفصل أسلاك السماعات ومدّت يدها لتناول الهاتف إلى يونغ-سوك التي شعرت وكأنّها أصيبت على نحوٍ غريب بالشلل. لدى سماع النبضة - يجب أن تكون نبضة أليس كذلك؟ - انحنت الفتاة ووضعت السماعة على أذن يونغ-سوك. لمستّها مثل... اندفاع حمم بركانية... صليبٌ صغير يتدلّى من سلسلة ذهبية تحت قميص الفتاة ويتأرجح أمام عينيّ يونغ-سوك. لاحظت الآن أنّ الأمّ جانب تتردي صليباً هي الأخرى. يحدّق بها الأجانب الأربعة مترقّبين. يعتقدون أنّها ستقوم بمساعدتهم. تتحدّث بسرعةٍ على الهاتف. يتغصّن جبين جانيت مجدّداً وهي تحاول جاهدة فهم الكلمات، لكنّ يونغ-سوك تكلمت بلهجة جييجو الصافية الأصلية والتي تختلف عن الكوريّة القياسية اختلاف اللغة الفرنسيّة عن اليابانية، أو هذا ما قيل لها. دسّت كلارا الهاتف في جيبها الخلفي بمجرد انتهاء المكالمة، وأخذت تراقب محرّجةً بينما بدأت والدتها بسحب المزيد من الصور.

- «هذا هو والدي حين كان شابّاً»، تقول جانيت وهي تدفع بصورةٍ ضبابية أمام عينيّ يونغ-سوك. «هل تتذكّرينه؟ هاك صورة أخرى لجديتي. التقطت هذه الصورة في يوم زفافها. قيل لي أنّ الفتاة

التي تقف بجانبها هي أنتِ. ألا تتفضّلين بالتحدّث إلينا لبضع دقائق رجاءً؟».

لكنّ يونغ-سوك استأنفت عمليّة الفرز، كانت فقط تنظر من حين لآخر إلى الصور كي تبدو مهذّبة، لكنّها لم تسمح لشيءٍ من شأنه أن يكشف مشاعر قلبها أن يظهر على وجهها.

تقافزت بعد بضع دقائق على طول الشاطئ درّاجة ناريّة مع عربيّة مثبّتة وراءها. حين وصلت الدّراجة إليها، كافحت يونغ-سوك كي تقف على قدميها. يمسك الرجل الأجنبي بمرفقها كي يساعدها على النهوض. كان قد مرّ وقتٌ طويلٌ جدّاً منذ أن لمسها شخصٌ أبيضٌ جدّاً، فإذا بها تبتعد متراجعةً على نحوٍ غريزيّ.

- «هو فقط يريد أن يساعدك»، تقول كلارا بلهجتها الجيجو الطفولية.

تراقب يونغ-سوك الغرباء وهم يحاولون مساعدة حفيدها بينما يقوم بتحميل أكياس الطحالب في العربة. حالما تمّ تأمين كلّ شيء، تصعد يونغ-سوك الدّراجة النارية خلف حفيدها وتلفّ ذراعيها حول خصره. تلكزه بظاهر يدها «هيا، اذهب!». ثمّ تقول له بنبرة أكثر هدوءاً حالما أخليا الشاطئ وانتقلا إلى الطريق: «قد بي في الأرجاء لبعض الوقت. لا أريدهم أن يروا أين أعيش».

الجزء 1

الصداقة

1938

ابتلاع نفس الماء

مكتبة

t.me/soramnqraa

أبريل 1938

بدأ أول يوم لي في العمل البحريّ قبل شروق الشمس بساعات حين كانت الغربان لا تزال نائمة. ارتديت ملابسني وتلمستُ طريقي عبر الظلام نحو مرحاضنا. تسلّقتُ السلم وصولاً إلى الهيكل الحجري وتموضعتُ فوق الفتحة في وسط الأرضية الحجرية. تجمّعتُ خنازيرنا في الأسفل وهي تشخر بلهفة. استندتُ على الحائط بقربي عصا غليظة في حال تحمّس أحد الخنازير كثيراً وحاول القفز. تعيّن عليّ أن أضرب أحدها بشدة في الأمس. لا بدّ أنّهم تذكّروا ذلك هذا الصباح لأنّهم ظلّوا في الأسفل ينتظرون أن تسقط أشياءي الخاصة كي يتقاتلوا عليها فيما بينهم. عدتُ إلى المنزل، ربطتُ أخي الصغير إلى ظهري، وخرجتُ كي أسحب الماء من بئر القرية. كان يلزمي ثلاث رحلات ذهابٍ وعودة إلى هناك وأنا أحمل جرار الفخار لنحصل على ما يكفي من الماء لتلبية احتياجاتنا الصباحية. جمعتُ بعد ذلك الروث من أجل حرقه لأغراض التدفئة والطبخ. كان لا بدّ من القيام بذلك باكراً إذ كنتُ أصطدم بمنافسةٍ شديدة من نساء وفتيات القرية الأخريات. أتممتُ كلّ أعمالني الروتينية، وتوجّهتُ مع أخي الصغير إلى البيت.

ثلاثة أجيالٍ من عائلي عاشت داخل نفس السياج - أمي وأبي ونحن الأطفال في المنزل الكبير، وجدتي في المنزل الصغير في الطرف الآخر من الفناء. شُيِّد كِلا المَبنين من الحجر مع أسقفٍ من القشّ مثقَّلة بالأحجار لمنع رياح الجزيرة من جرفها بعيداً. كان المنزل الكبير مؤلَّفاً من ثلاث غرف: مطبخٌ، الغرفة الرئيسية، وغرفةٌ خاصَّةٌ بالنساء كي يستخدمنها في ليالي زفافهنّ، ولاحقاً بعد ولادتهنّ. في الغرفة الرئيسية، تومض مصابيح الزيت وتفرقع. كانت حصائرنا الخاصَّة بالنوم قد طُويت بالفعل وكُدِّست بجانب الحائط. كانت جدتي مستيقظة، مرتديةً ملابسها، وتشرب الماء الساخن. كان شعرها مغطّى بوشاح. ويدها ووجهها بارزي العظام وبلون الكستناء. جلس شقيقاي الأول والثاني - في الثانية عشرة والعاشرة من العمر - متربَّعين على الأرض وقد تلامست ركبتهما. على الجانب الآخر منهما، تلوى الأخ الثالث تماماً كما يمكن لصبيٍّ في السابعة أن يفعل. ساعدت أختي الصغيرة - وهي أصغر مني بسنَّ سنوات - والدتنا في توضيب ثلاث سلال. كان التركيز السمة البارزة على ملامح أمي فيما هي تتحقَّق وتعيد التحقُّق من أن لديها كلَّ شيء في السلال، أمَّا أختي الصغيرة فكانت تحاول إظهار أنَّها تتدرَّب بالفعل لتكون هينيو جيِّدة.

عَرَفَ أبي حساء الدخن الرقيق الذي كان قد حضَّره، وراح يسكبه في أوعية. كنْتُ أحبّه. كان له وجه جدتي الهزيل. وكانت يده الطويلتان ناعمتين. وعيناه غائرتان ودافئتان. كانت قدماه المتخشَّبتين حافيتين طوال الوقت تقريباً. كان يرتدي العديد من طبقات الملابس وقبَّعته المفضَّلة من فرو الكلاب والمشدودة فوق أذنيه، ساعدت طبقات الملابس تلك في إخفاء كيف اعتاد الرجل يضحي بطعامه كي يتمكن أطفاله من تناول المزيد. أمي التي لا تضيِّع لحظةً من الوقت،

انضمت إلينا على الأرض وأخذت تُرضع أخي الصغير وهي تأكل .
ثم سلّمت الطفل إلى والدي حالما انتهت من الإرضاع ومن تناول
حسائها . كان مثل كلّ أزواج الهينيو يقضي بقيّة اليوم تحت شجرة
القرية في ساحة هادو المركزية مع الآباء الآخرين . سيعتنون معاً
بالرّضع والصغار . بعد أن اطمأنت أنّ أخي الرابع كان هادئاً بين
ذراعيّ أبي ، طلبت منّي أمّي الإسراع . انتابني القلق ، وأمّلتُ أن
أتمكّن من إثبات نفسي اليوم .

كانت السماء قد بدأت للتوّ تتحوّل إلى اللون الوردي حين
خرجنا أنا وأمّي وجدّتي . حيث أنّه كان ثمة ضوءٌ الآن ، فقد استطعتُ
رؤية بخار أنفاسي يتصاعد ومن ثمّ يتبدّد في الهواء البارد . تحرّكت
جدّتي ببطء ، لكنّ الكفاءة كانت طابع أمّي المميّز في كلّ خطوة
وإيماءة . كانت تملك ساقين وذراعين قويّتين . سلّتها مثبتّة على
ظهرها ، وساعدتني على وضع سلّتي والتأكّد من ربط حبالها . ها أنا
ذا ، أذهب إلى العمل ، وأساعد في إطعام عائلتي ورعايتها ، وأصبح
جزءاً من تقليدٍ عريقٍ للهينيو . شعرتُ على نحوٍ مفاجئٍ وكأنّني امرأة .
رفعت أمّي السلّة الثالثة بالحبال ، وحملتُها أمامها ، ثمّ خرجنا معاً
من الفتحة في الجدار الحجريّ الذي يحمي ملكيّتنا الصغيرة من أعين
المتطفّلين والرياح العاتية . سلكنّا طريقنا عبر الأولي (زقاقٌ حجري
صغير في جيّجو يربط بين البيت والشارع) - أحدُ آلاف الممرّات ذات
الجدران الحجرية التي تمتدّ بين المنازل وتمنحنا مسارات لاجتياز
الجزيرة في كافّة الاتجاهات . ظللنا متأهّبين للجنود اليابانيين . كانت
كوريا الآن مستعمرةً يابانية منذ ثمانية وعشرين عاماً . كنّا نكره
اليابانيين ، وكانوا يكرهوننا . كانوا قساة . سرقوا الطعام . نهبوا الماشية
في الأراضي الداخلية . أخذوا وأخذوا ، وأخذوا . قتلوا والدّي
جدّتي ، وكانت هذه الأخيرة تطلق عليهم لقب تشوكباري (ذوي

(الحوافر). لطالما قالت لي أمي أنه إن حدثت وكنت ذات مرة وحدي ورأيت هؤلاء المستعمرين، فينبغي بي الهرب والاختباء سريعاً، لأنهم كانوا قد سلبوا الكثير من فتيات جيوجو شرفهم.

وصلنا إلى الزاوية ودلفنا درباً يمتد لمسافة طويلة. على مسافة إلى الأمام منا، كانت صديقتي مي-جا تتراقص منتقلة من قدم لأخرى لتهدئ من انفعالها. كانت بشرتها مثالية، وضوء الصباح يتورد فوق خديها. كنت قد ترعرعت في جانب جول دونغ من هادو، بينما ترعرعت مي-جا في جانب سوت دونغ، ولطالما كنا نلتقي سوياً في هذا المكان. قبل أن نصل إليها حتى؛ انحنيت مي-جا بشدة تواضعاً لأمي واحتراماً لها، مالت هذه الأخيرة بخصرها إلى الأمام بما يكفي لإظهار اعترافها بسلوك مي-جا المحترم.

- «لقد تعلّمتما أيتها الفتاتان السباحة سوياً»، قالت أمي. «راقبتما وتعلّمتما كمتدربتين. أنت يا مي-جا على وجه الخصوص، لقد عملت بجد كبير».

لم أمانع كون أمي خصّصت مي-جا بهذا المديح. لقد استحقته.

- «لا يسعني أن أشكرك كفاية»، كان صوت مي-جا رقيقاً مثل بتلات الأزهار. «لقد كنت أماً لي، ولسوف أظلّ ممتنة لك أبداً الدهر».

- «أنت ابنتي الأخرى»، أجابت أمي. «انتهى اليوم عمل الإلهة هالمانغ سامسيونغ. اليوم وبصفتها الإلهة المسؤولة عن الحمل والولادة وتربية الطفل حتى يبلغ الخامسة عشرة؛ أصبحت معفاة تماماً من واجباتها. الكثير من الفتيات لديهنّ صديقات، لكن أنتما الاثنتان أقرب من الأصدقاء. أنتما مثل أختين، وأنا أنتظر أن تعتني إحداكما بالأخرى اليوم وكلّ يوم كما سيفعل أولئك المرتبطون برابطة الدم».

كان ذلك تحذيراً بقدر ما هو منح بركة.

كانت مي-جا أول من عبّرت عن مخاوفها: «أنا أفهم مسألة ابتلاع نفس الماء قبل أن أنزل تحت الموجة. يجب أن أحبس قدر ما أستطيع من الهواء. لكن ماذا لو لم أعرف متى ينبغي بي الصعود إلى السطح؟ ماذا لو لم أتمكن من تنفيذ تقنية السومبيسوري (تقنية تنفس تقليدية تحاكي تنفس الحيتان ويستخدمها شعب الهينيو) على نحو جيّد؟».

إنَّ ابتلاع نفس الماء هو الطريقة التي يستخدمها كلّ الهينيو لجمع قدرٍ كافٍ من الهواء في رئاتهم لتغذيتها أثناء غوصهم في الماء. السومبيسوري هو الصوت الخاصّ - مثل صافرة أو نداء الدولفين - الذي تصدره نساء الهينيو إذ تصعد مخترقةً سطح البحر وتطلق الهواء الذي كانت تحبسه في رئتيها، ثمّ تأخذ نفساً عميقاً قبل أن تعاود الغطس.

- «لا ينبغي أن يشكّل ابتلاع الهواء مشكلة. أنتِ تتنفسين كلّ يوم بينما تمشين على الأرض»، قالت الأمّ.

- «لكن ماذا لو نفذ منّي في الأعماق؟»، سألت مي-جا.

- «شهيّق وزفير. كلّ هينيو مبتدئة تقلق بشأن هذا»، قالت الجدّة بانفعال قبل أن تتمكن الأم من الإجابة. يمكن للجدّة أن تفقد صبرها مع مي-جا.

- «جسدك سوف يعرف ماذا يفعل»، قالت أمّي بنبرة مطمئنة. «وحتى لو لم يعرف. سوف أكون معك هناك. أنا المسؤولة عن عودة كلّ امرأةٍ إلى الشاطئ بأمان. أصغي إلى كلّ سومبيسوري لجميع النساء في مجموعتنا. معاً، يشكّل السومبيسوري الخاص بنا أغنية الهواء والريح في جيحو. إنّ السومبيسوري خاصتنا هو أعمق الأصوات في العالم. إنه يربطنا بالمستقبل والماضي. يسمح لنا السومبيسوري بخدمة آبائنا ومن ثمّ أبنائنا».

وجدتُ الراحة في ما قالته أمي، لكنني أدركتُ أيضاً أن مي-جا تحذّر بي بترقب. كنّا قد اتّفقنا بالأمس على إخبار والدتي بمخاوفنا. لقد تطوّعت مي-جا بالفعل، لكنني كنتُ متردّدة بشأن الكشف عن مخاوفي. هناك الكثير من الطرق للموت في البحر، وكنتُ خائفة. ربّما قالت والدتي أن مي-جا كانت بمثابة ابنة لها - وقد أحببتها لأجل حبّها لصديقتي - لكنني كنتُ الابنة الحقيقية، ولم أردها أن تراني أقلّ من مي-جا في شيء.

أنقذني أن أمي استأنفت سيرها من الاضطرار لقول أيّ شيء. مشينا أنا ومي-جا وراءها، وكانت جدّتي تتبعنا. مررنا ببيتٍ بعد بيت - جميعها مبنية من الحجر مع أسقفٍ من القشّ. كانت الساحة الرئيسية خالية إلّا من النساء اللواتي سُجبنَ إلى البحر برائحة الهواء المالح وصوت الأمواج. توقّفنا قبل أن نصل إلى الشاطئ بقليل كي نقطف حفنة من الأوراق من ضفّة تعجّ بحبق الماء البرّي، ووضعناها في سلالنا. انعطفنا حول زاويةٍ أخرى ووصلنا إلى الشاطئ. تسلّقنا الصخور الحادة وصولاً إلى البولتيوك - حيز النار. كان هيكلاً مدوراً بلا سقف، شُيّد من صخور حمم بركانية مكدّسة فوق بعضها. بدلاً من الباب، كان ثمة جداران مقوّسان ومتداخلان لمنع من هم في الخارج من رؤية ما في الداخل. كان ثمة هيكلٌ مشابه لهذا ينتصب واقفاً في المياه الضحلة. هناك حيث كان الناس يستحمّون ويغسلون ملابسهم. وداخل الماء، في منطقة حيث لا يرتفع فيها أعلى من مستوى رُكبنا، ثمة منطقة مسوّرة بالحجارة. هناك كانت تعلق عند انخفاض المد أسماك الأنشوفة التي جرفها المد أثناء ارتفاعه، وكنّا عندئذٍ نخوض داخل ذلك السور بشباكنا لنمسك بتلك الأسماك.

كان لدينا سبعة بولتيوك في هادو - واحدٌ لكلّ مجموعة غوص في كلّ حيّ. كانت مجموعتنا تتألّف من ثلاثين عضواً. قد يقول المنطق

أَنَّ مدخل البولتيوك يجب أن يكون مواجهاً للبحر، نظراً لأنَّ نساء الهينيوي يرجعون إليه مراراً وتكراراً من البحر طوال اليوم، لكنَّ موقع المدخل في الخلف يمنح حاجزاً إضافياً في وجه الرياح المستمرة التي تهبُّ من جهة البحر. أمكننا مع صوت الأمواج المتكسرة أن نسمع أصوات النساء في الداخل - مزاحٌ وضحكٌ وصياحٌ متهكِّمٌ في الاتجاهين. استدارت النساء المتجمّعات لدى دخولنا كي يرينَ مَنْ الذي وصل. كُنَّ جميعاً ترتدين ستراتٍ وسراويل مبطنّة.

وضعتُ مي-جا سلّتها على الأرض وأسرعت إلى النار.

- «لن تضطري الآن للقلق بشأن الاعتناء بالنار»، هتفت يانغ دو-سانغ ملاطفةً مي-جا. كان لها وجنتان بارزتان ومرفقان رشيقتان. وكانت المرأة الوحيدة التي عرفتها والتي أبقت شعرها مجدولاً في ضفائر طوال الوقت. كانت أكبر سنّاً من والدتي بقليل، وكانتا شريكتي غوص وأعزّ صديقتين. منح زوج دو-سانغ لزوجته ابناً وابنة، وتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. كان هذا باعثاً على الحزن بالتأكيد. بصرف النظر، كانت عائلتنا مقربتين جدّاً، خاصّةً وأنَّ زوج دو-سانغ كان في اليابان يعمل في مصنع ما. في هذه الأيام كان حوالي ربع سكّان جيجو يعيشون في اليابان، حيث أنَّ تذكرة المَعديّة (العبّارة) تكلف نصف سعر كيسٍ من الأرزّ هنا على جزيرتنا. كان زوج دو-سانغ في هيروشيما منذ سنواتٍ عديدة لدرجة أني لا أتذكّره. ساعدت والدتي دو-سانغ في طقوس تبجيل الأسلاف، وساعدت دو-سانغ والدتي حين كان يتعيّن عليها الطبخ لعائلتنا فيما نوّدي نحن شعائرتنا. «أنتِ لم تعودِي متدرّبة بعد الآن. سوف تكونين معنا اليوم. هل أنتِ مستعدّةٌ يا فتاة؟».

- «نعم، خالتي»، ردّت مي-جا، مع انحناءٍ ورجوعٍ للخلف كنايةً عن التعظيم والاحترام.

ضحكت النساء الأخريات، ما جعل وجه مي-جا يحمرُّ خجلاً.
- «كفّوا عن مضايقتها»، قالت والدتي. «لدى هاتين الاثنتين
ما يكفي لتقلقا بشأنه اليوم».

بصفتها رئيسة لهذه المجموعة، فقد جلست أمي مسندةً ظهرها
على الجزء الذي يتمتّع بأفضل حماية من الرياح في الجدار الحجريّ.
حالما استقرّت، أخذت باقي النساء أماكنهنّ بترتيب صارم محدّد وفقاً
لمستوى المهارة في الغوص لكلّ واحدةٍ منهنّ. الغوّاصات-الجّدّات
- مثل أمي، هُنَّ اللواتي حقّقن أعلى المراتب في البحر حتى لو تكلنَّ
قد أصبحن جدّاتٍ على اليابسة - أولئك يحصلن على أفضل
المقاعد. الجدّات الفعليّات مثل جدّتي، لم يكن لديهنّ تصنيف. كُنَّ
جدّاتٍ حقيقيّات يجب معاملتهنّ باحترام. ورغم تقاعدهنّ من العمل
البحري منذ وقتٍ طويل، إلّا أنّهنّ يستمتعن برفقة النساء اللواتي
قضين معظم حياتهنّ معهن. كانت جدّتي تحبُّ الآن أن تقوم مع
صديقاتها بفرز الأعشاب البحرية التي جرفها الريح إلى الشاطئ أو
الغوص قرب الشاطئ في المياه الضحلة بحيث يتمكنّ من قضاء
يومهنّ في تبادل النكات وتشاطر الأحزان. بصفتهنّ النساء صاحبات
الشرف والتقدير العظيم، فقد حصلن على ثاني أفضل المقاعد في
البولتيوك. تأتي بعدهنّ الغوّاصات-الصغيرات، في العشرينيات
وأوائل الثلاثينيات من العمر، وهنّ اللواتي ما زلن يصقلن مهارتهنّ.
أنا ومي-جا جلسنا مع الغوّاصات-الطفلات وهنّ: الشقيقتان كانغ؛
غو-جا وغو-سُن اللتان كانتا أكبر منّا بسنتين وثلاث سنوات على
التوالي، وابنة دو-سانغ؛ يو-ري التي كانت قد بلغت التاسعة عشرة
بالفعل. كان لدى ثلاثهم خبرة عامين في الغوص، بينما كنتُ
ومي-جا مبتدئتين بالمعنى الحقيقيّ، لكن نحن الخمسة كنّا في المرتبة
الأدنى في المجموعة، وهو ما يعني أنّ مقاعدنا كانت قرب فتحة

البولتيوك. هبَّت الرياح الباردة من حولنا، واقتربتُ مع مي-جا أكثر من النار. كان من المهمَّ أن ندقِّي أنفسنا بأفضل ما نستطيع قبل النزول إلى البحر.

بدأت أُمِّي الاجتماع بالسؤال، «هل هناك أيُّ طعامٍ على هذا الشاطئ؟».

- «ثمة طعامٌ أكثر من حبّات الرمل في جيّجو، لو كان لدينا وفرةٌ في الرمال بدلاً من الصخور»، قالت دو-سانغ.

- «طعامٌ أكثر من طعامٍ على سطح عشرين قمر، لو كان هناك عشرون قمراً فوقنا»، قالت امرأةٌ أخرى.

- «طعامٌ يملأ أكثر من خمسين جرةً في بيت جدّتي، لو كان لديها خمسون جرةً». انضمت إليهم المرأة التي ترمَلْتُ وهي لا تزال صغيرةً جداً.

- «هذا جيّد»، قالت أُمِّي ردّاً على المزاح الشعائري. «دعونا إذاً نناقش أين سنغوص اليوم». لطالما بدا صوتها في المنزل عالياً جداً. لكن هنا، كان مجرد صوتٍ واحد بين العديد من الأصوات العالية، نظراً لأنّ أذان كلّ نساء الهينيو كانت قد تضرّرت بمرور الوقت بفعل ضغط الماء. يوماً ما سيكون لي صوتٌ عالٍ أيضاً.

البحر ليس ملكاً لأحد، لكنّ كلّ مجموعةٍ كانت قد خُصّصت بحقوق الغوص في مناطق محدّدة: قريبةٌ بما يكفي من الشاطئ للسير إليها، أو على مسافة عشرين إلى ثلاثين دقيقة سباحة من اليابسة، أو أبعد من ذلك بحيث يمكن الوصول إليها فقط بواسطة القوارب؛ خليجٌ هنا، أو هضبةٌ تحتماية ليس بعيداً جداً عن الشاطئ، الجانب الشمالي من هذا الأرخبيل أو ذاك، وهكذا دواليك. مي-جا وأنا جلسنا مستمعتين بينما النساء تفكّرُن في الاحتمالات. لم يكن لدينا الحقُّ في الكلام بصفتنا غوّاصاتٍ-طفلات. حتّى الغوّاصات-

الصغيرات التزمْنَ الصمت. رفضت أمي معظم المقترحات. «تعرّضت تلك المنطقة لصيّد جائر»، قالت لدو-سانغ. ثمّ عادت بعد بعض الوقت لتقول: «إنّ حقولنا البحرية تتبع الفصول، تماماً كما هو الحال على اليابسة. لذا لا يمكننا قطف المحار من قاع المحيط من يوليو إلى سبتمبر إكراماً لموسم التفريخ، ولا يمكن حصاد أذن البحر من أكتوبر حتّى ديسمبر. واجبنا يقتضي أن نكون رعاة البحر ومدبّراته. إذا عرفنا كيف نحمي حقولنا المائية، فسوف تستمرّ في إعالتنا». ثمّ اتخذت قرارها أخيراً. «سوف نجذّف إلى أخذودنا التحتمائي، إنّه ليس ببعيد من هنا».

- «الغوّاصات-الطفلات لسنَ جاهزاتٍ لذلك»، قالت إحدى الغوّاصات-الجذّات. «هنّ لسنَ قويّاتٍ بما يكفي، كما أنّهن لم يكتسبن الحق».

رفعت أمي يدها. «لقد تدفّقت الحمم البركانية في تلك المنطقة من الجذّة العظيمة سيولمونداي (إلهة جيجو الكبرى) مُشكّلةً الأخدود الصخري. إنّ جدرانها توقّر ما يناسب إمكانيات كل الغوّاصات. يمكن للأكثر خبرةً بيننا أن تذهبن عميقاً بقدر ما تُردن، بينما يمكن للغوّاصات-الطفلات أن تخترن الأماكن القريبة من السطح. الأختان كانغ سوف تُريان مي-جا ما يجب القيام به. وأودّ من ابنة دو-سانغ؛ يو-ري أن تنتبه إلى يونغ-سوك. سوف تصبح يو-ري غوّاصةً-صغيرة قريباً، لذا سيكون هذا تدريباً جيّداً لها».

حالما قدّمت أمي شرحها، لم يكن هناك المزيد من الاعتراضات. الأمّهات أقرب إلى النساء في مجموعتهنّ للغوص منه إلى أبنائهنّ. بدأنا اليوم، أمي وأنا في تشكيل تلك العلاقة الأعمق. استطعتُ عبر مراقبة دو-سانغ ويو-ري سوياً، من رؤية أين سأكون مع أمي خلال بضع سنوات. أظهرت لي تلك اللحظة أيضاً لمّ

انتُخبت أمِّي رئيسةً للمجموعة. كانت قائدةً بالفطرة، وأحكامها تحظى بكلّ التقدير.

- «إنَّ كلَّ امرأةٍ تدخل البحر تحمل بطبيعة الحال نেশاً على ظهرها»، قالت محدّرةً المجموعة. «في هذا العالم، عالم ما تحت البحر؛ نحن نجرُّ خلفنا أعباء حياةٍ صعبة. نحن نعبر بين الحياة والموت كلَّ يوم».

غالباً ما كانت هذه الكلمات التقليدية تتكرّر في جيّجو، لكننا أومأنا جميعاً برؤوسنا على نحوٍ كثيب كما لو كنّا نسمعها لأوّل مرّة. - «حين ندخل إلى البحر، نحن نتشارك العمل والمخاطر»، أضافت أمّي. «نحصد معاً، نفرز معاً، ونبيع معاً لأنّنا نتشارك البحر نفسه قبل كلّ شيء».

لدى إعادة إرساء تلك القاعدة الأخيرة - وكأنّه يمكن لأيّ أحد أن ينسى شيئاً أساسيّاً جدّاً كهذا - صفّقت الأمّ بيديها مرّتين على فخذيها إشارةً إلى نهاية الاجتماع وأنّنا يجب أن نتحرّك. إذ تقدّمت جدّتي وصديقاتها إلى الخارج كي تعملن على الشاطئ، أشارت أمّي إلى يو-ري كي تساعدني على الاستعداد. كنّا أنا ويو-ري قد عرفنا بعضنا البعض طوال حياتنا، لذا كان من الطبيعي أن نشكّل ثنائياً منسجماً. لم تكن الأختان كانغ تعرفان مي-جا جيّداً، وربّما كانتا ترغبان في البقاء بعيدتين عنها. كانت يتيمة، وكان والدها عميلاً لليابانيين في مدينة جيّجو. لكن سواء أحبّبت الأختان كانغ مي-جا أم لم تحبّاها، فقد كان عليهما تنفيذ أوامر أمّي.

- «قفي قرب النار»، قالت لي يو-ري. «كلّما كنتِ أسرع في خلع ملابسكِ والاستعداد للعمل، كلّما نزلنا أسرع إلى الماء. وكلّما أسرعنا في النزول إلى الماء، سنعود إلى هنا في وقتٍ أبكر. والآن، افعلي كما أفعل».

اقتربنا إلى حافة النار وتعريّنا من ملابسنا . لم يبدُ أنّ أيّاً من النساء تمنع تواجّدنا هكذا معاً في هذا الحمام المشترك . كانت بعض النساء الأصغر سنّاً كبيرات الحجم مع وجود أطفالٍ يكبرون في بطونهنّ . النساء الأكبر كانت لديهنّ علامات ترهلّ . حتّى أنّ الأكبر سنّاً بينهنّ كانت أنداؤهنّ متدلّية بعد الكثير من العيش والعطاء . عكسَ جسد مي-جا وجسدي عمرينا أيضاً . كنّا في الخامسة عشرة، لكنّ قسوة بيئتنا - قلّة الطعام، والعمل البدنيّ الشاق، وبرودة الطقس - عنّت أنّنا كنّا نحيفتين مثل ثعبان البحر، وأنداؤنا لم تبدأ في البروز بعد، لكنّ خصلاتٍ قليلة من الشعر كانت تظهر بين سيقاننا . وقفنا هناك مرتعشتين بينما ساعدتنا يو-ري، وغو-جا، وغو-سُن في ارتداء ملابس الغوص المؤلّفة من ثلاث قطع والمصنوعة من القطن الأبيض البسيط . يجعلنا القطن مرئيين أكثر تحت الماء، ويقال أنّه يُنفّر القروش والدلافين، لكنني أدركتُ أنّ ذلك القماش الرقيق جدّاً لن ينفع كثيراً في إبقائنا دافئتين .

- «افترضاً أنّ مي-جا طفلة، وحزّماها جيّداً داخل بذلتها»، قالت يو-ري للأختين كانغ، ثمّ أوضحت لي قائلة: «يمكنك رؤية أنّ الجوانب مفتوحة، تقومين بشدّها إلى بعضها البعض بواسطة الأربطة . يسمح هذا بتضييق البذلة أو توسيعها عند الحمل أو حالاتٍ أخرى من زيادة الوزن أو فقدانه». انحنيت مقتربةً منّي . «أتوق لليوم الذي سأخبر فيه حماتي أنّ زوجي قد وضع طفلاً في أحشائي . سوف يكون ولداً . أنا واثقةٌ من ذلك . وسوف يؤدّي طقوس تبجيل الأسلاف من أجلي حين أموت» .

كان حفل زفاف يو-ري محدّداً في الشهر التالي، وكانت بالطبع تحلم بالصبيّ الذي ستنجبه، لكنّ إحساسها بالتّرقب بدا غير مهمٍّ لي في ذلك الوقت . مرّت أصابعها كالجليد على بشرتي، وسرت

قشعريرةً في لحمي. ظلّت البذلة فضفاضةً عليّ حتّى بعد أن شدّت يو-ري الأربطة بإحكام قدر الإمكان. نفس الشيء بالنسبة لمي-جا. لطالما أُشير إلى بذلات الهينيو هذه بأنّها غير محتشمة، إذ ما من امرأة كورية لائقة سواءً على البرّ الرئيسي أو على جزيرتنا كانت لتجعل الكثير من بشرتها ظاهراً على هذا النحو.

ظلّت يو-ري طوال الوقت تتكلّم وتتكلم دون توقّف. «أخي ذكيّ جدّاً، وهو يجتهد في المدرسة». قد تكون أمي رئيسة المجموعة، لكن كان لدى دو-سانغ ابنٌ هو مصدرُ فخرٍ لكلّ عائلةٍ في هادو. «يقول الجميع أنّ جون-بو سيذهب ذات يومٍ للدراسة في اليابان».

كان جون-بو الابن الوحيد، وقد أُغدقت نعمة التعليم عليه فقط. ساهمت يو-ري مع والدها في دخل الأسرة، رغم أنّهما ظلّا لا يجنيان بقدر ما تجنيه دو-سانغ، في حين تعيّن على والدتي جمع كل الأموال لإرسال إخوتي إلى المدرسة دون أيّ مساعدةٍ من والدي. سيكونون محظوظين إذا تمكّنوا من تجاوز المدرسة الابتدائية.

- «سأكون بحاجةٍ للعمل بجهدٍ أكبر كي أساعد في دفع الرسوم الدراسية لجون-بو، وإعالة أسرتي الجديدة»، قالت يو-ري عبر الغرفة بصوت عالٍ كي تسمع أمّها وحماتها المستقبلية. «أنا عاملةٌ جيّدة، أليس كذلك؟». كانت يو-ري معروفةً في أنحاء القرية بكونها عبارةً عن صندوق ثروة. لطالما بدت فتاةً بلا هموم، وهي عاملةٌ جيّدة حقاً، لذا كان من السهل العثور على زوجٍ مناسبٍ لها.

حوّلت انتباهها إلَيّ من جديد. «إذا كان والدك يحبّنا كثيراً، فسوف يرتّبان لك زواجاً هنا في هادو. وهكذا تحتفظين بحقوقك في الغوص، وستكونين قادرةً على رؤية عائلتك كلّ يوم». بعدها، حين

أدرکت ما قالته للتوّ، ربّبت على ذراع مي-جا وقالت: «آسفة، نسيْتُ أنّ لا أهل لك!». لم تفكّر طويلاً قبل أن تتحدّث مجدّداً. «كيف ستجدین زوجاً؟»، سألت بفضولٍ حقيقي.

نظرتُ سريعاً إلى مي-جا وكلّي أملٌ ألا تكون قد جُرّحت من خفّة عقل يو-ري وانعدام قدرتها على التفكير ومراعاة مشاعر الآخرين، لكنّ التركيز كان يعلو ملامحها وهي تحاول اللحاق بتعليمات الأختين كانغ.

حالما ارتدينا بذلاتنا، لبسنا فوقها ستراتٍ مائية. كانت هذه الأخيرة مخصّصةً للطقس البارد فقط، لكنني لم أستطع أن أرى كيف ذلك، إذ كانت من نفس القطن الرقيق كباقي الملابس. ربطنا أخيراً مناديلاً بيضاء فوق شعرنا للحفاظ على حرارة الجسم ولأنّ أحداً لن يرغب أن تتشابك خصلات رقيقة من شعره بأعشاب البحر أو أن يعلق بصخرة.

- «خذنا»، قالت يو-ري وهي تضع أكياساً ورقيةً مملوءةً بمسحوقٍ أبيض في يدينا. «تناولا هذا، سيساعد في منع أمراض الغوص الشائعة - الدوار والصداع وآلام أخرى. والطنين في الأذنين!». قطّبت يو-ري جبينها. «ما أزال غوّاصةً-طفلة، وأنا أعاني منه بالفعل. نغغغغغغ —»، قلّدت الصوت ذي الطبقة العالية الذي بدا أنّه يطنّ داخل رأسها.

فتحتُ أنا ومي-جا العبوتين الورقيتين مقلّدتين ما كانت يو-ري والأختان كانغ يقمن به، أمّلنا رأسينا للخلف كالطيور الصغيرة، وأفرغنا المسحوق الأبيض المُرّ داخل أفواهنا، وابتلعناه. ثم تفرّجتُ مع مي-جا على الأخريات وهنّ يبصقن على سكاكينهنّ جلباً للحظ السعيد في العثور على أذن البحر والتمكّن من حصاده - وهو صيدٌ ثمين، بسعرٍ كبير لكل واحدٍ من هذه المخلوقات.

تحقّقت أمّي من أنّي أحمل كلّ معدّاتي. وركّزت بشكلٍ خاص على التيواك - وهي يقطينة مفرّغة تُركت لتجفّ في الشمس، وستكون بمثابة عوامتي داخل البحر. ثمّ فعلت نفس الشيء مع مي-جا. كان لدى كلّ منّا بيتشانغ (أداة مدبّبة مربوطة بحبل تُستخدم لفصل أذن البحر عن الصخور التي يتشبّث بها) ومجرّفة ذات شعب للالتقاط من بين الشقوق أو للبحث بواسطتها عبر غرزها في الرمال أو في صخرة ما للمساعدة في سحبنا من مكانٍ لآخر. كان معنا أيضاً منجلٌ لقطع الأعشاب البحرية، وسكّينٌ لفتح قنافذ البحر، ورمحٌ من أجل الحماية. كنْتُ قد تدربْتُ على هذه الأدوات أثناء اللعب في المياه الضحلة، لكنّ أمّي أوضحت نقطةً مهمّةً إذ قالت: «لا تستخدم هذه الأدوات اليوم. اعتادا على المياه فحسب. ابقيا واعيتين لمحيطكما، لأنّ كلّ شيءٍ سيبدو مختلفاً اليوم».

غادرنا البولتيوك معاً. سنعود إلى هنا بعد عدّة ساعات كي نصلح معدّاتنا ونعيد تخزينها، ثمّ نحصي حصاد اليوم، ونوزّع الحصص، والأهم من كلّ شيء، نعيد تدفئة أجسادنا. حتّى أنّنا قد نطبخ ونشارك القليل ممّا عدنا به في شباكنا إذا كان الحصاد وفيراً. لقد كنْتُ أتطلّع إلى كلّ ذلك.

إذ صعدت النساء إلى القارب، بقيتُ أنا ومي-جا على الرصيف. أخذتُ تفتّش في سلّتها حتّى أخرجت منها كتاباً فيما أخرجتُ من سلّتي قطعةً من الفحم. مرّقتُ صفحةً من الكتاب وأمسكت بها فوق الحروف المكتوب على بدن القارب. ورغم أنّه كان مربوطاً، إلّا أنّه كان يتمايل مع الأمواج، ما جعل من المستحيل تقريباً علينا؛ مي-جا أن تحافظ على الورقة ثابتةً في مكانها، وأنا أن أتمكّن من فركها بالفحم. حالما انتهيت، أخذنا دقيقةً لفحص النتيجة: كانت صورةً غامضة لشكلٍ لم نتمكّن من قراءته، لكنّنا كنّا

نعرف أنه يعني «شروق الشمس». كانت هذه هي طريقتنا لسنوات في الاحتفاء بأمّاكننا ولحظّاتنا المميّزة . لم يكن هذا أفضل فركٍ بالفحم قمنّا به ، لكنّنا سننذكر بواسطته هذا اليوم للأبد .

- «هيا، أسرع»، نادى أمّي علينا بتساهل، لكن إلى حدّ معيّن فقط .

دسّت مي-جا الورقة في الكتاب كي تبقىها بأمان، ثمّ صعدنا على متن القارب وسحبنا المجاذيف . ثمّ قادتنا أمّي في الغناء بينما كنّا نبتعد عن الرصيف رويداً رويداً .

- «دعونا نغوص»، شقّ صوتها الأجرّ الرّيح وصولاً إلى أذنيّ .
- «دعونا نغوص»، ردّدنا من بعدها، وضربات مجاذيفنا تواكب إيقاع الأغنية .

- «الأصداف الذهبية والقواقع الفضيّة»، غنّت أمّي .

- «فلنحصل عليها جميعاً!»، ردّدنا .

- «كي أكرم وفادة حبيبي . . .» .

- «حين يرجع إلى البيت» .

لم يسعني إلّا أن أحمرّ خجلاً . لم يكن لأمي حبيب، لكنّها كانت أغنيّة محبوبّة جدّاً، وقد أحبّتها جميع النساء .

كان المدُّ مناسباً، والبحر هادئاً نسبياً . مع ذلك، ورغم التجذيف والغناء، فقد بدأتُ أشعر بغثيانٍ في معدتي فيما انقلبت وجنتا مي-جا الورديتان في العادة إلى اللون الرمادي . رفعنا مجاذيفنا لدى وصولنا إلى بقعة الغوص المحدّدة . تمايل القارب وانغمس في الماء مع ضربات الموج الخفيف . ربطتُ البيتشانغ خاصّتي على معصمي وحملتُ شبكتي وعوامة التيواك . هبّت ريحٌ خفيفة وبدأتُ أرتعش . كنْتُ بحالٍ يرثى لها .

- «لألف سنة، لعشرة آلاف سنة، وأنا أصليّ لإله بحر التّنين»،

نادت أمي عبر الأمواج. «يا شخص مَلِك المحيط، أرجوك لا ترسل إلينا بريح عاتية. أرجوك لا تدفع إلينا بتيارات جارفة». ثم سكبت في الماء قرابين من الأرز ونبيد الأرز. مع اكتمال الطقوس، قمنا بمسح نظارات الغوص من الداخل بالأعشاب كي لا تتشكل الغشاوة عليها، ثم وضعناها على أعيننا. بدأت أمي بالعد لكل امرأة وهي تقفز إلى الماء وتسبح بعيداً مع زمرة من اثنتين أو ثلاث. مع وجود عددٍ أقل من النساء اللواتي بقين على متن القارب للمساعدة في تثقيله، فقد بات هذا الأخير يهتزُّ على نحوٍ أسوأ. ثبتتُ يو-ري نفسها قبل أن تقفز فوق الموجة ونزولاً داخل الماء. أمسكتُ الأختان كانغ بيدي بعضهما وهما تقفزان. كانت هاتان الاثنتان لا تنفصلان. وكنتُ أمل أن هذا الولاء سوف يتوسّع الآن ليشمل مي-جا، وأنهما سيحرصان عليها بنفس الطريقة التي حرصا فيها على إحداهما الأخرى.

أعطت أمي بعض النصائح الأخيرة: «يقال أن البحر مثل الأم. الماء المالح، تدفق التيار وارتفاعه، نبضات قلبكما المضخّمة، والأصوات المكتومة التي يتردّد صداها، كل هذا يُذكّر بالرحم. لكن ينبغي بنا نحن نساء الهينيو أن نفكر دائماً في كسب المال... في النجاة والبقاء على قيد الحياة. هل تفهمان؟». ثم أكملتُ بعد أن أومأنا برأسينا: «هذا هو يومكما الأوّل. لا تكونا جشعيتين. إذا رأيتما أخطبوطاً فتجاهلاه. يجب أن تتعلّم الهينيو كيفية صرع أخطبوط تحت الماء، وإلا فقد يستخدم أذرعهُ ضدّكما. وابقيا بعيدتين عن أذن البحر أيضاً».

لم يكن عليها أن تشرح أكثر. فقد يستغرق الأمر شهوراً أن تصبح الهينيو المبتدئة جاهزةً للمخاطرة بانتزاع أذن البحر من صخرة. إذا كان هذا المخلوق بمفرده، فإنه يطفو بقوقعته مبتعداً عن الصخور،

بحيث يمكن لمياه البحر المغذية أن تتدفق داخله وحوله. وإذا تمت مباحثته - حتى لو كان ذلك مجرد تغيير في التيار تسبب به مرور سمكة كبيرة - فسوف يثبت نفسه إلى صخرة بحيث تحمي القوقعة الصلبة الكائن الحي في الداخل من كل الحيوانات المفترسة. كنتيجة لذلك، ينبغي الاقتراب من أذن البحر بعناية شديدة وإدخال طرف البيتشانغ تحت القشرة وقلبه عن الصخرة بحركة سريعة واحدة قبل أن يتمكن أذن البحر من القبض على الأداة المربوطة بمعصم الغواصة، وثبيتها بالتالي على الصخرة. فقط سنوات من الخبرة يمكن أن تعلم المرأة كيف تحرر نفسها مع بقاء وقت كافٍ لديها كي تصل إلى السطح لتلتقط أنفاسها. لم أكن في عجلة من أمري لأحاول تجربة هذا النشاط الخطير.

- «اليوم أنتما تحذوان حذوي، كما حدوث ذات يوم حذو والدتي»، ثم تابعت أمي: «وكما ستحذو بنتاكما حذوكما في يوم من الأيام. أنتما غواصتان-طفلتان، لا تذهبا أبعد مما تسمح به إمكاناتكما».

مع هذه البركة - وهذا التحذير - أمسكتُ مي-جا بيدي وقفزنا بقدمينا أولاً في الماء. لحظة من البرودة الصاعقة. تشبثتُ بعوامتي، وساقاي تركلان جيئةً وذهاباً أسفل مني. نظرنا مي-جا وأنا في عيني بعضنا البعض. كان الوقت قد حان لابتلاع نفس الماء. أخذنا نفساً معاً، ونفساً، ونفساً آخر؛ نملأ رئائنا عن آخرها، ونوسّع صدرينا. ثم غطسنا. كان الضوء صافياً ولامعاً بلون الفيروز قريباً من السطح. انحدرت النساء الأخريات من حولنا - رؤوسهنَّ باتجاه قاع المحيط وأقدامهنَّ نحو السماء - نزولاً عبر الأخدود الذي وصفته أمي. كانت تلك النساء سريعاتٍ وقويات، كنَّ يندفعنَّ بطول جسدٍ كامل في كل مرة أعمق فأعمق داخل المياه الزرقاء الأكثر قتامة. كافحتُ ومي-جا

لنتمكّن من الغوص بتلك الزاوية المستقيمة. أسوأ جزء بالنسبة لي كان نظّارتي؛ ذلك الإطار المعدني واستجابته الكبيرة لضغط الماء حتّى في هذه الأعماق الضحلة كانت تقطع تدفقّ الدماء في وجهي. كما تسبّبت في محدودية رؤيتي المحيطية، وهو ما خلّق خطراً إضافياً أجبرني على أن أكون أكثر يقظةً وحذراً في هذه البيئة الشبحية.

بصفتنا غوّاصات-طفلات، كان يمكننا؛ يو-ري، والأختان كانغ، ومي-جا، وأنا أن ننزل بعمق طوليّ جسم فحسب، لكنني استطعتُ مشاهدة أمّي وهي تختفي داخل هوة الأخدود حبريّة اللون. لطالما سمعتُ أنّها تستطيع الغوص لمسافة عشرين متراً وأحياناً أكثر في نفس واحد، أمّا أنا فقد كانت رثائي تحترقان بالفعل وقلبي يخفق داخل أذني. أخذتُ أركلُ صعوداً، وشعرتُ وكأنّ رثيّ على وشك الانفجار. حالما وصلتُ إلى السطح، انفجر نفس السومبيسوري وتبعثر متطائراً في الهواء. بدا أشبه بتنهيذة عميقة - آآآآآه - وأدركتُ أنّه كان كما وصفته الأمّ دائماً. كان السومبيسوري الخاصّ بي فريداً من نوعه. كذلك كان ذلك الذي يخصّ مي-جا والذي تعرّفتُ إليه حين انشَقَّ سطح الماء وخرجتُ بالقرب منّي. ويبي. ابتسمنا لبعضنا، ثم ابتلعنا المزيد من أنفاس الماء وغطسنا مجدّداً. أخبرتني الطبيعة ما عليّ فعله. وحين خرجتُ إلى السطح في المرّة التالية، كنت أحمل قنفذ بحر في يدي. إنّهُ أوّل صيدٍ لي! وضعته في الشبكة المربوطة بعوامة التيوالك، ثمّ ابتلعتُ مجموعةً جديدةً من الأنفاس، وعدتُ للأسفل. بقيتُ دائماً على مرأى من يو-ري، وإن كنّا نصعد إلى السطح في أوقات مختلفة. في كلّ مرّة نظّرتُ إلى مي-جا وجدتها لا تبعد أكثر من بضعة أمتار عن الأختين كانغ اللتين بقيتا بدورهما قريبتين من بعضهما دائماً.

أعدنا تكرار هذا النمط، وتوقّفنا للاستراحة على عواماتنا من

حينٍ لآخر، إلى أن حان وقتُ عودتنا إلى القارب. رفعتُ بسهولة حين وصلتُ إليه شبكتي الخفيفة بشكلٍ كبير مقارنة بشباك الأخريات، وحملتُها إلى متن القارب بحيث تتمكّن المرأة التي خلفي من الصعود مع صيدها. أشرفت أُمِّي على كلِّ شيء وكلِّ امرأة. قامت إحدى المجموعات بتأمين شباكها عبر ربط أعلاها بحيث لا يتمكّن شيء من الهرب، بينما تجمّعت دو-سانغ مع نساء أخريات حول الموقد الصغير؛ استجلبوا الدفء إلى عظامهنّ، شربن الشاي، وتباهين بصيدهنّ. كانت لا تزال أربع غوّاصات متأخّرات تسبحن باتجاه القارب. استطعتُ الشعور بوالدتي وهي تقوم بالعدّ لتتأكّد أنّ الجميع بخير.

ضحكتُ يو-ري علينا ونحن نرتعش، وأخبرتنا أننا في نهاية الأمر سنعتاد على أن نكون باردتين طوال الوقت. «كنتُ مثلكما بالضبط قبل أربع سنوات، انظرا إليّ الآن»، قالت متباهية. لقد كان يوماً جميلاً، وسار كلُّ شيء على نحوٍ مثاليّ. كنتُ فخورةً بنفسي. لكن الآن وإذ أخذ الموج يرتفع، وتمايل القارب وانغماسه في الماء يزداد سوءاً، كان كلُّ ما أردته هو العودة إلى البيت. لم يكن ذلك وارداً. فقد عدنا إلى الماء حالما أصبحت أذرعنا وأرجلنا ورديةً بفعل الحرارة. ظلّت الغوّاصات-الطفلات الخمس معاً، وبين الفينة والأخرى كانت واحدةً منّا تصعد إلى السطح لالتقاط أنفاسها. لم يسبق لي في حياتي أن ركّزت بشدّة هكذا - على حالتي العامة، على ضربات قلبي، على الضغط على رثتيّ، وعلى قدرتي على الرؤية. لا يمكنني القول أنني ومي-جا قد عثرنا على الكثير من المخلوقات البحرية. كان هدفنا الرئيسي هو ألاّ نتسبب لأنفسنا بالإحراج ونحن نحاول إتقان وضعية الغطس الرأسي. كنّا مثيرتين للشفقة في ذلك. إنّ اكتساب مهارة كهذه سوف يستغرق وقتاً.

شعرتُ بارتياح كبير عندما أطلقت أمي النداء الذي يعلن نهاية اليوم. نظرتُ باتجاهي لكنني لم أكن متأكدة إن كانت قد رأته أم لا. لمحتُ مي-جا والأختين كانغ يسبحن صوب القارب. سيكنَّ أول مَنْ سيصعد على متنه، لذا سيكون عليهنَّ الإصغاء بينما تبرز باقي النساء على سطح الماء ويطلقنَّ السومبيسوري خاصتهنَّ. كنتُ على وشك البدء بالسباحة إلى القارب عندما قالت لي يو-ري: «انتظري. لقد رأيتُ شيئاً في آخر غطسة، دعينا نذهب ونحصل عليه». نظرتُ حولها لتستوعب كم تبعد الغواصات-الجذّات عن القارب. «يمكننا فعل ذلك قبل وصولهنَّ إلى هنا. هيا بنا!».

قالت أمي إنه يفترض بي البقاء مع يو-ري، لكنها كانت قد نادت علينا أيضاً للصعود إلى القارب. اتخذتُ قراراً في جزء من الثانية، أخذتُ بضعة أنفاس عميقة، ولحقتُ بيو-ري. ذهبنا إلى نفس الرف الصخري حيث كنّا نحصد قناذل البحر. سحبتُ يو-ري نفسها على طول الجرف الصخري، ثمَّ سحبتُ البيتشانغ وغرزتها داخل فجوة، ثمَّ انتزعتهما مع أخطبوط في طرفها. كان ضخماً جداً! لا بدَّ أن أذره كانت بطول متر. يا له من صيد! سوف أحصل على بعض الفضل به أيضاً.

مدَّ الأخطبوط ذراعه ولفّها حول معصمي. انتزعتهما بقوة وحررتهما. إذ فعلتُ ذلك، كانت بعض مجسّاته الأخرى قد أمسكتُ بيو-ري. قبض أحد أطرافه على فخذي وجذبني إليه، بينما كان طرف آخر ينزلق فوق ذراعي الأخرى ويتشبّثُ بها بقوة الشفط. كافحتُ لتحرير نفسي. تحرّك رأس الأخطبوط المنتفخ نحو وجه يو-ري، لكنها لم تلاحظ ذلك لأنها كانت مشغولةً بقتال الأذرع الأخرى التي كانت تسحبها أقرب فأقرب إلى الجسد. أردتُ أن أصرخ طلباً للمساعدة، لكنني لم أستطع؛ ليس تحت الماء.

قبل انقضاء لحظةٍ أخرى، كان وجه يو-ري قد أصبح محجوباً بالكامل. بدلاً من أن أقاوم وأحاول القتال، سبحتُ مقتربةً وأحطتُ الأخطبوط ويو-ري بذراعيّ، ثمّ ركلتُ بأقصى ما أستطيع. صرختُ حالما برز رأسي فوق سطح الماء: «ساعدونا! ساعدونا! ساعدونا!».

كان الأخطبوط قوياً. ووجه يو-ري لا يزال محجوباً. كان المخلوق يحاول جرّنا إلى الأسفل. ركلتُ وركلتُ مجدّداً. خفّفت المجسّات قبضتها عن يو-ري وأتت نحوي بعد أن استشعرتُ أنّني الآن أشكّل التهديد الأكبر. زحفتُ على طول ذراعيّ ورجليّ.

سمعتُ طرطشة الماء، ثمّ أمسكتُ ذراعان بي. لمعتُ نصول السكاكين في ضوء الشمس بينما كانت المجسّات تُتنزع عن جلدي، وأجزاء من الأخطبوط تُقَطَّع وترمى في الهواء. رفعتُ ساقي بمساعدة من الأخريات كي يتمكنوا من إزالة المجسّات عنها. عرفتُ إذ أُلقيتُ نظرةً خاطفة على وجه أمّي ورأيتُ ذلك التركيز الشرس؛ عرفتُ عندها أنّني سأكون بأمان. عملت النساء على يو-ري أيضاً، لكن بدا أنّها لا تساعدنّ. سحبت دو-سانغ ذراعها للوراء؛ سكّينها في يدها. لو كنتُ مكانها لاستخدمتُ كلّ قوّتي في طعن رأس الأخطبوط، لكنّها لم تستطع فعل ذلك، إذ كانت يو-ري هناك في الأسفل. صعدت دو-سانغ من تحت رأس الأخطبوط، ومرّرت النصل بموازاة وجه ابنتها. رغم المؤازرة من النساء المحيطات بنا، لكنني شعرتُ عبر ساقيّ أنّني أنا التي كنتُ أبقي يو-ري طافية حتّى مع استمرار محاولات الأخطبوط في جرّنا إلى الأسفل. أخبرني ارتخاء جسد يو-ري بشيء لم تكن الأخريات قد أدركنه بعد. وبقدر ما أردتُ أن أكون قويّة، إلّا أنّني بدأتُ أبكي داخل نظّارتي الواقية.

تابعت النساء عملهنّ وصولاً إلى الأجزاء السميكة من أطراف الأخطبوط. كان هذا بالتزامن مع طعناتٍ وضرباتٍ متكررة في رأس

الأخطبوط بطرف سكين دو-سانغ الحادّ، الأمر الذي أنهك المخلوق تماماً. كان إمّا ميتاً أو موشكاً على الموت، لكن وكجسد الضفدع أو السحلية، كان لا يزال ثمة نبضٌ وقوّة في جسد الأخطبوط. أخيراً، تحرّرتُ منه.

- «هل يمكنكِ السباحة إلى القارب؟»، سألت أمّي.

- «ماذا عن يو-ري؟».

- «سوف نعتني بها. هل يمكنكِ الوصول إلى القارب وحدك؟».

أومأتُ لها برأسي، لكن الآن وبعد أن انتهت المعركة، وبعد أن بات كلُّ ما دفعني للقتال خلف ظهري، فقد تمكّنتُ من قطع نصف المسافة إلى القارب قبل أن أضطر للانقلاب على ظهري كي أطفو وأرتاح لبضع لحظات. كانت الغيوم تنتقل فوقِي بسرعة مدفوعةً بقوة الرياح. وحلّق طائرٌ فوق رأسي. أغمضتُ عيني وأنا أحاول استدعاء قوّة إضافية من مكان ما أعمق بداخلي. ارتطمت الأمواج بأذني - غمرتهما المياه للحظة ثم وصلت إليهما الأصوات القلقة للنساء اللواتي ما زلن مع يو-ري. سمعتُ طرطشة، وسمعتها مرّة ثانية وثالثة. مجدّداً كانت هناك أذرعٌ تدعمني، فتحتُ عيني ورأيتُ مي-جا والأختين كانغ. ساعدنني سويّاً على ركوب القارب. دفعت غو-جا - وهي الأقوى بيننا - نفسها ورفعتهنّي إلى طرف القارب حيثُ وضعتُ ذراعيّ وبدأتُ أرفع نفسي، لكنّ المحنة التي مررتُ بها جعلتني شديدة الضعف. وضعتُ كلُّ من مي-جا وغو-سُن يداً تحت مؤخرتي ودفعتاني للأعلى. انزلقتُ على سطح القارب مثل سمكة اصطيدت لتوّها. استلقيتُ هناك ألّهت بشدّة، أطرافي رخوة كالمطاط، وعقلي مستنزفٌ من شدّة الإنهاك. سحبتُ نظّارتي الواقية عن عينيّ، وانزلقت عشوائياً فوق سطح القارب. كانت الفتيات الثلاث تثرثن طوال الوقت دون توقّف.

- «قالت أملك أنه علينا البقاء في القارب —».

- «لم تُردنا أن نقدّم المساعدة —».

- «الغواصات-الطفرلات يتسببن بالمزيد من المشاكل فحسب —».

- «خلال عملية إنقاذ —».

بالكاد استطعتُ فهم ما كنَّ يقلّنه.

بدأت النساء الأخريات في الوصول. أجبرتُ نفسي على الجلوس. هرعت الأختان كانغ ومي-جا إلى حافة القارب ومددْنَ أذرعهنَّ. انضممتُ إليهنَّ وساعدتُ في سحب يو-ري. كانت ثقيلة - ثقيلة كجثة. سحبناها للأعلى ثم إلى سطح القارب، وسقطنا على ظهورنا من عزم السحب. استلقتُ يو-ري فوقِي بلا حراك. تأرجح القارب فتدحرجت على جانبها. جاءت دو-سانغ عندئذٍ، ولحقتُ بها أمّي. ركعتا بالقرب من يو-ري. وبينما كانت بقيّة الهينيو تصعدن على متن القارب، نزلتُ أمّي وقربتُ خدّها من فم يو-ري وفتحتي أنفها لتحسّس إن كان هناك أيّة أنفاس تخرج منهما.

- «إنّها حيّة»، قالت أمّي وهي جاثيةٌ على كعبيها. بدأت دو-سانغ وبعض الهينيو الأخريات يفركنَ أطراف يو-ري محاولين بعث الحياة فيها. لكنّ يو-ري لم تستجب. «يجدر بنا أن نحاول إفراغ الماء منها»، اقترحت الأمّ. أفسحت لها دو-سانغ المجال. ضغطت أمّي على صدر دو-سانغ، لكنّ شيئاً لم يخرج من فمها. محاولةٌ فاشلة؛ «يجب أن نضع في اعتبارنا أنّ الأخطبوط أنقذ حياتها حين قام بتغطية وجهها. وإلا لكانت استنشقت المياه...»، قالت أمّي.

استأنفت النساء عملية تدليك الأطراف.

حوّلت أمّي انتباهها فجأةً إلى مي-جا والأختين كانغ وإليّ.

كانت تحكم علينا آخذةً أفعالنا بعين الاعتبار. كان يُفترض بنا أن نبقى معاً. هذا ما فعلته مي-جا والأختان كانغ، لكنهن بدون محرّجات. لم تضطر الأم لقول كلمةٍ واحدة، إذ سرعان ما بدأت تُطلق الأعدار.

- «لقد رأيْتُها في آخر مرّة خرجتُ فيها من أجل الهواء»، قالت غو-سُن متلعثمة.

- «لم نكن قطّ خارج مرمى بصر يو-ري»، قالت مي-جا بصوتٍ مخنوق. «لقد راقبتنا طوال اليوم».

- «قالت إنّها رأت شيئاً كبيراً»، تأتأت.

- «وذهبتما أنتما الاثنتان. لقد رأيْتُكما تذهبان، رغم أنّي كنتُ قد أطلقت نداء الصعود إلى القارب».

لم أستطع تحمّل فكرة أن أمّي سوف تعتبرني مسؤولةً جزئياً عمّا حدث ليو-ري، لذا قلتُ: «نحن لم نسمعك». أطرقتُ برأسي ورحتُ أرتجف - بفعل الصدمة والحزن، والآن بفعل الخزي لأنني كذبتُ على والدتي.

صرخت أمّي على الجميع كي يأخذن أماكنهنّ. التقطنا مجاذيفنا. ترنّج القارب إذ بدأ يتحرّك عبر الأمواج بيضاء الصفحة. ظلّت دو-سانغ بالقرب من ابنتها؛ تتوسّل إليها أن تستيقظ. أخذت حماة يو-ري المستقبلية على عاتقها مسؤولية القيادة في الغناء. «كتفائي يرتعشان جنباً إلى جنبٍ مع الأمواج في هذه الليلة الجليدية. وعقلُ هذه المرأة الصغيرة يرتعش بفعل عُمرٍ من الحزن». كانت أغنيةٌ فجائيةٌ لدرجة أنّ الدموع سرعان ما راحت تنهمر فوق خدودنا.

وضعت أمّي بطانيّةً فوق يو-ري وأخرى على كتفيّ دو-سانغ. مسحّت دو-سانغ وجهها بطرف قطعة القماش الخشن. تكلمتُ، لكنّ

الريح بعثرت كلماتها. في البداية توقفت امرأة عن الغناء، ثم توقفت أخرى، كانت كل واحدة منا تحتاج أن تسمع ما تقوله دو-سانغ. حافظت حماة يو-ري على إيقاعنا في التجذيف عبر الطرق على المقبض الخشبي لأداة غوص على حافة القارب.

- «الغواصة الجشعة تساوي غواصة ميتة»، قالت دو-سانغ بأسف. كنا جميعاً نعرف هذا القول، لكن أن نسمعه من أم عن ابنتها؟ في تلك اللحظة تعلّمت كم يجب على الأم أن تكون قوية. «هذه أسوأ خطيئة ترتكبها الهينيو»، تابعت دو-سانغ. «أريد ذلك الأخطبوط. يمكنني بيعه مقابل الكثير من المال».

- «هناك الكثير من الأشياء التي تفوقنا قوة تحت سطح البحر»، قالت أمي.

لقت ذراعها حول دو-سانغ التي عبّرت عندئذ عن أسوأ مخاوفها. «ماذا لو لم تستيقظ؟».

- «علينا أن نأمل أنها ستفعل».

- «لكن ماذا لو بقيت على هذا الحال؟ معلّقة بين هذا العالم والعالم الآخر»، سألتها دو-سانغ وهي ترفع رأس ابنتها وتضعه في حجرها. «إذا كانت عاجزة عن الغوص أو العمل في الحقول، ألن يكون من الأفضل تركها ترحل؟».

جذبت أمي دو-سانغ إليها. «أنت لا تعنين ذلك».

- «لكن»، لم تكمل دو-سانغ فكرتها. مسدت بدلاً من ذلك خصلة من الشعر المبلل بعيداً عن وجه ابنتها.

- «لا أحد منا يعرف بعد ماذا خطّطت الإلهة ليو-ري»، قالت أمي. «لربما توقظ في الغد صندوق الثروة الذي نعرفه جميعاً».

لم تستيقظ يو-ري في الصباح التالي. أو في الصباح الذي بعده. وليس حتّى بعد أسبوع. طلبت دو-سانغ يائسة المساعدة من الشامانة كيم، قائدتنا الروحية، ومرشدتنا، وحكيمتنا لشؤون الآلهة. رغم أنّ اليابانيين كانوا قد حظروا الديانة الشامانية، إلّا أنّها استمرت في الخفاء في تأدية مراسم الجنازات، وطقوس الأرواح المفقودة. عُرف عنها إقامة الطقوس للجدّات حين يبدأ بصرهنّ بالتلاشي، وللأمّهات اللواتي كان أبنائهنّ في الجيش، وللنساء سيّئات الحظ؛ مثل التي يموت لها ثلاثة خنازير على التوالي. كانت صلة الوصل بيننا وبين عالم الأرواح. كانت تملك القدرة على الدخول في ما يشبه غيبوبة لتحدّث مع الموتى أو المفقودين، ومن ثمّ نقل رسائلهم إلى الأصدقاء والعائلة وحتّى الأعداء. كانت دو-سانغ تأمل أن تصل الشامانة كيم إلى روح يو-ري وتعيد عقلها إلى جسدها وعائلتها.

أقيمت الطقوس في منزل دو-سانغ. ارتدت الشامانة كيم ومساعداتها أثواب الهان بوك الكورية التقليدية الملوّنة من البرّ الرئيسي - بدلاً من السراويل والسترات الباهتة المعتادة في جيجو. قرعت مساعداتها الطبول والصنج. رفعت الشامانة كيم ذراعيها وأخذت تدور حول نفسها، وهي تدعو الأرواح أن تعيد الهينيو الشابة إلى والدتها. انتحبت دو-سانغ على الملأ. حاول جون-بو؛ شقيق يو-ري، والذي كان الزغب قد بدأ للتوّ ينمو على خديّه، حاول أن يكبت مشاعره، لكنّنا كنّا جميعاً نعرف مدى حبّه لشقيقته. كان زوج يو-ري المستقبلي شاحباً من الحزن، وقد بذل والداه كلّ ما في وسعهما ليهذّأ من روعه. كانت رؤية حزنهم أمراً مؤلماً للغاية. مع ذلك، فإنّ يو-ري لم تفتح عينيها.

في تلك الليلة أخبرت مي-جا بسرّي؛ أخبرتها بأنّ يو-ري طلبت منّي أن أعصو أمر أمّي، وقد فعلت ذلك. «لو لم أوافق على

الغوص لمرّة إضافية، لما كانت يو-ري على هذا الحال الآن». حاولت مي-جا أن تواسيني. «لقد كان من واجب يو-ري أن تعتني بك وليس العكس».

- «ما زلتُ أشعر أنني المسؤولة رغم ذلك»، اعترفت لها. أمعنت مي-جا التفكير لبضع لحظات، ثمّ قالت: «لن نعرف أبداً لم فعلت يو-ري ما فعلته، لكن لا تخبري أحداً بسرّك. فكّري في الألم الذي سيتسبّب به لعائلتها». فكّرتُ أيضاً بالعذاب الإضافي الذي سيحلّ في قلب أمي. كانت مي-جا على حقّ. كان عليّ الاحتفاظ بهذا السرّ.

بعد أسبوع، طلبت دو-سانغ من الشامانة كيم أن تحاول مجدّداً. أقيمت المراسم هذه المرّة في البولتيوك خاصتنا بعيداً عن أعين اليابانيين المتلصّصة. في الواقع لم يحضر هذه المراسم أيّ رجال. ليس حتّى شقيق يو-ري. حملت دو-سانغ ابنتها إلى البولتيوك ووضعتها قرب حفرة النار. نُصب مذبحٌ مقابل الجدار الحجريّ المقنطر. وُضعت قرايين الطعام النادر جدّاً في أطباق: هرمٌ من البرتقال، أوعيةٌ تحتوي على أنواع الحبوب الخمسة في جيّجو، وبضع جرارٍ من الكحول محلّي الصنع. عرضت أمي أن تدفع لجون-بو كي يكتب رسائل إلى يو-ري على أشرطة طويلة من الورق، لكنّه فعل ذلك بلا مقابل. «من أجل أختي»، هذا ما قاله لي حين ذهبْتُ إلى منزل عائلته لآخذ الرسائل. كانت نهاية كلّ من هذه الأشرطة محشورة الآن في شقوق الجدار الصخرية، بينما ترفرف ذبولها مع النسيم الذي يهب عبر الفجوات.

ارتدت الشامانة كيم أكثر ثوب هانبوك حريريّ ملوّن لديها. لفّ

وشاخ بلون أوراق القيقب في الربيع الجزء العلوي من الثوب الذي كان بلون أزرق ساطع. الجزء الرئيسي من الثوب بلون الفوشيا كان خفيفاً جداً لدرجة أنه كان يطفو حولها وهي تتحرك أثناء المراسم. كانت عصا رأسها حمراء، وأكمامها تلمع بلون زهر اللفت.

بدأت قائلة: «بالنظر إلى هيمنة المخاريط البركانية على جزيرة جيغو، وقمم تلك المخاريط المجوّفة مثل أعضاء المرأة الحميمة، فمن الطبيعي على جزيرتنا أن تكون الدعوة للإناث والذكور يتبعونها. الإلهة هي الأعظم والأسمى دائماً، بينما الإله مجرد رفيق أو حارس. وفوق كل شيء هناك الخالقة، الإلهة العظيمة سيولمونداي».

- «الجدة سيولمونداي تعتني بنا جميعاً»، هتفنا معاً.

- «لقد حلّقتُ كإلهة فوق البحار بحثاً عن منزلٍ جديد. حملت التراب في ثنایا تنوّرتها. عثرت على هذه البقعة حيث يلتقي البحر الأصفر ببحر الصين الشرقي وبدأت تبني بيتاً لها. حين وجدتُ أن المكان منبسّط أكثر من اللازم، استخدمت تراباً أكثر من ثوبها، فشيدت الجبل حتّى ارتفع بما يكفي للوصول إلى درب التبانة. سرعان ما اهترأت تنوّرتها وظهرت ثقبٌ صغيرة في القماش. تسرّب التراب من تلك الشقوق، لتشكّل تلالاً صغيرة، وهو ما يفسّر وجود العديد من البراكين الصغيرة الخاملة. تعيش في كلِّ واحدةٍ من هذه المخاريط البركانية إلهةٌ أخرى. هنَّ إخوتنا في الروح، ويمكنكنَّ دائماً أن تقصدهنَّ طلباً للمساعدة».

- «الجدة سيولمونداي تعتني بنا جميعاً»، هتفنا معاً.

- «لقد اختبرتُ نفسها بطرقٍ عديدة، كما يجدر بكلِّ النساء أن تفعلن»، أخبرتنا الشامانة كيم. «أجرت تقييماتها للمياه كي تعرف مدى عمقها، بحيث تكون الهينيو بأمان حين تذهبنَّ إلى البحر. سبرتُ

أيضاً البرك والبحيرات بحثاً عن طرقٍ لتحسين حياة أولئك اللاتي عملن في الحقول على اليابسة. ذات يوم، انجذبت نحو ضبابٍ غامض على قمة بركان مولجانغ-أول أوريوم، فاكتشفت بحيرةً داخل فوهته. كانت المياه زرقاء عميقة، ولم يسعها قط أن تخمن عمقها. أخذت نفساً واحداً كبيراً، وسبحت مباشرةً للأسفل. ولم تعد أبداً. هزت كثيرٌ من النساء رؤوسهنّ بإيماءات مستحسنة لرواية هذه الحكاية على هذا النحو الطيب.

- «هذه نسخةٌ واحدة من الحكاية»، تابعت الشامانة. «تقول نسخةٌ أخرى أنّ الجدّة سيولمونداي كانت - مثل كلّ النساء - خائفة القوى بسبب كلّ ما فعلته لأجل الآخرين، وعلى نحوٍ خاص لأطفالها. كان أطفالها الخمسمئة جائعين على الدوام. كانت تعدّ لهم رجلاً من العصيدة حين غلبها النعاس فسقطت داخل القدر. بحث عنها أبنائها في كلّ مكان. أخيراً عثر ابنها الأصغر على كلّ ما تبقى منها - مجرد عظام - في قاع القدر. لقد ماتت بسبب حنان الأم وعطفها. غلبَ القهر أبنائها لدرجة أنّهم تحجّروا على الفور في خمسمئة نتوءٍ حجري يمكنكم رؤيتها حتى يومنا هذا».

انتحبت دو-سانغ بصمت. ساعدت هذه القصة في أن تسمع أمّ متألّمة عن أمّ متألّمة أخرى.

- «يقول اليابانيون إنّّه إذا كانت الجدّة سيولمونداي موجودة حقاً، وإنّّه إذا كان ذلك الأوريوم (البركان الخامل) هو الممرّ المائي إلى قصرها تحت الماء، فهذا يعني أنّها تخلّت عنّا كما فعلت كلّ الآلهة الإناث والذكور على حدّ سواء»، تابعت الشامانة كيم. «أقول إنّها لم تتركنا قط».

- «نحن ننام فوقها كلّ ليلة»، ردّدنا معاً. «ونستيقظ فوقها كلّ صباح».

- «عندما تذهبن إلى البحر، أنتنّ تقمن بالغوص بين كشكشات تتورثها تحت الماء. هي البركان العظيم في قلب جزيرتنا. البعض يدعونه جبل هالا، أو جبل الجزيرة المباركة. بالنسبة لنا، إنها هي جزيرتنا. يمكننا أينما ذهبنا أن نناجيهما، ونبكي لها أوجاعنا، وسوف تصغي إلينا».

حوّلت الشامانة كيم انتباهها الآن إلى يو-ري، التي لم تكن قد تحرّكت لو لمرة واحدة.

- «نحن هنا لمساعدة يو-ري في مشكلة روحها المسافرة، لكن ينبغي بنا أن نقلق أيضاً بشأن اللواتي تعانين من فقدان الروح بينكنّ، يحدث هذا في أيّ وقتٍ يتعرض فيه الشخص لصدمة. لقد مرّت مجموعتكنّ بمصيبة كبيرة. لكن لا أحد عانى أكثر من يو-ري. دو-سانغ، اركعي من فضلك أمام المذبح. كلّ من يشعر بالغمّ والكربة فلينضمّ إليها».

ركعت أمي قرب دو-سانغ. ثمّ سرعان ما ركعت بقيتنا لنشكّل دائرة من العذابات. كانت الشامانة تحمل سكاكين خاصّة بالطقوس تنبثق من أطرافها أشرطة بيضاء. جعلت تمخر بسكاكينها عباب السلبية التي تخيم فوقنا بينما الشرائط البيضاء تحوم حولنا كالسنونو. انتفخ ثوبها الهان بوك في سحابة من الألوان الصاخبة. هتفنا. بكينا. تدفقت مشاعرنا مصحوبةً بنشاز الصنج والأجراس والطبول التي تعزف عليها مساعدات الشامانة كيم.

- «أناشد كلّ الآلهة أن تعيد روح يو-ري من البحر أو من أيّ مكانٍ تختبئ فيه»، تضرّعت الشامانة كيم. ثمّ، وبعد أن كرّرت هذا الطلب مرّتين، تغيّر صوتها إذ حلّت بها روح يو-ري. «أنا أفتقد والدتي. أفتقد والدي وأخي. زوجي المستقبلي... رياه...».

استدارت الشامانة نحو أمي. «يا رئيسة الغطس، أنتِ أرسلتني إلى هنا. أرجعيني الآن إلى الديار».

بدأت النبذة التي خرج بها صوت يو-ري من فم الشامانة أقرب للوم من كونها طلباً للمساعدة. وهو ما لم يكن يبشّر بالخير. بدأ أن الشامانة كيم تصادق على ذلك. «قولي لي يا سون-سيل، كيف تردّين على هذا؟».

نهضت والدتي. بدأ وجهها متوتراً وهي تخاطب يو-ري. «أنا أتحمّل مسؤولية أنني أرسلتك إلى البحر، لكنني أسندتُ لك مهمّةً واحدة في ذلك اليوم: أن تبقي مع ابنتي، وأن تساعدني الأختين كانغ أثناء إشرافهما على مي-جا. كنتِ أكبر الغواصات-الطفلات. وكان لديكِ التزامٌ تجاههنّ وتجاهنا. بسبب أفعالكِ كان يمكن أن أخسر ابنتي».

قد أكون الوحيدة التي تمكّنت من رؤية لأيّ درجة تأثّرت أمي بما حدث. شعرتُ بالهلع والتواضع في ذات الوقت. وأملتُ أن أتمكّن في يوم من الأيام أن أثبتَ لها أنني أحببتها بقدر ما أحبّتي. التفتت الشامانة كيم إلى دو-سانغ. «ماذا تريدان أن تقولني لابنتك؟».

تحدّث دو-سانغ إلى يو-ري بصرامة: «أنتِ تلومين الآخرين على نتائج جشعك؟ إنكِ تخرجيني! دعي الجشع خلفكِ حيث أنتِ وعودي إلينا الآن! لا تطلبي من أحدٍ أن يساعدك!». ثم خففت من نبرتها. «ارجعي، يا حبيبتي. والدتك وشقيقك مشتاقان لك. عودي إلينا ولسوف نغرقكِ في الحب».

رتلّت الشامانة كيم بضع تعويذاتٍ إضافية. قرعت مساعداتها الصنج والطبول. ولم يتبقَّ بعددٌ شيءٌ لقوله أو لفعله. استيقظت يو-ري في صباح اليوم التالي. لكنّها لم تكن نفس

الفتاة. كان يمكنها الابتسام، لكنها لا تستطيع الكلام. استطاعت أن تتحرك لكنها كانت تعرج وفي بعض الأحيان كانت ذراعها ترتعشان. اتَّفَقَ الأهل من الجانبين أنَّ الزواج لم يعد ممكناً. تشبَّثُ مع مي-جا بسرِّي، الأمر الذي جعلنا أكثر قرباً منها من أيِّ وقتٍ مضى. في الأسابيع التالية، كنّا وبعد أن ننهي عملنا في الحقول الجافة أو الرطبة نذهب لزيارة يو-ري. تحدَّثنا وضحكنا هناك علَّ يو-ري تشعر أنَّها لا تزال الفتاة الصغيرة التي ليس لديها ما تقلق بشأنه. انضمَّ إلينا جون-بو في بعض الأحيان، قرأ بصوتٍ عالٍ المقالات التي كان يكتبها للمدرسة أو حاول مضايقتنا كما كان يفعل مع أخته ذات يوم. في أيَّامٍ أخرى، أنا ومي-جا كنّا نساعد دو-سانغ في غسل شعر وجسم يو-ري. ثمَّ أخذناها أنا ومي-جا إلى الشاطئ حين أصبح الطقس دافئاً، حيث جلسنا في المياه الضحلة كي نسمح لأصغر الموجات أن تقوم بمداعبتها. حكينا لها الحكايات، وربَّتنا على وجهها، جعلناها تعرف أنَّنا كنّا هناك من أجلها، وكانت تكافئنا بابتسامةٍ جميلة.

كانت دو-سانغ في كلِّ مرَّةٍ أذهب فيها للزيارة تنحني لي إعراباً عن امتنانها. «لولاكِ لماتتُ ابنتي»، كانت تقول لي وهي تصبُّ شاي الحنطة السوداء أو تقدِّم لي طبقاً من السمك المملَّح، لكنَّ عيناها كانتا تبعثان برسالة أكثر قتامة. ربَّما لم تكن تعرف بالضبط ما هو الدور الذي لعبته في حادثة يو-ري، لكنها اشتبهت بالتأكيد أنَّه كان أكثر ممَّا كشفتُ عنه سواءً لها أو لأُمِّي.

كيف نقع في الحب؟

(قَبْلُ)

حين التقينا أنا ومي-جا لأول مرة، كنا مثل نقيضين. كنتُ مثل صخور جزيرتنا - حادة، خشنة، كلها حوافٌ مدببة، لكنها مفيدة وليست بلا معنى. بينما كانت مي-جا مثل الغيوم - تهيم، وتتبدد، ومن المستحيل الإمساك بها أو فهمها بالكامل. ورغم أننا نحن الاثنين أصبحنا من الهينيو، إلا أن قدمي ستكونان دائماً فوق الأرض بمعنى أنني لطالما كنتُ عملية ودائمة القلق حيال أسرتي. بينما كانت مي-جا أشبه بالبحر - دائمة التقلب وفي بعض الأحيان سريعة الغضب. كنتُ شديدة الارتباط بأمي وأتوق إلى اللحاق بها في حياة البحر. لم تكن مي-جا تتذكر والدتها لكنها كانت تفتقد والدها بشدة. كنتُ أحظى بحبٍ واحترام أختي وإخوتي، بينما لم يكن لدى مي-جا سوى عمٍّ وعمّة لم يهتمّا لأمرها. لقد عملتُ بجدّ، نقلتُ الماء، حملتُ أخي الصغير على ظهري، وقمتُ بالأعمال الزراعية، وجمعتُ الروث الجاف للتدفئة، لكنّ مي-جا عملتُ بجدّ أكبر، وأنجزت المهام المنزلية لعمّها وعمّتها، كما عملتُ في حقولنا، وشاركت في الأعمال الجماعية. لم أكن أستطيع قراءة أو كتابة اسمي. بينما استطاعت مي-جا كتابة اسمها كما كانت تتذكر بعض

الحروف اليابانية. وبقدر ما كنتُ أبدو للآخرين شخصاً متماسكاً إلا أنني كنتُ في الغالب رعيذة في العمق؛ وبقدر ما بدت مي-جا مهزوزة من الخارج، إلا أنَّ تماسكها الداخلي بدا قوياً كالخيزران - وقادرٌ على تحمّل أيّ قوّة أو وزنٍ تقريباً. كان لدينا قولٌ ماثور في جيغو: إذا كان ثمة سعادة لك في سنّ الثالثة، فسوف تدوم حتّى تبلغ الثمانين. آمنتُ بهذا القول. على الجهة المقابلة، فإنّ مي-جا غالباً ما قالت: «لقد وُلدتُ في يومٍ لم يكن فيه شمسٌ ولا قمر. هل عرف والدائي كم ستكون حياتي صعبة؟». لم يكن يمكننا أن نكون أكثر اختلافاً، لكننا كنّا مقربتين جدّاً رغم كلّ شيء.

كيف نفع في الحب؟ أنتِ تجهلين المنحى الذي ستّخذهِ مشاعرك بمرور الوقت بعد المرّة الأولى التي ترين فيها زوجك يوم خطوبتكما. قد لا يكون الحبُّ هو ما تشعرين به في اللحظة التي تلي سحب طفلك من داخل أحشائك. يجب أن يُراعى الحب ويُعتنى به بنفس الطريقة التي نعتني بها نحن الهينيو بحقولنا التي تحت سطح البحر. بوجود الزيجات المرتّبة، فقد تقع الكثير من النساء في حبّ أزواجهنّ سريعاً. بالنسبة لبعضهنّ؛ قد يستغرق الأمر سنوات. أما البعض الآخر، فإنّ عقوداً من الزواج قد تكون مليئة بالوحدة والحزن لا أكثر، لأننا لا ننجح أبداً في تكوين ذاك الرابط مع الشخص الذي نتشارك معه حصيرة النوم. أمّا بالنسبة للأطفال، فكلُّ امرأةٍ تعرف جيّداً آلامها ومخاوفها. الفرح رفاهيةٌ لذيذة نخبرها بحذرٍ شديد، فالمأساة تختبئ خلف كلّ زاوية. الوضع مختلفٌ تماماً حين يتعلّق الأمر بالصدّاقة. لا أحد يختار لنا صديقاً؛ نحن نصبح معاً بقرارٍ واعٍ. لسنا مقيّدين بأحدنا الآخر عبر مراسم أُجريت يوماً ما أو عبر المسؤولية الناجمة عن إنجاب طفل؛ نحن نربط بعضنا باللحظات. بشرارة اللقاء الأوّل. بالضحكات والدموع التي تشاركناها. بالأسرار

التي دُفنت عميقاً كي تُحفظ وتُحمى جيّداً. إنه لشيءٌ عجيب أن يكون شخصٌ ما مختلفٌ عنك بالكامل لكنّه ما زال قادراً مع ذلك على فهم قلبك بطريقةٍ لا يجاريه فيها أحدٌ آخر.

أتذكّر جيّداً أوّل يوم التقيتُ فيه بمي-جا. كنتُ قد بلغتُ السابعة مؤخّراً. عِشتُ حياةً سعيّدة وإن كانت بسيطة. كنّا فقراء، ولم نكن أفضل أو أسوأ حالاً من جيراننا. كانت لدينا حقولنا المائية في المحيط وحقولنا الجافّة على اليابسة، وحديقةٌ منزلية صغيرة بجوار مطبخنا حيث زرعتُ أمّي الفجل الأبيض والخيار والسمسم والثوم والبصل والفلفل. وإذ يشير اتّساع البحر إلى عطاءٍ لا ينضب، إلّا أنّه كان في الواقع مصدراً غير موثوقٍ للغذاء. لم يكن للجزيرة موانئ طبيعية، وكانت البحار شديدة القسوة. منع ملوكنا الكوريّون لوقتٍ طويل رجالنا من الصيد بأيّ طريقةٍ فعّالة، والآن في ظلّ الحكم الياباني، سُمح للصيّادين باستخدام القوارب ذات الشراع والمقعد الواحد فقط (أو يمكنهم العمل في سفن الصيد اليابانية الكبيرة، أو مصانعهم الخاصّة بالتعليب). فقد العديد من رجال جيغو بسبب ارتفاع المدّ والأمواج العالية والرياح القويّة. قبل وقتٍ طويل، كان رجال جيغو غوّاصين، لكنّ الملوك فرضوا ضرائب كبيرة على أعمالهم، الأمر الذي جعل هذه الأعمال تُعطى للنساء في نهاية الأمر، حيث كانت الضرائب التي فُرضت عليهنّ أقلّ وطأة. اتّضح أنّ لدى النساء كفاءةً عالية في هذا العمل. كانت النساء - مثل أمّي - صبوراتٍ بحقّ، وتقبّلن المعاناة بصدرٍ رحب. كان لدى النساء دهنٌ أكثر، لذا فقد كنّ أكثر تحمّلاً للبرد. ومع ذلك، كان من الصعب على أمّي - وأيّ امرأةٍ أخرى - إعداد وجبةٍ دسمة من بطارخ قنفذ البحر وقواقع العمامة وأذن وحلزون البحر تكفي لعائلةٍ كبيرة. كما أنّ تلك المخلوقات لم تكن لنا، بل للأثرياء - أو الأكثر ثراءً منا على

الأقل - على البرّ الرئيسي، أو في اليابان والصين والاتّحاد السوفييتي. عنى هذا أنّ عائلي عاشت معظم العام على الدخن والكربن والبطاطا الحلوة التي زرعناها في حقّنا الجاف، في حين ذهبت الأموال التي جنّتها الأمّ ثمناً للملابس أو لإصلاح المنزل أو لأيّ شيء يتطلّب الدفع نقداً.

كان واجب الزوجة الاجتماعي والأسري يقضي بإنجاب ابن يضمن امتداد نسل زوجها. لكنّ كلّ عائلة في قرى جيجو الساحلية ستكون في غاية الامتنان إذا رُزقت بابنة، لأنّها ستكون بمثابة المُعيلة دائماً. لم تكن عائلتنا محظوظة جدّاً في هذا الجانب، إذ كان في منزلنا أربع إناث فقط: جدّتي، أمّي، أنا، وأختي الصغيرة التي كانت في ذلك الوقت تبلغ من العمر أحد عشر شهراً فقط، وكانت بالطبع أصغر من أن تقدّم المساعدة. لكنّها مع ذلك سوف تعمل معي ذات يوم لمساعدة والدينا في سداد ديونهما، والمساهمة في بناء منزل أفضل لشيخوختهما، وربما أيضاً المساعدة في إرسال أشقائنا إلى المدرسة.

في ذاك اليوم الصيفي قبل ثماني سنوات حين قابلت مي-جا لأول مرّة، كان أبي كالعادة ملازماً المنزل كي يعتني بإخوتي. خرجتُ مع أمّي إلى حقّنا الجاف لتزِيل الأعشاب الضارّة. بدتُ أمّي مثل بطيخة سيّئة الشكل. انتفخ بطنها بما سيصبح عمّا قريب ثالث أشقائي، وانحنى ظهرها تحت ثقل سلّة محشوّّة بالأدوات والأسمدة. حملتُ سلّة فيها طعامٌ ومياهٌ للشرب. سرنا سويّاً عبر أزقة الأولي. داخل القرية، كانت جدران الأزقة حول المنازل ترتفع بما يكفي لمنع الجيران من النظر داخلها، وبمجرّد الخروج من القرية يصبح زقاق الأولي بارتفاع الخصر. كانت كلّ قطعة أرضٍ محاطة هي الأخرى بجدرانٍ حجرية لم يكن الغرض منها تحديد ممتلكات الأسرة بقدر ما

كان صدَّ الرياح العاتية التي كان يمكنها أن تقصف المحاصيل طويلة الجذع إلى نصفين. أيّا تكن الاستعمالات المتنوّعة لأزقة الأولي، فقد كانت جميعها مشيِّدة بحجارة بركانية كبيرة لدرجة أن كلّاً منها تطلبت على الأقلّ اثنين من أسلافنا لوضعها في مكانها.

حالما وصلنا إلى أرضنا، توقّفت أمّي على نحو مفاجئ لدرجة أنني اصطدمتُ بها. خشيتُ أن نكون قد صادفنا جنوداً يابانيين، لكنّ أمّي صرخت عندئذٍ: «أنتِ هناك! ماذا تفعلين؟».

وقفتُ على رؤوس أصابعي كي ألقي نظرة من فوق الجدار الحجري، فرأيتُ فتاةً صغيرة تجلس القرفصاء بين شُتول البطاطس الحلوة، ويدها تحفران في الأرض. إذا كانت جيجو معروفةً بوفرة الرياح والحجارة والنساء، فقد عُرف عنها أيضاً أنّها تفتقر إلى ثلاثة أشياء أخرى: المتسوّلون، واللصوص، والأبواب المقفلة. لكن كانت هذه لصّةً هنا! أمكنني حتّى من مسافةٍ بعيدة أن أرى أنّها كانت تقيّم الموقف وتجري الحسابات. لم تكن تستطيع الهرب عبر الفتحة في الحائط لأنّ هذا كان سيضعها معنا في الزقاق. لذا وثبتُ وجعلتُ تعدو مسرعةً نحو الجانب البعيد من الحقل. دفعني أمّي وصرختُ: «أمسكي بها!».

أفلتُ سلّتي واندفعتُ على طول الزقاق الذي يحدُّ الحقل. انعطفتُ يساراً إلى قطعة الأرض المجاورة لنا، وجريتُ مسرعةً عبرها، ثمّ تسلّقتُ الجدار الحجري على الجانب البعيد منها، ونزلتُ على الجهة الأخرى. حين وصلتُ إلى الجدار التالي، صعدتُ إلى أعلاه، وها هي هناك تتعجّل الهروب مثل جردز على الجهة الأخرى من الجدار أسفل متّي. قفزتُ فوقها قبل أن تشعر بوجودي، وطرحتها أرضاً. قاومتني بشدّة، لكنني كنتُ أقوى بكثير. تمكّنتُ من رؤية وجهها حالما قمتُ بتثبيت معصمها. من الواضح أنّها لم تكن من

قريتنا. فلا أحد هنا كان شاحباً هكذا. بدت كأنها حُبست طيلة حياتها. أو كأنها شبحٌ جائع - وهو نوع من الأرواح التي تهيم في الأرض بلا توقف وتتسبب بالمتاعب للأحياء. في ظروفٍ أخرى، كنتُ سأرتعد خوفاً. لكنَّ قلبي كان بدلاً من ذلك يخفق بشدة في صدري بفعل عمليتي المطاردة والأسر.

- «دعيني أذهب»، صرخت باليابانية على نحوٍ مثيرٍ للشفقة. «أرجوكِ دعيني أذهب».

عندها شعرتُ بالخوف حقاً. كان علينا جميعاً أن نتحدَّث اليابانية بسبب المستعمرين، لكنَّ نبرة هذه الفتاة كانت مثالية. ماذا لو كنتُ قد هاجمتُ فتاةً يابانية؟ ثمَّ رأيتُ الدموع التي تنهمر على خديها نزولاً باتجاه أذنيها. ماذا لو قُبض عليَّ وأنا أعذب فتاةً يابانية؟ كنتُ على وشكٍ تحريرها حين هبط علينا صوتُ أمي من مكانٍ ما فوقنا. «أحضريها إليَّ».

نظرتُ للأعلى ورأيتُ أمي تحدّق بنا من فوق الجدار الحجري. نهضت من فوق الفتاة بحذر، لكنني أبقيتُ قبضتي محكمةً على ذراعها. سحبْتُها جاعلةً إيّاها تقف على قدميها ثمَّ دفعْتُها أمامي. لم تملك خياراً سوى أن تتسلّق الجدار الحجري. أخذت أمي حالماً أصبحنا على الجانب الآخر تتفحص الفتاة ببطء من الرأس إلى أخمص القدمين ذهاباً وعودة. ثمَّ سألتها أخيراً: «من أنتِ؟ لمن تنتمين؟».

- «اسمي هان مي-جا»، قالت وهي تمسح دموعها بظاهر يديها. «أعيش مع عمّي وعمتي في قطاع سوت دونغ من هادو». شفطت أمي الهواء عبر أسنانها. «أعتقد أنني أعرف عائلتك. ألسن ابنة هان جيل-هو؟». أومات مي-جا برأسها.

ظَلَّتْ أُمِّي صَامِتَةً . أَمَكْنِي رُؤْيَا أَنَّهَا كَانَتْ مُحَبَّطَةً ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنِ السَّبَبِ . فِي النِّهَايَةِ تَكَلَّمْتُ قَائِلَةً . «هَيَّا إِذَا ، أَخْبِرْنِي لَمْ قَدْ تَسْرِقِينَ مَنَّا» .

تَدَقَّقْتُ الْكَلِمَاتِ مِنْ فَمِ مِي-جَا . «مَاتَتْ أُمِّي عِنْدَمَا وَلَدْتُنِي . وَتَوَفَّي وَالِدِي مِنْذُ شَهْرَيْنِ بِنُوبَةٍ قَلْبِيَّةٍ . وَالْآنَ أَعِيشُ مَعَ الْعَمَّةِ لِي-أَوْكٍ ، وَالْعَمِّ هِيَم-تَشَانَ ، وَ—» .

- «وَهُمَا لَا يَطْعَمَانِكَ» ، قَاطَعْتُهَا أُمِّي . «أَنَا أَفْهَمُ لِمَاذَا —» .
سَادَ التَّحَدِّيَ مَلَامِحُ مِي-جَا . «وَالِدِي لَمْ يَكُنْ خَائِنًا . لَقَدْ عَمِلَ مَعَ الْيَابَانِيِّينَ فِي جِيغُو الْمَدِينَةِ ، لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي —» .

قَاطَعْتُهَا أُمِّي مَجْدِّدًا كَيْ تَرُدَّدَ قَوْلًا مَأْثُورًا : «إِذَا زَرَعْتَ الْفَاصُولِيَاءَ الْحُمْرَاءَ ، فَلَنْ تَحْصِدَ إِلَّا الْفَاصُولِيَاءَ الْحُمْرَاءَ» . هَذَا يَعْنِي أَنَّ شَخْصِيَّةَ الطِّفْلِ وَسُلُوكَهُ لَيْسَا إِلَّا نَتِيجَةً لِمَا زَرَعَهُ الْوَالِدَانِ . «لَا أَحَدٌ يَحِبُّ الْعَمَلَاءَ» ، قَالَتْ ذَلِكَ كَحَقِيقَةٍ مُسَلَّمٍ بِهَا . «الْجَمِيعُ فِي قَرْيِ هَادُو السَّبْعِ شَعَرُوا بِالْخَجَلِ بِسَبَبِ اخْتِيَارِ وَالِدِيكَ لَتِلْكَ الْحَيَاةِ . وَبِالنَّظَرِ إِلَى اسْمِكَ الْأَوَّلِ فَهُوَ يَبْدُو يَابَانِيًّا جَدًّا» .

عَرَفْتُ حَتَّى فِي سَنِّي الْمُبَكِّرَةِ تِلْكَ أَنَّ أُمِّي تَخَاطَرُ إِذْ تَتَحَدَّثُ صِرَاحَةً ضِدَّ الْيَابَانِيِّينَ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ قَدَّمُوا الدَّعْمَ لَهُمْ .

كَانَ وَجْهُ مِي-جَا وَيَدَاهَا مَمْرَغَيْنِ بِالتَّرَابِ . وَمَلَابِسُهَا أَرْقَى مِنْ أَيِّ مَلَابِسٍ سَبَقَ لِي رُؤْيَتُهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ مَتَسَخَةً جَدًّا . كَانَتْ قَدْ فَقَدَتْ وَشَاحَهَا فِي مَرَحَلَةٍ مَا أَثْنَاءَ مُحَاوَلَتِهَا الْهَرَبِ ، فَظَهَرَ شَعْرُهَا مَلْبَدًّا وَكَأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَضَعْ مَشْطًا فِيهِ مِنْذُ أَسَابِيْعٍ . لَكِنَّ أَكْثَرَ مَا أَثَارَ دَهْشَتِي هُوَ كَمْ بَدَتْ هَزِيلَةً . كَانَتْ فِي حَالَةٍ يَرْتِي لَهَا ، لَكِنْ ثَائِرَةٌ أُمِّي لَمْ تَهْدَأْ .

- «دَعِينِي أَرَى مَاذَا يَوْجَدُ فِي جِيُوبِكَ» ، قَالَتْ لَهَا أَمْرَةً .
فَتَشَّتْ مِي-جَا جَيِّدًا فِي مَلَابِسِهَا ، تَأَكَّدَتْ أَنَّهَا أَخْرَجَتْ كُلَّ شَيْءٍ

لأمي. أمسكتُ بقطعةٍ من الفحم وأعادتها إلى جيبها. ثم مسحَت بعناية يدها المتسخة بقميصها، وسحبت كتاباً من تحت كمّها. كان أوّل كتابٍ أراه في حياتي، لذا لم يترك الأمر لديّ أيّ انطباع، لكنّ عينا أمي اتسعتا. سقط الكتاب من يد مي-جا بفعل التوتر أو الخوف. انحنت أمي لتلتقطه، لكنّ مي-جا سارعت في الإمساك به قبلها، ورمقت أمي بنظرة تحدّد جديدة.

- «من فضلك، إنّه لي»، قالت وأخفته مجدّداً تحت كمّها. ثم أدخلت يدها في جيبها الأخير، وسحبته في قبضةٍ مغلقة لتسقط منها داخل كفّ أمي حفنةً من حبّات البطاطا الحلوة الصغيرة تكاد لا تكون أكبر من الحصى. ساد صمتٌ طويلٌ آخر بينما أخذت أمي تدرج الحبّات في كفّها جيئةً وذهاباً متفحّصةً حجم الضرر. حين تحدّثت بعد ذلك، كانت نبرة صوتها عالية كحالها دائماً، لكنّها باتت أكثر لطفاً.

- «أنتِ فتاةٌ محظوظة»، قالت لها. «لو أنّي شخصٌ آخر... لكنني لستُ كذلك. سوف ترجعين إلى حقننا، وتعيدين زراعة هذه الحبّات. حين تنتهين، سوف تساعدننا. إذا قمّت بعملٍ جيّد فسوف نتشارك غداءنا معك. إذا لم تهربي، وكنتِ مطيعة ونقّدت كل أوامري، فسأجعلك تأتين مجدّداً في الغد. هل تفهمين ما أقول؟».

لم أقع في حبّ مي-جا في ذلك اليوم الأول - ليس وأنا مغتائبةٌ ومنفعلة بسبب المطاردة، ومرتبكةٌ من ردّ فعل أمي تجاهها، وغاضبةٌ لأنّه كان عليّ أن أتشارك نصيبي من الغداء مع سارقة. وإليكم ما حدث بالضبط: أصغت مي-جا إلى كلّ ما طلبت منها أمي أن تفعله، لكنّها قلّدت ما كنتُ أفعله أنا. أريتها طريقة زرع درنات البطاطا، ثمّ الدوس على التربة كي لا تجرفها الريح بعيداً. قضينا الوقت الباقي في اقتلاع الحشائش وتهوية التربة باستخدام مجرفة ثلاثية الشُعَب.

حين تغيّر الضوء، وبدأت السماء تتوهج باللون القرمزي، ساعدتنا مي-جا في حزم أغراضنا. قالت أمّي: «أراك في الغد. لا حاجة بك لإخبار عمّك وعمّتك».

انحنت مي-جا بشدّة مرّاتٍ عديدة. انطلقت أمّي بعد إبداء الامتنان لهذا، وكنتُ على وشك اللحاق بها حين استوقفتني مي-جا. - «أريد أن أريك شيئاً»، قالتُ وسحبتُ الكتاب من تحت كمّها. التقتُ أعيننا. قدّمت الكتاب إليّ بيديها الاثنتين وبشعائرية لم أرها إلّا في طقوس عبادة الأسلاف، «يمكنك حمله وإلقاء نظرة عليه إذا أردت». لم أكن واثقةً من أنني أريد ذلك، لكنني أخذته على أيّة حال. كان ضئيلاً وذا غلافٍ جلديّ. «إنّه كلّ ما تبقى لي من والدي. افتحيه».

فتحتّه. كانت أوراقه مصنوعة من ورق الأرزّ. وافترضتُ أنّ الكتابة كانت باليابانية، لكن كان من الممكن أن تكون بالكوريّة. في وسط الكتاب كانت هناك بضعة أوراق ممدوسة على نحوٍ غير متطابق. قلبتُ الصفحات وصولاً إلى تلك الممدوسة فاكتشفتُ أنّها كانتا قد مُزّقت من الكتاب. بدا ذلك قلة احترام، لكنني لاحظتُ أنّ مي-جا كانت تبتسم.

- «انظري ما الذي فعلته»، قالت لي وهي تسترجع الكتاب. «هذا رسمٌ شفيفٌ أنجزته عبر فركٍ نقشٍ كان في شقّتنا في جيجو المدينة. وهذا تشفيّفٌ للمفاصل المعدنية في نعش أبي، أنجزته هذا يوم اصطحبتني العمّة لي-أوك. وهذا عبارةٌ عن نمط الأرضية في غرفتي القديمة. كانت هذه طريقي الوحيدة لحفظ ذكرياتي».

حاولتُ طوال الوقت أن أتخيّل كيف كانت حياتها؛ العيش في المدينة، مع غرفةٍ خاصّةٍ بها، مليئةٍ بالكتب.

- «قامت عمّتي ببيع كلّ أغراضنا . قالت أنّ لا أحد في هادو يريد رؤية شيء يُذكّر بوالدي . قالت أيضاً أنّها ستستخدم المال لتأمين الطعام لي وإعادتي إلى المدرسة . الآن وبعد أن أصبحتُ هنا . . . » .
مطّت ذقنها إلى الأمام . «ليس لديكم مدرسة للبنات هنا . لا بدّ أنّ عمّتي كانت تعرف ذلك . إنّها تعتقد أنّ والدي كان رجلاً سيّئاً ، لذا فهي لا تطعمني شيئاً أكثر من الأعشاب البحرية وبعض الكيمتشي . صُرف مال والدي على شراء الخنازير و . . . لا أعرف . . . » . بعد أن سكّنت لبرهة ، تبدّدت سوادويّتها . «أنتِ وأمّكِ ألطف شخصين قابلتُهما منذ مجيئي إلى هنا ، وهذا أفضل يوم عشته منذ وفاة والدي . دعينا نصنع ذكرى لهذا المكان . فنستطيع بذلك تذكّر هذا اليوم إلى الأبد» .

دون أن تنتظر موافقتي ، مرّقت صفحةً من الكتاب ، ووضعتها فوق إحدى الصخور عند مدخل حقلنا ، ثمّ سحبت قطعة الفحم من جيبها وجعلتْ تفركها على الورقة . لم تكن الصخور تمثّل شيئاً مميّزاً بالنسبة لي ، لقد كانت في كلّ مكانٍ حولي . لكن حين وضعتْ مي-جا الصورة الظليلة في يدي ، رأيتُ النمط الخاص بحجارة مسقط رأسي الخشنة ، بينما كانت الكلمات غير المفهومة الجاثمة أسفل التظليل جزءاً من عالم لن أعرفه أو أفهمه أبداً . كانت الثقوب الصغيرة التي أحدثها الفحم والصخرة في الورقة أشبه بالاحتمالات اللانهائية التي تعدّ بها النجوم في سماء الليل . شعرتُ أنّني مُنحتُ شيئاً مميّزاً للغاية كي أحافظ عليه ، وعبرْتُ عن ذلك صراحةً .

قدّرت مي-جا ذلك ، ثمّ زمّت شفتيها وهزّت رأسها بإيماءة صغيرة ، دسّت الورقة داخل الكتاب وقالت : «سوف أحفظ بها ، لكنّها ذكرانا معاً . سنعرف دائماً أين نعر عليها مهما حدث» .

حين تكون في السابعة، يمكنك أن تقول إنكما ستبقيان أعزّ الأصدقاء إلى الأبد. نادراً ما تنتهي الأمور على هذا النحو. لكن مي-جا وأنا كنّا مختلفتين. كنّا نصبح مقربتين أكثر فأكثر مع كل فصل يمرّ بينما واصل عمّ مي-جا وعمّتها معاملتها بطريقة مروّعة. كانت بمثابة العبد أو الخادمة بالنسبة إليهما. نامت في مخزن الحبوب - الذي بالكاد يبلغ قطره المتر الواحد - الواقع بين المنزل الرئيسي والمرحاض، مع الخنازير والرائحة الفظيعة هناك. علّمتها القيام بالأعمال المنزلية والأغاني الخاصة بطحن الدخن، وحياسة قبعات الشعر، وصناعة شبك صيد الأنشوفة، وجمع فضلات الخنازير من أجل حقولنا، والحراثة، والغرس، وجزّ الأعشاب، وكافأني بالمقابل بواسطة خيالها.

لدينا الكثير من الأقوال المأثورة في جزيرة جيغو. يقول أحدها: أينما كنت في جيغو، يمكنك رؤية الجدة سيولمونداي. لكننا نقول أيضاً: الجدة سيولمونداي تعني بنا جميعاً. أينما ذهبنا مع مي-جا - سواء ذهبنا إلى الحقول، أو مشينا على الشاطئ، أو ركضنا الدقائق التي يستغرقها الوصول من حيّها إلى حيّا داخل حدود هادو الكبرى - استطعنا أينما ذهبنا رؤية الجدة سيولمونداي ترتفع لتعانق السماء. في الشتاء كانت الثلوج تغطي قمّتها. عندها تصبح الأعمال الروتينية أكثر صعوبة: نقل الماء في الصباحات التي تنخر برودتها العظام، والسير على أرض بيضاء بالجليد أو الثلج والرياح حادة لدرجة أنّها تخترق ملابسنا كما لو كنّا لا نرتدي شيئاً.

في الشهرين الأوّلين، ساعدنا أمّي في تعشيب محاصيلنا من الدخن واللفت، فقد كان معروفاً أنّ رُكّب الرجال متصلبة أكثر من أن تستطيع القيام بهذا العمل، كما أنّهم كانوا يدخلون من حمل المناجل والمعاول. اشتهرت جيغو بحبوبها الخمس - الأرز، الشعير، فول

الصويا، الدُخن، ودُخن ذيل الثعلب. كان الأرضَ خاصّاً باحتفال السنة الجديدة، لكن فقط إذا وُفرت أمّي ما يكفي من المال لشرائه. الشعير كان للأثرياء الذين عاشوا في جيّجو المدينة وفي منطقة الجبل الأوسط. أمّا الدُخن فكان للفقراء، كان الطعام الذي ملأ بطوننا، بينما استطعنا استخراج الزيت من بذور اللفت، لذا كان المحصولان شديداً الأهميّة بالنسبة لنا.

في ذلك الشتاء الأوّل، وُظفت أمّي أيضاً مي-جا كعاملٍ في جماعة الغوص. «سأسمح لكِ بمشاركة الوجبة الجماعية معنا بعد أن أعود مع الهينيو الأخريات من البحر»، قالت الأمّ. «أبقى النار مشتعلة وفمكِ مغلقاً، وسوف لن يزعجكِ أحد». لذا فقد دخلتُ مي-جا إلى البولتيوك قبلي بوقتٍ طويل. جمعت الحطب، وأبقت النيران متّقدة داخل الحفرة. كما ساعدت في فرز قنافذ البحر، والمحار، وأنواع الأعشاب البحرية التي أحضرتها النساء إلى الشاطئ.

لم يعجب هذا جدّتي التي قالت: «لا يمكن لأحدٍ أن يزيل وصمة العار الناجمة عن أنشطة والدها لصالح اليابانيين، ولهذا السبب لن يقوم أحدٌ غيرك بتوظيفها لإنجاز مهامّ روتينية كما قد يفعلون مع أيّ يتيم آخر».

لكنّ أمّي أخذت موقفاً حازماً بهذا الصدد. «حين أنظر إليها، أرى فتاةً ستكون على الدوام متحفّزة ومدفوعةً بقوة الذكاء والجوع». في الربيع كانت أزهار الأزاليا تشعّ حتى من مسافةٍ بعيدة بألوان قرمزية وأرجوانية على خاصرتيّ الجدّة سيولمونداي. توهّجت حقول اللفت بلونٍ أصفر كضوء الشمس. كنّا نحصد محاصيلنا من الحبوب، ونحرث حقولنا يدوياً، ثمّ نزرع الفاصولياء الحمراء والبطاطس الحلوة. في نهاية الربيع، كانت كلّ عائلةٍ عبر الجزيرة تنزع القشّ عن أسطح منازلها. عمّ مي-جا وعمّتها جعلهاا ترخّل القشّ القديم،

وتجلبب القش الجديد، ثم تبذل كلَّ ما بوسعها لتميرير الحجارة إلى الرجال في الأعلى لتثقيل القش وإبقائه في مكانه. حين انتهت من ذلك، جاءت إلى منزلي حيث سمحتُ لها أمي بمساعدتي في التنقيب داخل قشنا القديم بحثاً عن يرقات الحشرات التي كانت أمي تغليها لنا للأكل.

جلب الصيف برودة اللون الأخضر إلى منحدرات الجدة سيولمونداي، لكنَّ كلَّ شيءٍ آخر كان حاراً ورطباً وممطراً. أعطتني أمي أول عوامة تيواك لي، كانت قد صنعتها بنفسها. كنتُ شديدة الفخر بعوامتي، ولم أمانع مشاركتها مع مي-جا قليلاً. نظراً لأنها كانت تعيش في مدينة جيجو، ولا أمَّ لها كي تقتدي بها، فهي لم تكن تعرف السباحة. أخذتها إلى بُرك المدّ حيث كنتُ ألعب بعمر الثالثة والرابعة. وذهبنا في أكثر أيام الصيف حرارة إلى خليج ضحل كي نبرد أنفسنا ونمرح مع أطفال هادو. كانت الأختان كانغ هناك دائماً، وكنا نحب الاستماع إلى شجاراتهما التي لا تنتهي. اعتادت يو-ري أن تأتي مع شقيقها جون-بو الذي كان ينضمُّ إلى الأولاد من سنّه للغطس من فوق الجدار الصخري في البحر المفتوح غير المحمي. أحيبنا مشاهدة هؤلاء الأولاد؛ جون-بو على وجه الخصوص. ولطالما تساءلنا كيف يمكن لشخصٍ مجتهد أن يضحك على هذا النحو الممتلئ بهجة وحبوراً.

كانت أمي وبعض الهينيو الأخريات يُعدن أحياناً في منتصف النهار إلى الشاطئ لإرضاع أطفالهنّ. راقبتنا الأمّهات من هناك، ونادَيْنَا أن نركل بقوة أكبر أو نأخذ أنفاساً أعمق كي نبني رثائنا بصورة أفضل. لكن لم يكن لدى الأمّهات غالباً الوقت للعودة إلى الشاطئ خلال أيّام عملهنّ، وهو ما جعل هواء فترة ما بعد الظهر محملاً بأصوات أطفالٍ يعوون من الجوع وهمهمات آباءٍ يحاولون تهدئتهم دون جدوى، فالأم فقط من لديها الحليب. أصبحت مي-جا

بحلول نهاية صيفنا الثاني تسبح بشكل جيد، وبدأنا نتمرّن على الغوص لمسافة مترٍ أو نحو ذلك كي نقوم إحدانا بإخفاء شيءٍ ما تحت صخرة وتحاول الأخرى العثور عليه أو للمس شقائق النعمان البحرية ومشاهدتها وهي تنكمش منغلقةً على نفسها.

لم يكن الصيف بالطبع من أجل اللعب فقط. حصدنا خلال الشهر السادس من التقويم القمري الشعير وجفّفناه في الفناء بين المنزلين الكبير والصغير. ساعدنا أمّي على ذبح ديكٍ في طقسٍ احتفالي؛ وقدّمناه لجَدَّتِي كي تبقى حصينةً من أمراض الشيخوخة. تعلّمنا كيف نمزج الرماد مع أعشاب البحر لصنع السماد الذي حملناه إلى حقولنا. زرّعنا الحنطة السوداء، وعشّبنا الحقل مراراً وتكراراً. في حوالي اليوم السابع من الشهر السابع بحسب التقويم القمري (وهو شهر أغسطس في التقويم الغربي)، كنّا دائماً نصنع الجال-أوت، وهو نوعٌ خاصٌّ من القماش مصبوغٌ بعصير فاكهة الكاكي غير الناضجة بعد. يَمنع حمض التانين الموجود في الفاكهة القماش من التقاط الروائح أو إطلاقها، ما يعني أنّه كان في وسعنا ارتداء الجال-أوت لأيّام وأسابيع دون أن يصبح كريه الرائحة، كما أنّه مقاومٌ للماء وطاردٌ للبعوض. لم تكن شعيرات الشعير الخشنة لتلتصق بهذا النوع من القماش، ولأنّ عصير الكاكي كان بمثابة مقوٍّ للقماش لم تتمزّق ثيابنا حتّى عندما كنّا ننطلق بها بين الأشواك. استخدمنا الجال-أوت لكلّ شيء. حتّى أنّ مي-جا تخلّت عن ثيابها المدنية الفاخرة وارتدت سراويل وقمصان وسترات من الجال-أوت. كانت ملابسي تُمرّر إلى إخوتي وأختي، لكنّ مي-جا كانت تحتفظ بملابسها. قالت لي: «حين يصبح لديّ أطفال، سأستخدم القماش الطريّ للبطانيّات والحفاضات». لم تكن قد خطرتُ بعد ببالي فكرة أنّه ربّما سيكون لي طفلٌ ذات يوم.

كانت منحدرات الجدة سيولمونداي تلتهب كلَّ خريفٍ بالأوراق الصفراء والبرتقالية والحمراء. أحببتُ ومي-جا في هذا الوقت من السنة تسلّق الأوريوم، تلك المخاريط البركانية الصغيرة التي أنجبها الجدة سيولمونداي عند ثورانها. جلسنا معاً حيث انتشرت الحقول المسوّرة أسفل منّا مثل لحافٍ كبير، والسماء الصافية فوقنا، والمحيط المتلألئ إلى الأمام منّا. كانت تعلو الأوريوم الأكثر ارتفاعاً أبراج مراقبةٍ قديمة، حيث حدّرت نيران المنارة ذات يوم سكّان الجزيرة من قراصنةٍ يقتربون. كنّا نتحدّث ونتحدّث. أحببتُ سماع قصصٍ عن مدينة جيجو. بدت كلُّ قصّةٍ أروع من سابقتها بالنسبة لي.

ذكرت مي-جا ذات يوم أنّ مدينة جيجو مزوّدة بالكهرباء. حين اعترفتُ لها أنّني لا أعرف ما كان ذلك، ضحكت وقالت: «إنّها تضيء الغرفة دون إشعال عصارة الصنوبر أو الزيت. ثمّة مصابيح في الشوارع. وأضواءٌ ملوّنة تنير واجهات المتاجر. إنّها...». تغصّنت المسافة التي تفصل بين حاجبيها وهي تفكّر في أفضل طريقة لوصف شيءٍ غير مدركٍ بالنسبة لي. «إنّها يابانيّة!».

كانت مي-جا ووالدها يملكان أيضاً جهاز راديو. قالت إنّهُ عبارةٌ عن صندوقٍ تخرج منه الأصوات، صُنِع في اليابان أيضاً. عجزتُ عن تخيّل هذا الشيء أيضاً. كما أربكتني فكرة أن يكون لدى ذوي الحوافر الكثير من الاختراعات الرائعة.

حدّثتني عن سيّارة والدها - سيّارة! - وكيف كان يقودها في أرجاء الجزيرة فوق الطرق التي كان اليابانيون قد بنوها، بينما كان كلُّ ما تمكّنتُ من رؤيته هو عرباتُ تجرّها الأحصنة، وعلى فترات متباعدة الشاحنة التي كانت تأتي إلى قريتنا كي تُقلّ الهينيو المغادرات للعمل في البحر بعيداً عن الديار. «كان والدي يدير طواقم بناء الطرق

لليابانيين»، شرحت مي-جا. «لقد ربطوا بمساعدته أجزاء الجزيرة الأربعة معاً لأول مرة!».

كلُّ ما كنتُ أعرفه في هذا العالم هو هادو. - «كان والدي شخصاً محترماً جداً»، أخبرتني مي-جا. «لقد أحبّني، واعتنى بي. اشترى لي الألعاب والياب الجميلة».

- «كما أنّه قام بإطعامك»، شجّعتهُا على المتابعة لأنني كنتُ أحبُّ أن أسمع عن كلّ الأطباق التي كانت تتناولها ولم أذوّقها في حياتي - نودلز الحنطة السوداء مع لحم طائر التدرج، أو لحم الحصان المتبل المشوي من منطقة الجبل الأوسط. بدا كلّ هذا بالنسبة لفتاة لم تتذوّق شيئاً أكثر من لحم الخنزير والمخلوقات البحرية؛ بدا غير معقول لكنّه لذيذٌ جداً. وفوق كلّ شيء كان هناك السُّكر....

- «تخيّلني أن تأكلي شيئاً يجعلك تبتسمين بشدّة حتّى يؤلمك وجهك. هذا ما يحدث حين تأكلين الحلوى أو المثلّجات أو أغاوشي أو أنميتسو».

لكن متى كان سيتسنّى لي أن أكل حلوى غربية أو يابانية؟ لن يحدث ذلك أبداً.

كان لدى مي-جا في مدينة جيجو «رفاقُ لعب»، وهو شيءٌ آخر لم أتمكّن من فهمه، ليس حتّى عندما شرحتُ عن اللمس والاختباء والبحث. مَنْ كان ليهمّ بالألعاب لا تعلّمك شيئاً عملياً مثل كيفية الغوص بحثاً عن أنواع القواقع أو جمع الأعشاب البحرية؟ كان من الصعب أيضاً تخيّل العيش في منزلٍ له حديقةٌ خاصّة مُلحقة به مع أشجار فاكهة وبُركة ماء قام الخدم بتربية الأسماك فيها للأسرة بحيث كان من المستحيل أن تشعر مي-جا بالجوع يوماً.

كانت مي-جا مدركةً لكلِّ ما كانت قد خسرتّه، لذا كانت في

بعض الأحيان تصاب بالإحباط لدى الحديث عن ماضيها الذي كان ممتعاً بالنسبة لي. عندها كنتُ أقترح عليها إحضار كتاب والدها. كنّا نجلس جنباً إلى جنب ونقلب الصفحات سوياً. كان عبارةً عن كتيبٍ استخدمه والدها في أسفاره حول الجزيرة. كان لا يزال بإمكان مي-جا في البداية تذكر معنى رمزٍ هنا أو هناك - زيت، شرق، طريق، جبل، جسر - لكن بمرور الأشهر، وفي ظلّ عدم وجود أحدٍ ليواظب على تذكيرها فقد تضاءلت قدرتها على القراءة. مع ذلك، كان ثمّة شيءٌ غامض، بل شيءٌ سحري في تلك الرموز على الصفحة، وكانت مي-جا تحبُّ أن تمرّر إصبعها على خطّ عموديٍّ و«تقرأ» لي قصصاً تختلقها عن الآلهة والأمّهات.

ثمّة قولٌ مأثور مفاده أنّك لا تكون أثناء المطر مدركاً أنّ ملابسك آخذةٌ في الابتلال، يتحدث هذا القول عن التغييرات التدريجية، وهو يقبل التفسير على وجهين، أحدهما إيجابيّ والآخر سلبيّ. يمكن للقصّة الإيجابية أن تنطوي على صداقةٍ تنمو وتتطور بمرور الوقت. أنتما أولاً مجرد معارف، ثمّ تصبحان أصدقاء، ثمّ يتطور الأمر إلى علاقةٍ أوثق حتّى تدركان أنّكما واقعان في الحبّ. وقد يتضمّن المثال الأكثر قتامة مجرماً؛ شخصٌ يسرق شيئاً صغيراً، ثمّ شيئاً أكبر، حتّى يتحوّل في النهاية إلى لصٍّ حقيقيٍّ. المسألة هنا هي أنّك لا تكون مدركاً لمدى تعرّضك للبلل حين يبدأ المطر بالهطول. لكن وعلى عكس معظم البشر، كان لدينا أنا ومي-جا دليلٌ مادي على أنّنا نصبح أكثر قرباً بمرور الوقت، إذ كنّا كما قالت في يومنا الأول نقبض على لحظّاتنا عبر قيامنا بفرك الفحم على تلك الصفحات. لم تخجل مي-جا يوماً من تمزيق صفحة من كتاب والدها كي نتمكّن من فركها معاً رغم قيمته العظيمة بالنسبة لها. كانت إحدانا تمسك الورقة والأخرى تفرك قطعة الفحم فوقها بحيث نستطيع

التقاط الخطوط الناتئة لصدفةٍ تمَّ الفوز بها في مسابقةٍ للسباحة، أو نمط باب منزلي الخشبي في أوّل مرة سُمح لها بقضاء الليلة عندنا، أو سطح عوامتها التيواك التي صنعتها لها أمّي كما لو كانت ابنةً حقيقية.

عندما بلغنا التاسعة، ساعدت نساء الهينيو من هادو في التخطيط لاحتجاجات مناهضةٍ لليابانيين على مستوى الجزيرة. كانت أمّي قد بدأت في الحضور إلى مدرسة هادو الليلية. لا أستطيع القول أنّها حققت الكثير فيما يتعلّق بتعلّم القراءة والكتابة، لكنّها تعلّمت مع صديقاتها كيف يقمن بوزن صيدهنّ كي لا تتعرّضن للغشّ. لقد تعلّمت أيضاً عن حقوقها. إذ قامت مجموعةٌ من خمس نساء هينيو بتأثيرٍ وإلهامٍ من مدرّسٍ شاب - مثقّفٍ ويساريّ بحسب تعبير أمّي - بتشكيل عصبة تهدف لمحاربة القوانين التي فرضها اليابانيون على النساء الغوّاصات. لم تكن والدتي جزءاً من تلك العصبة الأصلية. لكنّها كانت تردّد ما تلتقطه منهم.

- «اليابانيون لا يدفعون لنا سعراً عادلاً. هم يأخذون نسبةً عاليةً جداً لأنفسهم. أربعون بالمئة! كيف يفترض بنا التعايش مع ذلك؟ كما أنّ بعض موظفيهم - العملاء - يقومون بتهريب محصولنا من الأغار-أغار^(*) عبر ميناء جيغو المدينة لمنفعتهم الخاصّة».

العملاء. انكمشتُ مي-جا على نفسها، وارتفع كتفها أقرب إلى أذنيها. وضعت أمّي يدها على عنق مي-جا لتهدئتها.

- «المقاومة»، تابعت أمّي. «يجب علينا المقاومة».

(*) الأغار-أغار: مادة مستخرجة من الطحالب البحرية الحمراء، وهي غنية بالبروتين وتُستخدم كبديل للجيلاتين الحيواني - المترجم.

انتقلت الأخبار من فم امرأة إلى أذن الأخرى، من مجموعة إلى مجموعة ثانية، حتّى عمّت الجزيرة بالكامل. قال اليابانيون بعد أن سمعوا الكثير من الشكاوي أنهم سيجرون تغييرات.

- «غير أنهم كذبوا علينا!»، بصقت أمّي. «مرّت أشهرٌ —». حذّرتها جدّتي التي كانت تكره اليابانيين أكثر من أيّ شخصٍ عرفته. «يجب أن تكوني حذرة».

لكنّ الأوان كان قد فات على ذلك، لأنّ الخطّة كانت قد وُضعت بالفعل. في صباح محدّد، حين تفتتح قرية سيهوا سوق الأيّام الخمسة خاصّتها، ستخرج الهينيو في مسيرةٍ من هادو إلى السوق، حيث سيجمعنّ المزيد من الهينيو. ثم يمضينّ قدماً من هناك إلى مقر المقاطعة في بيونغداي لتقديم مطالبهنّ. كانت الجميع متحمّسات، لكنهنّ متوتّرات أيضاً، فلا يمكن لأحدٍ أن يخمّن كيف سيكون ردّ فعل اليابانيين.

في الليلة التي سبقت المسيرة، بقيت مي-جا في منزلنا. كان ذلك في أوائل يناير والطقس بارداً جداً كي نكون في الخارج نحدّق في النجوم، لكنّ أبي أخذ أخي الثالث الأصغر ليرى إن كان بإمكانه أن يجعله يغفو عبر السير به في الخارج. طلبت منّا أمّي أن ننضمّ إليها هي وجدّتي في الغرفة الرئيسية.

- «هل تريدان الذهاب غداً؟»، سألتني أمّي.
- «نعم! أرجوك!». غمرني الحماس لكون هذا السؤال قد طرح عليّ.

أبقت مي-جا رأسها مطرقاً. أحبّت أمّي مي-جا وقد فعلت الكثير من الأشياء لأجلها، لكن ربّما كانت الدعوة إلى تجمّع مناهض لليابانيين شيئاً أكثر ممّا يجدر بها أن تتوقّعه.

- «لقد تحدّثتُ إلى عمّتكِ»، قالت أمّي لمي-جا. «يا لها من

نظرت مي-جا للأعلى وقد امتلأت عيناها أملاً على نحوٍ مشيرٍ للشفقة.

- «قلتُ لها أنكِ إن رافقتنا فقد ينفع هذا كثيراً في تبيض صفحة أهلك من أفعاله في الماضي»، تابعت أمي.

- «أيسيسي»، هتفت مي-جا بفرح.

- «لذا فقد تمَّ ترتيب كلِّ شيء. والآن أنصتا للجدّة».

جثمت مي-جا بجانبني. غالباً ما أخبرتنا جدّتي بقصص كانت قد سمعتها من جدّتها والتي بدورها سمعتها من جدّتها أيضاً، وهكذا دواليك. تعلّمنا من خلال الجدّة عن الماضي، لكننا أيضاً تعلّمنا عمّا كان يحدث في العالم من حولنا. لا بدّ أنّ أمي أرادت تذكيرنا ببعض هذه الأشياء قبل المسيرة.

- «كان يا ما كان في قديم الزمان»، بدأت جدّتي، «كان هناك ثلاثة أشقاء - كو، بو، ويانغ - قد انبثقوا من الأرض ليصبحوا مؤسّسي جيجو. لقد عملوا بجدّ، لكنهم كانوا وحيدين. ذات يوم، وصلت ثلاث أميرات شقيقات في قاربٍ مليء بالخيل والماشية وبذور الحبوب الخمس، والتي أعطتها لهنّ هالمانغ جاتشونغبي، إلهة الحبّ. معاً، أنشأ هؤلاء الأزواج مملكة تامنا التي دامت ألف عام».

- «تامنا تعني "بلاد الجزيرة"»، ردّدت مي-جا لتوضّح كم استوعبت من الحكايات السابقة.

- «كان أسلافنا التامنا بحّارة»، تابعت جدّتي. «لقد مارسوا التجارة مع البلدان الأخرى. وعبر النظر دائماً نحو العالم الخارجي، علّمونا أن نكون مستقلّين. هم الذين أعطونا لغتنا —».

قاطعته مي-جا مجدّداً: «لكنّ أبي قال إنّ لغة جيجو تحوي

أيضاً على كلمات من الصين ومنغوليا وروسيا ودولٍ أخرى أيضاً، مثل اليابان وفيجي وأوقيانوسيا. لدينا حتى كلمات كورية ترجع إلى مئات وآلاف السنين. هذا ما قاله...».

تراجع صوت مي-جا. يمكن أن يعثرها الحماس في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تحبُّ التباهي بالمعارف التي اكتسبتها في جيغو المدينة، لكنَّ جدتي لم تحبَّ أبداً أن يتمَّ تذكيرها بوالد مي-جا، لكنَّها الليلة أكملت كلامها ببساطة بدلاً من أن تهسّس مستهجنة. «علّمتنا التامنا أنَّ العالم الخارجي يمثل خطراً حقيقياً. كنّا لقرونٍ في صراعٍ مع اليابانيين الذين كان عليهم أن يمروا بنا في طريقهم —».

- «من أجل نهب الصين»، قلت. لم أكن قد سمعتُ بفيجي أو أوقيانوسيا، لكنني كنتُ أعرف بعض الأشياء أيضاً.

أومات جدتي برأسها، لكنَّ نظرتها المتدمرة جعلتني أتخذُ قراراً بإبقاء فمي مغلقاً من الآن فصاعداً. «منذ حوالي سبعمئة سنة، غزا المغول جيغو. قاموا بتربية واستيلاء الخيول في منطقة الجبل الأوسط. أطلقوا على الجزيرة اسم إله الخيول حارس النجوم. لهذه الدرجة كانوا يحبّون مراعيها. استخدم المغول جيغو أيضاً كنقطة انطلاق لغزو اليابان والصين. مع ذلك، لا يمكننا أن نكرهم بشدة، فقد تزوّج الكثير منهم نساءً من جيغو. يقول البعض إننا اكتسبنا قوتنا وقدرتنا على المثابرة منهم».

صبّت أمي الماء الساخن في أكواب لنشره. حالما انتهت من ذلك، استأنفت الحديث من حيث كانت جدتي قد توقفت. «أصبحنا قبل خمسمئة عام جزءاً من كوريا وصار الملوك حكاماً لنا. كنّا في الغالب نُترك وشأننا، حيث رأى كلّ ملك هذه الجزيرة كمنفىٍ للأرستقراطيين والمثقفين الذين عارضوه. أحضر هؤلاء معهم

الكونفوشيوسية التي تعلّم أنّ النظم الاجتماعية تقوم على —».

- «الفرد، الأسرة، البلد، والعالم»، ردّدت مي-جا. «هم يؤمنون أنّ كلّ شخصٍ على وجه الأرض يعيش تحت سلطة شخصٍ آخر - الناس تحت سلطة الملك، الأطفال تحت سلطة والديهم، والزوجات تحت سلطة أزواجهنّ —».

- «والآن لدينا اليابانيّون»، شخرت جدّتي بتذمّر. «لقد حوّلونا إلى نقطة انطلاق مجدّداً، فبنوا المطارات على جزيرتنا كي تتمكّن طائراتهم من الإقلاع لقصف الصين —».

- «ليس بمقدورنا إيقاف كلّ شيء»، قاطعتها أمّي. «لكن ربّما نستطيع فرض بعض التغيير. أريد لكما أيّتها الفتاتان أن تكونا جزءاً من ذلك».

كانت مي-جا في الصباح التالي تنتظرنا في البقعة المعتادة من الزقاق. كان الهواء جليدياً وتطاير البخار من أفواهنا. تابعنا السير عبر الأزقة، وأخذنا في طريقنا دو-سانغ ويو-ري، ونساء وفتيات أخريات، ارتدينا جميعاً مناديل غطسٍ بيضاء كي نعلن عن أنفسنا كهينيو في الماضي والحاضر والمستقبل.

- «نعم لاستقلال كوريا!»، صرخنا ملء حناجرنا.

- «أوقفوا استغلال العمالة!»، صدحت أصواتنا معاً.

لطالما كان سوق الأيّام الخمسة في سيهوا مزدحماً، لكنّه كان في ذلك اليوم أكثر ازدحاماً من العادة. تناوبت القائدات الخمس من مدرسة هادو الليلية على إلقاء الخطب. «انضمّمن إلينا في مسيرتنا إلى مقر المقاطعة. ساعدننا في إيصال مطالبنا. نحن أقوى حين نغوص معاً. نحن أقوى حين نتحدّ جماعاتنا. سوف نرغم اليابانيين على الإصغاء!».

قادت الهينيو من المستوى الأعلى مسيرتنا، لكن حضور

الجَدَّات اللواتي يتذكَّرن أوقاتاً قبل وصول اليابانيين، والفتيات مثلي ومثل مي-جا اللواتي عِشن حياتهنَّ بالكامل في ظلَّ الحكم الياباني؛ كلُّ هذا كان بمثابة تذكيرٍ للجميع بهدفنا. لم يكن هذا مجرد احتجاج على ضريبة الأربعين بالمئة التي يفرضها اليابانيون على الهينيو. بل كان الأمر يتعلَّق بحريَّتنا ونهجنا المستقلَّ في جيجو. كان يتعلَّق بقوة وشجاعة نساء جيجو.

ومضتُ عينا مي-جا على نحوٍ لم أره من قبل. هي غالباً ما شعرت أنَّها وحيدة، لكنَّها باتت الآن جزءاً من شيءٍ أكبر بكثير. وقد كانت أمِّي على حقٍّ، حيث بدا أنَّ وجود مي-جا قد ترك انطباعاً لدى نساء مجموعتنا، لأنَّ كثيراً منهنَّ تعمَّدن الاقتراب والمشي بجانبها لبعض الوقت من أجل سماعها وهي تصرخ: «نعم لاستقلال كوريا!». أنا أيضاً كنتُ متحمَّسة، لكن لأسباب مختلفة جداً. كانت هذه أبعد مسافةٍ أقطعها بعيداً عن المنزل. وكان لديَّ مي-جا بقربي. أمسكت إحداها بيد الأخرى، فيما رفعنا اليدين الأخريين وقد شددنا قبضتينا بينما كنَّا نصرخ بالشعارات. كنَّا نصبح أكثر قرباً من بعضنا - مع كلِّ ما كنْتُ قد علِّمتُها إياه، وكل الخيال والقصص والفرح الذي منحته لي - إلَّا أنَّنا في هذه اللحظة كنَّا شخصاً واحداً بحقٍّ.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى بيونغداي، كانت قد اجتمعت آلاف النساء. شبكنا أنا ومي-جا ذراعينا، مشت أمِّي ودو-سانغ كتفاً إلى كتف. دخلنا المجمع الخاصّ بمقرِّ المقاطعة. صعدت القائدات الخمس درجات المبنى الرئيسي وبدأن في مخاطبة الحشد. كانت الخطابات تشبه إلى حدٍّ ما تلك التي ألقوها في سوق الأيام الخمسة، لكن بدا أنَّها تولَّد الآن طاقةً أكبر مع الكثير النساء اللواتي يستمعن ويتفاعلن، ومع صيحاتٍ تُهلِّل لما قيل توّاً.

- «أنهوا الاحتلال!»، هتفتُ كانغ غو-جا.

- «الحرية لجيجو!»، زارت كانغ غو-سُن.

لكن لا صوت استطاع أن يعلو فوق صوت والدتي. «الاستقلال لكوريا!» مع كل ما فعلته أمي في حياتها، ومع كل ما قامت به لحماية وإلهام النساء في جماعة الغوص، لكن هذه كانت أعظم لحظات فخري بها.

جاء الجنود اليابانيون للوقوف بين النساء الخمس والباب الأمامي لمقر المقاطعة. اتخذ جنود آخرون مواقعهم على أطراف الحشد. كان الوضع متوتراً مع كثير من الناس المحشورين معاً. في النهاية، فُتح الباب، وخرج رجل ياباني. بحكم العادة، أو ربّما بحكم الخوف، انحنت نساء هادو الخمس بشدة. مدّت المرأة التي في المنتصف يدها لتقدّم قائمة المطالب وهي لا تزال بوضع الانحناء ذاته. أخذ الرجل الورقة بصمت، وعاد إلى الداخل وأغلق الباب. نظرنا جميعاً إلى أحدها الآخر. ماذا الآن؟ الآن لا شيء، لأنّه لن تكون هناك مفاوضات في ذلك اليوم. وعدنا جميعاً إلى قرانا.

كان علينا أنا ومي-جا أن نصنع ذكرى قبل مغادرتنا. أشرتُ إلى رمز ياباني محفور على باب أحد أبنية المجمع. كانت أمي تتحدّث إلى صديقاتها، والجنود قد فقدوا اهتمامهم بعد انتهاء الإثارة، لذا فإنّ أحداً لم ينتبه لنا ونحن نتّجه نحو الباب ونباشر طقوسنا. ربّما لم تكن تلك الفكرة الأفضل، إذ حدث شيئان في وقتٍ واحد: ركض أربعة حراس ليروا ما الذي كنّا نفعله، وصرخت أمي فينا: «ابتعدا من هناك في الحال!». اندفعنا مسرعتين داخل جمهرة النساء نحو الأم، مي-جا القابضة بيدها على قطعة الفحم بإحكام، وأنا المتشبّبة بالورقة بعد أن أنجزنا فرك الرمز. كانت أمي غاضبة، لكن حين نظرنا خلفنا إلى الجنود؛ رأينا كيف انحنوا مسندين أيديهم على رُكبهم من شدة

الضحك. مرّت سنين عدّة قبل أن نعرف أنّ الرمز الذي اخترناه يُضاف إلى كنز ذكرياتنا الثمين كان رمز المرحاض.

كانت مسيرتنا واحدةً من أكبر ثلاثة احتجاجات على الإطلاق نُظّمت ضدّ اليابانيين في عموم كوريا، وأكبرها بقيادة النساء، والأكبر في ذلك العام بسبعة عشر ألف مشارك. شكّلت مسيرتنا إلهاماً لأربعة آلاف مظاهرة أخرى في كوريا على مدى الاثني عشر شهراً التالية. وافق الحاكم الياباني الجديد لجيجو على بعض المطالب. ألغيت نسبة الاقتطاع، كما تمّ عزل بعض التجار الفاسدين من مناصبهم. كلُّ هذا كان جيّداً، لكنّ أشياء أخرى حدثت أيضاً. بدأنا نسمع عن اعتقالٍ تلو الآخر. أربع وثلاثون من الهينيو تمّ اعتقالهم بمن فيهم الخمسة القائدات من مدرسة هادو الليلية. كما اعتُقل العشرات أثناء حملة قمع ومداهمات تهدف لمنع أيّ احتجاجات إضافية. سرت شائعات مفادها أنّ بعض المعلّمين في مدرسة هادو الليلية هم من الاشتراكيين أو الشيوعيين، والعديد منهم تواروا عن الأنظار أو رحلوا بعيداً. لكنّ أيّاً من ذلك لم يمنع أمّي من حضور الدروس.

- «أتمنّى لو أنكما تستطيعان تعلّم القراءة والكتابة وإجراء العمليات الحسابية الأساسية، لأنّ ذلك سوف يساعدكما كثيراً إذا أصبحت إحداكما في المستقبل رئيسةً لجماعة هينيو»، قالت لنا أمّي. «إذا تمكّنتُ من ادّخار مالٍ كافٍ، فسأدفع لكلتيكما كي تأتيا معي إلى المدرسة».

بدا ذلك أخطر بكثير من السير في مظاهرة، لأنّ النساء اللواتي تمّ اعتقالهنّ كنّ بالتحديد محتجزاتٍ بسبب ما ألهمهنّ التعليم أن يُقدمنَ على فعله. لكنني كنتُ أريد أيّ شيءٍ تريده مي-جا، وقد

أرادت الذهاب بشدة. كانت أمي أملها الوحيد في ذلك.

بعد ثمانية أشهر من المظاهرة التي انطلقت من هادو، كنتُ وأمّي ومي-جا نمارس الأعمال الزراعية في حقلنا الجاف مجدداً. كانت إزالة الأعشاب الضارة عملاً فظيماً - الانحناء طوال اليوم، التبلل حتى العظام بالمطر أو العرق أو كليهما، الضجر الناجم عن الدقة المطلوبة في نزع النباتات المتطفلة دون الإضرار بجذور ما كنا نزرعه. قادتنا أمي في أغنية نداءٍ واستجابة كي تبقينا مشتتين عن إحساسنا بعدم الارتياح، لكنني ما كنتُ لأشتكي كثيراً بوجود مي-جا إلى جانبي. كانت قد أصبحت بارعةً في الأعمال الزراعية بعد أن عملتُ معنا لفترة طويلة. دفعتُ أمي أجراً طعماً، وكانت تطلب منها دائماً أن تأكله في حضورنا. «لا أريد أن يلتهم عمّك وعمّتك نتاج جهدك»، قالت أمي.

كنا نعشّب ونرّم غير منتبهتين للعالم خارج أسوار حقلنا الحجرية. لم يكن سمع أمي بحالٍ جيدة، لكن رؤيتها المحيطية كانت ممتازة، وكانت في يقظةٍ دائمة لأيّ نوعٍ من المخاطر. رأيّتها تثب والمجرفة في يدها، ثم تفلّتها من يدها، وتنزل على الأرض وتضع جبهتها فوق يديها المطويتين. سجّلتُ حدوث كلّ هذا خلال بضعة ثوانٍ فقط.

توقفت مي-جا عن الغناء بقربي. بدأتُ أرتجف رعباً لدى رؤيتي مجموعةً من الجنود اليابانيين تدخل الحقل.

- «اجثما»، همست أمي.

هويتُ مع مي-جا على الأرض واتّخذنا نفس وضعية أمي المتضرّعة. حفّز الذعر حواسي وجعلها أكثر تنبّهاً. سمعتُ صفير الريح

عبر الشقوق الحجرية، وغناء النساء على بعد بضعة حقولٍ منا. هدرت أحذية الجنود عبر الحقل أثناء اقترابهم. أملتُ رأسي كي أتمكن من إلقاء نظرة خاطفة عليهم. رأيتُ الرقيب - الذي كان يمكن التعرف عليه من حذائه الملمّع والشارة على سترته - وهو ينفض العصا التي يحملها ويضربها براحة يده الأخرى. أخفضتُ بصري نحو التراب.

- «أنتِ إحدى مفتعلات المشاكل، ألسيتِ كذلك؟»، سألَ أمي. تزامنت الأفكار في رأسي. لربّما جاؤوا كي يعتقلوها. لكن إن كانوا يعلمون بشأن تورّطها في الاحتجاجات، لكانوا الآن قد نالوا منها بالفعل. ثمّ خطر ببالي احتمالٌ أكثر سوءاً. ربّما وشى بها أحد الجيران. عُرف عن حدوث أشياء كهذه مؤخّراً. كان يمكن لمعلومةٍ معيّنة أن تُكسب العائلة كيساً من الأرز الأبيض.

- «دع الفتاتين تذهبان للمنزل»، قالت أمي. بدا لي ذلك أبعد ما يكون عن إعلان براءة.

ربّما كان مسألةً أخرى. كنتُ في العاشرة فحسب، لكنني حُذرتُ بالفعل ممّا قد يفعله الجنود بالنساء والفتيات. استرقتُ النظر مجدّداً، إذ كنتُ بحاجة إلى معرفة اللحظة حيث ينبغي بي أن أندفع راکضةً.

- «ماذا تزرعين هنا؟». لكز الرقيب أمي بمقدّمة حذائه. تصلّب جسدها فيما اعتقدتُ أنّه غضبٌ في البداية. كانت قد أثبتت مدى قوّتها كونها أصبحت رئيسة مجموعة هينيو، لذا لا بدّ أنّها كانت تتحصّر داخلياً لمقاتلتهم واحداً تلو الآخر. لكنني بعدئذٍ رأيتُ كيف كانت ملابسها تهتزُّ فوق جسدها. لقد كانت ترتجف خوفاً. «أجيبي!». رفع العصا فوق رأسه وهوى بها على ظهر الأمّ. ابتلعتُ صرخة الألم.

خلف الرقيب كان هناك رجال آخرون ينتزعون المزروعات

ويقحمونها في حقائب مربوطة بأكتافهم . لم تكن هذه الغزوة تتعلق بأنشطة أمي . ولم تكن حول فعلٍ أشياء سيئة لها أو لي أو لمي-جا . الأمر برمته كان حول سرقة طعامنا .

رفع الرقيب عصاه وكان على وشك أن يهوي بها مجدداً حين سمعتُ مي-جا تهمس باليابانية . «أرجوك لا تقتلع نباتاتنا من جذورها» .

- «ما كان ذلك؟» . اتجه الرقيب نحوها .

- «لا تلقِ لها بالاً» ، قالت أمي . «هي لا تعرف شيئاً . إنها جاهلة —» .

- «سوف أقطف لك بعض الأوراق» ، قالت مي-جا وهي تهمُّ بالتهوؤ . «هكذا يمكن أن يواصل المحصول نموّه، ويمكنك أن تعود مرةً أخرى» .

قبَضَ الصمت على حناجر الرجال وهم يحاولون استيعاب ما قالته وطريقتها في الكلام . كانت نبرتها ومخارج حروفها باليابانية شديدة الوضوح . وكانت هي جميلةً على النحو الذي سمعنا أن اليابانيين يفضلونه - ملامح شاحبة ودقيقة، مع ميلٍ فطريٍّ للخنوع . ضربها الرقيب بعصاه على ساقها العارية، حدث ذلك في ومضةٍ كانت أسرع من أن تتمكّن مي-جا من شدّ عضلاتها أو أن تحاول الابتعاد عن طريق العصا . سقطت فوق التراب . رفع العصا فوق رأسه وهوى بها مراراً وتكراراً . صرخت مي-جا من الألم، لكن أنا وأمّي لم نحرك ساكناً . أمسك أحد الجنود بإبزيم حزامه . وأخذ آخر يعضُّ شفته العليا وهو يتراجع للوراء حتى أسند ظهره إلى الحائط الحجري . بقيتُ مع أمّي ساكنتين تماماً . في النهاية، حين هدأت نائرة الرقيب وتوقّف عن جلد مي-جا، رفعتُ هذه الأخيرة رأسها .

- «ابقي في الأسفل» ، قالت أمي .

لكنّ مي-جا واصلت التحرك، وجعلت تجرّ نفسها على ركبتيها وترفع راحتيها للأعلى. «أرجوك سيّدي، دعني أقوم بالقطاف من أجلك. سأختار أفضل الأوراق —».

أصيب الرجال فجأة بالشلل كحالنا أنا وأمّي. وقفوا يتفرّجون متحجّرين مثل تماثيل الجدّ القديمة المنتشرة في جميع أنحاء الجزيرة، شاهدوها وهي تكافح للوقوف على قدميها، ثمّ وهي تنحني كي تقطف الأوراق الخارجية للملفوف. قدّمت الأوراق للرقيب بكلتا يديها وهي مطرقة الرأس. لفّ يديه حول معصميهما وجذبها نحوه.

اخترق الصوت الحاد لصافرة معدنية الهواء من حولنا. أدار الرجال السبعة رؤوسهم باتّجاه مصدر الصوت. أفلت الرقيب مي-جا، استدار على كعبه وسار نحو الفجوة في الجدار. لحق به الجنود الخمسة في الحال. أمّا الجندي السادس الذي كان قد تراجع نحو الحائط منذ بعض الوقت، فقد التقط أوراق الملفوف وحشرها في حقيبتّه، ثمّ انطلق في إثر الآخرين باتّجاه زقاق الأولي.

انهارت مي-جا على الأرض، كانت تننّ وتنشج. زحفت مقربةً منها. نهضت أمّي على قدميها مسرعةً وجعلت تطلق سلسلةً من الأصوات العالية والحادة مثل نداء الطيور كي تحذّر الأخريات اللواتي تعملن في حقولهنّ. سمعنا لاحقاً أنّه ألقي القبض على امرأتين، لكن كان علينا في ذلك الوقت أن نعتني بمي-جا. حملتها أمّي إلى منزلنا، حيث استعملت الماء الدافئ للمساعدة في نزع الملابس عن جلدها المتشقّق. أمسكت بيدها وأنا أتمتم: «أنتِ شجاعةٌ جدّاً. لقد أنقذت أمّي. لقد قمتِ بحمايتنا جميعاً». لم يكن لتلك الكلمات الغيبة أن تخفف من آلام مي-جا. أبقت عينيها مغلقتين بإحكام، إلّا أنّ الدموع كانت تتسرّب منهما على أية حال، ولم تتوقّف إلا بعد وقتٍ طويل من وضع أمّي المرهم على جروح

مي-جا ولف ساقها بشرائط من القماش النظيف.

في اليوم التالي جاءت مجموعة أخرى من الجنود إلى منزلنا، ساروا بعزم وتصميم وسط المطر والأوحال. بدا من المؤكد أنهم جاؤوا هذه المرة من أجل أمي. أو ربّما كانوا يريدون إلحاق الأذى بعائلتي. أخذ شقيقي الأكبر معه قدر ما استطاع جمعه من إخوتي الصغار، وركضوا إلى الخلف وتسلّقوا الجدار. جلستُ على الأرض قرب حصيرة مي-جا. كانت تتألم كثيراً لدرجة أنها بدت غير واعية للجلبة الحاصلة في الفناء. أيّاً كان ما سيحدث تالياً، ما كنتُ لأبرح جانبها أبداً. رأيتُ عبر الألواح المرفوعة إلى جانب المنزل الجنود يتحدثون إلى والدي. كان منزلنا مسجّلاً باسمه، لكنّه لم يكن مسؤولاً عن عائلتنا. كان يستطيع تهدئة طفل يبكي أكثر ممّا استطاعت أمي أن تفعل، لكنّه لم يكن معتاداً على الشدائد أو الأخطار. المثير للدهشة أنّ الجنود عاملوه بلطف. أو بالأحرى، بلطفٍ بالنسبة لمحتلّين.

- «فهمتُ أنّ ضرراً قد لحق بمحاصيلك وأنّ بعض الأشياء قد... أخذت»، قال الملازم. «ليس بوسعي إعادة ما قد تمّ أكله بالفعل».

كانت عينا الملازم تجوبان الفناء طيلة الوقت بينما هو يتكلّم. تنقلت نظراته بين كومة عوّامات التيوّاك على طرف المنزل، إلى الحجر الذي أحب أبي الجلوس عليه كي يدخّن غليونه، إلى كدسة الأواني المقلوبة التي كنّا نستخدمها في وجباتنا، بدا وكأنّه يحصي عدد الأشخاص الذين يعيشون في المكان. ركّز جلّ انتباهه على أمي كما لو كان يجري تقييماً لها.

- «أنا أعتذر عن سوء سلوك نساء بيتي»، قال أبي بيابانية مكسّرة. «نحن نرغب دائماً في المساعدة —».

- «نحن لسنا بأناسٍ سيّئين»، قاطعه الملازم. «لقد تعيّن علينا

أن نتخذ إجراءات صارمة بحق مثيري الشغب. لكننا في نهاية الأمر أزواج وآباء أيضاً».

بدا الملازم متعاطفاً، لكن لم يكن هناك مجالاً للثقة به. قضم أبي ظفر إبهامه. تمنيتُ لو أنه لم يبدُ خائفاً جداً.

أشار الملازم إلى أحد رجاله. فرُمي كيسٌ على الأرض. «هذا هو تعويضك»، قال الملازم للأب. «من الآن فصاعداً حاول أن تفعل ما نفعله نحن. أبقِ نساءك في البيت».

كان ذلك الطلب مستحيلاً، لكنَّ أبي وافق عليه.

توقفت أمي من بعد ذلك اليوم عن حضور الدروس والاجتماعات. قالت أنها كانت مشغولة في إدارة جماعة الهينو أكثر من أن تكون قادرةً على المشاركة في المظاهرات، لكنّها في الحقيقة كانت تحاول حمايتنا فحسب. بدا ما حدث مرعباً ومهيناً. اعتقدنا أنَّ هذه كانت أسوأ أوقاتٍ قد نشهدها - الحكم الياباني، المقاومة، والثأر منها. بالنسبة لـمي-جي، فقد غيّرت الطريقة التي اندفعتُ بها كي تحمي أمي شكل صداقتنا إلى الأبد. اعتقدتُ اعتباراً من ذلك اليوم أنه يمكنني ائتمانها على حياتي، وهذا ما آمنتُ به أمي أيضاً. فقط قلب جدتي كان يرفض أن يلين، لكنّها كانت عجوزاً وعالقةً في أفكارها القديمة. كل هذا وذاك عنى أنه حين بلغنا أنا ومي-جا سنَّ الخامسة عشرة - وأصبحتُ يو-ري فتاةً أخرى - كنّا قد بتنا مقربتين مثل زوج من عيدان الأكل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فقاكات الحياة

نوفمبر 1938

لم يتغير روتين يومنا بعد حادث يو-ري. حتى دو-سانغ عادت إلى البولتيوك. كنّا نقوم بالغوص على فترتين خلال الشهر القمري، كلّ فترة من ستة أيام حين يكون الهلال في طوره التعاظمي، ثمّ حين يدخل طوره التضاؤلي. تحسّنت مهاراتي في السباحة على نحو ملحوظ خلال الأشهر السبعة التالية. بات يمكنني الآن الغوص رأسياً، حتى لو لم أكن أستطيع النزول لمسافة كبيرة. إذا غطستُ مراراً وتكراراً على أعماق ضحلة، يمكنني عندئذٍ أن أخاطر بالنزول إلى أعماق أكبر. الآن أفهم كم تدبّرت أمّي تعليمنا أنا ومي-جا بكلّ الحرص والاهتمام. أعطتني أمّي حين بلغت العاشرة زوجاً قديماً من نظاراتها الواقية، والذي تشاركته مع مي-جا. حين بلغت الثانية عشرة، علّمتنا أمّي كيف نجني النباتات البحرية دون الإضرار بجذورها كي تنمو مجدداً في الموسم التالي، تماماً كما كنّا نفعل في حقولنا الجافة. الآن كانت قدرتي على سبر قاع البحر بحثاً عن أشياء يمكنني حصادها تزداد كلّ يوم. صرتُ قادرةً بسهولة على تمييز الاختلافات بين الطحالب البنية وخردل البحر والأعشاب البحرية، في الوقت الذي تحسّنت فيه أيضاً مهارتي في استشعار المخاطر -

اللدغة السامة لشعبان البحر أو اللسعة المخدرة لقنديل البحر.

- «أنتِ لا ترسمين خريطةً للقاع في رأسك وحسب»، علّمتني أمّي ذات صباح خريفيّ مشرق ونحن في طريقنا إلى البولتيوك، «بل ينبغي بك أن تتعلّمي أين أنت بالضبط، أن تكوني مدركةً تماماً لموقعك بالنسبة للقارب، والشاطئ، والتيواك، ومي-جا، وأنا، والهيديو الأخريات. يجب أن تتعلّمي عن المدّ والجزر والتيّارات، والأعاصير، وتأثير القمر على البحر وعلى جسمك. من المهمّ جداً أن تكوني دائماً على درايةٍ تامّة بمكان وجودك في تلك اللحظة المحدّدة التي تبدأ فيها حاجة رثيتك للتّنفس».

بتّ معتادةً أكثر على البرد، قلّ ارتعاشي وتقبّلْتُ هذا الجانب الذي لا يمكن تغييره من حياة الهيديو، كنتُ فخورةً بإنجازاتي لكتّني كنتُ ما أزال عاجزةً عن العثور على محار أذن البحر، بينما كانت مي-جا قد أحضرت بالفعل إلى ظهر القارب خمساً منها.

صمتتُ أمّي لدى اقترابنا من البقعة التي كنّا نصطحب منها مي-جي في الأولي. لم نعرف يوماً ما إذا كنّا سنجدها في انتظارنا هناك. فإذا أراد منها عمّها أو عمّتها أن تفعل شيئاً لهما، فهذا له الأولوية، ولا يمكن لأُمّي أن تتدخّل. إذا كانت مي-جا مريضة، إذا كانا قد ضرباها أو طلبا منها نقل المياه من مسافة كيلومترين فقط لأنّ بمقدورهما أن يطلبنا مثل هذه الطلبات الوحشية؛ فنحن لن نعرف بذلك مسبقاً.

وصلنا إلى المنعطف في الزقاق، وهناك كانت مي-جا في انتظارنا. «صباح الخير!»، هتفتُ لنا.

إلى جانبي، رأيْتُ كتفيّ أمّي يسترخيان.

- «صباح الخير»، قلْتُ مبتسمةً إذ وصلتُ إلى مي-جا.

- «يجدر بنا الاستمتاع خلال هذه الأيام الستّة المقبلة»، قالت

أمي. «فحرارة المياه لا تزال مقبولة. وسوف يحلّ الشتاء قريباً...». نظرت إليّ مي-جا بطرف عيناها. كان واضحاً لكلّ مَنْ عرف أمي أنّها تغيّرت بعد حادثة يو-ري، وهو ما منع الناس من مضايقتها كثيراً حول حقيقة أنّي لم أصطد محار أذن البحر بعد. ومع ذلك، قد يحدث من حينٍ لآخر أن تسخر منها إحدى الغوّاصات قائلةً: «أيّ نوع من الأمّهات أنتِ إن كنتِ لا تستطيعين...» أو «رئيسة جماعة غوصٍ تحتاج أن تعلّم ابنتها...». لم يصل أيّ من هذه الأسئلة أو الجمل إلى نهايته أبداً، فدائماً ما كانت غوّاصةً أخرى تلكر تلك المرأة الأولى في أضلاعها أو تغيّر الموضوع سريعاً إلى حديثٍ عن الأزواج أو المدّ والجزر أو الوقت المقدّر لوصول العاصفة القادمة. حاول الجميع حماية أمي إلى أن كانت إحدى الهينيو تزلّ في لحظةٍ من الحيوية الزائدة وتقول شيئاً طائشاً مرّةً أخرى - لقد أصبحت المسؤولية عن الجماعة تثقل كاهلها الآن. كان هذا مقلقاً، فمَنْ الذي لم يسمع قصصاً عن الهينيو اللواتي وقعن فريسة الغمّ والعذاب بسبب الإصابات أو حالات الموت التي لحقت بغوّاصاتٍ أخريات؟ يمكن للغوّاصة بسهولة أن تستكين للوقوع في الخطأ سواءً بسبب الأشباح أو الحزن أو الإحساس بالذنب. كنّا جميعاً نعرف عن المرأة التي عاشت في الجانب البعيد من هادو. بدأت تشرب نبيذ الأرز المخمّر بعد موت صديقتها، وباتت مضطربةً جداً لدرجة أنّها سمحت لموجة أن تدفع بها فوق صخرةٍ حادة. تسبّب لها ذلك بجرح عميقٍ في ساقها، وتمزّق في عضلاتها، ولم تعد قادرةً على الغوص ثانية. أو الجارة التي مات ابنها بالحمّى، فتركت للأمواج أن تسحبها بعيداً. أو سيّئة الحظّ تلك التي اجتذب نزيدها الشهري سرباً من أسماك القرش.

حين كنتُ أنظر إلى والدتي الآن، كنتُ أرى أنّ جسدها بات

مرهقاً بفعل القلق، والألم الناجم عن البقاء تحت سطح البحر لوقتٍ طويل، ومن عبء الاعتناء بآخرين كثيراً. لم تتح لها قط فرصة للراحة، لأننا عندما كنّا نعود إلى المنزل بعد عملنا سواءً في الحقول الجافة أو الرطبة، كان لا يزال لديها الكثير لتفعله، بما في ذلك إرضاع أخي الرابع، الذي كان الآن طفلاً مكتنزاً بعمر الثمانية أشهر. كانت الشمس تشرق في الصباح مع أفواهِ تحتاج للإطعام، وهذا هو النسق الذي مضت به الحياة، لكنَّ العمل الشاق من قبل الفجر حتى ما بعد حلول الظلام كان له أثرٌ سلبيٌّ على أمي.

اتخذتُ لدى وصولنا إلى البولتيوك ملامح رئيسة هينيو. أسقطت سلتها قرب بقيّة السلال وأخذتُ موقعها الفخري قرب النار. أعلمتُنا أين سنغوص وكيف سننقسم في مجموعات. بعد أن بدّلنا ملابسنا ذهبت الغوّاصات-الجذّات مع أمي بالقارب إلى منطقة بعيدة عن الشاطئ، وسبحت الغوّاصات-الصغيرات على عوامتهنّ إلى بقعةٍ تبعد نصف كيلومترٍ عن الشاطئ، بينما قامت الجذّات الفعليّات مع الغوّاصات-الطفلات مثلنا أنا ومي-جا بأعمال الرعاية لأحد الخلجان القريبة. كان من واجب كل هينيو تقديم الرعاية لحقولنا الرطبة عبر تنظيفها والاعتناء بها لأجل المواسم والأجيال القادمة. كان العمل سهلاً، وكنتُ سعيدة بقضاء الوقت مع جدّتي.

حين عادت مجموعتنا إلى البولتيوك لتناول طعام الغداء، وجدنا أبي ورجلاً آخر بانتظارنا. حمل كلُّ منهما طفلاً على خصره. وحام حول أرجلهما أبناءً وبنات تحت سنّ الخامسة. كان الطفلان يبيكان وكأنّهما خنزيران صغيران مقلوبان رأساً على عقب عبر الإمساك بهما من حافرٍ واحد. ناولني أبي أخي الرابع الذي حشر أنفه في صدري الذي ليس صدراً. لم أكن أملك ما هو بحاجةٍ إليه، فانطلق فمه الورديّ بعويلٍ طويل من الرغبة المحبّطة. حين وصل القارب إلى

الشاطئ، قفزت الأمان بخفة من سطح القارب وهرعتا إلينا فوق الصخور. أخذتا طفليهما المنتحبين إلى داخل البولتيوك، وخلال ثوانٍ كانت الأصوات الوحيدة المتبقية هي الأصوات الإيقاعية لارتداد الأمواج الصغيرة وضحكات بقية الهينيو وهنّ في طريقهنّ إلى البولتيوك. مشى أبي وصديقه مبتعدين بضعة أمتار فيما تبعثر الأبناء والبنات إلى الخلف منهما. جلس الرجلان على الصخور، أشعلا غليونيهما، وتحدّثا بصوتٍ منخفضٍ جدّاً لا يمكن سماعه.

لكزتي مي-جا. «دعينا نأكل!».

استقبلتنا الروائح الطيبة لدى دخولنا إلى بولتيوك. رغم أنّنا كنّا نهتمّ بواجبات التنظيف في الخليج، إلّا أنّ جدّتي رصدت خيار البحر وقامت بغليه وتتبيله وتقطيعه إلى شرائح ليتشاركها الجميع. جمعت جدّة أخرى بعض سرطانات الرمل وطهتها مع الفاصولياء. كانت الشمس عالية، وانسكبت أشعتها علينا بينما كنّا نأكل.

عدنا بعد الغداء إلى العمل. كرّرنا خلال فترة بعد الظهر الأنشطة والأعمال التي كنّا نمارسها في الفترة الصباحية. ثمّ التقت المجموعات في بولتيوك بعد ثلاث ساعات. مجدّداً، كان الأبوان ينتظران وصولنا، ورضيعاهما يتدلّيان فوق كتفیهما. أُعطي كلّ منهما لأمّه، بينما ارتدت بقيّتنا ثياب اليابسة، وجعلنا ندقّ أنفسنا قرب النار، ثمّ أكلنا الحَبَّار المطبوخ. لكن لم يكن عملنا قد انتهى بعد؛ أخذنا نفرز ما في شباكنا - أذن البحر عن القواقع الأخرى، سرطان البحر عن حلزون البحر، والتفّاثات البحرية عن الرخويات.

جهّزنا بعدئذٍ صيدنا للبيع: فتحنا قنافذ البحر واستخرجنا البطارخ منه، وعلّقنا الحَبَّار حتّى يجفّ، ووضعنا مخلوقاتٍ أخرى في دلاءٍ من مياه البحر كي يعرف الزبائن أنّهم يشترون سلعاً طازجةً لدرجة أنّها كانت لا تزال حيّة. في بعض الأيام كان كلّ هذا يستغرق منّا أقلّ من

عشرين دقيقة. في أيام أخرى كنّا نمكث هناك لساعتين أو ثلاث ساعاتٍ أخرى. لذا، وحيث أنّ الصباحات في البولتيوك كانت تسودها الجدّة، فإنّ نهاية اليوم تكون مليئة بالضحك، وبالارتياح لأن جميع النساء قد رجعنّ سالمات، وبالتباهي بما كانت كلّ هينيو قد اصطادته. لقد كنّا مجموعةً واحدة، لكنّنا لم نقتسم كلّ شيءٍ بالتساوي. كانت الطحالب والأعشاب تُوزَن معاً وتقسّم أرباحها إلى حصصٍ متساوية. أمّا الأموال العائدة من حصاد المحار فتبقى للهينيو التي أحضرته. كم كيلو غراماً من الكائنات ذات القواقع أحضرت كلّ امرأةٍ في شبكتها؟ الغواصة التي عثرت على أذن البحر؛ تلك كانت امرأةً محظوظةً جدّاً!

كانت الشكوى من الطقوس المسلّم بها عند النساء، وقد مارسنه بالفعل. كانت الأصوات عالية لأنّ أذاننا ما تزال مسدودة بفعل الضغط تحت الماء.

- «يستنزف زوجي مكاسي بالشُّرب».

- «زوجي يخسر كلّ ما أعطيه له في القمار».

- «إنّ كلّ ما يفعله زوجي هو الجلوس تحت شجرة القرية كي يناقش الأفكار والمُثل الكونفوشيوسية، كما لو كان مزارعاً ناجحاً جدّاً!».

- «الرجال»، تذرّرت امرأةٌ أخرى. «إنّ عقولهم ضعيفة وخاملة، ولا يسعهم فعل شيء حيال ذلك. وهم دائماً ما يسوّفون الأشياء...».

- «هذا صحيح. أفكارهم تافهة وبلا نفع، لذا هم بحاجةٍ إلينا دائماً».

كانت مثل هذه الشكاوى شائعةً جدّاً لدرجة أنّ الأمر بدا في بعض الأحيان وكأنّه منافسة بين النساء بشأن مَنْ منهنّ زوجها الأسوأ.

قالت غَوَاصَةٌ أُخْرَى: «لقد توجَّب عليَّ أن أسمح لزوجي بإحضار زوجةٍ صغيرةٍ إلى المنزل لأنني لم أستطع أن أنجب له ولداً. هي أرملةٌ جميلةٌ وشابةٌ ولديها ولدان. وها هي الآن لا تفعل شيئاً سوى التأوُّه والأنين».

تحدَّثْتُ مع مي-جا عن هذا الأمر، واتفقنا أننا نعتقد بعدم قدرتنا على تحمُّله، سواءً إذا دخل الزوج المستقبلِي في علاقةٍ مع زوجةٍ صغيرة - أرملةٍ أو امرأةٍ مطلَّقةٍ ألقت بسحرها على زوج امرأةٍ أخرى فيؤسِّس منزلاً منفصلاً لها. أو الأسوأ من ذلك، إذا ذهب للعيش مع زوجته الصغيرة في منزلها. بدت هذه الترتيبات كثيرةً جداً من أجل أن يحظى الرجال بالمتعة وهزيلة جداً أمام مسؤولياتهم تجاه عائلاتهم الأصلية. لكن كان لإحدى النساء وجهة نظرٍ مختلفة.

- «زوجتان تعنيان كيسا نقود»، قالت معبرةً عن كم يمكن للزوجة الثانية أن مفيدةً في العمل.

- «يمكن للزوجة الصغيرة أن تجلب المال إلى المنزل إذا كانت من الهينيو»، وافقت الغوَاصَةُ الأولى على مضمض. «يمكنها حتَّى أن تكون أفضل من ابنة في بعض الحالات. لكن ليست هذه الزوجة. هي حتَّى لا تعطي لزوجنا مصروف جيب!».

- «إنَّ الطريقة الوحيدة لمنع الزوج من اتِّخاذ زوجةٍ صغيرة هي إنجاب ولدٍ ذكِرٍ له. أنتِ لستِ أكثر من خادمةٍ لأحدهم ما لم يكن لديكِ ابنٌ يمكنه تأدية عبادة الأسلاف لكِ ذات يوم».

غمغمت النساء معترفاتٍ بهذه الحقيقة الأساسية.

- «لكن أيُّ امرأةٍ على وجه الأرض قد ترغب أن يأتي زوجها بشخصٍ أصغر منها وأجمل إلى المنزل؟»، سألت إحدى الهينيو المسنَّات وهي تققع بصوتٍ عالٍ، مضيئةً شيئاً من الظرافة إلى المحادثة.

- «أنا التي تقوم بكلّ العمل . لقد اعتادت أن تحظى بالمتعة» .

- «متعة؟ أيّ متعة؟» .

تململت النساء من الفكرة .

- «جميعنا نعرف المثل الذي يقول : من الأفضل لك أن تولدي

كبقرة على أن تكوني امرأة» ، قالت جدّتي .

- «مَن يجب أن يأكل أكثر - الرجل أم المرأة؟» ، نادت

دو-سانغ في محاولةٍ لتغيير الموضوع .

هتف البولتيوك بصوتٍ واحد : «المرأة!» .

- «بالطبع إنّها المرأة دائماً» ، شرحت دو-سانغ مبتسمة . «لأنّها

تعمل بجدّ أكبر . انظرن إليّ ! لديّ أعمالٌ لأقوم بها في البحر وفي

الحقول . أنا أعني بابني وبابنتي . وأين هو زوجي؟ لا بدّ أنّ العمل

في المصنع أسهل بكثيرٍ ممّا أقوم به!» .

- «إنّ زوجك يرسل المال إلى المنزل على الأقل!» .

ضحكت دو-سانغ وقالت : «لكنّه بعيد جدّاً ليتمكّن من تحريك

القدر» .

احمررتُ خجلاً . «تحريكُ القدر» .

عادت المرأة التي كانت ستصبح حَماة يو-ري إلى سؤال

دو-سانغ الأصليّ . «كيف يمكن للرجل أن يستمتع بوجبة حين تكون

مساهمته ضئيلةً للغاية؟» .

- «دعونا لا نقسو كثيراً على رجالنا» ، حدّرت أمّي وهي تهدد

أخي في حجرها . «هم يعتنون بأطفالنا حين نكون تحت الماء . هم

يعدّون العشاء لنا ، وهم يغسلون ملابسنا» .

- «وهم دائماً ما يطلبون النقود ممّا —» .

ضجّ المكان بضحكات النساء .

- «وكأنّ لديّ الكثير لأقدّمه» ، قالت إحداهنّ ، وهو ما بعث

الحياة في ثرثرة النساء من جديد. «وهذا القليل الذي أملكه سوف لن أسمح له بتبذيره —».

- «الجميع يعرفون أنَّ النساء أفضل في مسألة التعامل مع المال —».

- «لأننا لا نقلب المال خمرًا ونسكبه في حناجرنا —».

- «لا يمكنكِ لوُم رجالنا على شرب الخمر»، قالت أمي. «ليس لديهم ما يفعلونه ولا هدفٌ يدفعهم للمضيّ قدماً في يومهم. إنهم ضجرون. فكّري أيضاً كيف يُفترض أن يكون الحال بالنسبة لهم وهم يعيشون في منزلٍ يعتمد على ذيل تنورة». سكتت قليلاً لتترك للنساء أن يتأملن في القول المأثور، ويستوعبن حقيقة ما قد يعنيه للرجل أن يكون معتمداً بالكامل على زوجته. ثم مضت قائلة: «على الأقلّ نحرّ لدينا البحر. بالنسبة لي، هو بيتي الثاني، حتّى أنه بيتي المفضّل. أنا أعرف عنه - عن صخوره وجلياميده وحقوقه وأخاديه - أكثر ممّا سأعرف يوماً عن القسم الداخلي من جزيرتنا، ناهيك عمّا يدور في عقل زوجي. البحر هو المكان الذي أكون فيه في حالة سلام تام».

أومأت النساء موافقات.

حين انتهى عملنا - فرّز الصيد، تكديس العوامات، وإصلاح الشباك - أُلقيت الرمال فوق النار. مشينا في طابورٍ على طول الشاطئ على نفس الطريق الذي جئنا منه حيث عبرنا معاً رصيف المراكب صعوداً على الجسر، وصولاً إلى الدرب الذي يحدّ الشاطئ. سارت بعض النساء بمفردهنّ. وأخريات في مجموعاتٍ من اثنتين أو ثلاثة - حمّوات مع زوجات أبنائهنّ، أمّهات مع بناتهنّ، وصديقات مثل أمي ودو-سانغ أو أنا ومي-جا. كانت دو-سانغ تعيش على الشاطئ مباشرة. حيثنا مودّعة ومضيّنا في طريقنا نحو الأراضي الداخلية. مررنا بساحة هادو الرئيسية، وبالطبع كان ثمة رجال جالسون تحت الشجرة

يلعبون الورق ويشربون. انحرفت بضع نساء عن الدرب كي يحضرن أزواجهنَّ ويعدن بهم إلى المنزل. بالنسبة لي، انتهى اليوم حين انعطفت مي-جا في الزقاق المؤدّي إلى بيت عمّها وعمّتها.

في الصباح التالي لم تكن مي-جا في مكانها المعتاد في الزقاق. حين وصلنا إلى البولتيوك، لم تكن دو-سانغ هناك أيضاً. «سوف يتعيّن علينا الغوص بدونهما»، قالت أمّي ثمّ ورّعت المهام. الجدّات الفعليّات سيعملنّ مع الغوّاصات-الطفلات في المنطقة عند نهاية الرصيف. «ستسبح بقيّتنا لمسافة كيلومترٍ واحد. حيث إنّ مي-جا ودو-سانغ ليستا معنا اليوم، فإنّ ابنتي سوف تغوص معي. آن لها أن تحصد أوّل محار أذن البحر».

بالكاد استطعتُ تصديق ما سمعته. لقد كان هذا الشرف أبعد ما يكون عن أيّ شيءٍ يمكن أن أستحقّه كغوّاصة-طفلة. هتأّنتني بضع نساء بينما كنّا نرتدي ملابس البحر.

- «لقد علّمتني أمّك كلّ شيءٍ أعرفه عن البحر»، قالت إحداهنّ.
- «سوف تحصلين على أذن البحر. أنا واثقةٌ من ذلك»، قالت أخرى.

لم يكن يمكن أن أكون أكثر سعادة. حالما أصبحنا مستعدّات، خرجنا من البولتيوك، الشباك والعوامات تتدلّى من أكتافنا، وأدواتنا الخاصّة بالحقول البحرية معلّقة على خصورنا، ورماحنا في أيدينا. نزلنا في البحر واحدة تلو الأخرى. سبحت الغوّاصات-الطفلات والأكبر سنّاً بما في ذلك جدّتي معاً إلى جهة اليمين. بينما عقّدنا - الغوّاصات-الجدّات والغوّاصات-الصغيرات وأنا - أذرعنا فوق العوامات وبدأنا نجذّف

بعيداً عن الشاطئ، مقتفين أثر والدتي نحو البقعة المحددة. انسكبت أشعة الشمس على نحوٍ رائع فوق وجوهنا وأذرعنا وأكتافنا. كان الماء أزرق نقيّاً. كانت الأمواج لطيفة، ولم تكن بحاجة لمقاومتها. تميّنتُ لو أنّ مي-جا تستطيع رؤيتي.

- «ها قد وصلنا»، صاحت أمّي بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليصل إلى الأخريات عبر الريح والأمواج. بصقتُ أمّي على رمح البيتشانغ لجلب الحظ السعيد. فعلتُ الشيء نفسه. ثمّ غطسنا سوياً. لم تكن المياه عميقة جداً، شققنا طريقنا بين الصخور الكبيرة حيث أشارت أمّي إلى قنافذ البحر وغيرها من المخلوقات التي يمكن أن نعود لأجلها في وقتٍ لاحق. بالنسبة لي كانت الأولوية لأذن البحر. كم كنتُ محظوظة لأنّ والدتي هي التي تعلّمني هذه المهارة.

أعود إلى السطح كي آخذ نفساً، ثمّ أغطس مجدداً. كان لا يزال أمامي سنوات طويلة قبل أن يكون لديّ سعة رئتيّ أمّي، لكنّها لم تتدّمّر منّي. كانت صبورةً معي بحق. أعود إلى السطح كي آخذ نفساً، ثمّ أغطس مجدداً. رصدتُ جلموداً تنتشر فوقه قواقع أذن البحر. كانت تعرف كيف تموّه نفسها جيّداً، ولا عجب أنّني لم أتمكّن من رؤيتها قبلاً. الآن وقد رأيتهما، فسأعرف دائماً ما الذي ينبغي بي البحث عنه - نتوءات زرقاء أو رمادية أو سوداء، ليست بملساء كثيراً تبرز فوق السطح المجعّد لصخرة مغطّاة بالطحالب. أعود للسطح كي آخذ نفساً.

- «تذكّري كلّ شيءٍ تعلّمته»، قالت أمّي ناصحةً. «سأكون بقربك تماماً، لذا لا تجزعي».

أخذتُ كلّ ممّا عدّة أنفاسٍ عميقة، ثمّ غطسنا ثانية. أخذنا نقترّب ببطء كي لا نعكّر المياه. وكما تنقضُ الأفعى على فريستها بلمح البصر، أطلقت رمحي تحت الحافة الناتئة لأذن البحر وقلبتّه مبعدةً

إيَّاه عن سطح الصخرة قبل أن تتاح له الفرصة للتشبّث بها. أمسكتُ به إذ بدأ ينزل غارقاً في القاع. حين رأْتُ أنني نجحت، وحيث إنَّها كانت تملك هواءً في رئتيها أكثر منِّي فقد ضربتُ هي أيضاً برمحتها تحت أذن بحرٍ آخر تماماً حين بدأتُ أركل صعوداً إلى السطح الذي اخترقته إلى الهواء وأنا أرفع جائزتي فوق رأسي. كان لأنفاس السومبيسوري خاصّتي وقعٌ انتصاريّ. هتفتُ لي كلُّ الهينيو اللواتي كنَّ يسترحنَ على عواماتهنّ.

- «تهانينا!».

- «عسى أن يكون الأول بين كثيرٍ غيره!».

فركتُ بحسب العُرف أذن البحر على خدِّي إظهاراً لمحبتِّي وامتناني ثمَّ وضعته في شبكتي بعناية. كنتُ أستعدُّ للغطس ثانية وكلِّي حماس لحصاد أذن بحرٍ آخر حين أدركتُ أنَّ والدتي لم تصعد بعد من أجل الهواء. كان بمقدورها حبس أنفاسها لوقتٍ طويل، لكن يفترض أن تكون قد خرجت الآن في جميع الأحوال. نفَس، نفَس، نفَس ثمَّ إلى الأسفل...

حالما أصبح رأسي تحت الماء، استطعتُ رؤية أمِّي لا تزال عند الصخرة حيث تركتها بالضبط. كانت تصارع للوصول إلى شيءٍ ما في الرمال أسفل منها. انعكست أشعة الشمس المفلّرة بالمياه عن طرف سكينها الذي يقبع بعيداً عن متناولها. دفعتُ نفسي بقوةٍ عبر ركلتين إضافيتين وانسللتُ بقربها. رأيْتُ عندئذٍ رمحها البيتشانغ عالِقاً تحت أذن البحر. كانت تحتاج سكينها كي تقطع الحزام الجلدي الذي يربط الرمح بيدها. «لا تهلعي» كانت هذه العبارة عامل الحماية الأكبر تحت سطح البحر، لكنني كنتُ مرعوبةً في الحقيقة. ركّزتُ بشدّة وأنا أخرج السكين من حزامي، كنتُ حريصةً كلَّ الحرص ألا يسقط من يدي إذ لا بدَّ أن هذا ما قد حدث مع أمِّي. كانت رئتي الآن

تضغطان بقوة على صدري، لكنّ أمي كانت تحت الماء لفترة أطول ولا بدّ أنّها كانت تعاني سكرات الموت. جذبت نفسي أقرب إليها وحاولت أن أزلق سكينني تحت الحلقة الجلدية، لكنّها كانت مشدودة تحت الماء كما يفترض بها أن تكون. أخذ قلبي يضرب بعنف داخل صدري والدم ينبض بقوة في رأسي. كنتُ بحاجة ماسّة للهواء، لكن أمي كانت تحتاجه أكثر منّي. لم أكن أملك الوقت للصعود إلى السطح كي أطلب المساعدة، فريثما أعود ستكون...

كان اليأس قد تمكّن منّا الآن. أخذتِ السكين منّي وحاولت أن تقطع الجلد. جرحتُ نتيجةً لتعجلها ساعدها جرحاً عميقاً. أصبح الماء داكناً بسبب الدم، الأمر الذي جعل رؤية أين كانت تقوم بالقطع أكثر صعوبةً حتّى. بدأتُ تركل بساقيها على نحوٍ محموم وهي تحاول عبر تطبيق كلّ قوةٍ ممكنة أن تحرّر رمحها من قبضة أذن البحر المطبقة عليه. جعلتُ أسحب ذراعها محاولةً المساعدة. لكنني لم أكن سأتمكن من الصمود في الأسفل لوقتٍ أطول...

توقّفتِ أمي فجأةً عن القتال. وضعتِ السكين بهدوءٍ على الصخرة، وأراحت يدها الطليقة على معصمي لتستحوذ على كامل انتباهي. اتّسعت حدقتا عينيها - بفعل الظلام، بفعل الرعب. حدّقتُ عميقاً في عينيّ لثانيةٍ أو اثنتين، تريد أن تمتلئ بي، أن تتذكّرني جيّداً. ثمّ لفّظتُ نفسها المحبوس. بقبقتُ فقايع حياتها بيننا. مرّت ثانيةً أخرى. كانت لا تزال تمسك بمعصمي لكنني وضعتُ يدي الأخرى على خدها. مرّت بيننا حياةٌ كاملة من الحبّ، ثمّ ابتلعت أمي الماء. ارتعش جسدها ثم ارتجّ بعنف. كنتُ بأمرّ الحاجة إلى الهواء، لكنني لم أبرح جانبها حتى كانت قد رحلت، وطفى بسلام جسدها الذي كان لا يزال مربوطاً بالصخرة.

لن تكون أمي روحاً هائمة جائعة، لأننا تمكنا بسهولة من استرجاع جثمانها وإعادتها إلى الشاطئ. كانت تلك الراحة الوحيدة التي استطعتُ تقديمها لجذتي وأبي وأخوتي حين أخبرتهم أنّ أمي لن تتنفس ثانية ولن يكون جسدها دافئاً مجدداً. أخبرتهم بعد أن ضغطوا عليّ عن لحظاتها الأخيرة. بكينا جميعاً بحرقة، لكنّ أبي لم يعاتبني أبداً. أو حتّى إن كان قد فعل، فليس ذلك بشيء مقارنةً بكيف كنتُ ألعن نفسي طوال الوقت. كان الشكُّ بأنني كنتُ السبب في موتها يتآكلني مثل الصودا الكاوية. كنتُ مسربلةً بالبؤس والذنب.

جاءت مي-جا إلى منزلي صباح اليوم التالي. كانت عيناها غائرتين مع دوائر قاتمة حولهما، وخذاها أجوفان بعد يومٍ وليلة من آلام مبرّحة في المعدة. أصغت إليّ وأنا أشرح لها ما حدث بين شهقةٍ وعبرة. «لربّما أكون قد أجفلتُ أذن البحر حين ركلتُ بقدميّ صعوداً نحو السطح. كنتُ متحمّسةً جدّاً وفخورةٌ كل الفخر بنفسي، لكنني ربّما تسبّبتُ في تحريك المياه بشدّة فأحكم أذن البحر قبضته على رمح أمي —».

- «لا تلومي نفسك على أشياء ربّما تكون حدثت»، قالت مي-جا.

حتّى لو كانت محقّةً في ذلك، فلم أرَ وسيلةً لتحديد شعوري بالذنب.

- «لماذا لم أسترجع سكّينها من الرمال وأعطيها لها فحسب؟ لو فعلتُ ذلك كانت ستمكّن من العمل على الطوق الجلدي بنفسها. والأسوأ من ذلك»، شهقتُ بحرقة. «أنني لم أعرف كيف أتعامل مع سكّيني على نحوٍ فعّال».

- «لا أحد يتوقّع من غوّاصة-طفلة أن تملك مثل هذا الحضور الذهني. لهذا السبب نحن نتمرّن».

- «لكن كان عليّ أن أنقذها...».

كانت مي-جا قد فقدت والدتها ووالدها، لذا فقد شعرت بالمي على نحوٍ لا يستطيع أحدٌ آخر الشعور به. رفضت أن تفارقني. أمسكت بيدي حين أعلنَ والدي البداية الرسمية لجَداد عائلتنا حيث أخذ آخر ثوبٍ ارتدته أمي، وصعد إلى السطح، ثم أخذ يلوح به فوق رأسه ويصرخ للريح ثلاثاً: «أبلغكم أنّ زوجتي؛ كيم سون-سيل من جول دونغ بقرية هادو، أبلغكم بعودتها عن عمرٍ يناهز الثامنة والثلاثين إلى المكان الذي أتت منه».

بقيت مي-جا في منزلنا، استيقظت باكراً وساعدتني في جلب المياه وجمع الوقود من أجل النار. ساعدتني حين غسلت جسد أمي، ووضعت حبّات الحنطة السوداء في كفيها وعلى صدرها كي تطعم أرواح الكلاب التي ستصادفها في طريقها إلى العالم الآخر، ثم حين لففتها بالقماش. كان هذا الطقس أعظم شرفٍ يمكن لابنة أن تحظى به وأشدّ كروبها في آنٍ معاً. ألبست مي-جا أشقائي الأصغر وشقيقتي ثياب الجَداد البيضاء. كما ساعدتني في إعداد حساء قنفذ البحر والأطباق الأخرى اللازمة للجنّازة.

مشت مي-جا بجانبني أثناء مرور الموكب في هادو. هدهدت أخي الرابع على خصرها كي لا يبكي. حملت الشاهدة الروحية(*) الخاصة بأمي، وحرصت ألا أبدو متوترة أو منزعجة أبداً خشية أنها قد تعود إلى هذا العالم مجدداً. سارت النساء من البولتيوك خلفنا وساعدننا على تمهيد طريق مرور الميّتة إلى قبرها. خلفهنّ، حمل اثنا

(*) الشاهدة الروحية: شاهدة لتكريم الأسلاف الراحلين إذ ترمز إلى حضورهم الروحي، تُكتب عليها نبذة عنهم، وتتوسط ما يشبه الطاولة التي توضع عليها قرايين الطعام - المترجم.

عشر رجلاً تابوت أمي. اصطفَ كثيرون في أزقة الأولى. أراد الجميع أن يكونوا جزءاً من رحلة أمي إلى العالم الآخر.

أرجع التابوت إلى منزلنا. وضع الجيران والأصدقاء القربان على المذبح - كعك الأرز اللزج، أوعية من الحبوب، ونبذ الأرز. في وسط المذبح، وقفت صورة زواج أمي وأبي. كانت جميلة حين كانت صغيرة - كان ذلك قبل أن تلفح الشمس والرياح والمياه المالحة والقلق والمسؤولية وجهها وتحيله بنياً غامقاً مثل جلد السرج. لكنَّ كلَّ ما استطعتُ التفكير به هو كيف بات ينبغي بها أن تبدو الآن: مزرقة على نحوٍ دائم بفعل برودة البحر وجليدية الموت.

جلستُ مي-جا معي على الأرض أمام المذبح مباشرةً، ركبته اليمنى تلامس ركبتَي اليمنى، بينما كان الجيران يقدمون تعازيهم واحترامهم. رافقتُ مي-جا عائلتي حين حُمل التابوت مجدداً إلى الحقل حيث أخبر عراف الأرض أبي أنه سيشكل موقع دفنٍ مناسبٍ لأمي. كان القبر محاطاً بجدرانٍ حجرية لمنع الرياح من إزعاجها والحيوانات من المشي عليها. وقفتُ مي-جا بجانبني عندما حُفر القبر. راقبنا معاً عملية توزيع الطعام على الرجال الأكبر سناً، ثم الشباب، ومن ثم الصبية الصغار. بعدها جاء دور النساء من الأكبر حتى الأصغر سناً. بالكاد حصلتُ أنا ومي-جا ويو-ري على أيِّ طعام. أمّا بعض الفتيات الصغيرات بمن في ذلك أختي الصغيرة، فلم يحصلن على شيء، وهو ما أثار حفيظة بعض الهينيو ودفع بهنَّ للصراخ بأصواتهنَّ المحيطية العالية بأنَّ هذا ليس عدلاً. لكن ماذا عن الموت؟ هل يُعتبر عدلاً؟ أنزلتُ أمي داخل الأرض في وضعيةٍ تتناغم مع الأرض نفسها، ثمَّ ساعد بضعة رجال في وضع حجرٍ نُحت عليه اسمها فوق القبر. بعد ذلك اليوم وبشكلٍ دائم، آتي إلى هنا لأتذكّر

والدتي وأبكي عليها، وأقدّم القرايين تعبيراً عن شكري لها لأنها جاءت بي إلى هذه الحياة.

- «أترين؟»، همست مي-جا، «ستكون محميةً على الدوام بالجدران الحجرية التي تحيط بنا. سوف تجدونها هنا دائماً». ابتسمت لي ابتسامةً رقيقة. «سنذهب إلى الجبال في شهر مارس من كل عام كي نقطف السراخس ونقدّمها كقرايين».

سوف ينبت السرخس تسع مرّاتٍ بعد أن يُقطف. يقول المثل: اسقط ثمانى مرّاتٍ وانهض تسعاً. إنّه تذكيرٌ جيّد بحالة السرخس، ورمزٌ للرغبة في أن يمهد الموتى الطريق للأجيال القادمة. كان لدينا على مدار العام الكثير من الفرص لتقديم مختلف أنواع القرايين، لكن في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، وبعد أن نُصب لأمّي في منزلنا مذبحٌ دائم مع شاهدهتها الروحية، كانت مي-جا أوّل من وضع ليمون المندرين على الطاولة. حين أفكّر في المال فلا بدّ أنّها أنفقت الكثير على ذلك...

في تلك الليلة، استلقت مي-جا على الحصيرة بجانبى، وجعلتُ تهذّئني وأنا أبكي. «أنتِ لستِ وحيدة. لن تكونى وحيدةً أبداً. سأكون معكِ دائماً». ظلّت تكرّر هذه الجمل الثلاث حتّى أصبحت مثل إيقاعٍ أسر داخل رأسى.

لكن رحلة والدتي لمّا تكتمل بعد. فعلى مدار يومين، ولائنتي عشرة ساعة كلّ يوم، أدّت الشامانة كيم طقوساً شعائرية لمجموعة الهينيو تطهيراً لروح والدتي وإرشاداً لها كي تصل بسلام إلى أرض الموتى. اهتمّت الشامانة أيضاً بأمرنا نحن الأحياء، لأنّ العديد منّا كان قد تأثر بشدّة بوفاة أمّي: أنا لكونى شهدتُ موتها؛ دو-سانغ ومي-جا لكون غيابهما كان السبب الذي جعل والدتي تقرّر مساعدتي في الحصول على أول أذن بحر في ذلك اليوم؛ ونساء الهينيو

الأخريات اللواتي ساعدن في تحريرها وإحضارها إلى الشاطئ.
تسببت الصدمة التي تعرّضنا لها بفقد فراغ في أرواحنا جميعاً.

أقيمت الشعائر في مزارٍ مختبئٍ داخل نتوءٍ حجري طبيعي على الشاطئ. جاءت نساءٌ وفتيات من القرى المجاورة تحملن أوانٍ مليئة بالأسماك المطبوخة والأرز والبيض والمشروبات الكحولية، ووضعنها أمام مذبحٍ مؤقتٍ بجوار صورة أمي. لم تكن تلك الصورة من يوم زفافها، بل صورةٌ أحدث تظهر فيها مع دزينةٍ من زميلاتها أمام مدرسة هادو الليلية. طلبت دو-سانغ تكريماً لشريكها في الغطس؛ طلبت من ابنها كتابة رسائل على شرائط الورق البيضاء التي أخذت ترفرف مع هبوب الريح. لم تكن تلك لمسة الحيوة الوحيدة في تلك الشعائر. فرغم أن المناسبة كانت حزينة جداً، إلا أن الشامانة كيم جلبت معها قوس قزح من الألوان وجوقةً من الأصوات. كان ثوبها الهانبوك قد حيك من أطراف كثيرة من الألوان الأرجوانية والصفراء والزرقاء. أمسكت شُرابة حمراء في كلِّ يد وجعلت تدور بهما. قرعت اثنتان من مساعدهاتها الصنّج، وقرعت ثلاث أخريات على الطبول. كلُّ هذا وذاك كان مصحوباً بالنحيب والبكاء. سرعان ما يتنا كتلةً من الأجساد التي تتمايل راقصةً، ثم بدأت أصواتنا ترتفع بالصلوات والأغنيات.

مشينا مع غروب الشمس حتّى طرف المياه حيث قدّمت الشامانة كيم القرايين لآلهة البحر. «أطلقني روح سون-سيل»، تصرّعت الشامانة. «دعيها ترجع معي». ألقت طرف قطعة قماشٍ بيضاء طويلة إلى الأمواج، ثم أخذت تسحبها ببطء جالبةً معها روح أمي.

كانت الرياح عاتية صباح اليوم التالي، ما جعل من المستحيل إبقاء الشموع مضاءة. كان هذا يوم الإعتاق: بالنسبة لأمي كان لأجل إعتاقها من هذا البرزخ، وبالنسبة لنا من أجل إعتاقنا من ارتباطنا بها ومن عذاباتنا. بدأنا بذات النسق من البكاء والنحيب والرقص

والهتاف إلى أن طلبت منّا الشامانة كيم الجلوس أخيراً. رأيتُ وجوهاً يغمرها الحزن، والانفعال أيضاً.

- «سلامي لجميع الآلهة»، أعلنت الشامانة. «أنتنَّ على الرحب والسعة أيتها المبجّلات. أرجو منكنَّ أن تعرفنَّ أنّ كلّ امرأة في جماعة سون-سيل قد أصابها البؤس. لكن يجدر بنا شفاء أولئك اللواتي في أمسّ الحاجة للمساعدة. تطلب الأرواح من ابنة سون-سيل، وحماتها، ودو-سانغ، ومي-جا الركوع أمامي».

فعلنا نحن الأربعة ما طُلب منّا بعد أن انحنينا أمام المذبح ثلاث مرّات. بدأت الشامانة كيم بجذّتي، أراحت بلطفٍ الشُرابة الحمراء على صدر الجدّة وقالت لها: «لقد كنتِ حماةً طيّبة. كنتِ لطيفة، ولم تشتكِ يوماً من سون-سيل».

همهم المعزّون تقديراً لهذه الإطراءات.

ثمّ استراحت شُرابة الشامانة على صدر مي-جا. «لا تلومي نفسك على مرضك في ذلك اليوم. القدر والمصير هما من أخذنا سون-سيل من هذا العالم». بدأت مي-جا تتحب مع هذه الكلمات. كنتُ مستغرقة في حزني لدرجة أنّي لم أدرك كيف يمكن أن يكون شعور مي-جا.

- «كانت الأمّ الوحيدة التي عرفتها يوماً»، قالت مختنقة.

ثمّ جاء دور دو-سانغ...

لربّما كان الاستماع إلى الشامانة وهي تواصي دو-سانغ أصعب جزء في هذه المراسم. كانت قد خسرت بالفعل ابنتها، تلك المفعمة بالحياة التي عرفتها ذات يوم، والآن ها هي تخسر أقرب صديقاتها. استعملت الشامانة سكاكين تتدلّى من مقابضها شرائط بيضاء طويلة كي تشقّ الهالة السلبية المحيطة بدو-سانغ. «خذي أيتها الآلهة صدمة

هذه المرأة وألمها بعيداً. واجعلي الجماعة تنتخبها رئيسةً جديدة لها. عساها تقود نساء البحر بالحكمة والحذر. نرجوكنَّ أيتها المبعجلات ألا تسمحن بوقوع المزيد من المآسي لهذه الجماعة».

وأخيراً، التفتت الشامانة كيم إليّ. جعلني مرور أصابعها على طول عمودي الفقري أسترخي. وفتّح ذهني نقر سبّابتها على جبھتي، فيما كشف حفيف الشُرابة على صدري عمق وفداحة كُربتِي. «فلنرمّ روح هذه الفتاة»، قالت الشامانة. «دعي لروحها أن ترفرف بعيداً عن الأحزان». ثمَّ تحركت مبتعدةً عني، واتّجهت بحواسّها إلى العالم الآخر. «يا إله بحر التّنين، أناشدك أن تجلب لنا روح سون-سيل لمرّة أخيرة».

أمام ناظريّ، فتحت الشامانة باب قلبها على مصراعيه، وسمعتُ صوت أمّي وهي تتحدّث عن حياتها، كما تقتضي العادات. «حين كنتُ في العشرين، كنتُ قد تزوّجت. كان ذلك في السنة التي انتشر فيها وباء الكوليرا، والذي أودى بحياة أمّي وأبي وإخوتي. كنتُ يتيمةً وكنْتُ زوجة. لا يمكن وصف زواجي بشكلٍ خاص بأنّه كان متناغماً أو حتّى غير متناغم. ومن ثمَّ أصبحتُ أمّاً».

كنتُ أحتاج من والدتي أن تقول لي أنّي لم أكن مخطئة. كنتُ أحتاج منها أن تطلب منّي أن أكون قويّة. كنتُ أحتاج منها النصيحة حول كيف سأعتني بإخوتي وأختي. كنتُ أحتاج رسائلَ حبٍّ لي وحدي، لكنّ الأرواح ليست ملزمةً بقول أو فعل ما نريد. إنّها في العالم الآخر الآن ولديها التزاماتها واستحقاقاتها الخاصة. الأمر متروكٌ لنا بالكامل لقراءة المعاني العميقة.

علا صوت الشامانة. ووخز الشعر مؤخّرة عنقي بينما كان الوله يأخذني بين ثناياه. «كانت حياتي في البحر، لكنّ قلبي كان مع ابنتيّ. أحبُّ ابنتي الكبرى لشجاعتها. وأحبُّ ابنتي الصغرى لصوت

ضحكتها الساحر. سأفتقدكما كثيراً في غياهب برودة الموت الأسود».

عندها استفاقت الشامانة كيم من غشيتها. وحن الوقت للمزيد من الغناء والرقص. ثم تناولنا وجبة بحرية - قطع من أخطبوط، بطارخ قنفذ البحر، شرائح من أسماك نيئة. قضت والدتي نحبها في البحر، لكن لم يسعنا قط أن ننسى أنه كان يمنحنا الحياة.

في تلك الليلة، بقيت مي-جا معي مجدداً. لفّت جسدها حول جسدي، وهمست في أذني: «مع كل عام سيتناقص حزنك قليلاً، وستنعتقين أكثر بقليل»، همست في أذني. «بمرور الوقت، سوف يتلاشى حزنك مثل زبد البحر».

أومأْتُ برأسي كما لو أنني فهمت، لكن كلماتها لم تمنحني سوى القليل من الراحة إذ كنتُ أعرف أنها لم تحرّر نفسها قط من الحزن الذي تملكها لفقدان أمها وأبيها.

يقول المثل: حين تبكي الدجاجة ينهار المنزل. لكن ليس عندنا مثلٌ لما يحدث عندما تموت الدجاجة. لطالما كنتُ بصفتي الابنة الكبرى مسؤولةً عن إختوتي الصغار. لكن بات عليّ الآن أن أؤمن طعامهم ولباسهم وأن أكون أمّاً ثانيةً لهم. لم يوفّر والدي أيّ نوع من المساعدة. كان رجلاً طيباً، لكنّه ارتعد خوفاً من عبء المسؤولية الإضافية. غالباً ما وجدته في الخارج وحيداً مع حزنه. ما من رجلٍ مجبورٍ على تحمّل كامل عبء إطعام أسرته ورعايتها. لهذا السبب كان يحصل على زوجة وبنات.

وكما لو أنّ متاعب الأسرة لم تكن كافية؛ فقد شدّد المستعمرون اليابانيون قبضتهم علينا في الأشهر التي تلت وفاة والدتي. أمِلْتُ ذات

يوم أن تجني ما يكفي من المال لإرسال أخوتي إلى المدرسة حتى لو
لسن العاشرة فقط. ربّما كان الدخل الإضافي الذي أكسبه ليساعد
ذات يوم في دفع تكاليف دراستهم. ولكن حتى لو أمكننا الاعتماد
على مدخولي الإضافي، فقد أصبح الأمر خطيراً للغاية حين بات
أولئك الأولاد «المحظوظين» الملتحقين بالمدارس في أنحاء الجزيرة
مجبّرين فجأة على بناء ملاجئ تحت الأرض كي يختبئ فيها الجنود
اليابانيون.

شعرت بالضغط من كلّ اتّجاه. سعيْتُ لامتلاك الشجاعة
والإلهام اللذين تمتّعت بهما والدتي. أينما كنت في جيجو، يمكنك
رؤية الجدة سيولمونداي. عبرت فوق جسد الإلهة، وسبحت بين
ثنايا ثوبها، وتنفّست الهواء الذي كانت تزفره. كان لديّ أيضاً
شخصان حيّان يمكنني الاعتماد عليهما: مي-جا التي كانت ناجيةً
حقيقية، وجدّتي التي أحبّتي كثيراً وعانت مآسيها هي أيضاً؛ وثقتُ
هاتان الاثنتان بي لبذل كلّ ما بوسعي من أجل العائلة.

- «الآباء يحضرون في الأبناء»، قالت جدّتي معزّزة ثقتي
بنفسي. «ستكون أمّك حاضرةً فيك على الدوام. وستمنحك القوة
أينما ذهبت».

وفي تلك الأيام حين كنّا نشقّ طريقنا إلى البحر ونجد مي-جا
في انتظارنا في الركن المعتاد من الزقاق، كانت جدّتي تردّد أقوالاً
شائعة أملأ في طمأنة فتاتين لا أمّ لهما. «البحر أفضل من أمّك
بالولادة»، كانت تقول. «البحر يبقى إلى الأبد».

اليوم 2 : 2008

تستيقظ يونغ-سوك مبكراً صباح اليوم التالي للقاءها بالعائلة على الشاطئ. بالكاد نامت في تلك الليلة. كانت مضطربة والأفكار تتزاحم في رأسها بينما هي قابعة في الظلمة تفكر في المرأة الأجنبية وزوجها وطفليهما. تذكّرت كل الشائعات التي كانت قد سمعتها عن مي-جا على مرّ السنين: كانت في أمريكا، تعيش في قصر، تقود سيارتها الخاصة، وترسل المال إلى الحيّ الذي تنتمي إليه في القرية. لكن كانت هناك قصص أخرى أيضاً مثل: كانت تملك متجر بقالة صغير في لوس أنجلوس، تعيش في شقة، وكانت وحيدة لأنها أكبر من أن تتمكن من إتقان اللغة. الآن، وبعد أن التقت بعائلة مي-جا، كانت يونغ-سوك غير متأكدة ما الذي يجدر بها تصديقه.

تذهب إلى المطبخ، تسخن الماء، ثم تحرّكه مع مربّى المندرين، وترشف المشروب. تذهب بعد ذلك إلى حديقته، تقطف الثوم وأوراق الشبث كي تضيفهما إلى طبقها الصباحي من يخنة سلطعونات البحر الصغيرة. ثم تعود إلى غرفتها كي ترتدي ملابسها، وتزيح فراشها، وتأكل فطورها. كلُّ هذا والفجر لم يحلّ بعد.

في الماضي، حين كانت يونغ-سوك صبيّة، كانت الهينيو تتقاعد رسمياً في سنّ الخامسة والخمسين. لكن أولئك اللواتي ظللن يتنفسن

هواء هذه الأرض لم ترغبين في البقاء داخل المنزل بحالٍ من الأحوال، لذا فقد مارسن الأعمال المائية على الشاطئ. الزمن تغير. حين كانت تنضمّ إلى حفيدها وعائلته لتناول الإفطار في المنزل الكبير، غالباً ما صرّحت بشيء من قبيل: «أشعر بالوحشة في المنزل وحدي. أعتقد أنني سأنزل إلى البحر». ما عنّته كان أنها تشعر بالضجر من البقاء في المنزل ومجالسة أبناء أحفادها الصغار. نعم، حريٌّ بها أن تستمتع بهذه الأوقات المميزة مع الصغار - وهو شيء لم تعرف كيف تفعله حتى مع أطفالها - لكنّ ليس لدى هؤلاء الصغار قصصٌ ليحكوها ولا يعرفون كيف يمزحون أو يلقون النكات. والعمل في الحقول الجافة لم يكن أبداً «مناسباً» لها بحسب تعبير أحد أبناء أحفادها، مع ما تتطلبه أعمال التعشيب والعزق والغرس والحصاد من انحناء وجهٍ كبير. بالنسبة لها، تكون الحياة أفضل حين تستطيع العيش في تناغمٍ تامٍّ مع الطبيعة - مع الريح، والمدّ والجزر، والقمر.

تستطيع يونغ-سوك أن تفعل ما تشاء، لأنها مكتفية ذاتياً من الناحية المالية. لم يقم أحدٌ يوماً بإعالتها، ولا أحد سيفعل ذلك أبداً. هي تعتبر البحر مصرفها الخاص، حتى وإن لم يكن لديها الشيكات أو البطاقات الائتمانية، يمكنها أن تجني المال تحت الماء. دائماً ما شعرت أيضاً أنها بأفضل حال حين تغوص، ولطالما شعرت أنّ وجودها في الماء يشفيها. كانت تذهب للغوص كلّما واجهت المشاكل في حياتها. هذا خطيراً بالطبع، لكنّ شيئاً ما كان يسحبها إلى البحر كلّ يوم. حين لا يكون جسدها تحت الماء، يكون عقلها هناك.

- «أسمع المحيط ينادي»، تخبر حفيدها هذا الصباح، وهو لم يكن بصدد التشاجر معها، ولا أحد آخر في المنزل كان ينوي ذلك.

كانت وحتى بعد فترة طويلة من تقاعدها واحدة من أفضل الهينيو بخبرتها الطويلة والشاقة في المدّ والجزر والتيارات والأعاصير، ومعرفتها الأعمق بمناطق تعشيش الأخطبوط، وقدرتها المذهلة على حبس أنفاسها. كم من الغريب أنّه من الصعب في هذه الأيام العثور على هينيو تحت سنّ الخامسة والخمسين. يقال إنّ في غضون عشرين عاماً ستكون نساء الهينيو قد انقرضن بالكامل.

هي تعاني ألماً وطنيناً مستمرّين في أذنيها بفعل عقود من التعرّض لضغط الماء. تعاني الصداع والدوار والدوخة والغثيان - كما لو كانت طوال الوقت على متن قاربٍ رجراج. تعاني آلاماً في وركها من حمل الأوزان التي وضعتها حول خصرها كي تساعد على النزول إلى القاع ومن الجهد المضني الذي كانت تبذله في مقاومة تلك الأوزان حين تحتاج للصعود إلى السطح. كان عليها التعامل مع تلك الأوزان والسباحة عائدةً إلى القارب أو الشاطئ بشبكته التي تحمل صيد اليوم والذي قد يصل لثلاثين كيلوغراماً، ومن ثمّ سحبها إلى اليابسة والعودة بها إلى البولتيوك. ومع ذلك، فالبحر الجبار العنيد ما فتئ يغويها.

ترى يونغ-سوك أثناء سيرها إلى الشاطئ البقايا الحجرية للبولتيوك القديم ومرافق الاستحمام، حيث بات الشباب في هذه الأيام يلتقون سرّاً لتدخين السجائر والاستماع إلى الموسيقى. يا لها من خسارة! تنعطف يساراً وتنضمّ إلى عجائز أخريات لدى دخولهن البولتيوك الجديد. يحتوي هذا الأخير على أكشاك استحمام فردية، وغرفٍ لتغيير الملابس، ومكيّف هواء، وموقد، وحوض استحمام ضخم يتسع لدزينة من النساء على الأقل حتّى يتسنى لهنّ شطف المياه المالحة وتدفئة أجسادهنّ في نفس الوقت. لم يكن لهذا البولتيوك حفرة نار، لكن كان له سقف، وكان يمكن تشغيل السخانات عند

الحاجة. كل هذه التسهيلات بالإضافة إلى الرعاية الصحيّة كانت الحكومة قد قدّمتها تقديراً للعمل الذي قامت به الهينيو.

تخلع النساء ملابسهنّ. الأنداء التي غدّت قبل وقتٍ طويل الأطفال ومنحت المتعة للأزواج تتدلّى وصولاً إلى سرّهنّ. البطون التي كانت ممسوحة ذات يوم تتموّج الآن بلفائف من الدهون. الشعر الذي كان أسود برّاقاً، اليوم هو أبيض شاحب. الأيدي التي قضت حياةً كاملة في العمل، كانت الآن متغصّنة، كثيرة العُقد، ومليئة بالندوب. بجانب يونغ-سوك، تجذب الأختان كانغ سرواليهما الأسودين من البوليمير العازل فوق مؤخّرتيهما المترهلتين، ثم تقحمان سترتيهما البرتقاليّتين من البوليمير العازل في رأسيهما، كان هذا اللون للقسم العلوي من ثياب الغطس مفروضٌ قانوناً كي تكون مرئية جيّداً للقوارب المارّة.

تحشر يونغ-سوك جمجمتها داخل غطاء رأسها المطّاطي، وتعدّل وضع الفتحة الصغيرة فوق حاجبيها وأسفل شفتيها مباشرةً. إذ تجول بنظرها في البولتيوك، ترى وجوه الصديقات المتأكّلة مثل صخور فعلت بها عوامل الحتّ والتعرية ما فعلته، وجوهٌ عرفتها طيلة حياتها مضغوطةٌ الآن داخل أغطية الرأس الضيّقة. كانت شخصيات هذه النساء وتاريخهنّ من الطيبة، والكرم، والبخل والقسوة يتكتّفان داخل هذه السنتيمترات المربّعة القليلة. يروي كلّ سطرٍ قصّة الرحلات تحت الماء والولادات والوفيات والنجاة والانتصار. تتفتح الأخاديد العميقة حول فم كانغ غو-جا نحو الخارج مثل صورةٍ للشمس رسمها طفل. وترسم التغصّانات خطوطاً من زوايا عينيها نزولاً إلى أسفل خديها. ستظلّ كانغ غو-سُن أختاً صغرى أبد الدهر. رغم كلّ خساراتها، فإنّ اللطف كان يشعّ من عينيها. كانت بعض النساء بلا أسنان، خدودهنّ مضغوطةٌ للداخل، وهو ما ضاعف من

حجم أخاديد الحزن والفرح. الآن، كما لو أنهنَّ امرأةً واحدة، يضعنَّ أقنعة الرؤية على رؤوسهنَّ، لكن كان لكلِّ امرأةٍ طريقتهما الفريدة في ارتداء قناعها - فوق جبينها، أعلى رأسها، أو على جانبه بزاوية معينة.

تغادر الجدّات البولتيوك - مع عواماتهنَّ وزعانفهنَّ وأدوات أخرى - تنزلن بضع درجات، وتمضين فوق رصيف المراكب نحو القارب. يتمُّ اصطحابهنَّ إلى خليج صغير قبالة جزيرة قريبة، حيث يُعرف عن تلك البقعة وفرة أصناف القواقع البحرية. حالما يصل القارب إلى وجهته، تأخذ يونغ-سوك ورفيقاتها بضع لحظات لتقديم قرابين من الأرز ونبيد الأرز لإله بحر التّنين، والصلاة من أجل صيد وفير وعودةٍ سالمة وراحة البال. يمكن تلخيص حياة يونغ-سوك في هذه الأيام بثلاث كلمات - صلّ، صلّ، صلّ - عرفاناً بكلِّ الخير الذي منحته لها تلك الصلوات.

ومن ثمَّ صوت طرطشة المياه ونزولاً إلى الأعماق. مرّاً الآن ما يقارب الثلاثين عاماً منذ أن بدأت يونغ-سوك وغيرها من الهينيو بارتداء الملابس المطّاطية. «ستُغطّى أجسادكنَّ من الرأس حتّى أخمص القدمين»، قال لهنَّ مسؤولٌ حكوميّ. «سيضع هذا حداً للانتقادات القائلة بأنَّ الهينيو غير محتشمتين ويُظهرنَّ الكثير من جلدهنَّ. وسوف تساعدنَّ بالتالي في صناعة السياحة لدينا!» (كان يتحدث عن سياح من البرّ الرئيسي، وقد كان محقّقاً في ذلك. لكنَّ أحداً في ذلك الوقت لم يكن بمقدوره التنبؤ بسياح أجنبي، وأنهم قد يرغبون في القدوم إلى الشاطئ لمشاهدة عجائز مثلها ينزلن إلى البحر، أو أنهم سيستمتعون برؤية العروض اليومية في متحف الهينيو الجديد، حيث كانت فتياتٌ مستأجرات يرتدين الملابس المائية التقليدية ويغنّين أغاني التجذيف) تمكّنت يونغ-سوك حين ارتدت

البذلة المطاطية لأول مرة من البقاء في الماء لوقتٍ أطول لأنها كانت محميةً جيّداً من البرد. وقُرئت لها البذلة أيضاً الحماية من لسعات قنديل البحر ولدغات ثعابين الماء. (لم تحميها من الأخطار الأخرى: خيوط الصنابير أو القوارب المسرعة التي تحمل السيّاح). كما ساعدتها الأوزان والزعانف في الوصول إلى أعماق أكبر أيضاً. والنتيجة: كانت يونغ-سوك آمنةً أكثر، وصيدها أوفر، وكسبت المزيد من المال. لكن حين اقترح الناس أن تبدأ الهينيو في استخدام خزانات الأوكسجين، رفضت ذلك بشدة رفقة جميع الغوّاصات على امتداد الجزيرة. «كل شيءٍ نقوم به يجب أن يكون طبيعياً»، قالت يونغ-سوك للجماعة. «وإلا سيصبح صيدنا جائراً، وسنستنزف حقولنا المائية، ولن نكسب شيئاً في نهاية المطاف». مجدداً، كان كلُّ شيءٍ يتمحور حول التوازن.

حالما تركنُ للشعور بانعدام الوزن، تبدّد كل آلامها وأوجاعها. وحين يكون ذهنها مضطرباً كما هو حاله اليوم، فإنّ الاتّساع اللانهائي للمحيط يوقّر السلوى والطمانينة. تركل برجليها متّجهة برأسها للأسفل دافعةً بجسدها أعماق فأعماق داخل المياه. هي تأمل أن يسحق ضغط المياه أفكار الماضي. لكنّها بدلاً من ذلك بدت وكأنّها تُدفع خارجاً مثل معجون أسنان من أنبوه. كدّرتها الأفكار والصور. هي بحاجة أن تبقى مرگزة - أن تكون يقظةً على الدوام - لكن صور والدتها وجدّتها، وصورة مي-جا المتربّصة في ظلال عقلها، لم تنفكّ تضغط على الجانب الخلفي لكلتا عينيها.

اعتادت والدّة يونغ-سوك أن تقول إنّ البحر مثل الأمّ، بينما كانت جدّتها تقول إنّ البحر أفضل من الأمّ. تعرف يونغ-سوك بعد كلّ هذه السنين أنّ جدّتها محقّة أكثر. البحر أفضل من الأمّ. يمكن أن تحب والدتك حبّاً جمّاً، وقد تتركك مع ذلك. قد تحبّ البحر أو

تكرهه، لكنّه سيظلّ موجوداً دائماً. أبدأ الدهر. كان البحر محور حياتها. لقد اعتنى بها وسرق منها، لكنّه لم يغادرها قطّ.

يبدأ عقلها في الاسترخاء عند الغطسة الثالثة. تندمج في تناغم مع الإيقاع الذي يربطها بالأرض، بأولئك الذين فقدتهم، بالحب. يجعلها خفقان الدم في رأسها تشعر بأنّها حيّة. عندما تكون داخل البحر، تكون داخل رحم العالم.

وتنسى أن تتوخّى الحذر.

تغوص يونغ-سوك أعمق ممّا اعتادت الغوص لسنواتٍ خلّت. إنّ ضغط الماء أصعب وأثقل وطأة عليها الآن. هي تتذكّر حين كانت تستطيع النزول حتّى عشرين متراً... وهو عمقٌ كافٍ لسحق زجاجة بلاستيكية، لكن هذا كان قبل الزجاجات البلاستيكية.

تعود إلى السطح... آآآه. تزفر أنفاسها السومبيسوري للأمواج. تأخذ عدّة أنفاسٍ لاهثة. تغطس عدّة غطسات قصيرة ضمن فسحةٍ زمنيّة ضيّقة، تزفر أنفاس السومبيسوري، ثمّ تبتلع الهواء من أجل غطستها التالية. هي أذكى من أن تقدّم على ذلك، لكن المياه كانت رائعة، لذا ستحاول في غطستها التالية الوصول إلى عمق عشرين متراً، تريد فقط أن تعرف ما إذا كانت تستطيع فعلها. شهيقٌ أخير، ثمّ نزولاً برأسها مباشرةً إلى الأسفل مع الركّلت بكلّ قوّتها.

تنزل أعمق فأعمق. هي تعرف أنّ الهينيو الأخريات يراقبنها، الأمر الذي يعطيها جرعةً إضافية من الجرأة. يمكنها أخيراً لبضع ثوانٍ ثمينة أن تنسى العائلة التي التقتّها على الشاطئ، والصور الفوتوغرافية، وابنتهم التي بدت شديدة الشبه بمي-جا. لكنّها كانت تفقد في لحظات النسيان تلك الشيء الأهمّ - الهواء. عليها أن تعود الآن إلى السطح بأسرع ما يمكن. تستطيع رؤيته... عندها بدأت الأشياء تصبح سوداء اللون...

كانت صديقاتها تنتظرن قرب عوامتها حين ظهرت يونغ-سوك على السطح فاقدةً للوعي. سحبها معاً إلى القارب. سحب المراكبيّ يونغ-سوك ممسكاً بظهر بذلتها، بينما أخذت النساء تدفعن بها من الأسفل. يضغط المراكبيّ على دواصة الوقود حالما أصبح الجميع على متن القارب. تطلب إحدى النساء المساعدة عبر هاتفها المحمول. ليست يونغ-سوك واعيةً لأيّ من هذا - عيناها مغمضتان وجسدها مرتخ.

سيّارة إسعافٍ في انتظارهم على الشاطئ. الآن، يونغ-سوك مستيقظة، وهي تويّخ نفسها لكونها حمقاء جداً.

الطبيبة في غرفة الطوارئ، امرأة شابةٌ وجميلة، مولودةٌ في الجزيرة لأُم من الهينيو. رغم ذلك، فإنَّ أسئلة الطبيبة شين كانت تفصيليةً ومحرّجة. كانت تضع العلامات على قائمةٍ تحوي مجموعةً من الأعراض والأسباب المحتملة. «قد يكون هذا ما تطلقون عليه أنتنّ الهينيو "تعتيم المياه الضحلة"». يمكن أن يكون بسبب فرط التنفس قبل الغوص. رأيتُ عدّة وفيات بسبب هذا. أنتِ تأخذين عدّة أنفاسٍ سريعة لزيادة قدرتك على حبس النفس، لكنّ هذا النوع من التنفّس المفرط يقلّل من مستويات ثاني أكسيد الكربون لديك. وهذا بدوره يمكن أن يتسبّب بنقصٍ في أكسجة الدماغ».

لا تعني هذه المصطلحات الطبيّة شيئاً ليونغ-سوك ولا بدّ أن ذلك انعكس على وجهها لأنّ الطبيبة راحت تشرح: «حين ينسى جذع الدماغ إرسال الإشارة التي تفيد بأنّك تحتاجين للهواء، أنتِ تفقدين الوعي في الماء. لكنك تستمرّين في التنفّس... باستثناء أنّك تتنفّسين ماءً... لو لم تكن رفيقاتك هناك...».

- «أنا أعرف. إنّهُ الغرق الهادئ»، تقول يونغ-سوك مستخدمةً

تعبير الهينيو لما يحدث حين تفقد الغواصة قدرتها على المحاكمة وتبدأ في التنفس بشكلٍ طبيعي كما لو أنّها على اليابسة. «لم أكن متنبهةً لتنفّسي كما يجب، لكن هذا ليس ما حدث».

- «كيف تعرفين ذلك؟».

- «أعرف وحسب».

- «حسنٌ»، تقول الطيبة شين حين يتبيّن لها أنّه ليس لدى مريضتها المسنة المزيد لتضيفه. ثمّ تتابع محدّثةً نفسها: «يمكننا استبعاد الإصابة بنوبة قلبية، لكن هل ينبغي بنا التفكير في الخدر النيتروجيني؟ قد يسبب الغوص العميق ضعفاً عاماً على الصعيد الجسدي، لكنّه يمكن أن يمنح أيضاً شعوراً بالخفة والسعادة - ومن ثمّ فقدان القدرة على اتّخاذ قرارات صائبة والذي يتفاقم بفعل حالة النسيان الناجمة عن ذاك الشعور اللذيذ في المقام الأوّل. يقول أنّ لحظات النعيم هذه هي ما تجعل الهينيو يدمنون البحر». تزمّ شفّيتها، وتومئ برأسها بجديّة، ثمّ تعيد توجيه تركيزها إلى المرأة التي أمامها. «هل نسيت التنفّس والمسافة التي تفصلك عن السطح لأنك كنتِ تشعرين ببهجةٍ ونشوةٍ وفرحٍ وكأنك ما عدتِ في جسدك بعد الآن؟».

بالكاد تصغي يونغ-سوك إليها. هي تتألّم من كلّ مكان في جسدها، لكنّها تأبى الاعتراف بذلك. كيف أمكنني أن أكون بهذا الغباء؟ تسأل نفسها وهي متأكّدة أنّ نفس الفكرة كانت تراود الطيبة.

- «ماذا عن البرد؟»، تسأل الطيبة شين. «إنّ جسم الإنسان يبرد بسرعةٍ كبيرة في الماء البارد».

- «أعرف ذلك. كنتُ أغوص في الشتاء. في روسيا —».

- «نعم، لقد سمعتُ هذا الأمر عنك».

إذاً، الطيبة شين على علمٍ بسمعة يونغ-سوك...

- «يجب أن تكوني أكثر حذراً هناك»، تقول الطيبة. «لديكِ وظيفة خطيرة. أعني، هل رأيت الرجال يمارسونها؟».
- «بالطبع لا!»، تهتف يونغ-سوك. «العالم بأسره يعرف أن الماء البارد سوف يتسبب في ذبول أعضائهم الحميمة وموتها». تهزّ الطيبة رأسها وتضحك.
- تصبح يونغ-سوك جدّية. «في الحقيقة، لقد رأيت نساء هينيو يُمتنّ لحظة نزولهنّ في الماء البارد».
- «توقّف قلوبهنّ —».
- «لكنّه لم يكن بارداً جدّاً اليوم —».
- «فيمَ يهْمُ ذلك؟»، تسأل الطيبة شين سامحةً لنفاذ صبرها بالظهور. «في عمركِ هذا، حتّى الغوص في الطقس يعدّ خطيراً».
- «لديّ بعض الخدر في الجانب الأيمن من جسدي»، تبوح يونغ-سوك بذلك على نحوٍ مفاجئ، لكنّ ما تشعر به كان أسوأ بكثيرٍ من مجرد خدر. لقد تحوّلت الآلام إلى عذابٍ حارق.
- «إنّ الجلطات الدماغية شائعةٌ عند نساءٍ كنّ يمارسنّ الغوص لوقتٍ طويلٍ مثلك». تحدّق الطيبة شين بها، تحاول تقييم حالتها. «يبدو وكأنّك تعانين آلاماً».
- «أعاني آلاماً في كلّ مكان».
- تلمع عينا الطيبة بنظرةٍ تنمّ عن الفهم. «كان يجب أن أميّز هذا على الفور، لكنّ هذا صعبٌ حين لا يكون المريض صريحاً. أنتِ غوّاصةٌ تعتمد حبس النفس. أعتقد أنّكِ مصابةٌ بداء الانخفاض المفاجئ في ضغط الهواء —».
- «أنا لم أَعْصِ عميقاً إلى هذا الحد —».
- «أنتنّ الهينيو تعلمتنّ من أمهاتكنّ وجدّاتكنّ، لكنّ ما علّموكنّ

إيَّاه هو أسوأ شيءٍ يمكن القيام به. تلك الأنفاس القصيرة التي يليها غوصٌ عميق حيث تحبسنَ أنفاسكَنَ طيلة الوقت، ثمَّ ذلك الصعود السريع إلى السطح. ومن ثمَّ تكرّر ذلك مرّةً بعد مرّة؟ هذا شيءٌ رهيب وشديد الخطورة. أنتِ مصابةٌ بانخفاضٍ مفاجئٍ في ضغط الهواء. أنتِ محظوظةٌ جدّاً لأنَّ فقاعات الهواء في شرايينك ورئتيك لم تصل إلى دماغك».

تتنهّد يونغ-سوك. لن تكون أول هينيو تقضي وقتاً في حجرة الضغط العالي. مع ذلك، هي تشعر بالقلق. «هل سأكون قادرةً على الغوص ثانية؟».

تعاين الطيبة سماعتها متجنّبةً النظر في عينيّ يونغ-سوك. «هناك نقطةٌ لا يمكن بعدها الاحتيال على حدود قدرات الجسم البشريّ، لكن إن قلتُ لك لا، فهل ستتوقّفين؟» حين لا تبدي يونغ-سوك أية استجابة، تتابع الطيبة: «ماذا سيحدث في المرّة القادمة إذا فقدتِ الوعي تحت الماء؟ إنّ الموت الفجائي في عمرك لن يكون بمثابة الصدمة بالنسبة لي».

تصمّ يونغ-سوك أذنيها، إذ لم تكن راغبةً في سماع محاضرة الطيبة.

تغمض عينيها بينما يتمّ سحبها عبر الممرّات إلى غرفةٍ أخرى. تساعد الممرّضات على الدخول في أنبوبٍ يشبه تابوتاً مع نافذةٍ تسمح لها بالنظر خارجاً. قيل لها أنّه سيتوجّب عليها البقاء في حجرة الضغط العالي لعدّة ساعات.

- «هل تريدين أن نشغل لك الموسيقى؟»، تسأل ممرّضة.

تهزّ يونغ-سوك رأسها بالنفي. تخفّف الممرّضة الإضاءة عندئذٍ. «سأكون هنا طيلة الوقت. أنتِ لستِ وحدك».

لكن داخل الحجرة، كانت يونغ-سوك وحدها. في الماضي، قبل أن يكون لدينا هذا الطبُّ الحديث، كنْتُ لأموت. لكن في الماضي، كان لديّ مي-جا لحمايتي. تنفرط السُّبحة من هذه النقطة، وكلُّ الأفكار التي كانت تحاول تجنّبها منذ أن التقت تلك العائلة بالأمس تحتشد وتتزاحم حولها الآن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء 2

الحبّ

ربيع 1944 - خريف 1946

العمل في البحر بعيداً عن الديار

فبراير 1944

- «هل أنجبتني أمي فقط كي أحظى ببيدين خشتين؟»، غنّت مي-جا.

- «هل أنجبتني أمي كي أحظى بالرخاء فقط في المستقبل؟»، غنّينا وراءها.

- «انظروا كيف يمضي ملاحنا بسلاسة!»، ردّدت مي-جا.

- «المال، المال الذي لا يكذب»، أجبناها ملتزمات بإيقاعها.
«المال، المال الذي أعود به إلى الديار. هيّا بنا أيّها الملاح، هيّا بنا».

كنتُ أفضل هذا النوع من الأغاني أكثر بكثير من الأغاني المأساوية التي اعتادت الأختان كانغ أن تقودا جوقتنا بها، أغانٍ عن أمّهات فقدن أطفالهن أو عن قسوة العيش تحت حكم الحمّوات. كانت هاتان الفتاتان قد تغيّرتا كثيراً منذ أصبحتا زوجتين ومن ثمّ أمّين، ولم تعودا مسلّيتين كما كانتا من قبل. بدا وكأنّهما مسحّتا تماماً من ذهنيهما ما كانتا تهمسان به ذات يوم حول مواعدهما للصّبية في قنوات الحمم البركانية تحت الأرض، أو كيف قبلتا أحداً على قمّة مخروّط بركانيّ. لقد نسيّتا فرحة الغناء من أجل المتعة.

يمكن لأيِّ منّا الشكوى، لكن هل سيجعل ذلك من حالتنا أسهل على الصعيد العاطفي أو أكثر راحة على المستوى الجسدي؟

كان ذلك في شهر فبراير، والصباح لا يزال معتماً. كان القارب يصارع الأمواج المتلاطمة قبالة ساحل فلاديفوستوك. تجمّعنا نحن الأربعة حول مجمرة، لكنّ حرارتها لم تكن كافية كي تصل إلى ذاك المكان المرتعش عميقاً في صميم جسدي. لم ترغب أيُّ منّا في إهدار غلّتنا على شراء الشاي، لذا فقد كنّا نرتشف الماء الساخن. كنتُ جائعة، لكنني جائعةً دوماً. أكلَ العمل المقترن بالارتعاش المستمرّ - سواءً على اليابسة، أو على متن القارب، أو في البحر - أيّ مخزونٍ متوفّرٍ في جسدي بسرعة أكبر من أن أتمكّن من تجديده.

تمنّيتُ لو أستطيع أن أكون في بيتي على جزيرتي، لكنّ هذا لم يكن ممكناً. حين بلغت السادسة عشرة، توفي أخي الأصغر جرّاء حمى فتكت به خلال ثلاث ليال. كان قد تسنّى لوالدي في أربع مناسبات أن يربط عند مدخل البيت حبلًا ذهبي اللون تتدلّى منه حبات الفلفل الأحمر المجفف للتدليل على أنّ ابناً ذكراً قد وُلد في المنزل، كما ربط في مناسبتين أغصان الصنوبر لتنبئ به جيراننا أنّ ثمة بنتاً - معيلة - قد وُلدت. لو أنّ الأسرة مكتملة، لكانت أمي ستقلب مهد أخي الرابع أمام مزار هالمانغ سامسيونغ المقدّس في طقس يرمز إلى عتقها منه. لكن مع رحيل أمي عنّا، فقد تُركت هذه الطقوس لي كي أوّديها. بعد وفاة أخي الرابع، أضحت وجوه إخوتي الباقين فاترةً متناقلة بفعل الحزن وفقدان الأمل. أختي التي لا تزال في الحادية عشرة آنذاك، كانت لا تزال صغيرةً جدّاً على تقديم المساعدة. مع عدم التحاقهم بالمدرسة، كلّ ما فعله أخوتي كان التكاسل في أرجاء المنزل، أو الجري عبر القرية والوقوع في المشاكل. اعتنى والدي بالمنزل، وأدّى الأعمال المهام الروتينية فيه، وزار الرجال الآخرين

تحت شجرة القرية، كما أحجم عن إحضار زوجة جديدة، وهو ما عني أنني كنت الوحيدة القادرة على فعل شيءٍ لتغيير مصائرنا .

بعد أن شاهدتُ والدتي وهي تموت، لم أرغب قط في رؤية المحيط ثانية، وبالطبع لم أرغب في الغوص فيه، لكنني لم أستطع تجنب ذلك أيضاً. انتُخبْتُ دو-سانغ رئيسةً للجماعة. لا يمكن أن يكون أحدٌ قد شعر بالذنب أكثر ممّا كنتُ أشعر به بالفعل بسبب ما حدث لأُمِّي، لكنّ دو-سانغ عبّرت عن آرائها بي وبالأدوار التي افترض أنها تشبهه في أنني لعبتها في موت أُمِّي وفي حادث يو-ري المعروف؛ عبّرتُ عن ذلك بتعييني للعمل في مناطق قاحلة في خلجان صغيرة أو بعض الشعاب المرجانية. ومع ذلك، فقد كنتُ بحاجةٍ إلى أن أحضر المال إلى المنزل لشراء الطعام لنا والضروريات الأخرى. لحسن الحظ، كانت لديّ بعض الخيارات. كان ربع سگان جيغو قد انتقلوا إلى اليابان حتى الآن. عمل الرجال في صناعة الحديد والطلاء؛ وعملت النساء في مصانع الغزل والخياطة. كان قسمٌ من هؤلاء طلاباً بالطبع. الطريقة الشرعية الأخرى الوحيدة لمغادرة الجزيرة كانت أن تعمل النساء كهينيو يغطسنَ من القوارب في بلدان أخرى. لم أكن طالبة ولم أعتقد أنني سأتمكّن من التأقلم مع العمل في مصنع مغلق، وهكذا حين جاء وكيل التوظيف قبل خمس سنوات إلى القرية في شاحنةٍ بحثاً عن نساء هينيو من أجل توظيفهنّ لموسم «الكسب الصيفي»، سجّلتُ اسمي لممارسة العمل في البحر بعيداً عن الديار.

- «أنا قادمةٌ أيضاً»، أعلنت مي-جا .

توسّلتُ إليها ألا تفعل ذلك. «لن تعني هذه الرحلة سوى المشقة والمعاناة بالنسبة لك» .

- «لكن ما الذي سأفعله في جيغو بدونك؟» .

انضممنا إلى الأختين كانغ اللتين كان لديهما أبناء في المنزل، وقد عملتا بالفعل بعيداً عن الديار لموسمين. صعدنا نحن الأربعة على ظهر الشاحنة - كانت هذه أوّل مرّة لي - وتنقلنا بها إلى قرى أخرى إلى أن وظّف الوكيل ما يكفي من الهينيو لملء العديد من القوارب. ذهبنا بعدئذٍ إلى ميناء مدينة جيجو، وصعدنا على متن عبّارة، وخضنا نحو خمسمئة كيلومترٍ من البحار المتلاطمة وصولاً إلى الصين. في العام التالي، سافرنا مسافة ثلاثمئة كيلومتر شرقاً فوق الأمواج الرهيبة كي نصل إلى اليابان. وفي العام الذي تلا ذلك، دحرجتنا الأمواج مئة كيلومترٍ عبر مضيق جيجو إلى البرّ الرئيسي الكوريّ، حيث صعدنا عبّارةً أخرى لتنقلنا إلى الاتحاد السوفييتي. كنّا قد سمعنا أنّ المكان هناك هو الأفضل لجني الأرباح. كنّا قد عملنا أنا ومي-جا خلال العامين الماضيين في مواسم «الكسب الصيفي» و«الكسب الشتائي» في فلاديفوستوك، ما عني أنّنا كنّا نبتعد لتسعة أشهر ونعود إلى جيجو لحصاد البطاطا الحلوة في أغسطس.

وهكذا، ولما يقارب الخمس سنوات، كانت مي-جا توقّع بأحرف اسمها وكنّت أضع بصمة إبهامي على العقود التي تقرّ بموافقتنا على الابتعاد عن الديار. في تلك الأثناء كان العالم بأسره يتزعزع وليس جزيرتنا فقط. كانت اليابان لعقودٍ من الزمن قوّةً مستقرّة - وإن كانت مكروهةً تماماً - في جيجو. كانت كوريا مستعمرة ملحقة باليابان منذ أربعةٍ وثلاثين عاماً. نعم، كان لدينا توترات. نعم، كان بوسع المستعمرين اليابانيين الاعتداء علينا دون عواقب. نعم، كان باستطاعتهم استغلالنا. كانت الإضرابات والمسيرات ملاذنا الوحيد، لكن لطالما فاز اليابانيون في نهاية الأمر. بعد ذلك، ومنذ حوالي ثلاث سنوات، قامت اليابان التي لم تكتفِ بغزو الصين أو بكوريا كمستعمرة لها بشنّ هجمات عبر المحيط الهادئ. دخلت

أمريكا الحرب واندلع القتال في كل مكان من حولنا .

تلقطنا أنا ومي-جا الأخبار حيثما أمكننا ذلك - كنا نمرُّ بشجرة القرية حين نكون في هادو ونسترق السمع إلى نقاشات الرجال، أو نصغي إلى مذياع مهجعنا في فلاديفوستوك . عندما كنا في جيجو، رأينا بأم أعيننا أعداداً أكبر حتى من الجنود اليابانيين . دائماً ما كانوا يشكّلون خطراً على الشابات اللواتي لا يرافقهنَّ أحد، لكنهم باتوا الآن يشكّلون تهديداً على النساء من كلِّ الأعمار . الجدّات اللائي كنَّ يجتمعنَ ذات يوم على الشاطئ للثرثرة والاستمتاع ألزمهنَّ اليابانيون بحصصٍ إجبارية من الأعشاب البحرية كي يقمنَ بجمعها وتجفيفها، إذ كانت تستخدم كأحد عناصر مسحوق البارود . لكن لربّما كان الخطر على الرجال والفتيان أعظم حتى حيث كانوا يُعتقلون ويُجنّدون عنوة في صفوف الجيش الياباني دون حتى أن يحظوا بفرصةٍ لإبلاغ عائلاتهم في بعض الأحيان .

ها نحن الآن على متن قارب قبالة فلاديفوستوك . كنتُ قد بلغتُ مؤخراً الحادية والعشرين من عمري، بينما ستحتفل مي-جا بعيد ميلادها في غضون بضعة أشهر . لم أتوقف يوماً عن الشعور بالامتنان لرفقتها، أو لصوتها العذب في الغناء، أو لشجاعتها . مرّت أياًّ حيث اعتقدنا أنّنا سنعتاد في نهاية المطاف على برد فلاديفوستوك على اليابسة وفي البحر، لأنّ درجة حرارة الهواء يمكن أن تنخفض كثيراً في جيجو . في جزيرتنا الأم كان الثلج يتساقط متراكماً حول بُرك المدّ، وكانت ملابس الغوص خاصّتنا تتجمّد حين نضعها على الصخور كي تجفّ . لكن اتّضح أنّ الظروف في جزيرتنا لم تكن شيئاً مقارنة بتلك التي في فلاديفوستوك . أخبرنا بعضنا؛ أنا ومي-جا أنّ الأمر يستحق العناء مع ذلك، فقد بلغنا السنّ الذي كنّا نحتاج فيه إلى توفير ما يكفي من المال للزواج وتأسيس عائلتنا .

أطفأ المراكبيّ محرّك قاربنا الذي كان يتمايل مثل قطعة خشبٍ جرفتها الأمواج. خلعنا أنا ومي-جا والأختان كانغ معاطفنا وأوشحتنا وقبعاتنا. كنّا نرتدي بالفعل بزّاتنا القطنية المائية مع سترات قطنية خفيفة فوقها لإبقائنا دافئاً قدر الإمكان. ارتدت الأخريات اللون الأبيض، بينما ارتديتُ زيّ الغوص الأسود لأنني كنتُ في دورتي الشهرية. كانت السابعة عشرة هي السنّ الشائعة لبدء الحيض، لكن تأخر حدوث ذلك عندنا جميعاً بسبب تعرّضنا اليومي للبرد ناهيك عن الصعوبات الأخرى التي كنّا نعاني منها. ربطنا المناديل فوق شعرنا، ثمّ خرجنا من المقصورة لنواجه الريح الجليدية. لم أكن أستطيع رؤية الياصة في أيّ اتجاه.

قدّمتُ قرباناً شخصياً إلى إله بحر التّنين، كما اعتدّت أن أفعل في كلّ مرّة غادرتُ فيها الياصة إلى العالم المائي تبعاً لعادة أيّ امرأةٍ فقدتُ قريباً في المحيط. تشبّثتُ سريعاً بمعدّاتي، ثمّ قفزنا الواحدة تلو الأخرى من الجهة الجانبية للقارب. ما من مكانٍ به مياهٌ أكثر برودة من فلاديفوستوك، حيث الملح وحده هو ما يمنع البحر من التجمّد. ضربتُ تلك الرعشة المستمرّة التي لطالما اختبأت عميقاً داخل صدري؛ ضربتُ فجأةً جسدي بالكامل. أجبرتُ عقلي على تجاوز عذابات الجسد. أنا هنا كي أعمل. أخذتُ نفساً، وجّهتُ رأسي للأسفل وبدأتُ في الركل. شعرتُ بمحرّك القارب يشتغل مجدّداً، وبالتغيّر في حركة التيّار لدى ابتعاد المراكبيّ بالقارب تاركاً إيّانا نحن الأربعة في البحر وحدنا. لم يكن ذلك الرجل العجوز شبكة أماننا، بل كان سائقنا فحسب. توقّف غير بعيدٍ جدّاً - على مرمى السمع - لكن ليس قريباً بما يكفي للمساعدة إذا وقعت إحدانا في ورطة. كان عادةً ما يرمي بخيط صيدٍ أو بشبكة لا لشيء سوى محاولة عدم الشعور بالضجر.

أغوص إلى الأعماق وأصعد إلى السطح. كانت مي-جا قريبةً منّي دائماً، لكن ليست قريبةً لدرجة أن تضع يدها على شيءٍ كنتُ قد جعلته هدفاً لي بالفعل. كنّا تنافسيتين لكن مع احترام إحدانا للآخرى. كنّا أيضاً متاهبتين، لم يكن لدينا مشكلةٌ مع الدلافين، لكنّ أسماك القرش كانت مسألةً أخرى، خاصّةً وأنّني كنتُ أنزف في البحر.

بعد نصف ساعة، سمعنا القارب يشقُّ عباب المياه نحونا. كنتُ قد رصدتُ أخطبوطاً في أحد الشقوق الصخرية يتراجع بفعل اهتزاز المياه إلى الفجوات المظلمة؛ سأعود من أجله لاحقاً. عدنا إلى السطح وسبحنا إلى القارب حيث قام الرجل العجوز بسحب شباكنا. صعدنا السّلم إلى القارب فاخترقت الرياح الوحشية بزّاتنا القطنية المبلّلة، سارعنا إلى داخل المقصورة. كانت المجرمة مشتعلة، والمراكبيّ قد جهّز لنا حوضاً من المياه الساخنة كي ننقع أقدامنا فيه. ارتاح فخذ مي-جا على فخذي. كان لحمنّا يرتعش، وبدتُ عروقتنا رفيعة للغاية وحزينة وكأنّ الدم بداخلها قد انكمش على نفسه وتباطأ بفعل البرد القارس.

- «عثرتُ على خمسٍ من قنافذ البحر». تاهت كلمات غو-سُن وسط اصطكاك أسنانها.

كان للبرد أثرٌ أسوأ حتّى على صوت غو-جا. «وإن يكن؟ لقد عثرتُ على أذن البحر».

- «أنتِ محظوظة، لكنّني حصلتُ على أخطبوط»، ابتسمت مي-جا فخورةً بنفسها.

واستمرّ الأمر على هذا النحو، إذ كان من حقّ الهينيو وواجبها أن تتفاخر.

رغم المخاطر والصعاب والتضحيات، أو ربّما بسببها، فإنّ كلّ

واحدة منا كانت تسعى لشيء واحد: أن تصبح الهينيو الأفضل. كنا جميعاً نعرف جيداً المخاطر التي ينطوي عليها التحرش بأذن البحر، لكن اصطيد الأخطبوط كان يعد انتصاراً أكبر - وأشدّ خطراً بالطبع. على أية حال، إذا تمكنت إحدانا من الوصول إلى مستوى أفضل هينيو على متن هذا القارب، فسوف يكافئها القبطان بزواج جديد من الأحذية وزوج من الملابس الداخلية.

- «ليس في البحر من مكانٍ مستحيل بالنسبة لي»، هتفت مي-جا بتبجح. ثم لكزتني بفخذها لتشجّعني على قول شيء.

- «أنا بارعة في البحر لدرجة أنني أستطيع طهي وجبة وأكلها تحت الماء»، قلت متباهية. لم تستطع أيٌّ منهنّ إنكار ذلك أو التفوق عليه، إذ كان يمكنني الغوص أعماق والبقاء لفترة أطول من أيّ فردٍ في مجموعتنا. تكهّن الناس في الديار أن السبب في ذلك يعود إلى أنني انتظرتُ مع والدتي حتّى فارقت الحياة وهو ما أدى إلى توسّع رئتي بما يتجاوز الحجم المعتاد لشخصٍ في سنّي وخبرتي.

عندما انتهت نصف ساعة استراحتنا، عدنا للخارج والتقطنا أدواتنا ثم نزلنا في الماء. مجدّداً، انسحب المراكبيّ مبتعداً حتّى لا يزعج المخلوقات التي تعيش في القاع بينما نبحث عنها. نصف ساعة في الماء، ونصف ساعة للتدفئة مرّة بعد مرّة. كنا نأتي في بعض الأيّام إلى هذا الموقع لأنّه يحتوي على مجموعة متنوّعة من الأشياء التي يمكن التقاطها. ذهبنا في أيّام أخرى إلى موقع غنيّ بأذن البحر، أو إلى حقلٍ فيه وفرة من خيار البحر. كنا حتّى نخرج ليلاً في بعض الأحيان، حيث كان معروفاً أنّه يمكن العثور على المزيد من قنافذ البحر في الليل.

بدأ الماء يرتدّ بنبضاتٍ عميقة أثناء غطستنا الرابعة. كان ثمة سفينةٌ قادمة. تراجعت مخلوقات البحر إلى الكهوف والشقوق. لن

يكون بوسعنا الحصاد مجدداً حتى تهدأ المياه، لكن هذا لا يعني أننا لم نتمكن من جني الأرباح. قيل لنا إن اليابانيين لا يمكنهم العيش دون مؤونة يومية من بطارخ قنفذ البحر، بينما رغب الصينيون في الحبار المجفف، والسمك، والأخطبوط لحمله في حقائب ظهرهم. أما السوفييت فكانوا لا يفرقون، لقد أكلوا أي شيء.

سحبنا المراكبي من الماء، ولبسنا معاطفنا كي نستتر شبه عرينا عن القادمين أيّاً كانوا. كان السوفييت - الذين لم يشاركوا في حرب المحيط الهادئ - يُعتبرون إلى حد ما غير مؤذين. لو أنّها سفينة يابانية، فستوجب علينا أن نعود إلى الماء ونترك للمراكبي أن يتعامل مع الأمر، فقد كان معروفاً عن ذوي الحوافر خطفهم للشابات وأخذهنّ إلى معسكراتٍ خاصّة ليستخدمنّ الجنود كنساء متعة. على أية حال، كانت هذه السفينة تحمل علماً أمريكياً.

ترنّح قاربنا الصغير مع اقتراب المدمرة. كانت طويلة لكن ليس كثيراً. تجمهر عشرات البحارة على الدرابزين يحدّقون فينا ويهتفون. لم نفهم كلماتهم، لكنّهم كانوا شباباً بعيدين عن ديارهم بلا نساء على متن سفينتهم. كان يمكننا تخمين مقدار شعورهم بالوحدة والإثارة. أشار إلينا رجلٌ يرتدي قبعةً مختلفة عن البحارة الآخرين أن نقرب. ألقي سلّم من الحبال نحونا والتقطته غو-جا. نزل خمسة رجال على السلّم مثل العناكب حتّى وصلوا إلينا. سحب أولهم سلاحاً حالماً أصبح على متن قاربنا. لم يكن هذا أمراً غير شائع. رفع أربعة منا أيديهم، بينما كانت غو-جا لا تزال ممسكةً بالسلّم.

هتف الرجل ذو القبعة المميّزة أمراً رجاله بالإنجليزية، وأشار لهم إلى عدّة مواقع داخل القارب يجب عليهم تفتيشها. لم يعثروا على أسلحةٍ بالطبع. حالماً فهموا أننا مجرد أربعة نساء هينيو مع رجلٌ عجوز، صرخ الرجل ذو القبعة المميّزة موجّهاً كلامه إلى أحدٍ ما في

سفينته، وخلال لحظات كان رجلٌ آخر ينزل السلم. كان يرتدي مئزرًا ملطّخاً بالدهون. أخذ الطّباخ يصرخ علينا وكأنّ ذلك سيساعدنا على فهم ما يقوله. حين لم ينجح الأمر، جمع أصابعه وإبهامه معاً وجعل ينقر بها على شفتيه. طعام. ثمّ دقّ على صدره وفتح راحة يده. سوف أدفع لكم.

فتحنا أنا ومي-جا وغو-سُن شباكنا. عرضنا عليه قنافذ البحر، هزّ رأسه بالنفي. رفعت مي-جا الأخطبوط الذي اصطادته، فجذب الطّباخ يده فوق حنجرته، لا! وجهته إلى شبكةٍ أخرى كان قد تمّ فرزها بالفعل وتحوي حلزون البحر. أخذتُ واحدةً، قرّبتُ فتحتها من شفتيّ وشفطتُ اللقيمة اللحمية. ابتسمتُ للطّباخ ابتسامةً عريضة في محاولة لإقناعه كم هي لذيذة. ثمّ جمعتُ من قواقع الحلزون ملء يديّ وقدمتها له. خذ، خذ. «سعرٌ جيّد»، قلتُ بلهجتي. أشار الطّباخ بإصبعه إلى الحلزون، ثمّ إلى الرجال، وأخيراً إلى أسفل حلقة كما لو كان يجبر نفسه على التقيؤ. لم يكن مضطراً أن يتصرّف على هذا النحو المهين.

شبك الطّباخ أصابعه معاً وأخذ يموّج يديه من جهةٍ لأخرى. نظر إليّ متسائلاً. هل عندك سمك؟

- «أنا عندي سمك!»، قال المراكبيّ العجوز، وكأنّ الطّباخ يستطيع فهم كلماته. «تعال، تعال».

اشترى الطّباخ أربعةً من أسماك الرجل العجوز. عظيم. كان الرجل جالساً في قاربه يتسكّع محاولاً قتل الوقت بينما كتّا في الماء. والآن ها قد أهدرنا نصف ساعة كان ينبغي بنا استغلالها في الغوص.

بعد أن تسلّق الأمريكان سلّمهم المصنوع من الحبال، انحرفت

المدمّرة مبتعدة تاركةً قاربنا - ونحن معه - يتأرجح ويتمايل في أعقابها.

كان قد حان وقت الغذاء. أعطانا المراكبيّ بعض الكيمتشي. دقّاتنا حرارة الفلفل من الداخل نحو الخارج، لكنّ هذا القليل من الملفوف المخمّر لم يكن كافياً لتجديد طاقتنا المهدورة أو للتقليل من خيبة أملنا.

- «أنا وأختي ما نزال جائعتين»، اشتكت غو-جا بصوتٍ عالٍ.

- «للأسف»، قال المراكبيّ.

- «لَمْ لا تدعنا نطهو السمك الذي لم تبعه؟»، سألت غو-جا.

- «يمكننا أنا وأختي إعداد قدرٍ من حساء سمك القطلس —».

ضحك العجوز. «لن أهدر السمك على أربعتكُن. سأأخذه

لزوجتي في المنزل».

تبادلنا أنا ومي-جا النظرات. لم نكن نكره الرجل العجوز. كان شخصاً مسؤولاً من نواحٍ عديدة. لقد حرص دائماً ألا يطول يوم عملنا لأكثر من ثماني ساعات شاملة المدة التي تستغرقها الرحلة ذهاباً وإياباً إلى الميناء. كان يقظاً جداً حيال الطقس، الأرجح أنّ ذلك كان لاهتمامه بأمر سفينته أكثر من كونه مهتماً لأمرنا. لكننا أنا ومي-جا كنّا قد قرّرنا بالفعل ألا نعمل معه لموسمٍ آخر. كانت هناك العديد من القوارب الأخرى، وكُنّا نستحقُّ أن يتمَّ إطعامنا بشكلٍ ملائم.

كنّا نعيش في مثنوى محشور داخل زقاقٍ خلفي مخصّص للهينيو الكوريّات. في يوم الأحد، وهو يوم إجازتنا، أعدت لنا صاحبة المثنوى العصيدة على الإفطار. كانت الحصص صغيرة، لكن مجدّداً، فعَلَّ الفلفل الحارّ فعله في تدفئتنا. حالما فرغت أطباقنا، اختفت

الأختان كانغ خلف الستارة التي تمنح بعض الخصوصية في غرفتنا .
ستامان لبقية اليوم .

- «هل تتخيلين فعل ذلك؟» ، سألت مي-جا . «ما كنت لأضيع
ساعات الضوء في عتمة الهجوع» .

في كثير من الأحيان كنت أود أن أبقى على حصيرة نومي طوال
اليوم ، خصوصاً حين كنت أنزف وأعاني ألماً في ظهري وبطني ، لكنّ
مي-جا ما كانت لتسمح بذلك ، تماماً كما لم تسمح أبداً بالحنين إلى
الوطن أن يغلبني . دائماً ما كانت تنظّم لنا النزّهات . بعد خمس
سنوات من السفر إلى بلدان مختلفة ، والمصايح الكهربائية (ليس أنّه
يوجد منها في المثوى) ، والسيّارات (ليس أنّي كنت قد ركبْتُ واحدةً
بعد) ، وعربات الترام (باهظة الكلفة) لم يعد أيّ من ذلك يبهرني بعد
الآن . مضحكةٌ هي السرعة التي يتعوّد بها المرء على الأشياء
الجديدة . اعتادت مي-جا تذكّر «مشاهدة معالم المدينة» مع والدها ،
والآن بات لدينا مغامراتنا الخاصّة . كنّا نحبّ السير على طول
الجاذّات التي تصطفّ على جانبيها المباني ذات الطوابق المتعدّدة -
عتيقةٌ ، مزخرفة لا تشبه أيّ شيءٍ لدينا في جيجو . صعدنا تلةً
فلاديفوستوك للوصول إلى حصن المدينة الذي بُني منذ عقود للدفاع
عن المدينة من الغارات اليابانية . احتفلنا بكلّ تجربةٍ لنا معاً ، ليس
عبر كتابة المذكرات أو إرسال الرسائل إلى الوطن - لم يكن بوسعنا
فعل أيّ من هذا - بل عبر طريقتنا في فرك الأشياء التي كنّا نراها :
القاعدة الصلبة للشمعدان المزخرف الذي ينتصب عند مدخل فندق
ما ، العلامات التجارية المثبّته على رفارف أو مؤخرات السيّارات ،
اللوحات الحديدية المدمجة في الجدران الحجرية .

لم نكن على عجلةٍ من أمرنا في ذلك الصباح . ارتدينا أفضل
زوجين من الملابس التي أحضرناها معنا ، حشوتٌ ملابسي الداخلية

ببعض قطع القماش القطنية، لبسنا وشاحينا، ومعطفينا، وحذاءينا، وخرجنا نقصد الشوارع. كان الصباح رائقاً والسماء صافية. هرب بخار الهواء من أفواهنا مع كلِّ نفس. رأينا بضعة رجال يترتِّحون عائدين إلى سفنهم أو غرفهم المستأجرة، تشبَّت بأذرع البعض منهم نساءٌ بوجوهٍ مطلية. لم تكن منطقتنا الجزء الجيّد من المدينة. يمكن لها أن تكون قاسيةً وعنيفة، والرائحة هنا أشبه برائحة يخنة كريهة وفاسدة - رائحةٌ من رجال يقضون حاجتهم على الجدران، إلى آخرين يتقيّؤون كحولهم بعد ليلة السبت الجامحة، جنباً إلى جنب مع الروائح المتفشيّة للأسماك والزيت والكيمنتشي. اتَّسعت الأزقة إلى ممرّات، ثمَّ إلى شوارع، وأخيراً إلى جادات. مرّت العائلات أمامنا، آباءٌ يدفعون الصغار في العربات، وأمّهات يمسكنَ بأيدي أطفال أكبر سنّاً، ارتدى العديد منهم المعاطف والقبعات والقفّازات. بالطبع فقد حدّق معظمهم بنا. كنّا أجنيبتين في لون بشرتنا وأعيننا وملابسنا.

لم نرغب في إهدار صفحةٍ ثمينة من كتاب والد مي-جا، لذا بحثنا عن شيءٍ يكون فريداً حقّاً. دخلنا إلى متنزه، وأخذنا نذرع الممرّات حتّى وصلنا تمثال امرأة تبدو مثل إلهة. كانت تعابير وجهها رائقة، وثوبها الرخامي ينساب متشّياً فوق جسدها، وفي يدها أمسكت بزهرة. كانت يدها الأخرى مفتوحة، وراحتُها ممدودةٌ نحونا. خطوط كفّها كانت حقيقيةً لدرجة أنّها بدت مطابقةً لتلك الموجودة على يدي التي من لحم ودم.

- «إنّها أجمل من أن تكون هالمانغ جوسيونغ»، همستُ لمي-جا. تلك كانت الإلهة التي تتسبّب بموت الرضيع أو الطفل الصغير حين تلمس جبينه بزهرة الخراب.

- «ربّما تكون هالمانغ سامسيونغ»، قالت مي-جا حريصةً أيضاً على أن تبقي صوتها منخفضاً.

- «لكن إن كانت هي إلهة الخصوبة والإنجاب والأطفال الصغار، فلماذا تحمل الوردة؟»، سألتُ بتردد.

فكرت مي-جا في هذا وهي تمضغ شفتها السفلى. قالت أخيراً: «في كلتا الحالتين، سوف نحضر القرايين حين نأتي إلى هنا بعد زواجنا، فقط كي نبقي بأمان».

مع اتفاقنا هذا، بسطتُ قطعةً من الورق على كفّ الإلهة وأخذت مي-جا تفرك الفحم على الورقة. راقبنا بتركيز شديد خطوط كفّ الإلهة ترسم ممرّات عبر الكلمات وفوقها، حتّى أنّنا لم نرصد وقع الخطى المقترّب إلّا بعد فوات الأوان.

- «هيه! أيتها الكوريّتان!». أمسكت مي-جا بذراعي حين بدأ الشرطي يصرخ بأشياء أخرى لا يمكننا فهمها، وركضنا بأسرع ما يمكننا خارجيّين من المتنزه. اندفعنا عبر العائلات المتجمهرة على الأرصفة وأسفل الطريق الفرعي. كنّا نملك سيقاناً وراثت قويّة. لا يمكن لأحد الإمساك بنا. توقّفنا بعد ثلاثة أحياء، أسندنا أيدينا على رُكبتنا ونحن نلهث ونضحك.

قضينا بقيّة النهار في التجوال. لم ندخل أيّاً من المقاهي المنتشرة على جانبي الساحة المركزيّة. جلسنا بدلاً من ذلك على جدارٍ واطئ، وتفرّجنا على الناس يجيئون ويذهبون. طفلٌ صغير يحمل بالوناً أزرق في يده المختبئة داخل قفاز. امرأةٌ تطلق بكعها العالي في الشارع، ودثارٌ من فرو الثعلب مرميٌ بلا اكتراث فوق كتفي معطفها الصوفي. غنيٌّ وفقير، صغيرٌ وكبير. كان البحّارة في كلّ مكانٍ أيضاً، وقد حاولوا التحدّث إلينا. ابتسموا وتملّقوا لنا، لكنّنا لم نساير أيّاً منهم. كان بعضهم وسيماً على نحوٍ رهيب، وقد جعلونا نضحك ونحمرُّ خجلاً. لربّما كنّا مجردّ ريفيّتين غبيّتين من بلدةٍ كورية

نائية في ملابسنا منزلية الصنع المصبوغة بعصير الكاكي، لكننا كنا شابتين، ومي-جا كانت جميلة للغاية.

اقترب منا بحاران آخران. كانا يرتديان سروالين ثقيلين من الصوف وسترتين سميكتين وقبعتين متطابقتين. كان لأحدهما ابتسامة تذهب بفمه بالكامل إلى الجهة اليسرى من وجهه؛ وكان لدى الآخر شعرٌ كثيف وخشن ينبثق من أسفل قبعته. لم نتمكن بالطبع من فهم كلمة مما قالاه، لذا فقد أخذنا يشيران لنا ويتسمان ويومئان برأسيهما. كانا يبدوان لطيفين بما يكفي، لكنني كنتُ ومي-جا ملتزمتين بقواعدنا الصارمة حيال الفتية السوفييت. لقد سمعنا عن الكثير من الهينيو اللواتي أصبحن حُبالى بعيداً عن الديار. تحطمت حياة هؤلاء الفتيات إلى الأبد. ما كنا لنسمح بحدوث شيء كهذا لنا. بعد قول هذا، فقد كنا من الهينيو - أي أننا قويات بطريقتنا الخاصة - لكننا كنا فتيات أيضاً، والقليل من المغازلة لن تضرنا في شيء. قرّرنا بعد الكثير من الإشارة بالأصابع والضحك أن أحدهما كان فلاد والآخر أليكسي.

سارع أليكسي؛ الصبي ذو الشعر الفوضوي، إلى أحد المقاهي، تاركاً فلاد حارساً علينا. بعد بضع دقائق، عاد أليكسي ومعه أربعة أكواز من الآيس كريم يوازنها بعناية بين أصابعه المشبوكة. سبق لنا أنا ومي-جا أن رأينا الناس يأكلون الآيس كريم، لكننا لم نكن أبداً قد أسرفنا على أنفسنا مثل هذا الإسراف. وزّع أليكسي الأكواز، ثم جلس مع صديقه على الحائط إلى جانب كل منا.

اندفع لسان مي-جا إلى الخارج، لمس الكرة الكريمة، وعاد منسحباً بنفس السرعة. كانت ملامحها ساكنة تماماً، لربّما كانت تتذكّر طعم الحلويات من طفولتها. لم أنتظر تعليقها على الأمر. أخرجتُ لساني بالكامل - كما رأيتُ بعض الناس يفعلون - وأخذتُ لعقة كبيرة. كان الهواء في الأساس بارداً، لكنّ هذا الشيء كان بارداً

جداً! لقد جمّد أعلى رأسي تماماً كما يحدث عند الغطس من القارب إلى المياه الجليدية، لكن وبينما كان المحيط مالحاً، فإنّ هذا كان أكثر حلاوة من أيّ شيء كنتُ قد تذوّقته في حياتي. أمّا قوامه؟ فيا للعجب! أكلت الكوز الخاص بي بسرعة كبيرة، وتألّمتُ وأنا أتفرّج عليهم بينما كانوا يأتون على أكوازمهم. قفزتُ مي-جا عن الحائط حالما أنهتُ كوز الآيس كريم خاصتها، لوّحت بيدها وانطلقت باتجاه أرصفة المراكب. كنتُ أرغب في البقاء مع أليكسي لوقتٍ أطول - ربّما كان سيشتري لي كوزاً آخر أو نوعاً آخر من الحلويات - لكنني لم أكن أريد أن أنفصل عن صديقتي. حين انزلتُ عن الحائط، أخذ الصبيّان يتأوّهان بطريقة مسرحية.

لحق بنا فلاد وأليكسي، ربّما فكّرا أنّها قد تكون فرصة سانحة، وربّما ظنّا حتّى أنّنا قد لا نكون بالبراءة التي نبدو عليها. لكن وحين كنا على وشك أن ندلف منطقة الضوء الأحمر، انعطفنا فجأة ودخلنا المنطقة الكورية. توقّف الصبيّان، إذ لم يرغبا في الذهاب أبعد من ذلك. كان معروفاً عن السوفييت كونهم أقوياء، لكنّ رجالنا كانوا مقاتلين أفضل بكثير، وكانوا سيحموننا الآن بعد أن أصبحنا داخل الحيّ الكوري. هزّ فلاد وأليكسي أكتافهما حين نظرنا إلى الورا نحوهما - هل كانت مي-جا تغريهما للحاق بنا؟ - وربّت كلّ منهما على ظهر الآخر ثمّ غادرا ولسان حالهما يقول «لقد حاولنا». كانت مشاعري متضاربة. كنتُ أريد أن أتزوّج، وهذا يعني أنّه لا يسعني أن أكون فتاة تقع في ورطة. وكنتُ في الوقت نفسه مفتونة بالأولاد، حتّى الأجانب منهم. نعم، يجدر بنا أن نكون مثل الأختين كانغ - نبقى في الداخل ولا نخاطر، ونضمن بالتالي الحفاظ على سمعتنا - ولكن أين المغامرة في ذلك؟ كنتُ ومي-جا إمّا نسير على خيط رفيع أو أنّنا كنّا نخاثل القدر.

- «فَكَرْتُ أَنَّكَ سَتُعْجِبِينَ بِذَاكَ ذِي الشَّعْرِ»، عَقَّبَتْ مِي-جَا .
ضَحَكَتُ. «أَنْتِ مُحَقَّةٌ. لَا أَحَبُّ حِينَ يَكُونُ رَأْسُ شَبِّهِ حَلِيقِ
—» .

- «لَأَنَّكَ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُهُ أَشْبَهَ بِالْبَطِيخَةِ» .
- «مَاذَا عَنْكَ وَعَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَكَلْتِ بِهَا الْآيسَ كَرِيمٌ؟ يَا
لِلصَّبِيِّينَ الْمَسْكِينِينَ!» .

هَذَا كَانَ حَالُنَا: تَغِيْظُ إِحْدَانَا الْآخَرَ وَنَمَازَحُ بَعْضُنَا بِمَوْدَّةٍ. كُنَّا
نَعْرِفُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَجَانِبَ لَا يَعْنُونُ شَيْئاً لَنَا. أَرَدْنَا الزَّوْاجَ مِنْ كُورِيِّينَ
فَقَطْ. أَرَدْنَا التَّطَابُقَ الْمِثَالِي. حِينَ عَدْنَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي إِلَى الدِّيَارِ
مِنْ أَجْلِ الْحَصَادِ، زَرْنَا ضَرِيحَ هَالْمَانِغِ جَاتَشُونْغِي، إِلَهَةُ الْحُبِّ.
مَعْنَى اسْمِهَا «مَا يَرِيدُ الْمَرْءَ لِنَفْسِهِ» وَقَدْ كُنَّا وَاضِحَتَيْنِ بِشَأْنِ مَا نَرِيدُ.
لَقَدْ صَنَعْنَا نَعَالَ الْقَشِّ لِتَقْدِيمِهَا إِلَى زَوْجِنَا الْمُسْتَقْبَلِيِّينَ كَهَدِيَّةٍ خَطُوبَةٍ.
بَدَأْنَا أَيْضاً نَشْتَرِي أَشْيَاءَ كَيْ نَأْخُذَهَا مَعَنَا إِلَى مَنَازِلِنَا الْجَدِيدَةِ: حَصَائِرَ
نُومٍ، عِيدَانِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، الْأَوَانِي وَالسَّلْطَانِيَّاتِ. سَوْفَ يَكُونُ
زَوَاجِي مَرْتَباً. الْحَفْلُ نَفْسُهُ سَوْفَ يَقَامُ فِي الرَّبِيعِ، عِنْدَمَا تَبْدَأُ أَزْهَارُ
الْكُرْزِ فِي التَّطَايِرِ وَالدُّورَانِ فِي الْهَوَاءِ، عَطْرَةٌ، وَرْدِيَّةٌ، وَرَقِيقَةٌ. بَعْضُ
الْفَتَيَاتِ عَرَفْنَ أَزْوَاجَهُنَّ الْمُسْتَقْبَلِيِّينَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ حَيْثُ تَرَعَّرَعُوا مَعاً فِي
نَفْسِ الْقَرْيَةِ. إِنْ كُنْتُ مُحْظُوظَةً، سَيَتَسَنَّى لِي تَبَادُلُ بَضْعِ كَلِمَاتٍ مَعَ
زَوْجِي الْمُسْتَقْبَلِيِّ أثنَاءِ اجْتِمَاعِ الْخَطُوبَةِ. إِنْ كُنْتُ أَقَلَّ حِظّاً فَلَنْ أَرَاهُ
حَتَّى يَوْمِ مَرَّاسِمِنَا. كُنْتُ أَحْلَمُ فِي كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ أَنَّ أَحَبَّ زَوْجِي مِنْ
النَّظَرَةِ الْأُولَى وَأَنْ يَكُونَ زَوْاجِنَا بِمِثَابَةِ اتِّحَادِ شَخْصَيْنِ قُدِّرَ لَهُمَا أَنْ
يَكُونَا مَعاً.

حِينَ دَخَلْنَا الْمَثْوَى، كَانَتْ غُو-جَا وَغُو-سُنْ تَجْلِسَانِ عَلَى
الْأَرْضِ وَالسَّلْطَانِيَّاتِ فِي أَيْدِيهِمَا، وَأَقْدَامُهُمَا الْمَكْتَنَزَةُ بِالْجَوَارِبِ
السَّمِيكَةِ مَطْوِيَّةٌ إِلَى جَانِبَيْهِمَا. نَزَعْنَا مَعْطَفَيْنَا، وَشَاحِنَا، وَحِذَاءَيْنَا.

أعطتنا صاحبة المثلوى وعاءين من عصيدة الدخن بنكهة الأسماك المجففة؛ نفس الوجبة التي تناولناها في الليلة السابقة والتي سبقتها وكلّ ليلة تقريباً قبل ذلك.

- «هلاً تريان لنا ماذا فركتما اليوم؟»، سألت غو-سُن.

- «أخبرانا من فضلكما ماذا رأيتما اليوم»، أضافت غو-جا.

- «لَمْ لا تأتيان معنا في أحد هذه الأيام؟»، اقترحت مي-جا.

«فلتكتشفا بنفسكما —».

- «هذا خطير، وأنّ تعرفين ذلك»، أجابت غو-جا بتردد.

- «أنّ تقولين ذلك فقط لأنّك الآن زوجة مطيعة»، قالت

مي-جا.

كنتُ أعرف أنّ مي-جا لم تعن ذلك إلا على سبيل المزاح - إذ بعد كلّ شيء، في أيّ حالٍ من الأحوال يمكن وصف الهينيو بالمطیعة؟ - لكن لا بدّ أنّ غو-جا سمعت ذلك على أنّه إهانة لأنّ جوابها كان: «تقولين ذلك فقط لأنّ أحداً لن يُقدّم على الزواج منك يوماً —».

انقلب المزاج من معتدلٍ إلى عدائيّ في بضع جُمَلٍ فحسب. كنّا نعرف جميعاً أنّ فرص مي-جا في الزواج المرتّب ضعيفة، لكن لم قد نُؤذيها عمدًا في حين سيتعيّن علينا الغوص سويّاً في الغد؟ التفسير البسيط كان أنّنا قضينا الكثير من الوقت معاً، وكانت حياة كلّ منّا بين أيدي الأخريات ستّة أيّام في الأسبوع، وكنّا جميعاً نشعر بالحنين إلى الوطن. وقع الضرر على أيّة حال، وأضاف تعليق غو-جا المتهوّر المزيد من العتمة إلى الغرفة المعتمة أصلاً. كرّرت غو-سُن سؤالها في محاولةٍ لتغيير المزاج العام. «هلاً تريان لنا ماذا صنعتما اليوم؟».

سحبت مي-جا كتاب والدها في صمت. «فلتريهما أنتِ»، قالت

لي.

أخذتُ الكتابَ منها ورحتُ أحَدِّقُ فيه وفيها بتساؤلٍ . كانت
كلتانا تعرفُ أنَّ التي عملنا عليها اليوم لا تزال في جيبها ولم نكن قد
حفظناها في الكتاب بعد . كانت مي-جا تخبرني بصمت أنَّها لا تريد
أن تريهما صورتنا الجديدة . حرَّكتُ جسدها الآن بحيث حجب كتفها
الأيمن وجهها عنَّا . تلك كانت طريقتها في الحصول على بعض
الخصوصية في الغرفة المزدحمة حتَّى تستطيع مواساة مشاعرها
المتأذية .

- «هاك» ، قلتُ وأنا أفتح الكتاب وأقلب الصفحات كي أرى
للأختين صوراً مختلفة من العالم خارج هذا الكهف الكئيب . «هذه
من قدم تمثال خارج مبنى حكومي ، وهذه من شاحنة لعبة وجدناها
مرميةً في الساحة . أحبُّ هذه كثيراً ، إنَّها من الحافة الجانبية الناتئة
لحافلة ركبناها إلى متنزُّو جبليّ . أوه ، وهذه من لحاء شجرة ، هل
تذكرين ذلك اليوم يا مي-جا؟» .

لم تجب بشيء . لم تبدُ الأختان مهتمَّتين أيضاً .

- «هل تعرفان الحصن الذي يمكننا رؤيته أعلى التل حين نبحر
من الميناء؟» ، سألتُ الأختين . «هذه الصورة تُظهر كم هي خشنةُ
جدرانها —» .

- «لقد أريْتُمَا كلَّ هذه من قبل» ، احتجَّتْ غو-جا . «هل
ستعرضان لنا ما رأيتماه اليوم أم لا؟» .

- «ربَّما لو كنتِ ألطف قليلاً» ، قالت مي-جا وهي لا تزال
مديرةً ظهرها لنا . «ربَّما لو كنتِ تستطيعين أن تكوني ألطف لو بمقدار
قطرة مياه واحدة» .

كان وقع كلماتها حاداً ، خيَّم الصمت على غو-جا إذ أدركتُ
أنَّها ربَّما تكون قد تمادت . لكن ما اتَّضح لي من هذا الحوار هو أنَّ
تعليق غو-جا حول احتمالات زواج مي-جا قد أصاب هذه الأخيرة

في الصميم. فهمتُ بوضوح وعلى نحوٍ مفاجئ أنّ مي-جا تتوق ربّما للزواج حتّى أكثر ممّي. إذا تزوّجتُ، يمكنها عندئذٍ تكوين أسرتها الخاصّة من أمّ وأبٍ وأطفال.

جلسنا في وقتٍ لاحقٍ تحت لحافٍ ثقيلٍ على حصيرتي نومنا، نتبادل دفء جسدينا ونتهامس حتّى لا نزعج الأختين كانغ اللتين انحسرتا معاً فوق حصيرتيهما على الجانب الآخر من الستارة. تفحصنا أنا ومي-جا الصورة التي فركناها في ذلك اليوم، وقارناها بغيرها. كنّا صديقتين مذكّنا في السابعة، وقد جمعنا هذه الصور معاً لمدة أربعة عشر عاماً. كانت هذه الصور بمثابة احتفائنا بذاكرتنا وذكرياتنا وتخليدنا لهما، ولطالما ساهمت في التخفيف من شعورنا بالوحدة والحنين إلى الوطن. ساهمت أيضاً في التخفيف من قلقنا، حيث أنّنا لم نكن نعرف متى قد يتمّ قصف جيجو أو غزوها.

كالعادة، كانت آخر صورة عاينّاها هي أول واحدة كنّا قد صنعناها: السطح الخشن لحجرٍ في الجدار الذي يسوّر حقلٍ عائليّ. مسدتُ الورقة بأصابعي، وهمستُ لمي-جا بسؤالٍ كنتُ قد طرحته عدّة مرّات من قبل. «لماذا لم أفرك صورةً ما من أحد أيّام جنازة والدتي أو الطقوس الشعائرية التي أقيمت لها؟».

- «توقّفي عن معاقبة نفسك على ذلك»، أجابت مي-جا بصوتٍ منخفض. «كان ليسبّب لكِ الاكتئاب فحسب».

- «لكنني أفقدها».

حالما بدأتُ دموعي في الانهمار، انهمرت دموع مي-جا أيضاً.

- «لقد عرفتُ أمّك على الأقل، كلّ ما يسعني فعله هو الاشتياق إلى فكرة الأمّ»، قالت مي-جا.

انطفأ مصباح الزيت على الجانب الآخر من الستارة. وضعت مي-جا الأوراق داخل كتاب والدها، وأطفأت مصباح الزيت في

جانبنا. لَقْتُ مي-جا جسدها حول جسدي وشدّتي إليها بقوة أكثر من العادة. التصقت ركبتيها بركبتي، وفخذها بفخذي، وضغطت بثدييها على ظهري. التفت ذراعها حول خصري، وأراحت يدها على بطني. كنّا سنستيقظ باكراً في اليوم التالي، وسننزل في البحر القارس البرودة مجدّداً، لذا كنّا بحاجة للنوم، لكنّ عدم انتظام أنفاسها على رقبتي وجسدها المتنّبّه جعلاني أدرك أنها كانت مستيقظة وتصيخ السمع. شعرت أنّ الأختين كانغ كانتا تحاولان استراق السمع إلينا بنفس القدر. لكن لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى بدأ الصوت الخفيف لشخير غو-سُن، ثمّ سرعان ما سكنت أختها على وقع ذلك الصوت المألوف، وبدأت أنفاسها تصبح أعمق وأطول.

استرخى جسم مي-جا، ثمّ همست في أذني. «أريد أن يكون زوجي شديد العزم والصلابة»، كان واضحاً أنّها لم تنسَ بعد تعليقات غو-جا. «ليس من الضروري أن يكون وسيماً، لكنني أريده أن يكون ذا جسدٍ قويّ ليظهر كعاملٍ جيّد».

- «يبدو وكأنّك تتحدّثين عن رجلٍ من البرّ الرئيسي»، قلتُ لها. «كيف ستعثرين على واحدٍ منهم؟».

- «لربّما تحضر الخاطبة لي واحداً»، أجابت مي-جا. كانت ترتيبات الزواج تتمّ إمّا عن طريق الخاطبات أو عندما تقوم إحدى القريبات التي تحظى بتقدير كبير بإجراء بعض الاستفسارات. كان من المشكوك فيه من وجهة نظري على الأقلّ أن يدفع عمّ مي-جا وعمّتها أجرة الخاطبة، ولم تتحدّث مي-جا يوماً عن قريبة محترمة يمكن أن تتقدّم بعرض زواج. الأهمّ من ذلك كلّهُ أنّ الرجال في البرّ الرئيسي كانوا يرون نساء جيّجو قبيحات ذوات أصواتٍ عالية، وأشكال صبيانية نظراً لنحالة أجسادنا وقوّة عضلاتنا. كنّا في نظرهم أيضاً داكنات البشرة جدّاً بفعل الشمس. كان لدى رجال البرّ الرئيسي

أيضاً أفكار صارمة حول سلوك النساء، وذلك لأنهم كانوا ملتزمين بالمُثل الكونفوشيوسية أكثر بكثير من رجال جيغو. يُفترض بالمرأة مثلاً أن تكون لطيفةً في حديثها. كانت مي-جا تتمتع بصوتٍ عذبٍ وجميل، لكنّها إذا ما واصلت الغوص، فإنّ حاسة السمع لديها سوف تتضرّر وسينتهي بها الأمر إلى الصراخ مثل أيّ هينيو أخرى. إذا تزوّجت رجلاً من البرّ الرئيسي، فستعيّن عليها أن تحافظ على بشرة الدراق المخملية. وكيف سيحدث ذلك إذا قضت أيّامها تحت الشمس، في مياهٍ مالحة، والريح تلفحها؟ الزوج من البرّ الرئيسي يريد زوجةً ترتدي ملابس محتشمة، لكنّ كان يُنظر إلى الهينيو على أنّها شبه عاريةٍ طوال الوقت. يجب أن تكون للزوجة شفتان حمراوان، وعينان لامعتان، وطبعٌ هادئ... وُضعت كلّ هذه الأفكار الجاهزة والنمطية في أذهان رجال البرّ الرئيسي. قد يكون أزواج جيغو كسالى وبلّدين، لكنهم ما كانوا ليربحوا أبداً معركةً حول ما الذي يمكن للمرأة أن تفعله أو لا تفعله، أن تقوله أو لا تقوله. لكنني لم أُشير إلى أيّ من كلّ هذا على أيّة حال.

- «أنا لا أهتمّ بالمظهر كثيراً»، قلتُ لها.

- «بل تهتمّين!»، عقّبت مي-جا.

على الجانب الآخر من الغرفة، تقطّع شخير غو-سون، وغيّرت أختها من وضعية نومها.

- «حسنٌ»، اعترفتُ بهدوء بعد أن استقرّت الأختان ثانية. «أنا أهتمّ بالمظهر. لا أريد أحداً نحيلاً مثل عيدان الطعام. أريده أسمر ليظهر كمّن لا يخشى العمل في الشمس».

ضحكت مي-جا ضحكةً مكبوتة. «إذاً ترغب كلتانا في رجالٍ يعملون».

- «كما ينبغي به أن يكون حسن الخلق».

- «حسن الخلق؟».

- «لطالما قالت الأمّ أنّه لا ينبغي بالهينيو أن تكون جشعة. ألا يجدر بهذا الكلام أن ينطبق على الرجل أيضاً؟ لا أريد رؤية عيونٍ جشعة، ولا أريد أن أكون على مقربةٍ من أيِّدٍ جشعة. كما ينبغي به أن يكون شجاعاً أيضاً». ثمّ تابعتُ حين لم تقل مي-جا شيئاً. «الشيء الأهمّ هو الزواج من رجلٍ من هادو، هكذا أظُلُّ قادرةً على رؤية عائلتي ومدّ يد العون لها. إذا تزوّجتِ أيضاً واحداً من هادو، فسوف نحتفظ بحقنا في الغوص. تذكّري، إذا تزوّجتِ خارج هادو، فستوجب قبولك في جماعة الغوص في القرية التي ستذهبن إليها».

- «الأهمّ من هذا كلّهُ أنّي إذا تزوّجتُ خارجاً فسوف لن نبقي سويّاً»، قالت وهي تجذبنني أكثر إليها حتّى لم يعد يمكن لأيّ شيء أن يفصل بيننا، ليس حتّى ورقة رقيقة. «يجب أن نبقي دائماً معاً».

- «دائماً معاً»، ردّدتُ من بعدها.

خيّم الصمت. كنْتُ نَعسانة، لكن كانت لا تزال هناك بعض الخواطر الأخيرة التي أردت تشارُكها مع مي-جا. همستُ لها ببعض أكثر الشكاوي شيوعاً والتي لطالما سمعتها حول رجال جييجو. «لا أريد رجلاً بعقلٍ سقيم وأفكارٍ يُرثى لها. سوف لن أتساهل مع زوجٍ يحتاج إلى التأنيب —».

- «أو يتطلّب انتباهاً مستمراً كي يعرف أنّي أهتمُّ لأمره»، أضافت مي-جا. «لن يكون مسموحاً له أن يشرب، أو يقامر، أو أن يرغب في زوجةٍ صغيرة».

هناك، في عتمة ساعات الليل، كان يمكننا أن نحلم.

عندما تتحوّل الأفكار إلى حفلات زفاف

يوليو - أغسطس 1944

حين انتهى الموسم في أواخر يوليو، ركبْتُ مع الأختين كانغ ومي-جا عبّارةً من فلاديفوستوك إلى البرّ الرئيسي الكوري، ثمَّ أخذنا عبّارةً ثانية نزولاً على الساحل الشرقي إلى بوسان. ذهبنا للتسوّق قبل أن نركب القارب المتّجه إلى جيجو. حرصنا أن نتحدّث اليابانية في الأماكن العامّة بحسب أوامر المستعمرين. اشترت الأختان كانغ ما تحتاجان إليه بسرعة واتّجهتا للديار. لم يكن لدينا أنا ومي-جا زوجان وأطفال يفتقدوننا، وهو ما سمّح لنا بقضاء يومٍ إضافي من التسكّع في الأزقة والأسواق المفتوحة.

قصّدا كشكاً يبيع الحبوب، وخرجنا منه بأكياس خيش محشوة بالشعير والأرزّ منخفض الجودة. حملنا الأكياس على أكتافنا واحداً تلو الآخر وعدنا بها إلى النزل الذي كنّا نقيم فيه. باع لنا تاجر أقمشة متجوّل اللُحف، لفناها بإحكام لتقليل حجمها وجعلها أكثر قابليةً للحمل. سنأخذ هذه اللُحف معنا في زواجنا. صرفتُ مكاسب أسبوع كامل على راديو معتقدةً أنّه سيكون بمثابة هديّة جميلة لزوجي المستقبليّ، بينما اختارت مي-جا أن تشتري لزوجها المستقبليّ آلة

تصوير . ساومتُ بشراصة لدى شراء بعض الهدايا العملية لأشقائي :
بضعة أذرع من القماش، إبرٌ وخيوط وسكين وما إلى ذلك . كان أبي
سيحصل على زوج من الأحذية، أمّا بالنسبة لجذتي فقد اشترتُ لها
الجوارب كي تدفئها في ليالي الشتاء الباردة . تشاركنا أنا ومي-جا في
شراء مواد من أجل صنع الأوشحة ليو-ري، والتي كنّا قد خططنا أن
نقوم بحياكتها خلال رحلة العودة إلى الديار . اشترت مي-جا أيضاً
بعض الحاجيات لعمّها وعمّتها . انتبهتُ إليها عدّة مرّات وهي تقف
ساكنة، تحدّق بعيداً وهي تحاول أن تتذكّر كلّ الأشياء التي طلبا منها
إحضارها . كنّا ننفصل في بعض الأحيان، لكننا بقينا في الغالب معاً،
نساوم على أسعارٍ أفضل، ونبتسم للتجار إذا ظننا أن ذلك قد يساعد،
أو نصرخ بأصواتنا العالية إذا تبين أنهم يظنوننا مجرد عاملات في
المصنع .

- «سنشتري ستّ حقائب بدلاً من اثنتين لي وثلاثة لها، لكن
فقط إذا أعطيتنا سعراً جيّداً»، ستقول مي-جا بيابانية شبه مثالية توحى
بالصلابة وانعدام العواطف .

عندما انتهينا من التسوّق، كنّا لا نزال نملك ما يكفي لدفع أجرة
غرفتنا، ولشراء تذكرتين من الدرجة الأدنى على متن العبارة المتوجّهة
إلى جيجو، وتشارك وجبة بسيطة، كما تبقى معنا ما يكفي للمساعدة
في احتفالات الزواج التي كان سيتمّ ترتيبها . استغرق نقل كلّ شيء
إلى رصيف الميناء بعض الوقت . لم نرغب في ترك أغراضنا دون
مراقبة، لذا قامت إحدانا بحمل الحقائب من الغرفة إلى الرصيف فيما
بقيت الأخرى لحراسة الكومة الآخذة بالتراكم . ثمّ تناوبنا على نقل
كلّ شيء من الكومة صعوداً على سلّم المركب ووصولاً إلى الزاوية
المحمية التي عثرنا عليها على متنه بالقرب من مجموعة من الهينيو
العائدات أيضاً إلى الديار . لن تسرق الهينيو من هينيو أخرى . ولم

يكن هناك بالطبع من داع للقلق بشأن محاولة الغرباء إخراج أغراضنا من القارب حين نكون في عرض البحر.

كان الإبحار قاسياً، لكنَّ السماء كانت صافية. وقفتُ مع مي-جا في مقدّمة العبّارة المتقافزة مع الأمواج، وتشبّثنا بالدرازين. أخيراً، ظهرت في البعيد الجدّة سيولمونداي - جبل هالا. كنتُ أتحرّق شوقاً لأن أكون على جزيرتي. إلّا أنّ توقي هذا جعلني نافذة الصبر، وشعرتُ أنّ الطاقم استغرق دهرًا للدخول بالعبّارة خلف مكسر الأمواج وصولاً إلى الميناء.

استطعنا من على سطح السفينة أن نرى أنّ الأشهر التسعة الماضية كانت قد جلبت معها الكثير من التغيرات. كان عدد الجنود اليابانيين أكثر بكثير ممّا رأيناه على البرّ الرئيسي، وبالتأكيد أكثر ممّا رأيناه يوماً في ميناء مدينة جيغو. كان بعضهم يقف متأهباً عند كلّ مدخلٍ ومخرج. سار آخرون في تشكيلات منظمّة حاملين بنادقهم ذات الحِراب على أكتافهم. قلّةٌ منهم كانوا على ما يبدو خارج أوقات الدوام الرسمي، إذ كانوا يتسكّعون عند الجدران أو يجلسون فوق الصناديق يؤرّجحون بأرجلهم. كنّا في فلاديفوستوك وحدنا، واعتدنا هناك أن يصفّر لنا الرجال أو يهتفون نحونا بكلمات لا نفهمها، لكنّ كلّ ذلك بدا غير مؤذٍ في العموم. أمّا هنا فقد بدا الوضع مختلفاً.

تابعنّا أعين الجنود بينما تناوبنا على إنزال أمتعتنا ومشترياتنا من على ظهر العبّارة، حيث بقيت إحدانا على الرصيف وحملت الأخرى الأغراض إليه. لم يسعهم فعل شيءٍ معنا، حيث كان العديد من الرّكّاب لا يزالون هناك يسلمّون على عائلاتهم، ورجال أعمالٍ يشقّون طريقهم مسرعين بين الحشود، وآخرون يفرّغون شاحناتهم وحقائبهم. أنزلت معظم الهينيو الأخريات أمتعتهمّ بأسرع ممّا فعلنا،

فخلال بضع دقائق أصبحنا آخر امرأتين تغادران الرصيف.
صُدمت بثلاثة أشياء أخرى. أولها أن الرائحة في مينائنا كانت سيئة تماماً كرائحة أي ميناء آخر كنت قد زرته - رائحة نتنة، خليط من وقود الديزل والأسماك. ثانيها أنه لم يكن هناك من أثر للأولاد المحليين الذين كانوا يتجمعون عادةً عند الرصيف بحثاً عن عمل حين ترسو السفن والعبّارات. وثالثها أن رؤية كل أولئك الجنود والبحارة والحراس اليابانيون أعاد إلى ذهني اقتحام تلك الدورية لحقلنا. لكننا كنا أكبر سنّاً الآن - في الحادية والعشرين - ولا بدّ أنهم كانوا يروننا كفتاتين جذابتين. يبدو أن مي-جا لاحظت اهتمامهم أيضاً لأنها سألتني: «ماذا سنفعل؟ أنا لست بوارد أن أتركك هنا بمفردك».

- «ولن أدعك تسيرين وحدك إلى كشك التوظيف».
رأيتُ بطرف عيني على بعد أمتارٍ قليلة جندياً يأكل قطعة فاكهة. والطريقة التي كان يحدّق بها فينا...

- «تبدوان بحاجة للمساعدة. هل من شيء يمكنني فعله لأجلكما؟»، سأل صوتٌ باليابانية. استدرتُ أنا ومي-جا. توقّعتُ رؤية رجلٍ يابانيّ، لكن من الواضح أنه لم يكن كذلك (وكم كان هذا مريحاً!). وشككتُ أن يكون من سكّان جيغو الأصليين، إذ كان يلبس بنظالاً، وقميصاً أبيضاً بياقة، وسترة مغلقة من الأمام. لم يكن أطول منّا بكثير، لكنّه كان ممتلئ الجسم. من نوعية ملابسه، كان من الصعب تحديد ما إذا كان حجمه هذا بسبب العمل الشاق أو الكثير من الطعام ببساطة.

أرخت مي-جا ذقنها وهي تشرح الخطوات العملية لإيصال أمتعتنا إلى حيث تقف الشاحنات الصغيرة. كان يحدّق فيها باهتمام كبير طوال الوقت الذي تحدّث فيه، الأمر الذي منحني الفرصة

لتفحصه جيداً دون أن يلاحظ أيّ منهما. كان أسود الشعر، وبشرته ليست سمراء كثيراً. كان وسيماً على نحوٍ مألوف - ليس مثل أولئك السوفييت، وبالتأكيد ليس مثل اليابانيين. دخلتُ في حلم يقظة... تساءلتُ مَنْ يكون. تحوّلت أفكارى إلى حفلات زفاف. احمررتُ خجلاً، وقلقتُ أن تفضحني تعابير وجهي، لكنّ أيّاً منهما لم يكن يعيرني انتباهاً.

حين أنهت مي-جا شرحها، مالَ مقترباً منّا وهمس لنا بلغة جيجو: «أنا لي سانغ-مون». كانت أنفاسه دافئة وطيبة كما لو أنّه كان يأكل البرتقال. وكان هذا مؤشراً آخر على أنّه ينتمي لعائلةٍ جيّدة وليس مجرد ابن فلاح يعيش على الأطعمة الشائعة كالثوم والبصل والكيمتشي. اعتدل في وقفته وأعلن بلغةٍ يابانية مسموعة «سوف أساعدكما».

كان ردّ الفعل من حولنا مفاجئاً، إذ أطرق كثيرٌ من الجنود اليابانيين برؤوسهم أو أشاحوا بوجوههم عنّا، الأمر الذي يشي بأنّ سانغ-مون هذا كان شخصاً مهمّاً على نحوٍ ما. فرقع بأصابعه، فهرع نحونا ثلاثة من عمّال الميناء. «سوف تحملون هذه الأشياء لـ...».

- «أنا كيم يونغ-سوك»، قلتُ بلا تفكير. «وهذه هان مي-جا».

- «يا شباب، من فضلكم الحقوا بالآنسة كيم إلى حيث يركب الهينيو في الشاحنات الصغيرة. أنتم تعرفون المكان». كان طلق اللسان ولكنّه في اليابانية تكاد تكون مثالية كما مي-جا. «واحدٌ منكم يبقى معها هناك. الاثنان الآخران يرجعان إلَيّ حتى يحملنا باقي الأغراض ويرافقا الآنسة هان إلى صديقتها».

قال لي حين حاولت رفع حقيبة كي أعلّقها على كتفي: «لا، لا، لا. سيتعامل صبياني مع الأمر برمّته».

شعرتُ وكأنّني إلهة حتّى أحصل على مثل هذه المساعدة. رفعتُ

رأسي عالياً وشددتُ ظهري للوراء إذ انطلقتُ وعمّال الرصيف يهرولون خلفي، متأكّدة أنّ عينيّ سانغ-مون ستلحقان بي حتّى أغيب عن الأنظار.

حين وصلنا إلى الزاوية المقصودة، عاد اثنان من العمّال إلى الرصيف كما أمرهما سانغ-مون، بينما جلس الآخر على كفّله كي ينتظر معي. هل سبق لشيء كهذا أن أزعج امرأة من الهينيو!

- «انظروا! هذه هينيو تملك خادماً شخصياً!»، قالت امرأة وهي تحاول إغاضتي.

- «هل تبحث عن عروس؟»، سألت إحداهنّ عامل الرصيف.

- «الأفضل لك أن تراقبها جيّداً. لربّما تهرب منك!».

لفّ الرجل ذراعيه حول ركبتيه، وأطرق برأسه محرّجاً، وهو يحاول تجاهل تعليقاتهم.

بعد ثلاثين دقيقة بدت دهرأ، ظهر للعيان موكبٌ جديد. هذه المرّة كان المساعدان يدفعان عربات يد محمّلة بالأمّعة. سارت مي-جا ولي سانغ-مون جنباً إلى جنب. استطعتُ سماعه يضحك حتّى من مسافة بعيدة. عندها أدركتُ أنّه أرسلني بعيداً كي يكون مع مي-جا بمفرده. كنتُ متأكّدة من ذلك. الآن وقد اقتربا، رأيتُ أنّ مي-جا كانت ممتعةً مثل قنديل بحر. لا عجب أنّه انجذب إليها. لسنواتٍ عديدة لم أشعر بالغيرة من مي-جا، لكنني شعرت بها الآن، وكان هذا مقلقاً. مسّدتُ شعري وحاولتُ أن ألصق بوجهي نفس نوع القناع المتحقّظ والمحتشم الذي وضعته مي-جا على وجهها. لم يكن بمقدوري فعل شيء لأصبح في مستوى مثاليّتها، لكن يمكنني أن أكون ذكيّةً بطريقتي الخاصّة.

جاءت الشاحنات وغادرت إلى وجهاتٍ مختلفة، لكنّ أيّاً منها لم تكن ذاهبةً في الاتجاه الذي نحتاجه. طرحتُ أثناء انتظارنا على

سانغ-مون بعض الأسئلة التي أجاب عليها بسهولة. لقد وُلد في جيجو المدينة، وتلقّى تعليمه في اليابان. «أتعلمين، لقد ذهب الكثير منّا للدراسة في اليابان، بحيث يوجد في جيجو الآن متعلّمون أكثر من أيّ مكانٍ آخر في كوريا».

قد يكون هذا صحيحاً، لكنّه لا يعكس واقع تجربتي.

- «يدير أبي مصنعاً للتعليب هنا في المرفأ»، تابع سانغ-مون. كان ينبغي بهذا أن يعني أنّ والده كان عميلاً، فقد كانت جميع مصانع التعليب مملوكة لليابانيين. توجّب عليّ أن أفقد الاهتمام على الفور. أم ليس بالضرورة؟ كانت أعزُّ صديقاتي ابنة عميل. ربّما يكون زوجي ابن عميلٍ أيضاً. إضافةً إلى ذلك، كانت تعابيره ساحرة للغاية وابتسامته تذهب العقل لدرجة أنّ كلّ ما استطعتُ التفكير فيه هو كم كان وسيماً.

طرحْتُ المزيد من الأسئلة. كلّ إجابةٍ أظهرت لي أنّه كان مختلفاً عن أيّ شخصٍ قابلته يوماً. كانت مي-جا أثناء كلّ هذا تحدّق في الطريق متجاهلةً المحادثة. أعطاني عدم اكتراثها المزيد من الثقة.

- «كبرتُ وأنا أراقب ما يأتي إلى المرفأ وما يخرج منه»، قال موضّحاً. «أتوقّع أنّني سأتولى مهام والدي ذات يوم. لكنني حالياً أعمل لصالح حكومة مدينة جيجو. أنا أشرف على مستودعات طعامهم ومخزوناتهم الأخرى». كان هذا بمثابة تأكيدٍ آخر على طبيعة وضعه: لم يكن مجرد عميل بل كان عميلاً رفيع الشأن. العمل «لصالح حكومة مدينة جيجو» يعني أنّ الجيش الياباني وُظّفه. «سأعترف بذلك. لديّ أحلامٌ كبيرة، وقد لا تبدو وظيفتي الحالية شديدة الأهمية. لكن على المرء أن يبدأ من مكانٍ ما».

ركنْتُ بالقرب منّا شاحنة مسطّحة صغيرة. أخرج السائق رأسه من النافذة وصاح معلناً أنّه متّجهٌ شرقاً على الطريق الساحلي، مروراً

بالعديد من القرى البحرية بما فيها هادو، قبل أن يصل إلى وجهته الأخيرة سيونغسان حيث يمكن للهينيو المتبقيات أن يأخذن آخر عبّارة إلى جزيرة آدو الصغيرة قبالة الشاطئ. انفصلت دزينة من النساء عن الحشد وبدأن في رمي حقائبهنّ على ظهر الشاحنة.

«هيا بنا، هذه شاحنتنا»، تمتمت مي-جا. شرعت على الفور في إلقاء أمتعتنا على ظهر الشاحنة. أنا وسانغ-مون ساعدنا أيضاً، لكننا كنّا لا نزال نحاول أن نتبادل أكبر قدر ممكن من المعلومات.

- «في أيّ قسم من هادو تعيشين؟»، سأل سانغ-مون.
- «أنا أعيش في غول-دونغ»، أجبتُه وأنا أحاول أن أبدو متواضعة، لكنّ ذلك كان صعباً. لم يكن ليستفسر عن المكان الذي أعيش فيه لو لم يكن مهتماً بي. لكن مي-جا كانت تقف هناك وحيث أنني لم أرغب في أن أبدو متلهفة كثيراً، لذا أضفتُ قائلة: «تعيش صديقتي بالقرب منّي في سوت-دونغ». استجابت مي-جا عبر إغلاق عينيها ووضع قبضة مغلقة على قلبها. إذا ظنّنت أن هذا سيجعلها تبدو ظريفة، فقد كانت على حقّ. قاومتُ بشدّة موجةً جديدة من الغيرة.

شكرتُ سانغ-مون لمساعدتنا. صعدتُ مي-جا ومدّت يدها وساعدتني في الصعود على ظهر الشاحنة. ضبط السائق التروس، ترنّحت الشاحنة وبدأت تتحرّك. لوَحْتُ لسانغ-مون مودّعة، لكنّ مي-جا كانت قد أدارت ظهرها وانضمّت بالفعل إلى مجموعة من نساء الهينيو الجالسات على شكل دائرة فوق سطح الشاحنة. فكّث منديلاً كانت قد وضّبت فيه بعض الفاكهة. فتحتُ أنا سلّة وسحبْتُ منها كرات الأرز. أضافت نساءً أخريات الحَبّار المجفّف وأوعية من مخلل اللفت والكيمتشي منزلي الصنع، وحزمة من البصل الأخضر. دارت امرأةٌ بإبريق خزفي مملوء بمياه الشرب. فتحتُ امرأةً أخرى كوزاً فخاريّاً من نبيذ الأرز المخمّر. أخذتُ مي-جا رشفة،

وأغمضت عينيها نصف إغماضة من قوّة الطعم. حين انسكب الكحول نزولاً عبر حنجرتي، احترق صدري بطعم مسقط رأسي. عادةً كنّا سنخوض في كلّ تفاصيل لقائنا مع سانغ-مون، تماماً كما فعلنا بعد لقائنا بفلاّد وأليكسي أو أيّ من الأولاد الآخرين الذين قابلناهم في هذا الميناء أو ذاك. لكن ليس هذه المرّة. حين أدليتُ بتعليق من قبيل أنّه كان من حسن حظّنا وصول سانغ-مون في ذلك التوقيت، ردّت بنبرة دفاعية: «ما كنتُ سأسمح أبداً أن تبقي وحدك على رصيف المرفأ».

- «هل سأل عني؟».

- «هو لم يقل أيّ شيء عنك»، قالت باقتضاب. «والآن دعينا لا نتحدّث أكثر عن ذلك».

لم تجب بعد ذلك على أيّ سؤالٍ سألتُه، لذا جلسنا نثرثر مع النساء الأخريات. رفع الطعام والنيّذ ومعرفة أنّنا بتنا في ديارنا الآن من معنويات الجميع.

في كلّ كيلومتر من الرحلة الوعرة كان يتكشف مشهدٌ مألوف أو محبّب. مررنا بساميانغ، وجوتشيون، وهامديوك، وبوكتشون، وسيهوا، وتوقّفنا في كلّ قريةٍ لإنزال امرأةٍ أو اثنتين. تلوّت جدران أزقةٍ أولي الحجرية الواطئة كالأفعى على طول سفوح التلال. حوّطت تلك الجدران الحقول أيضاً مشكّلةً خليطاً من الألوان والأنماط الهندسية. حلّق سربٌ من الغربان في السماء فوقنا. لمحنا بعيداً في البحر عوامات الهينيو تتهاذى على صفحة الماء. وطوال الوقت، لاحت في الأفق الجدّة سيولمونداي في وسط الجزيرة. بقدر ما كان كلّ هذا جميلاً وينمُّ عن الترحيب، إلّا أنّني لم أستطع التوقّف عن تصوّر مشاهد في مخيلتي: لربّما تضطلع الشامانة كيم بمراسم الاحتفال بزواجي. ربّما سأرتدي ملابس زفاف والدتي. أو ربّما

يعطيني سانغ-مون قماشاً رائعاً كي أصنع فستاني الخاص. أو قد يفضل أن أرتدي ثوب الكيمونو الياباني ونقيم مراسم الزفاف بطقوس يابانية كما كان يطلب المستعمرون. نعم، الأرجح أن هذا ما سيكون عليه الأمر. لا للشامانة، نعم للكيمونو الياباني. ربّما سيدفع أبي تكاليف المأدبتين في هادو وفي جيغو المدينة، رغم أنني لم أعرف كيف سيفعل ذلك.

- «نكاد نصل»، قالت مي-جا وبدأت تجمع الحقائق. رفع القليلون الذين كانوا يعملون في الحقول رؤوسهم لدى توقّف الشاحنة. قفزنا، فاستقبلتنا أصوات جيراننا الصاخبة.

- «مي-جا!».

- «يونغ-سوك!».

أرسلت أمّ أحد أبنائها كي يركض إلى منزلي ويبلغ عن وصولي. رمت النساء في الشاحنة الأمتعة إلينا. كنّا قد انتهينا من إفراغ نصف حمولتنا تقريباً حين بدأت تصل إلى مسامعي أصوات الهتاف والصياح. كان ذلك أخي الثالث ومعه أختي الصغيرة. لقّا أذرعهما حول خصري ودفن كلّ منهما رأسه على أحد كتفيّ. ثمّ أفلتني أختي الصغيرة وراحت تتفافز حولي بحماس. كانت الآن في السادسة عشرة وتعمل كهينيو في جماعة دو-سانغ. سوف تكون حياتنا الآن أسهل إذا صدقت المقولة الشائعة في جيغو: الأسرة التي لديها ابنتان في سنّ الغوص لن تواجه أيّ مشاكل في اقتراض المال أو في سداد ديونها. كنتُ سعيدة جداً لرؤيتها! لكن لم يكن الجميع هنا، نظرتُ أسفل الزقاق بحثاً عن بقيّة العائلة.

- «أين أبي؟ أين أخي الأوّل وأخي الثاني؟». قبل أن يتمكنا من الإجابة، صرخ سائق الشاحنة من النافذة. «أسرعوا! لا أستطيع الانتظار هنا طوال اليوم!».

بمساعدة أخي وأختي، التقتُ مع مي-جا بقيّة أغراضنا التي كانت تُرمى إلينا من الشاحنة. حمل أخي الثالث ما استطاع حمله وهرع نزولاً في الزقاق باتجاه المنزل، عندها بالضبط ظهرت لي-أوك عمّة مي-جا، وعمّها هيم-تشان. انحنيت مي-جا لهما احتراماً، لكنّهما بالكاد لاحظا ذلك، فقد كان تركيزهما منصباً على ما كنّا قد أحضرناه معنا إلى الديار.

- «لقد عادت يونغ-سوك بأكثر ممّا عدتِ به»، اصطادت عمّة مي-جا في الماء العكر. «كما أنّها أنحف منك. هل كنتِ تأكلين ما تجنيه؟».

حاولتُ أن أتدخل. «لقد اشتريتُ أغراضاً بأحجام متنوعة. إنّ كومة أغراضي تبدو أكبر فحسب —».

لكنّ عمّة مي-جا تجاهلتنني. «هل اشتريتِ الأرزّ الأبيض؟»، وجّهت سؤالها لمي-جا.

- «بالطبع لا!»، اعترضتُ وأنا أحاول مجدّداً حماية صديقتي. «إنّ مي-جا عمليّة دائماً —».

- «بلى، عمّتي لي-أوك، لقد أحضرتُ الأرزّ الأبيض».

كنتُ مذهولة. لا بدّ أنّ مي-جا كانت قد اشترته حين لم أكن معها. لقد عملتُ بجدّ كبير، وبذلتُ من نفسها الكثير. هي لم تكن ملزمة أن تشتري لهما شيئاً فآخرأ كهذا. لم يكن ذلك الوقت المناسب لسؤالها عن الأمر، ولم يكن بوسعي فعل ذلك على أيّة حال لأنّ أخي الثالث كان قد عاد راكضاً لمساعدة أختي الصغيرة ومساعدتي. كنتُ خلال دقائق أحاول اللحاق بشقيقي وشقيقتي في الزقاق، تاركةً مي-جا وحيدةً مع عمّها وعمّتها.

صوت صندلي الذي يتردّد صداه في الأولي مع صوت الأمواج

المتكسرة بصورة إيقاعية على الشاطئ؛ لقد بدت هذه أصواتاً مطمئنة ومرحبة. لقد كنتُ في الديار! لكنني حالما عبرتُ بوابة منزلنا، شعرتُ أنَّ هناك خطباً ما. بدت المساحة بين البيت الكبير والبيت الصغير حيث تعيش جدتي فوضويةً على غير العادة. كانت الألواح الخشبية التي تشكّل الواجهة الأمامية لبيت جدتي مرفوعة على أعواد من الخيزران. كافحت جدتي لتتمكّن من الوقوف ببطء. أخفضت رأسها تحت الألواح وانضمت إلينا. لطالما بدت لي طاعنةً في السنّ حتّى حين كنتُ صغيرة، لكنّ الأشهر التسعة الأخيرة أخذت من حيويّتها الشيء الكثير. وإذ رمقتُ أخي وأختي بنظرة تساؤل، انتابني شعورٌ مفاجئ بالفزع. أدركتُ أنَّ حماستهما للقاء قبل دقائق كانت ناجمةً عن شعورٍ بالارتياح أكثر من كونها شعوراً بالسعادة، بالنسبة لأختي على وجه الخصوص. كان واجبها يقضي بتحمّل أعباء ومسؤوليات العائلة في غيابي.

سألتُ ثانية «أين أبي؟ أين هما شقيقانا؟».

- «لقد أخذ اليابانيون شقيقينا»، أجابت أختي الصغرى. «لقد سيقا إلى الجندية».

- «لكنّهما مجرد صبيّين!». هل كانا كذلك حقّاً؟ كان أخي الأول في التاسعة عشرة، والثاني في السابعة عشرة. كثيرٌ من الجنود في الجيش الياباني كانوا أصغر من ذلك بكثير. «متى أخذوهما؟»، سألتُ وأنا أفكر أنّه إن كان هذا قد حدث مؤخّراً فربّما أملك الفرصة في استعادتهما.

- «أمسك اليابانيون بهما بعد مغادرتك مباشرة»، أجابت أختي الصغيرة.

منذ تسعة أشهر إذًا.

- «ربّما يمكنني المقايضة على إطلاق سراحهما عبر تقديم بعض

المواد الغذائية والمؤمن الأخرى التي اشتريتها»، اقترحت وأنا أحاول أن أكون إيجابية.

نظروا إليّ بحزن. اعتراني يأسٌ عظيم.

- «هل سمعتم أيّ شيءٍ عنهما؟»، سألتُ وأنا ما زلتُ أحاول العثور على شيءٍ مبشّر في هذه العودة للديار، لكنّ الثلاثة حدّقوا فيّ بيؤس. «هل هما هنا في جيجو؟». كان هذا يعني الأعمال الشاقة فحسب.

- «لم نسمع أيّ شيء»، قالت جدّتي.

كانت عائلتي قد تقلّصت مجدّداً، ولم أعرف بالأمر حتّى. أيّاً تكن السعادة التي كنتُ أشعر بها لعودتي إلى جيجو - لقائي بسانغ-مون، ولهفتي لفرحة الوصول إلى البيت ورؤية وجوه أشقائي - فقد تلاشت كلياً الآن، تاركةً لسواد الحزن أن ينتشر في أعماقي. لكنّني كنتُ الأكبر في عائلتنا. كنتُ هينيو. كان من واجبي أن أكون مصدرراً للمؤمن وللشعور بالاستقرار. رسمتُ ابتسامةً كانت هزيلةً جدّاً بالتأكيد، وحاولت طمأنة إخوتي.

- «سوف يرجعان. سترون»، قلتُ لهم. «دعونا في هذه الأثناء نبيع بعض الأشياء التي أحضرتها معي. يمكننا الاستفادة من المال في إرسال الأخ الثالث إلى المدرسة لفترة».

هزّت أختي رأسها. «هذا ليس آمناً. هو بالكاد في الرابعة عشرة. سيأخذه اليابانيون ليساعد في بناء متاريسهم أو قد يرسلونه للحرب. لقد أخبرته أن عليه البقاء مختبئاً في المنزل أثناء النهار».

كنتُ مسرورةً لأنّ أختي تملك بصيرةً نافذة. سوف تساعدنا هذه الملكة كثيراً كهينيو. مع ذلك، فقد كان من الصعب استيعاب كلّ هذا الحزن. لكنّ أخبار إخوتي لم تكن الصدمة الأسوأ. هذه الأخيرة

جاءت لدى عودة والدي إلى المنزل وهو في حالةٍ يرثى لها من السكر الشديد بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل .

كان الطقس بائساً صبيحة يومي الأول في البيت . غطت السحب الكثيفة سماء الجزيرة . بدا الهواء الحار والرطب شديد الثقل . سوف تبدأ الأمطار الغزيرة في الهطول عمّا قريب ، لكنّها لن تكون منعشة بل مجرد سائلٍ أكثر دفئاً يمتزج بعَرقي . أمضيتُ يومي منحنيةً أحفر مستخرجةً البطاطا الحلوة من التربة دون أن أ تلف قشرتها ، ثمّ ورّعتُ الدرنات في ثلاثة صناديق : ما سنأكله خلال وقتٍ قريب ، وما سنبيعه إلى المقطرة كي يتمّ تحويله إلى كحول ، وما سوف نقطّعه ونجفّفه ومن ثمّ نخزّنه كي نأكله خلال الشتاء - عمل شاق آخر . كنتُ بالتأكيد أفضل أن أكون تحت سطح البحر .

شعرتُ بعدم الاستقرار . لم يكن الأمر وكأنّني افتقدتُ أصوات أبواق السيّارات والحافلات والشاحنات ، أو لجلبة المصانع ومعامل التعليب والمصافي . كنتُ بالأحرى أفتقد سماع صفير الرياح في جيّجو ، والذي غطّى عليه هدير الطائرات اليابانية وهي تقلع بلا توقّف من القواعد الجويّة الثلاث التي بنوها على الجزيرة . كان دويّ محرّكات طيور الموت تلك بمثابة تذكير دائم بنوايا اليابان حيال المحيط الهادئ .

وهكذا ، كانت صور الموت فوقّي ، والتراب تحتي . ومي-جا بجانبني كحالها دائماً . وبالقرب منها أختي الصغيرة التي لا تتوقّف عن الحديث عن الأولاد . كانت مهتمةً بهم أكثر ممّا حتّى ، ولم تنفكّ تسأل عن موعد زواجها .

- «العادات تقول إنّه يجب أن أتزوّج أولاً» ، قلتُ لها . «التباكي

لن يغيّر شيئاً في ذلك. أنتِ لا تزالين صغيرةً جداً على آيةٍ حالٍ!». حاولتُ أن أُلطف نبرتي. «أنتِ فتاةٌ جميلة، وإذا اتّضح أنّكِ عاملةٌ مجتهدة، فسوف تعثر لك الجدّة على زوجٍ مناسب بسهولة».

- «بسهولة؟»، ردّدت أختي الصغيرة وهي تضرب بمجرفتها عميقاً في الأرض وترفع بها حبةً بطاطا حلوة، ثم تنفض التراب عنها برفق. «لم يبقَ الكثير من رجال جيـجو. ألم تلاحظي ذلك؟».

بدأتُ أسرد الأعذار المعتادة: «لقد مات رجالنا في البحر بسبب أعاصير التايفون والعواصف الأخرى. لقد قُتلوا أو تمّ نفيهم على يد المغول، والآن —».

- «والآن يُساقون إلى الجندية من قبل اليابانيين»، أنهت شقيقتي الجملة لي. في خضمّ القلق الذي ينتابها بشأن زواجها، بدت وكأنّها لا تهتمُّ وهي تتحدّث عن شيءٍ كان قد حدث مع شقيقينا. «رأيتُ بالفعل كثيراً من الفتيات في مثل سنّي يتزوَّجن زيجاتٍ مرتّبة، لكنني لم أتلقَ أيّ عرضٍ زواج».

- «أنا لم أتلقَ واحداً أيضاً»، قالت مي-جا. «ربّما السبب في ذلك أنّه ليس لدى أيّ منّا أمٌّ كي تنشئ الصّلات المطلوبة في هذه الحالات».

لمعتُ عينا شقيقتي. «أو ربّما لأنّنا لم نكن مستعدّات لمشاركة الحبّ —».

- «اسكتي وقومي بعملك!». كان عليّ أن أوقف هذه الثرثرة، إذ تذكّرتُ كيف كان من عادة الأختين كانغ أن تتفاخرا بالتسلّل خلسة لتقضي الوقت مع الأولاد. كانت تلك الفتاتان محظوظتين لأنّهما لم تحملا. وبالتفكير قليلاً في الأمر، ألم يحدث زواج الأخت الصغرى بعد وقتٍ قصير من زفاف أختها الكبرى؟ ألم يولد ابن غو-سُن الأول...

- «تعرفين ماذا يقولون»، تابعتُ أختي حالمة. «إنَّ ممارسة الجنس هي "مشاركة الحبّ"».

مشاركة الحبّ. تحبُّ الأختان كانغ الآن الحديث عن مشاركة الحبّ مع زوجيهما، ومدى روعة ذلك، وكم افتقدتا هذه المشاركة وزوجيهما حين نكون بعيدات.

- «أنا لستُ واثقة بشأن الزواج»، قالت مي-جا. «حين تتزوَّج المرأة، فهي تحصل على أفضل طعام لثلاثة أيام. ينبغي بذلك أن يَكفيها طيلة حياتها. إذا لم يكن ذلك صحيحاً، فلمَذا يقوله شيوخنا؟».

- «لَمْ أَنْتِ كئيبة اليوم؟»، سألتها. «لطالما قلتُ إنَّكِ ترغبين في الزواج. لقد تحدَّثنا عمَّا نتمناه في أزواجنا —».

قاطعتني مي-جا. «ربَّما فكرة أن نكون مع رجل هي ما يُفترض بنا أن نتمناه، لكنَّها ربَّما لا تجلب شيئاً سوى البؤس».

- «أنا لا أفهم ما الذي غيَّر رأيكِ هكذا»، قلتُ لها.

قبل أن تتمكَّن مي-جا من الردّ، رنَّمت أختي الصغيرة: «مشاركة الحب! هذا ما أتوق لفعله».

صفعتُ يدها. «دعونا لا نسمع المزيد عن مسألة مشاركة الحبّ هذه! قومي بعملكِ وحسب. لا يزال أمامنا ثلاثة صفوف يجب أن ننتهي منها قبل العودة إلى المنزل».

خيَّم الصمتُ على مي-جا وأختي الصغيرة، وتركتاني أسرح بأفكاري. سواءً أنا أو مي-جا، كلتانا كانت بحاجة للزواج. هذا هو المسار الطبيعي للأمور. كنَّا على نحوٍ واضح نفكر في الأمر طوال الوقت حتَّى لو لم نناقشه. كنْتُ قد أرسيتُ قلبي بالفعل على خيارٍ مستحيل - إنَّه سانغ-مون. لم أكن قد أخبرْتُ صديقتي بعد عن مشاعري تجاهه، إذ كنْتُ أنتظر أن يستقرَّ قلبها على شخصٍ ما. لكنَّ

موقفها الجديد أربكني . كيف يمكنها أن تفقد فجأة الرغبة في الزواج في حين أننا أمضينا الأشهر الأخيرة في توفير المال لتمكّن من شراء مستلزمات الزفاف؟

بعد ثلاثة أيام، وبعد أن انتهينا من الأعمال الروتينية المنزلية، أرسلتُ أختي الصغيرة لنقل المياه وجمع الحطب. كان أبي لا يزال نائماً، بينما حشر أخي الثالث نفسه عند الجدار الخلفي للمنزل، مختبئاً عن الأعين المتلصّصة لليابانيين. كنتُ قد جمعتُ لتوي أكياس الخيش وأدواتي حين فاجأتني مي-جا بقدمها لاصطحابي. أشارت لنا جدّتي من المنزل الصغير ونحن على وشك الانطلاق إلى الحقل. «تعاليا واجلسا معي لدقيقة. هناك ما أريد مناقشته معكما».

خلعنا صندلينا ودخلنا إلى الجدة.

- «العريس يعمر البيت، والعروس تملؤه»، ردّدت جدّتي القول المأثور.

ابتسمتُ. بعد أربعة أيّام فقط من عودتي، ها أنا ذا أسمع الكلمات التقليدية حول زفافٍ وسنواتٍ زواجٍ سعيدة. مع ذلك، حافظت مي-جا على تحكّم أفضل بعواطفها.

- «لطالما كانت حياتكما مقترنتين ببعضهما أشدّ الاقتران، لذا من الأفضل أن تتزوّجا في نفس الوقت»، تابعت جدّتي.

- «سوف تعثرين على زوجٍ ليونغ-سوك بسهولة»، قالت مي-جا. «لكن من الذي سيتزوّجني بعد أن...». تردّدت وهي تنقّب في ذهنها عمّا تريد قوله. «أعني مع خلفيتي المثيرة للجدل؟».

- «آه، يا فتاة، أنتِ مخطئة في هذا. لقد أبلغتني عمّتكِ أنّ اهتماماً بترتيب زواجٍ لك قد وصلها مؤخراً. طلبتُ منّي أن أتحدّث

بالنيابة عن عائلتكِ نظراً لأنكِ كنتِ بمثابة ابنة لسون-سيل . ألم تخبركِ عمّتكِ؟» .

لم يكن من الممكن أن أكون أكثر دهشة أو سعادة، لكن وجه مي-جا اكفهرّ على نحوٍ مفاجئ .

- «سوف تتخلّص العمّة لي-أوك منّي أخيراً» .

- «سوف تتحقّن ظروفكِ في بعض الجوانب بشكلٍ ملحوظ»، قالت جدّتي .

لم أكن متأكّدة ما الذي يعنيه ذلك، ومي-جا لم تسأل . بدت أبعد ما تكون عن الفرح . كنتُ على وشك البدء في طرح الأسئلة حين أكملت جدّتي قائلة: «وأنتِ، عزيزتي يونغ-سوك، سوف تتزوّجين في نفس الأسبوع الذي تتزوج فيه أخت قلبك . ستكون أمّك مسرورةً لمعرفة ذلك» .

مع هذه الكلمات، تبخّر كل القلق بشأن مي-جا . «مَن سيكون زوجي؟»، سألتُ بحماس .

- «ومَن سيكون زوجي؟» . كان صوت مي-جا ثقيلاً كالرصاص .

- «أنا لم أرَ زوجي حتّى يوم زفافي، وبقيتُ أخشى النظر إليه لعدّة أسابيع بعد ذلك»، قالت جدّتي بفضافة .

هل كانت تحذّرنا من أنّنا لن نكون سعيدتين مع زوجينا؟ أمسكتُ مي-جا بيدي، فشددتُ على يدها بالمقابل . أيّاً كان ما سيحدث، ستظلُّ دائماً كلُّ منّا مع الأخرى .

كان فجر اليوم التالي حارّاً ورطباً مرّة أخرى . كنتُ معتادةً على العمل في الماء، لذا كان المألوف بالنسبة لي أن أغسل جسدي حتّى

يصبح نظيفاً كلَّ يوم. الآن أثناء حصاد محصول البطاطا الحلوة، كان ينبغي بي أن أكون ممتنّة لأنّه لم تظهر على ملابسي أوساخٌ بقدر ما علّق عليها بالفعل أو ما كان سيُضاف عليها اليوم، ولأنّ صبغة عصير الكاكي تمنع الروائح الكريهة أن تفوح منها قدر الإمكان، لكنّ ملامحي كانت تتلوّى من بشاعة كلّ ذلك وأنا أدخل في سروالي وأسحب السترة فوق رأسي. بعد إطفام والدي وجدّتي وشقيقي والاطمئنان عليهم، انطلقتُ مع شقيقتي نحو حقولنا الجاف. التقينا بمي-جا في ركنها المعتاد في زقاق الأولي.

- «طلبت منّي العمّة لي-أوك والعمّ هيم-تشان أن أنجز لهما بعض المهام المنزلية اليوم»، قالت لي. «لكن هل يمكننا أن نلتقي على الشاطئ هذه الليلة لتحدّث ونسبح قليلاً؟».

كنتُ أتصبّب عرقاً بالفعل، لذا وافقتُ بسرعة على خطّتها. بضع كلماتٍ أخرى، ثمّ غادرتنا مي-جا، وواصلتُ أنا وأختي طريقنا إلى الحقل. استخرجنا البطاطا الحلوة، تعرّفنا، شربنا الماء، وكرّرنا كلّ ذلك مرّةً بعد مرّة. رأيتُ المحيط من بعيد في كلّ مرّة قوّمتُ فيها وضعية ظهري؛ متلألئاً ومغروباً. تطلّعتُ قدماً للسباحة مع مي-جا الليلة. أو ربّما سنجلس وحسب في المياه الضحلة، ونترك للماء أن ينساب من حولنا، شافياً، مهدّئاً، منعشاً، ودون أن نهدر قطرةً من طاقتنا.

في نهاية اليوم، كنتُ أنا وأختي نسير عائدتين إلى المنزل متعبتين وقذرتين عندما سمعنا صوت سيّارة. كان هذا نادراً جدّاً! تباطأتُ وركنتُ بالقرب منّا. كان في السيّارة سائق، وفي المقعد الخلفي جلس رجلان. كان سانغ-مون يجلس في الجهة البعيدة مرتدياً بذلة على الطراز الغربي. شعرتُ بمعدّتي وهي تبتلع قلبي.

كان الرجل الأقرب إليّ - ينبغي به أن يكون والد سانغ-مون -

يرتدي ملابس مشابهة. أنزل النافذة وأسند مرفقه عليها وأخذ يحدّق في وجهي. انحنيت بشدّة لعدّة مرّات. صليّت أنّه من خلال تواضعي واحترامي له فإنّ حماي المستقبليّ سوف يرى فيّ أكثر من مجرد فتاة متّسخة الوجه واليدين. سيرى فيّ العاملة المجتهدة التي ستعني بولده، وتساعد في موارد الأسرة المالية، وتنشئ بيتاً جيّداً. كان هذا ما أمِلْتُهُ على الأقلّ. استرقتُ النظر إلى أختي وقد انتهت لتوها من الانحناء. كانت تحدّق بفكّ مرتخ إلى الرجلين بملابسهما الأجنبية الغريبة، وسيّارتهما وسائقهما. هي لم تخرج يوماً من هادو، لذا فقد كانت ساذجةً وبسيطة تماماً كما كنتُ ذات يوم. مع ذلك، شعرتُ بموجةٍ من الخجل والارتباك تجتاحني. لاحظتُ أنّ سانغ-مون كان يحدّق إلى الأمام منه مباشرةً ولم يعترف بوجودي، كما كان يليق بشابّ في مأمرية خطوبة.

خاطبني حماي المستقبليّ كما لو كان يشعر أنّه ما من ضرورة للمقدّمات وشكليّات التعارف «يا فتاة —».

- «دعني آخذك إلى جدّتي وأبي»، هتفتُ دون تفكير وأنا لا أزال متوتّرة ومحرّجة من مظهري.

راح سانغ-مون ينظر إليّ بفضول. كان والده أكثر تحفظاً، وتمكّن من إخفاء دهشته. لم يضحك عليّ أو يسخر منّي، لكنّ تعابير وجهه جعلتني أشعر بذلّ لم أشعر بمثله في حياتي. «لقد جنّثُ لمقابلة عائلة هان-مي-جا»، قال بسلاسة. «هل يمكنكِ إرشادنا إلى منزلهم؟».

مي-جا؟ نعم، بالطبع. زُمْتُ شفتاي، وسقط قلبي عميقاً داخل أحشائي. كانت أجمل منّي، وقد ترعرعت في مدينة جيجو، وكان والدها عميلاً أيضاً. لذا يفترض بهذا أن يكون أشبه بزواج بين متطابقين. بدا كلُّ شيءٍ منطقيّاً، لكن لكمُ كنتُ مطعونة من سرّيّة مي-جا ومن خيانة جدّتي. لم أكن قد أخبرتُ جدّتي عن مشاعري

تجاه سانغ-مون، لكن من المؤكد أنها عبر دورها في الترتيب للأمر كانت قد عرفت أنني التقيتُ بسانغ-مون. كلُّ ما كان يمكنني فعله هو محاولة منع نفسي من أن أنفجر بالبكاء، لكنني ما كنتُ على أية حال لأهرق من ماء وجهي أكثر ممّا كنتُ قد أهرقتُ بالفعل.

- «عليك أن تنزل من سيّارتك هنا، وتتابع سيراً لبقية الطريق»، قلتُ له.

ركنَ السائق السيّارة على جانب الطريق، ثمّ نزل وفتح الباب للأب، ومن ثمّ للابن. ما زال سانغ-مون لا يعترف بوجودي. كان يوماً حارّاً، وكلُّ منزلٍ مررنا به كان أحد جدرانه مرفوعاً على أعواد الخيزران أملاً في التقاط بعض النسائم، لذا فإن الجميع في طريقنا رأوا موكبنا الصغير. حين وصلنا إلى منزل مي-جا، كان عمّها وعمّتها يجلسان متربّعين في الغرفة الرئيسية بعد أن رفعاً أيضاً الجدار الأمامي للمنزل. في ركنٍ من الغرفة، جلستُ جدّتي مرتديةً أنظف وأفضل سروالٍ وسترةٍ لديها. وفي الركن المقابل، جلست مي-جا على الطريقة اليابانية مسندةً مؤخرتها على كعبيها وواضعةً يديها على ركبتيها بصورةٍ نيّقة. كانت ترتدي كيمونو قطنياً مطبوعاً بنمط أزهار الفواوانيا. كان شعرها ممشّطاً ومثبتاً على الطريقة اليابانية. ووجهها يكاد يكون أبيض، لكن ليس بفعل مكياج يابانيٍّ ما، بل من شيءٍ آخر. الحزن؟ الذنب؟ ربّما كنتُ الوحيدة التي رأيتُ أنّ بياض عينيها كان مائلاً للون الوردي، كما لو كانت تبكي. نهض الأربعة وانحنوا بشدّة للغريبين. انحنى سانغ-مون ووالده بالمقابل لكن دون أن ينخفضا كثيراً مثل مضيفيهم.

- «أنا لي هان-بونغ والدُ سانغ-مون».

- «تفضّل أرجوك»، قال عمّ مي-جا. «سوف تقدّم لنا ابنة أخي

الشيء».

خلع الأب والابن حذاءيهما، ثمَّ أخفضا رأسيهما وهما يدوسان على العتبة ودخولاً إلى المنزل. لم أَدْعَ إلى الداخل، لكن لم يُطلب مِنِّي المغادرة أيضاً. ابتعدتُ قليلاً، جلستُ على ركبتيَّ في الشمس، وأطرقتُ برأسي.

لم يكن لدينا في جيغو مهرٌ للعروس كما في البرّ الرئيسي، لكن كانت ثمة شكليات أخرى تحتاج للتفاوض والتي قضت جدّتي في أمرها مع قليلٍ من المعارضة أو الجدل من هذا الطرف أو ذاك. كان عرّاف الأرض قد استؤجر بالفعل كي يبحث في أمر السنين والشهور والأيام، وأوقات ولادة كلٍّ من سانغ-مون ومي-جا، وبناءً على كلِّ هذا وذاك فقد أعلن عن موعد حفل الزفاف بعد خمسة أيّام. رغم أن عائلة العريس كانت ميسورة الحال على نحوٍ واضح، إلّا أنّهم فضّلوا أن تقتصر الاحتفالات على يوم واحد بدلاً من الثلاثة أيّام التقليدية.

- «من غير المعتاد أن يتزوَّج أحدٌ من منطقة الجبل الأوسط بأحدٍ من منطقة الشاطئ»، أوضح والد سانغ-مون. «عاداتهم وطريقة حياتهم مختلفةٌ جدّاً. كما أنّه لا أحد من الجانب الغربي للجزيرة قد يرغب في الزواج بأحدٍ من الجانب الشرقي».

ما قصده هو أنّ رجال منطقة الأوسط كانوا أكثر رقيّاً من أن يتزوجوا عرائس من الهينيو، في الوقت الذي كان رجال الجانب الغربي للجزيرة لا يحبّون النساء اللواتي تعبدن الثعابين في العديد من القرى الشرقية. كان واضحاً أنّه يحاول التأسيس لشيءٍ يستند على قدراته في التورية والتلاعب بالكلمات. رفعتُ رأسي لأرى كيف كان الآخرون يتلقّون تعليقاته. كان رأسا عمّ مي-جا وعمّتها منكسّين، وهو ما حجب ردود الفعل في أعينهما، بينما جلست صديقتي تحدّق للأمام مباشرةً. جسدها كان هناك، لكن بدا وكأن عقلها قد طار محلّقاً خارج المنزل، وهو الآن يحوم هناك عالياً فوق البحر. لكنني

كنتُ أعرف مي-جا جيداً. هي لم تكن تتظاهر بأنّها العروس الرقيقة والمتواضعة بالأسلوب الياباني، ولم تكن تداري شعورها بالحزن أو القلق من زواجها بسانغ-مون. كانت تحاول تجاهلي أنا. في هذه الأثناء، اعتلت وجه جدّتي أكثر النظرات التي تنمّ عن الانزعاج. لقد وُضعت في موقع مبجلٍ ومحترم، لكنني كنتُ قلقلةً ممّا ستقوله.

- «من الجيّد أن يقترن ولدٌ من المدينة بفتاةٍ من المدينة»، أبدت جدّتي ملاحظتها التي من الممكن أنّها قصدت من خلالها أنّ أبناء وبنات العملاء يستحقّون بعضهم البعض.

- «بالضبط»، وافق والد سانغ-مون. «لا نحتاج إلى عائلات تسافر جيئةً وذهاباً بين مدينة جيجو وهذا المكان».

أخيراً فهمت. لم يرد لي هان-بونغ أيّ علاقة بعائلة مي-جا أو بالقرية التي كانت تدعوها وطناً خلال الأربعة عشر عاماً الماضية. يا له من رجلٍ مثيرٍ للاشمئزاز! وبإلّا من قلّة احترام لعمّ وعمّة مي-جا! لكنّهما لم يقولوا أيّ شيء. صحيحٌ أنّهما ربّما أمضيا سنواتٍ وهما يعاملان مي-جا بوحشية، لكنّهما الآن يستطيعان الاستفادة من نفوذ عائلة لي. كانا يُظهران نفاقهما المعتاد وحسب.

- «سوف ترى أنّ مي-جا لم تفقد أسلوبها المديني»، أكملت جدّتي بلطف. «في الواقع، لقد عاشت وعملت في الخارج. هي تملك الكثير من الخبرة —».

- «كنتُ أعرف والد الفتاة، وحتّى والدتها»، قاطعها لي هان-بونغ. «أخمن أنّ الفتاة لا تتذكّرني، لكنني أتذكّرها جيداً». لم تنظر مي-جا نحوه حتّى بعد هذه الكلمات. «دائماً ما كانت تربط شعرها بربطة بيضاء كبيرة. كانت تبدو جميلة بأحذيتها الصغيرة وتنانيرها. إنّ معظم الناس يفضلون إحضار زوجة ابنٍ ترعرعت في

أسرة كبيرة، لأنَّ هذا يُظهر امتلاكها للمهارات اللازمة للتوافق مع الجميع».

- «والعمل بجِدٍّ —».

- «لكنَّ ولدي تربي كطفلٍ وحيدٍ أيضاً. لدى كليهما هذا القاسم المشترك». ثمَّ مضى يشرح الميَّزات الأخرى لهذا الاقتران، ميَّزات كانت ترتبط بخصائص مي-جا وسانغ-مون الجسدية أكثر من ارتباطها بتشاركية الحياة بما فيها من حقوقٍ وواجبات وشروطٍ للعيش المشترك. «ليس لأيٍّ من هذين الولدين بشرةٌ داكنةٌ جدًّا. أنا متأكَّد أنكم تدركون كم هذا مفاجئٌ بالنسبة لامرأةٍ تعمل في البحر. ولكن حالما تتزوَّج مي-جا من ابني سوف تنتهي أيام عملها تحت الشمس، وسيعود وجهها ليكون وجه الفتاة التي عرفتها ذات يوم».

كنتُ أستمع لكلِّ هذا وقلبي يتحطَّم. شاهدت تبادل الهدايا الرسمي. كنتُ أعلم أنَّ مي-جا قد اشترت كاميرا لزوجها المستقبليّ، لكنني لم أتمكن من تحديد الهدية التي قدَّمتها عائلة سانغ-مون من خلال شكلها، غير أنَّها لم تكن لفافة قماش تقليدية من أجل حياكة ملابس الزفاف. (لكن لمَّ قد يقدِّم لها عملاء يابانيون مثل هذه الهدية الكورية؟) مع انتهاء المفاوضات وسكب أقداح صغيرة من نبيذ للرجال لإضفاء الطابع الرسمي على الاتفاق، نهضتُ ببطء، وانسحبتُ خارج الفناء، وركضتُ عبر الزقاق نحو المنزل. انهمرت الدموع فوق وجنتي حتَّى لم أعد استطيع الرؤية. توقفتُ، غطيتُ وجهي، ورحتُ أنتحب عند الحائط الصخري. كيف كان مني أن أحلم بمثل هذه الأحلام السخيفة؟ ما كان لسانغ-مون أن يعيرني اهتماماً قطّ، وما كان يجدر بي أن أرغب ولو للحظة في الزواج من ابن عميل.

- «يونغ-سوك».

جفلتُ لدى سماعي صوت مي-جا.

- «أنا أفهم سبب حزنك»، قالت لي. «عجزتُ حتّى عن النظر إليك هناك خشية أن أبدأ في البكاء. لقد أردنا الزواج بأولاد من هادو كي نتمكّن من البقاء معاً على الدوام. والآن هذا...».

لم أستوعب في خضمّ غيرتي وألمي أنّ مي-جا كانت ستغادر هادو إلى الأبد. كيف سمحتُ للقاء قصير مع رجل بوجهٍ وسيم وضحكةٍ ساحرة أن يأخذني من صديقتي لدرجة أنني لم أعي ما قد يعنيه الزواج بهذا الرجل - زواج أيّ منّا به - بالنسبة لصداقتنا؟ سوف نفترق أنا ومي-جا. لربّما أراها إن كنتُ مغادرةً عبر الميناء للعمل في البحر بعيداً عن الديار، لكن بخلاف ذلك، فإنّ أيّ زوجةٍ مسؤولة ما كانت لتهدر نقوداً على نحوٍ تافه من أجل رحلة بالقارب حول الجزيرة وصولاً إلى ميناء جيغو أو لركوب شاحنة محمّلة بالبضائع إلى سوق الأيّام الخمسة؛ كلُّ ذلك فقط من أجل رؤية صديقة ما. كنتُ قبل قليلٍ مغمومة، لكنني الآن محظّمةً بالكامل.

- «أنا لا أريد هذا الزواج»، اعترفتُ لي. «عمّي وعمّتي قد يبيعان شعر رأسي كي يحققا ربحاً منّي، لكن ماذا عن جدّتك؟ لقد توسّلتُ إليها ألا تفعل هذا».

بدأتُ مشاعري تتخبّط من جديد. «كان عليك أن تعرفي ماذا أكنّ له من مشاعر»، قلتُ لها بنبرة تأنيب واضحة.

- «لقد خمّنتُ»، أقرّت مي-جا. «لكن معرفتي بمشاعرك لا تعني أنّه كان لي رأيٌ في ما حدث. لقد أخبرتُ جدّتك بكلّ شيء. توسّلتُ إليها...». تلعثمتُ واختنق صوتها. ثمّ تابعتُ أخيراً: «أنتِ محظوظةٌ لأنك لستِ مضطّرةً للزواج منه. يمكن لأيّ أحد أن يرى أنّه ليس رجلاً طيباً. يمكنك معرفة ذلك من قوّة ذراعيه وتقوّس فكّه».

صُدمتُ بملاحظاتِها. وإذا شعرتُ بحرارةٍ شديدة تتسلّل صعوداً عبر عمودي الفقريّ، انفجرت عينا مي-جا بالدموع.

- «ماذا سأفعل؟ أنا لا أريد الزواج منه، ولا أريد الابتعاد عنك».

ثمّ كانت كلتانا تبكي، وتقطع وعوداً لا يمكن لأيّ منّا الوفاء بها.

لاحقاً، بكيث في المنزل في حضن جدّتي. يمكنني معها أن أتحدّث بحريّة أكبر عن مشاعري المشوّشة. أخبرتها أنّني أردت الزواج من سانغ-مون. كنتُ خائبة الأمل، لكنني كنتُ أيضاً حانقة على مي-جا. ربّما هي لم تسرقه، لكنّها فازت به مع ذلك، وأنا كنتُ مطعونة وحسب. سوف تكون زوجةً مدنيّة - تستمتع بالطرق المعبّدة والكهرباء والسباكة الداخلية. «لربّما حتّى يقوم سانغ-مون بتعيين مدرّسٍ خصوصيّ لها!»، انتحبتُ، وأنا أتميّز غيظاً وغيرة، وأتألّم بشدّة.

لكن جدّتي لم تكن مهتمةً بتهدّئي. كلّ ما فعلتهُ بدلاً من ذلك هو الإعراب عن اشمئزازها من لي هان-بونغ، والد سانغ-مون. «ذلك الرجل! يأتي إلى هنا بكلماته المداهنة، يتحدّث عن حفل زواج ليوم واحد، ويتصرّف كما لو أنّه يحاول إعفاء عمّ وعمّة مي-جا من أعباء السفر. كان عمليّاً يقول إنّهما فقيران لدرجة لا تمكّنهما من إقامة حفل زواج لائق، ولم يُرد لأصدقائه أن يروا زفافاً كهذا. تظاهر أنّه يرغب في زوجةٍ جميلةٍ لولده - فتاة يتذكّرها هو وأصدقاؤه من زمان مضى وظروفٍ أفضل - لكنّه كان في الحقيقة يحاول حفظ ماء وجهه بين أصدقائه. هو لم يبالِ البتّة بما قد يفعله ذلك لعمّة مي-جا وعمّها».

- «لكنّك لم تحبّيهما يوماً —».

- «أحبّهما؟ ما علاقة هذا بأيّ شيء؟ حين يقوم بإهانتهما هو يهين كلّ شخصٍ في هادو! إنّهُ عميل، ويحمل في رأسه الكثير من الأفكار اليابانيّة».

كان هذا تقريباً أسوأ ما يمكن أن تقوله عن أيِّ شخص، إذ كانت تكره اليابانيين وأولئك الذين ساعدوهم كرهاً شديداً. فركتُ عيني براحتي يدي. كنتُ أفكر كثيراً في نفسي.

- «قالت مي-جا إنَّ يديه ناعمتان». كانت جدتي إلى جانبي لا تزال منفعة.

- «يدا لي هان-بونغ؟».

- «بالطبع لا. يدا الابن».

طرحْتُ عندها الأسئلة البديهية. «كيف عرفتِ؟ مَنْ أخبركِ؟».

- «مي-جا قالت إنَّه تحرَّش بها حين كانا يمشيان خارجين من المرفأ».

- «تحرَّش بها؟ كانت لتخبرني —».

- «تلك الفتاة المسكينة! كانت محكومة بالمآسي منذ اللحظة التي شهقت بها أوَّل أنفاسها»، قالت جدتي. «الأحرى بك أن تشفقي عليها طالما تتمتعين بمثل هذا الحظِّ الطيب. لا تنسِ أنني كنتُ أعمل على ترتيبٍ لكِ أيضاً».

كنتُ الفتاة الضعيفة المهزومة - غارقة في دوامة من المشاعر التي كنتُ أصغر من أستطيع فهمها - وقد كافحتُ بشدَّة لتحويل مسار قلبي وعقلي. كنتُ أرغب بسانغ-مون. أخبرتني مي-جا أنَّها لا تريد الزواج منه، وربَّما كان السبب الذي قدَّمته جدتي صحيحاً. لكنَّه لو كان صحيحاً، لكانت مي-جا قد أخبرتني. كنتُ واثقةً من ذلك. ربَّما كلَّ ما قالته جدتي كان كي تجعلني أشعر بتحسُّن لأنني لم أكن جميلةً و فاتحة البشرة ورائعة - مع ربطة بيضاء في شعري - مثل مي-جا. كلُّ التباسٍ أو شبهةٍ في صحَّة القصَّة جعلاني أشكُّ في صديقتي التي لطالما كانت أقرب الناس إليَّ.

- «لا يمكنني إخباركِ مَنْ يكون، لكنني أعرف أنَّكِ ستكونين

سعيدة»، أعلنت جدّتي. «ما كنتُ لأرتّب لكِ زواجاً من شخصٍ لن يعجبكِ. مي-جا قصّةٌ أخرى. لطالما كانت خياراتها محدودة، وهي تستحقُّ ما تحصل عليه». ثمَّ عبرتُ وجهها نظرةً مريكة. «سوف يصل زوجك غداً بالعبارة».

- «هل هو رجلٌ من البرّ الرئيسي؟»، سألتُ وأنا أعرف أن هذا ما كانت مي-جا تتمناه لنفسها.

مسّدتُ جدّتي الشعر المنسدل على وجهي. حدّقت في عيني. هل رأت فيهما التفاهة؟ أو ربّما رأت أعمق وصولاً إلى ألّمي وإحساسي بالخيانة. رمشتُ وأشحتُ بوجهي. تنهّدت الجدّة. «إذا كنتِ على رصيف المرفأ في الغد...». زلقت بعض العملات المعدنية في يدي. «هذا يكفي لدفع المال لأحد الصيادين كي يأخذك بالقرب إلى المدينة. سوف أقدم لكِ هذه الهدية - هديّةٌ عصرية تمكّنك من إلقاء نظرة خاطفة على الرجل الذي سيصبح زوجك قبل اجتماع الخطوبة. لكنّي أحذّرك أن تبقي متوارية عن الأنظار. لا ينبغي به أن يراك! هناك ما هو عصريّ، وهناك التقاليد الراسخة». اجتاحتني دوامةٌ من العواطف. شعرتُ مجدّداً أن جدّتي تقوم بتقييمي.

- «حين تصبحين زوجة، سوف تتعلّمين كيف تقتطعين القليل من مخصّصات زوجك - "لم يكن حصادي وفيراً هذا الأسبوع" أو "توجّب عليّ أن أدفع المزيد من المستحقّات للجماعة لشراء حطب التدفئة" - كي يكون لديك مالٌ لتنفقيه على نفسك. أنتِ ومي-جا ستفترقان، لكنّ يوم عطلة والقليل من النقود سوف يلّمّان شملكما دائماً».

مكتبة

t.me/soramnqraa

فوق حصيرة النوم

أغسطس - سبتمبر 1944

في صباح اليوم التالي، ركبْتُ مع مي-جا في قاربٍ شراعي إلى مرفأً جيّجوا. جلسنا على السور البحري وانتظرنا. لطالما كنّا مقربَتَيْن جدّاً، لكن الآن كان ثمة توتر واضحٌ بيننا. لم أسأل ما الذي فعله أو لم يفعله سانغ-مون، وهي لم تتطوّع لتحكي القصة. كنّا الآن نبحث عن زوجي. لكنّ جدّتي لم تخبرني في أيّ عبارةٍ سوف يصل، ولم تعطيني أية تلميحات حول شكله. قد يكون طويلاً أو قصيراً، بشعرٍ كثيفٍ أو خفيف، بأنفٍ بارزٍ أو مفلطح. وإذا كان من البرّ الرئيسي فقد يكون مزارعاً أو صيّاداً أو رجل أعمال. لكن حقّاً، كيف توقّعت جدّتي منّي أن أميّزه وسط الحشد الغفير؟

دقّقت مي-جا النظر في تجمّعات الجنود اليابانيين بحثاً عن زوجها المستقبليّ. حاولتُ تسوية هذه النقطة في ذهني؛ هل كانت تريد رؤيته أم كانت تخشى رؤيته؟ إذا رأته فهل ستحدّثُ إليه؟ هل ستسمح له أن يمسك يدها؟ أو أنّه سيتصرّف كمتحرّش بحسب رواية جدّتي؟ إذا ضُبط سانغ-مون ومي-جا يتحدثان الآن بعد تحديد موعد زفافهما فإنّ سمعتها هي التي سوف تتشوّه وليس سمعته.

وصلت العبارة القادمة من بوسان. مسحّت ومي-جا سطح

المركب أثناء قيام الطاقم بتأمينه على الرصيف. هل زوجي المستقبلي هو ذاك ذو الحاجبين الكثيفين؟ لقد كان وسيماً! راقبنا شاباً آخر وهو ينزل سلّم السفينة. كانت قدماه شديدتا التقوّس نحو الخارج، أشحّت بوجهي خشية أن أبدأ بالضحك. كان حريّاً بي أن آمل ألا تكون جدّتي قد اختارت لي قريناً يثير من الاستهزاء أكثر حتّى ممّا يثيره الزوج الكسول النموذجي (علاوةً على ذلك، لقد أخبرتني أنّي سأكون سعيدة). على أيّة حال، كان على العبّارة عددٌ قليل من الركّاب، ولم يبدُ أيُّ منهم كزوج محتمل. قد لا يكون من البرّ الرئيسي بعد كلّ شيء. ستكون هذه خيبة أمل. لكنّ جدّتي كانت قد أخبرتني أيضاً أنّ قريني كان أفضل من ذاك الذي ربّته لمي-جا. عاهدت نفسي أن ألزم جانب التفاؤل.

أكلتُ مع مي-جا وجبة غداءٍ بسيطة من البطاطا الحلوة المطبوخة كنّت قد أحضرتها معي. تجاهلنا نظرات وتعليقات الجنود وعمّال المرفأ. بعد ساعتين، وصلت العبّارة من أوساكا (اليابان). نزل الركاب الذكور المهمّمون أولاً. رأينا جنوداً يابانيين بالطبع، وعدداً قليلاً من رجال الأعمال اليابانيين ببذلاتٍ راقية مع قبّعات وعصيّ. لحقّت بهؤلاء الرجال نساءٌ يرتدين الكيمونو، ويمشين بخطواتٍ صغيرة جدّاً متوازناات فوق صنادلهنّ ذات النعال الخشبية. لن تتمكن تلك النساء أبداً من الهرولة فوق الصخور المدبّبة وصولاً إلى البحر أو من سحب صيدٍ من الماء. لقد وُضعن على هذه الأرض على ما يبدو كي يكنّ جميلاتٍ وحسب، كحال النساء اليابانيّات الأخريات اللواتي كنّ يلبسن على الطراز الغربي، أطراف أثوابهنّ تُلامس ربّلات سيقانهنّ، وعلى رؤوسهنّ تلك القبّعات الصغيرة. ثمّ بدأ رجال جيّجو في النزول من العبّارة، أولئك الذين كانوا يعملون في أوساكا، حملوا الحقائب وصناديق مملوءةً بأشياء اشتروها

لعائلاتهم وربّما عرائسهم - كما فعلتُ ومي-جا لدى عودتنا من فلاديفوستوك. كانوا في معظمهم يبدون هزلي ومتّسخين.

رصدتُ وجهاً مألوفاً. كان ذلك جون-بو شقيق يو-ري. تردّد قليلاً عند الجزء العلوي من سلّم العبّارة. جال ببصره فوق الرصيف. ارتدى بذلة على الطراز الغربي. عيناه سوداوان كالفحم، شعره قصير بلون قشرة الكستناء. استندت فوق أنفه نظّارة معدنية كنتيجة لكلّ الوقت الذي أمضاه في القراءة والدراسة مذ كنّا أطفالاً. رفعتُ ذراعي كي ألوّح له، لكنّ مي-جا أمسكتها سريعاً وسحبّتها للأسفل بجانبها. - «لا يمكنكُ أن تلتقي زوجكِ المستقبلِي بهذا الشكل!».

ضحكتُ. «إنه ليس بزوجي المستقبلِي! ما كانت أمّه لتسمح بذلك أبداً!».

سحبّتني إلى الظلّ على أيّة حال. «أنت تعرفين ما قالته جدّتك. لا ينبغي أن يرى أحدكما الآخر قبل اجتماع الخطوبة تحت أيّ ظرفٍ كان».

جلسنا نراقب حتّى نزل الجميع. لم أرّ أحداً آخر يمكن أن زوجاً محتملاً.

- «كم أنتِ محظوظة بالزواج من شخصٍ عرفته طوال حياتك». في الظاهر بدتُ مي-جا سعيدةً لأجلي، لكنّني سمعتُ في العمق وقع الرهبة القاتمة من ظروفها المنتظرة، والتي لا أزال عاجزةً عن إدراكها.

- «لكنّنا نعرف بعضنا بالفعل، ما الفرق الذي ستشكّله رؤيته لي؟»، قلتُ لها.

لكنّها أبقتني مع ذلك بعيدةً عن الأنظار بينما كان جون-بو يشقُّ طريقه نحو قوارب الصيد ليركب في أحدها إلى هادو. «إنّه مثقّف وذكيّ جدّاً. أنتِ محظوظة، محظوظة، محظوظة!».

كنتُ أفكر أنه لا تزال لديه سنةٌ أخرى في الكلية، ما عني على الأقل أنني لن أتمكن من العيش معه لوقتٍ طويل قبل أن يتعيّن عليه العودة إلى اليابان، لكن كانت لديّ مخاوف أخرى أيضاً.

بعد بضع ساعات، كنّا في هادو، مشيتُ ومي-جا إلى البقعة المعتادة في زقاق الأولي حيث ودّعنا بعضنا هناك. راقبتها وهي تختفي عن الأنظار عند الزاوية ثمّ ركضتُ إلى المنزل. أخبرني ضوء الفانوس في المنزل الصغير أنّ جدّتي كانت لا تزال مستيقظة. أوعزت لي بالدخول إذ مددتُ رأسي من الباب. سألتها إن كانت قد جعلتني قرينةً لجون-بو؛ وأجابت بنعم.

- «ولكن كيف يمكن لوالدته أن تريدني أو تقبل بي؟»، سألتُ جدّتي. «أنا بمثابة التذكير الدائم بما خسرتُه دو-سانغ. ابنتها يو-ري».

- «هذا صحيح. حمائك سوف تنظر إليك وترى مأساةً ماثلة أمامها، لكن يمكنكِ الآن المساعدة في رعاية يو-ري».

- «أفترض أنّك محقّة». لم يكن هذا ما تميّته.

تجاهلت جدّتي ياسي. «في الجانب الجيّد من الأمر، فقد كانت والدتك أعزّ صديقة لدو-سانغ. ووجودك سوف يقرب روح والدتك من دو-سانغ».

- «لكن أليست تلومني على —».

مجدّداً، لم تدعني جدّتي أكمل. «هل من شكاوى أخرى لديك؟».

- «إنّ جون-بو متعلّم».

هزّت جدّتي رأسها بحزن. «ناقشتُ هذا الأمر أيضاً مع دو-سانغ. يمكنكِ الآن المساعدة في دفع تكاليف تعليمه».

- «في حين لم أستطع أن أدفع لتعليم أشقائي؟» .
 - «سوف يصبح جون-بو معلماً —» .
 - «معلم!»، تنهَّدتُ بحزن. «سأظلُّ دائماً أبداً كحمقاء بالنسبة إليه» .

صفعتني جدتي. «أنتِ هينيو! إياك أن تصدّقي للحظة أنكِ عديمة الشأن» .

تخلّيتُ عن محاولة إقناعها، ولم أذكر لها حتّى أنّ الزواج من شخصٍ عرفته طيلة حياتي بدا أشبه بالزواج من شقيق أكثر من كونه فوزاً بزوجٍ للاستلقاء بقربه وتشارك الحب معه .

حضرتُ دو-سانغ مع ابنها في اليوم التالي إلى منزلنا لأجل اجتماع الخطوبة. ارتديتُ ملابس نظيفة وجلستُ على الأرض أحدّق إلى الأمام منّي كما فعلتُ مي-جا. لكنّ الفضول انتابني مع ذلك، فاختلستُ النظر إلى جون-بو بضع مرّات. كان قد بدّل بذلته غريبة الطراز إلى سروال وسترة محليّ الصنع. عكستُ عدستا نظّارته الضوء لذا لم أتمكن من رؤية عينيه. أمكنني مع ذلك القول بالنظر إلى ثباته وهدوئه أنّه كان يقوم مثلي بعملٍ جيّد لجهة إخفاء مشاعره .

- «يونغ-سوك عاملةٌ مجتهدة»، بدأتُ جدتي. «لقد قامت بشراء أو صنع كلّ الأغراض اللازمة لتأسيس منزل» .

- «إنَّ وركاها مثل وركيّ سون-سيل»، علّقتُ دو-سانغ. كان معنى ذلك واضحاً. استطاعت دو-سانغ أن تحضر طفلين حيّين فقط إلى هذا العالم، في حين أنني قد أكون قادرةً على إنجاب عددٍ من الأطفال يماثل ما أنجبته أمي. «سيمنح المنزل الصغير الذي سيقم

فيه الزوجان الخصوصية اللازمة لهما من أجل إعداد وجباتهما والتعرّف إلى أحدهما الآخر».

- «دعينا إذاً ننقل الأمر سريعاً إلى عرّاف الأرض كي يحدّد لنا تاريخاً مناسباً».

تمّ تبادل الهدايا. أعطيتُ جون-بو الراديو الذي اشتريته وصندل القشّ الذي صنّعه. بينما وضع على الأرض قماشاً بطول عدّة أذرع. لم يكن القماش ملوّناً، أي أنني سأرتدي في زفافي لباساً تقليدياً مصبوغاً بعصير الكاكي. سأعترف أنّ هذه كانت خيبة أملٍ أخرى.

كنّا بذلك قد أصبحنا مخطوبين رسمياً. أرادت عائلة مي-جا الجديدة أن تنتقل سريعاً إلى حياتها الجديدة؛ أرادت دو-سانغ أيضاً أن تتمّ الأمور بسرعة لأنّ جون-بو سوف يعود إلى الكلية في أوساكا منتصف شهر سبتمبر. بالنتيجة، ركبنا أنا ومي-جا تيارين سريعين لكنّهما في اتجاهين متعاكسين.

كبداية، ساعدتني مي-جا وأختي الصغيرة بعد يومين من اجتماع الخطوبة في نقل حصائر النوم والبطانيات والأوعية وأعواد الأكل وأواني الطهي التي جمعتها من خلال عملي الشاق إلى مجمّع دو-سانغ السكنيّ المصغّر على الشاطئ. كان الفناء بين البيت الكبير والصغير أنيقاً ومرتباً. كُدّست معدّات غطس دو-سانغ في إحدى الزوايا، وعُلّق عددٌ من حيوانات الحَبّار على أسلاك معدنية كي تجفّ في الشمس. كانت يو-ري تقف في الظلّ، وحول كاحلها لفّ حبلٌ لمنعها من الابتعاد عن المنزل. تلك كانت أوّل مرّة أراها منذ عودتي من فلاديفوستوك. ابتسمتُ لي، ربّما تكون قد تعرّفتُ عليّ، وربّما لا. لم يكن جون-بو هناك. كان المنزل الصغير عبارةً عن غرفةٍ واحدة ومساحةٍ صغيرة خُصّصت للطبخ. مع انتهائنا من وضع الأشياء في أماكننا، بدأت نساء وفتيات القرية بالتوافد كي يتمكنّ بأنفسهنّ من

رؤية ما اشتريته خلال أسفاري. في تلك الليلة بقيت وحدي في منزلي الجديد. وفي الصباح التالي، عدت إلى أبي وأخوتي.

في الصباح التالي، وبعد عشرة أيام من عودتي إلى جيجو، ساعدت مي-جا في حزم أمتعتها. لم تبذل أدنى محاولة كي تبدو سعيدة. كنت تعيسة بنفس القدر. أياً تكن الغيرة التي شعرت بها ذات مرة، كان موج البحر قد جرفها معه الآن. كل ما كنت أفكر فيه هو أنني لن أرى مي-جا كل يوم بعد الآن.

- «أتمنى لو أن هناك طريقة بحيث أظل قادرة على أن أشارك معك ما بقلبي»، اعترفت لها.

- «كوننا سنن فصل هو شيء يفوق أي قدرة احتمال»، قالت بحسرة في حلقها.

كافحت لمساعدتها على رؤية الجوانب السعيدة في حياتها الجديدة. «سوف تعودين إلى نمط الحياة الذي اعتدت عليه حين كنت طفلة. سيكون لديك كهرباء. لربما تمتلك عائلة سانغ-مون هاتفاً حتى».

لكن حتى لدى قولي لهذه الأشياء، لم أستطع منع نفسي من التفكير في مدى صعوبة كل هذا التغيير بالنسبة لها. فمن جهة، كانت قد عاشت في هادو لوقتٍ طويل جداً. ومن جهةٍ أخرى، لم تكن مدينة جيجو شيئاً بالمقارنة مع فلاديفوستوك أو أي من المدن الكبيرة الأخرى التي ذهبنا إليها للعمل في البحر بعيداً عن الديار.

- «كيف سأعرف ماذا تفعلين وكيف تُبلين؟». تلاشى صوتها، ولمعت عيناها بالدموع. «لا نستطيع تبادل الرسائل. لا أتذكر شيئاً من الكتابة أكثر من كتابة اسمي، ولا تعرف أيّ منّا القراءة —».

- «سوف نرسل لبعضنا رسومات الفحم». شددت على يدها مطمئنة. «لطالما كانت رسوماتنا تحكي قصصنا».

- «لكن كيف؟ أنا لا أستطيع كتابة عنوانك».

- «ستكون لدى كلِّ منّا زوجها ليقوم بذلك نيابةً عنها». لكنَّ اقتراحي هذا لم يكن أكثر من تذكيرٍ آخر بأنني كنتُ أمية وأقلُّ شأنًا من زوجي العتيد.

- «هَلَّا قطعْتَ وعداً بزيارتي؟»، سألتني.

- «ربّما إذا مررتُ بجيجو في طريقي للعمل في البحر بعيداً عن الديار...».

- «لن يكون عليكِ فعل ذلك الآن. ستكونين متزوجة».

- «الأختان كانغ متزوّجتان ولديهما أطفال، وما زالتا تذهبان للعمل في الخارج».

- «لكن ليس أنتِ». بدتُ مقتنعة. «تريدك دو-سانغ أن تساعدني في رعاية يو-ري، لذا عِدني أنكَ سوف تقومين بزيارتي».

- «حسنٌ، أعدكِ». لكن ما كان ليُسمح لي بإنفاق المال على رحلةٍ بالقرب إلى المرفأ الرئيسي - ليس مع مراقبة دو-سانغ لي وجمعها المال الذي أكسبه لدفع تكاليف تعليم جون-بو.

- «لا يمكنني تخيّل عدم رؤيتكِ كلَّ يوم»، قالت لي.

- «وأنا كذلك»، قلتُ لها.

تلك كانت الحقيقة المُرّة. كنّا عروسين يغمرنا الأسى، ولا حيلة لنا في تغيير مصائرنا. كنْتُ أحبّها. ولسوف أحبّها دائماً. كان ذلك أكثر أهميةً بكثير من الرجلين اللذين سنتزوّجهما. وبطريقة أو بأخرى سنكون بحاجةٍ للعثور على طريقةٍ نبقى من خلالها على اتّصال.

ارتدتُ مي-جا ثوب الكيمونو الذي أرسلته عائلة سانغ-مون. حالما ارتدتُ الثوب، التقطت صندل القش الذي كانت قد صنعته للرجل الذي سيصبح زوجها.

- «ماذا سيستفيد سانغ-مون من هذا؟»، سألت مي-جا.

كان من الصعب تخيل ذلك.

وصل العريس ووالداه. قدّما لعمّ وعمّة مي-جا صندوقاً من نبيذ الأرز. لم يعط الحمو المستقبلي لصديقتي خنزيراً صغيراً كي تربّيه وتعتني به. قيل لها إنّها لن تحتاج شيئاً كهذا في مدينة جيغو. أعطت عمّة مي-جا وعمّها للعروسين ثلاثة لحف. ثمّ سلّم سانغ-مون لعمّة مي-جا وعمّها صندوقاً ملفوفاً بالحرير كنايةً عن الحظّ السعيد ومربوطاً بخيط كرمزٍ للعمر المديد. بداخل الصندوق كان هناك خطاب إعلان الزواج وبعض الهدايا الصغيرة. وقّع كلٌّ من سانغ-مون ومي-جي باسميهما على خطاب الإقرار. لم تكن الشامانة كيم حاضرة. لم تُقم أيّ مأدبة، لكن التُقطت صورتان رسميتان: واحدة للعريس والعروس، والأخرى للحفل بأكمله. في غضون ساعة واحدة، كانت مراسم الزفاف قد انتهت.

انضمّت كوكبة من القرويين إلى الموكب المتّجه للطريق، حيث كانت متعلّقات مي-جا قد حُمّلت في سيّارة حميها. لم تتسنّ لنا الفرصة لقول بعض الكلمات الأخيرة. ركبّت مي-جا في المقعد الخلفي. لوَحّت لنا جميعاً، ولوَحنا لها بالمقابل. قالت جدّتي إذ بدأت السيّارة تتحرّك: «تلك الفتاة غادرت هادو كما أُنْتها - ابنة عميل». كان وقّع ذلك انتصارياً على نحوٍ غريب، كما لو أنّها فازت أخيراً. توجّهت إلى المنزل برأسٍ مرفوع، لكنني بقيتُ على الطريق أراقب حتّى بات كل ما استطعت رؤيته سحباً من الغبار.

شعرتُ بصدري خاوياً، أجوف. لم أستطع تخيل ما الذي ينتظر مي-جا، لكنني من ثمّ لم أستطع تخيل كيف ستكون حياتي أيضاً. ستنام مع زوجها الليلة. وقريباً سأنام مع جون-بو. لن نكون أنا ومي-جا قادرتين على تشارك فكرةٍ أو شعورٍ واحد حيال أيّ من هذه

الأمور. كانت وفاة والدتي قد دمّرتني، لكن الآن وبدون مي-جا، شعرت أنني وحيدة تماماً في هذا العالم.

كان حفل زفافي تقليدياً أكثر لكنّه مختصر رغم ذلك. بعد أحد عشر يوماً من عودتنا أنا ومي-جا إلى الديار، وبعد يوم واحد من مغادرتها هادو، ذبح والدي أحد خنازيرنا. حُمّر اللحم فوق النار بعد وضعه في أسياخ، وتقاسمنا الوجبة مع العائلة والأصدقاء. لم يحضر جون-بو وعائلته. كانا يكتبان خطاب إعلان الزواج ويحتفلان مع عائلتهما والأصدقاء. حيث أننا كنّا من نفس المنطقة من هادو، فقد تنقّل الناس جيئةً وذهاباً بين المنزلين. شرب والدي كثيراً، وكذلك فعل العديد من الرجال.

قدّمتُ في الصباح التالي النذور لأمي ولأسلافي الآخرين، وكنتُ أعرف أنّ جون-بو ووالدته وشقيقته يؤدّون نفس الطقوس. ساعدتني جدّتي على ارتداء الثياب (السروال والسترة والمعطف) التي حكّتها من القماش الذي أعطاه لي جون-بو. مشّطت أختي الصغيرة شعري وثبّتته على شكل كعكة أعلى رقبتني. قرصتُ وجنتيّ كي أمنحهما بعض اللون، ثمّ انتظرنا في المساحة المفتوحة بين منزلينا (الكبير والصغير) وصول جون-بو وعائلته.

سمعتُ من بعيد موكب العريس وهو يقترب، ثمّ يتوقّف عند شجرة القرية حيث ضُرب الصنج وقرّعت الطبول على يد الشامانة كيم ومساعداتها. ثمّ هدأت الجلبة، وجلجل صوت الهينيو المرتفع من حنجرة دو-سانغ: «ولدي ذكيّ، ومجتهد، ويتمتع بصحّة جيّدة. هو يؤدّي الشعائر ويثق بعطايا البحر». كنتُ قد رأيتُ هذه المراسم مرّاتٍ كثيرة، لذا كنتُ أعرف ما سيحدث تالياً. ستأخذ الشامانة كيم كعكة

أرز خاصة وترميها على الشجرة. حبستُ أنفاسي منتظرة سماع ردّ فعل الحشد، فإذا التصقت الكعكة بالشجرة فسوف يكون زواجي مباركاً. وإذا سقطت، فسيظلُّ عليّ الزواج من جون-بو، لكننا لن نكون سعيدين أبداً. علا الهتاف، وهدرت الطبول والصنج مجدداً. سوف يكون زواجي سعيداً.

أصبح القرع والضرب أعلى وأعلى إلى أن دخل جون-بو أخيراً عبر البوابة وصندوق الزفاف في يديه الممدودتين أمامه. ارتدى سترة تصل حتى منتصف ربله ساقه فوق عدّة طبقات من الأثواب الخاصّة بهذه الشعائر والتي كانت مشدودةً جميعاً إلى بعضها بقطعة قماش لُفّت عدّة مرّات حول خصره. رُبطت عصابةً من فرو الكلب على جبهته وتدلّت فوق كتفيه. رغم طبقات الثياب التي ارتداها، فقد كان بوسع أيّ شخص أن يعرف أنّه نحيفٌ جدّاً، لكن وجهه كان مدوّراً وناعماً. توضعَتْ عيناه السوداوان تحت حاجبين كاملين يتقوّسان كما لو كان في حالة تساؤلٍ دائمة. كانت أصابعه طويلة ونحيفة مثل أرجل العنكبوت، ويدها شاحبتان على نحوٍ مذهل - أي أنّه لم يعمل يوماً في الشمس، ليس حتّى في أرض عائلته.

نظراً لأنّ والد جون-بو بقي في اليابان، فقد اضطلعت دو-سانغ بواجباته عبر تقديم خنزيرٍ لي بعمر الشهرين. إذا نجا فسوف تتضاعف قيمته ثلاث مرّاتٍ خلال عام. حملتُ الخنزير لبضع دقائق قبل أن أناولَه لأحدٍ ما كي يعيده إلى بيت عائلة جون-بو ويضعه ضمن الحظيرة الحجرية التي تضمّ المرحاض والخنازير الأخرى. تمّ تبادل المزيد من هدايا الزفاف: لحفٌ مشتراة من البرّ الرئيسي، نبيذ أرزٍ محليّ الصنع، إضافةً إلى أموالٍ في مظاريف لمساعدة الطرفين على دفع تكاليف الزواج.

سَلّمني جون-بو القلم بعد أن وقّع على خطاب الزواج. «هاك»

كانت تلك أول كلمة يقولها لي . احمررتُ خجلاً وأشحتُ بوجهي .
تذكّرَ جون-بو مَنْ وماذا كنتُ، فسكَبَ القليل من الحبر في راحة
يده . غمستُ إبهامي ولمستُ جلده . كان هذا أول تلامس جسديّ
بيننا مذ كنّا أطفالاً نلعب في المياه الضحلة . بدون أحرفٍ أو
كلمات ، تركتُ بصمتي على الورق . حين وقفنا بمواجهة أحدهنا
الآخر ، رأيتُ أنّه لم يكن أطول منّي بكثير . لم يخشَ أن ينظر في
عينيّ دون أن يرمش حتّى . ابتسم لي أصغر ابتسامة ممكنة لدرجة أنّي
كنتُ متأكّدة أنّي الوحيدة التي رأيتها ، لكن تلك اللفتة اللطيفة منحتني
شعوراً بالاطمئنان .

عاد موكب الزفاف الآن إلى مجمّع عائلة جون-بو . جلس الناس
على الحصائر في الفناء بين البيت الكبير والبيت الصغير من أجل
الوليمة . كانت دو-سانغ قد أعدّت مع صديقاتها العديد من الأطباق
الصغيرة ، بما في ذلك مخلّل اللفت ، والسّمك المملّح ، والكيمتشي .
كما قدّموا يخنة الطيور المطهّوة مع حبوب جيجو الخمس . ذبحت
دو-سانغ أيضاً أحد خنازيرها من أجل المأدبة ، فقدّمت نقانق لحم
الخنزير مع صلصة الصويا ومعجون الفاصولياء المتبلّ بجانبها ، وبطن
الخنزير المشوي الذي تناوله الضيوف ملفوفاً بأوراق الخسّ . جلستُ
دو-سانغ مع جون-بو لتناول الطعام ، بينما أُدخِلْتُ إلى غرفة صغيرة
تطل على مخزن الحبوب في البيت الكبير . دخلت يو-ري متبوعةً
بمجموعة من الغوّاصات-الطفلات من جماعة دو-سانغ وعُصبةٍ من
الفتيات الصغيرات . أحضرت لي الغوّاصات-الطفلات الطعام ، لكنّ
العادة كانت تقضي أن أعطي معظمه للأطفال في لفتةٍ قيل أنّها تزيد
من خصوبة العروس . أكلت يو-ري - التي كانت في ظروفٍ طبيعية
تُعتبر أكبر من أن تشارك في هذا التقليد - كعكة الأرزّ بتلذّد .

في وقتٍ لاحق ، رافقوني للخارج كي ألتقط صورة الزفاف مع

جون-بو. ثمَّ حان أخيراً وقتُ «الانحناءات الكبيرة» والتي قمتُ بها إظهاراً لاحترامي وطاعتي العمياء لحماتي، وليو-ري، وعموم الأعمام والعَمَّات وأبناء العمومة في عائلة جون-بو، ومن ثمَّ لكلِّ الأكبر سنّاً في عائلتي.

كنتُ الآن رسمياً زوجة.

رجعتُ إلى الغرفة الخاصّة بي. حاولتُ أن أنغمس في أسمى مضامين الحظّ السعيد والسعادة والخصوبة. في الخارج استمرَّ الناس في الشرب والأكل وتبادل التحيّات ببهجة. فتحتُ الخزانة، أخرجتُ اثنتين من حصائر النوم ووضعتُهما جنباً إلى جنب، ثمَّ غطيتهما باللحف التي اشتريتها لزواجي. بعد بضع ساعات، دخل جون-بو.

- «لقد عرفتُكِ طوال حياتي»، قال لي. «إذا كان عليّ الزواج من فتاةٍ قرويّة، فأنا سعيد أنّها كانت أنتِ». لا بدّ أنّ وقع هذا لم يبدُ كمجاملةٍ عظيمةٍ حتّى على مسامعه. «لطالما حظينا بالمتعة في الماء معاً. أتمنّى أن تكون ليالي زواجنا سعيدةً بنفس القدر».

لم أشعر بالخجل يوماً لدى خلع ملابسِي في البولتيوك أو على متن القارب حين كنتُ أعمل خارج الديار، وحاولتُ ألاّ أبدو محرّجةً الآن. وعلى عكس الرجال في البرّ الرئيسي أو منطقة الجبل الأوسط، كان جون-بو قد رأى نساءً شبه عاريات - بما في ذلك والدته وأخته - في ملابس الغوص. علاوةً على ذلك، وحيث إنّهُ كان يساعد في رعاية أخته بعد الحادثة، فقد تعيّن عليه أن يعرف كلّ شيءٍ عن جسد المرأة. بالنتيجة، كنتُ أنا المعنية بجعله يتغلّب على حيائه هو كي يقوم بخلع ملابسه. اقشعرَّ جسده من لمستي. تبين أنّ كلينا يعرف ما يجب فعله بعد كل شيء. الرجل خلال النهار لا يعدو كونه إنساناً ضعيفاً وغارقاً في تأملاته، لكنّه دائماً ما يكون المسؤول فوق حصيرة النوم. وقد تخاطر المرأة بحياتها لإعالة أسرتها، لكنّها

على حصيرة النوم يجب أن تفعل كلَّ ما في وسعها لمساعدة زوجها على أن يصبح أباً لابن.

حين انتهينا كان ثمة دماء مخاطية تسيل على فخذي، فقال لي زوجي بلطف: «أعدكِ أننا سنصبح أفضل في هذا الأمر». لأكون صادقة، لم أكن متأكدة ممّا كان يقصده.

استيقظتُ صباح اليوم التالي قبل حلول الفجر بوقتٍ طويل، وذهبتُ إلى المرحاض كي أقضي حاجتي. صعدتُ السلالم، دخلتُ المرحاض ذو الجدران الحجرية، أنزلتُ سروالي وجلستُ القرفصاء متيقّظةً للحشرات أو العناكب أو حتّى الأفاعي التي قد تعيش في هذا المكان غير الاعتيادي. أحرقت الرائحة النتنة المتصاعدة من الحفرة عينيّ، وخنخنت خنازير العائلة أسفل منّي. سوف أعتاد على هذا المرحاض الجديد، كما يجدر بكلّ العرائس. حالما انتهيت، نزلتُ السلالم عائدةً للأسفل وتفقدتُ الجدار الحجري الذي تقبع الخنازير خلفه. كان ثمة مساحةٌ صغيرة مطوّقة وبدخلها خنزيري الصغير. كان مستيقظاً ونشطاً ومتشوّقاً لبعض الطعام. سيصبح هدفه اليومي بمرور الوقت هو أن يأكل ما يخرج من مؤخّرات العائلة. ومن ثمّ سوف أجمع ما يخرج من خنزيري وأحمله إلى الحقول لاستخدامه كسماد. بعد عدّة سنوات، سوف يُذبح خنزيري بمناسبة زفاف ما، أو جنازة، أو إحياءٍ لطقس عبادة الأسلاف. كانت حلقة مستمرّة، الخنازير تعتمد علينا ونحن نعتمد عليها. أعطيتُ خنزيري بعض الطعام الذي لم آكله أو تمّ رميه الليلة الماضية، ثمّ مضيتُ كي أنقل المياه وأبحث عن روثٍ للنار. أملتُ أنّه سوف يُسمح لي في الأيام القادمة بتقسيم وقتي بين عائلتي بالولادة وعائلة دو-سانغ في إنهاء حصاد محاصيل البطاطا

الحلوة. ابتداءً من اليوم سوف أثبت نفسي كزوجة صالحة وكنةً صالحة.

لاحقاً، بعد أن ارتدى الجميع ملابسهم وتناولوا وجبة الإفطار، عدتُ مع جون-بو ووالدته وشقيقته إلى منزل عائلتي. كانت أختي قد حضّرتُ وجبةً تشاركناها جميعاً. عادت دو-سانغ ويو-ري بعد ذلك إلى منزلهما، بينما قضيتُ مع جون-بو الليلة مع عائلتي. يُظهر هذا التقليد الأخير - الذي تنفرد به جيغو - للعالم أنّ الهينيو ستظلُّ على الدوام مرتبطةً بعائلتها بالولادة. ذهبتُ للنوم باكراً، لكنّ زوجي، وأبي، وشقيقي ظلّوا مستيقظين حتّى وقتٍ متأخرٍ يلعبون الورق ويتسامرون.



- «سوف تعودين للغوص مع جماعتنا مجدّداً»، قالت لي دو-سانغ صباح سابع أيام حياتي الزوجية. «رغم أنّه لا يزال لدينا بعض العمل في الحقول الجافة، لكنّنا نحتاج الطعام، والمدّ والجزر على ما يرام».

- «يسعدني هذا»، قلتُ لها. «من الرائع أن أعود إلى هادو، حيث يمكنني أن أكون بالقرب من عائلتي —».

- «وتساعدين في سداد ديون والدكِ الناجمة عن الإسراف في الشرب».

تنهّدتُ. نعم، لقد كان الأمر كذلك، لكنني أكملتُ فكريتي الأساسية. «ويمكنني الآن مساعدة شقيقتي بعد أن أصبحتُ غوّاصةً-طفلة».

كشّرتُ دو-سانغ. «أنا واثقةٌ أنّ والدتك كانت لتفضّل أن أكون

المسؤولة عن شقيقتك. في النهاية، لا يحظى الجميع بحظّ طيّب حين يغوصون برفقتك».

نزلت كلماتها مثل صفعّة على وجهي. هل هذا ما سيكون عليه الحال دائماً؟ هل ستظلّ دو-سانغ تذكّرني بنقائص عائلتي وتلومني على ما حدث ليو-ري؟

- «أنتِ بالطبع مسؤولة عن أختي الصغيرة، مثلما أنتِ مسؤولة عن كلّ الهينيو في جماعتك»، قلتُ لها. «هي محظوظة لأنّك من تقومين بتوجيهها. كلّ ما قصدته —».

- «هل سترتدين ملابسك السوداء للغطس هذا الشهر؟».

يقول المثل: كلّما ابتعدنا عن المرحاض ومنزل أمّ الزوج، كان ذلك أفضل. وجدتُ أنّه من الصعوبة بمكان العيش داخل سياج مجمّع دو-سانغ. أخبرتني جدّتي أنّني سأعتاد وضعي الجديد، لكنّني لم أكن متأكّدة من ذلك إذا كنتُ سأتعرّض للإهانة طوال الوقت. بالنسبة للمسألة الراهنة، كان جون-بو يبذل قصارى جهده كي يزرع طفلاً بداخلي، وكنتُ أفعل ما بوسعي للتأكّد من أنّه سيعثر على بيتٍ دافئ في أحشائي. كان جون-بو محقّقاً بشأن أنّنا سنتحصّن في أنشطتنا الليلية. كان في بعض الأحيان يضطر حتّى إلى وضع يده على فمي لمنع أصوات متعتي من الاندفاع مع الريح وصولاً إلى البيت الكبير. مع ذلك، لم يمرّ سوى أسبوع واحد وحسب.

- «ستعرفين حين أعرف»، أجبتُ في النهاية.

وهكذا، عملتُ بجهدٍ أكبر حتّى لمساعدة جون-بو على زرع بذرته قبل أن يعود إلى اليابان. أحببتُ الشعور الذي منحني إيّاه بين ساقيّ، لكنّ الجوانب العمليّة للزواج لم تكن رائعة في رأيي. قام زوجي بتسخين الماء لي كي أدقّ نفسي حين أعود من البحر، لكنّه كان يقرأ الكتب معظم الوقت، أو يكتب في دفاتر الملاحظات، أو

ينضمّ إلى الرجال تحت شجرة القرية للحديث في الفلسفة والسياسة. الجانبان الحقيقيان الوحيدان اللذان تغيّرا في حياته هما أنّه كان يعدّ لي العشاء لأتناوله في منزلنا الصغير، وأنّني كنتُ مستلقية بجانبه في الليل. أمّا بالنسبة لي، فقد عدتُ للغوص مع جماعة دو-سانغ، وعملتُ في الحقول، واهتممتُ بتمشيط شعر دو-سانغ، وتنظيف فوضاها حين تتعرّضُ للحوادث، وغسل ملابسها المتسخة، والتأكّد من أنّها لم تؤذ نفسها إثر اقترابها من النار في المطبخ، والبحث عنها في الأزقة في حال أفلتت من حبلها حين نكون أنا وأمّها في البحر. كانت يو-ري مرحةً في الغالب، لكنّها قد تصبح نكدية أحيانا. لم يكن الأمر أشبه بالتعامل مع طفلٍ غاضب أو غير سعيد، إذ كانت امرأة تامّة النضج - قويّة وعنيدة، هينيو حقيقية وإن كانت لن تغوص ثانية. شعرتُ بالشفقة عليها وبالتعاطف معها، وكنتُ بسرورٍ سأعني بها لبقية حياتها، لكن في بعض الأحيان كان كلّ شيء يبدو ثقیل الوطأة أحيانا. عندها كنت أتوق إلى مي-جا أكثر من أيّ شيء. افتقدتُ الجري في الصباحات لملاقاتها. افتقدتُ الكلام والضحك والغوص معها.

بعد اثني عشر يوماً من زفافي، كنتُ جالسةً مع دو-سانغ في الفناء نصلح الشباك حين خرج جون-بو من المنزل الصغير. مثل كلّ الأمّهات، نظرتُ إليه دو-سانغ بعينين يملأهما الحبّ. قال مخاطباً إيّاها: «إذا لم تكوني في حاجة إلى زوجة ابنك، فأنا أودُّ أن أستعير زوجتي». ماذا يمكن لأُمّ مُحبّة أن تفعل حيال طلب كهذا؟ خلال دقائق، كنتُ وجون-بو نسير جنباً إلى جنب في الأزقة، لكننا لم نتلامس في العلن.

- «إلى أين نحن ذاهبان اليوم؟»، سألتُه.

- «إلى أين تحبّين الذهاب؟».

كنّا في بعض الأحيان نذهب إلى ضفّة الماء. وفي أحيان أخرى تجولنا في الأزقة. وأحياناً تسلّقنا مخروطاً بركانياً، وجلسنا نتأمل المنظر من هناك ونتحدّث، وأكثر من مرّة مارسنا الأنشطة الليلية في وضوح النهار. أحببتُ ذلك كثيراً، وهو كذلك الأمر.

اقترحتُ أن نقصد الجهة الظليلة من أحد المخاريط القريبة. «إنّه يومٌ حار، وستجد أنّه من المنعش الجلوس على العشب هناك».

ابتسم ابتسامةً عريضة، فبدأتُ في الجري. ركضَ في إثري محاولاً الإمساك بي. كان رجلاً، لكنني كنتُ أسرع منه. انسللنا عبر منعرجات الأزقة، واندفعنا خارجين إلى أحد الحقول، وبدأنا نتسلق المخروط شديد الانحدار. بلغنا ذروة المخروط ثمّ انزلنا إلى جانبه الظليل. سرعان ما كنّا نتدحرج فوق العشب والزهور. ما زال شحوب بشرته مقارنةً ببشرتي البنية بفعل الشمس يثير عجبني. مرّ بيديه فوق عضلات ذراعيّ ومؤخّرتي الصلبة. بدت نعومة ذراعيه وجذعه تجسيداً مادياً لرقّته والدلال الذي حظي به في نشأته. في وقتٍ لاحق، وبعد أن أعدنا رفع سراويلنا، استلقينا نحدّق في السحب والرياح تجرفها.

أحببتُ زوجي. كان دافئاً ولطيفاً كحاله حين كان مجرد صبيّ نحيف يلعب معنا على الشاطئ. كان على استعدادٍ أيضاً لمشاركة معارفه معي. كما اتّضح أنّني لم أكن جاهلة بقدر ما اعتقدت. كنتُ قد غادرتُ وعملتُ في البحر بعيداً عن الديار، ورأيتُ الكثير من الأماكن، بينما سكن جون-بو في هادو وأوساكا فقط. كان قد قرأ الكثير من الكتب، لكنني تعلّمتُ عبر الإصغاء والمراقبة. كنتُ أعرف قاع البحر جيّداً، وهو شيءٌ لم ينفكّ يطرح أسئلةً بشأنه؛ كان لديه

فهم أفضل للحرب والعالم، موضوعان لطالما أثارا دهشتي. وهكذا، بينما ظننتُ في البداية أن لن يكون لدينا ما نتحدّث عنه، فقد تبين أن هناك الكثير لتشاركه ونكتشفه معاً، كلٌّ منا برؤيته المختلفة لجيوجو والعالم من بعدها. أحبّ التحدّث عن زمنٍ غابر حين كانت جيوجو مملكةً مستقلة. دائماً ما شعرتُ بالثقة حيال هذا الموضوع، فقد علّمتني جدّتي الكثير عن مملكة تامنا. أطلعني أيضاً على ما كان يعرفه عن مؤتمر موسكو ومؤتمر القاهرة حيث تحدّث قادة الحلفاء عن مستقبل استقلال كوريا. لم أكن أتخيل أنّ قادة العالم قد يتحدّثون عن بلدي، أو أنّ الاستقلال ممكنٌ حتّى.

- «التقيتُ في الكلية أشخاصاً من الصين والاتحاد السوفيتي يقولون أنّه يمكن للحياة أن تكون مختلفة»، قال لي. «يجب أن نناضل كي نصنع مصير بلدنا بأيدينا. على ملّاك الأراضي الكبار وأصحاب المصانع أن يتقاسموا ثرواتهم مع أولئك الذين تنزف أرواحهم في الأرض وفي أعمالهم الشاقة. يجب أن يحصل الأولاد والبنات على تعليم إلزامي. لماذا ينبغي بالأمّهات والأخوات والزوجات أن يعملنَ جاهدات وأن يضحّين كلّ هذه التضحية؟». ألم نتزوَّج كي أساعد والدته في دفع مصاريف دراسته؟ «ما أحاول قوله لك يا يونغ-سوك، هو أنّه ينبغي بنا أن نرغب في أن يقرأ أبنائنا وبناتنا، وأن يفهموا العالم، وأن يفكّروا فيما يمكن لبلدنا أن يكون عليه».

ذكّرني حين تحدّث على هذا النحو بوالدتي في الأيام التي سبقت مسيرة الهينيو ضدّ اليابانيين. أشياء كهذه جعلتني أحبّ الأب الذي سيكونه ذات يوم. مددتُ يدي إذ ذاك فوق بطنه، ثمّ زلقتها تحت سرواله. لقد كان شابّاً، واتّضح أنّي كنتُ بارعة.

في الأول من سبتمبر، وصلت حَمَاة مي-جا إلى هادو للتحَدَّث إلى حماتي. دخلت السيِّدة لي في صلب الموضوع مباشرةً. «لم تصبح مي-جا حاملاً بعد. ماذا عن زوجة ابنك؟ هل تحمل طفلاً؟». أجابت دو-سانغ بتلقائية بأنَّ نوفي الشهري لم يحدث منذ الزفاف - ولكم أن تتخيَّلوا كيف شعرت لسماع هذه الأشياء تُناقش وكأنني لم أكن في الغرفة أقَدِّم الشاي لهما - عندها قالت السيِّدة لي: «ربَّما حان الوقت لزوجتي الابنين في عائلتنا أن تقوما بزيارة الإلهة».

- «لقد تزوّجتا منذ أسبوعين فحسب»، قالت دو-سانغ.

- «لكنَّ زوجة ابنك من أهل القرية. فهمتُ أن أمَّها كانت شديدة الخصوبة».

لم تعجبني نبرة السيِّدة لي، ولم تعجب دو-سانغ أيضاً، التي لا بدَّ أن تكون قد لدغَتْ من تذكيرها بشحِّ خصوبتها.

- «هناك طريقةٌ واحدة لإنجاب طفل»، قالت دو-سانغ بتدَمَّر.

«ربَّما لم يكن ولدك قادراً على —».

- «فهمتُ أنَّ ولدك سوف يعود إلى اليابان بعد أسبوعين. يجب أن يتمَّ زرع الطفل قبل مغادرته، ألا تعتقدين ذلك؟».

إذ كان هذا ما أتمناه، فقد كنتُ متأكَّدة أنَّ دو-سانغ تتمنَّى الشيء نفسه. هذا هو الطبيعيُّ كونها والدَّة جون-بو وحماتي.

مضت السيِّدة لي في عرض قضيتِّها: «الحكومة المحليَّة بصدد إرسال ولدي إلى البرِّ الرئيسي ليتعلَّم كيفية الإشراف على المستودعات على أفضل وجه. أخبروني أنه سيغيب لسنة كاملة».

تركتُ لحماتي أن تستوعب هذه المعلومة. إذا لم يزرع سانغ-مون طفلاً في أحشاء مي-جا قريباً، فسيستغرق الأمر سنةً وتسعة أشهر على الأقل قبل أن تُرزق السيِّدة لي بحفيد. «قد تكون زوجة ابني من مدينة جيجو، لكن عادات وتقاليد قرى البحر لديكم قد أثَّرت بها

كثيراً. هي تؤمن بالشامانة خاصّتك وبإلهتكم» ممّط المرأة ذقنها.
«بما أنّ الأمر على هذا النحو، فسوف أرسلها إلى هادو كلّ يومين إذا
كانت زوجة ابنك ستصطحبها لزيارة الإلهة المناسبة».

- «اليابانيّون يعاقبون أولئك الذين يتّبعون أساليب الجزيرة
التقليديّة»، ذكرتها دو-سانغ.

- «قد يكون الأمر كذلك، لكننا نسمع أنكم أهل قرى البحر
تمارسونها طوال الوقت».

- «هذا خطير»، أصرّت دو-سانغ، رغم أنّي اعتدّ طيلة
حياتي على رؤيتها تقدّم القرايين. تمنيتُ ألاّ تتشدّد كثيراً في
مفاوضاتها، إذ كنتُ أرغب كثيراً في قدوم مي-جا.

- «لذا سوف أدفع لك مقابل المشاكل التي قد تتعرضين لها».
أحسّت دو-سانغ الآن أنّها تملك الأفضلية، فتجاهلت فكرة
السيدة لي وكأنّها لها رائحة كريهة. «لمي-جا عمّ وعمّة في الجهة
الأخرى من هادو. دعيها تبقى معهما».
- «أعتقد أننا متفقتان على أنّ الزوجة السعيدة أكثر قابليّة
للإنجاب».

- «لكن سيصبح لديّ فمّ إضافي لأطعمه. وإذا كانت زوجة ابنك
هنا، عندها كيف ستمكّن زوجة ابني من القيام بواجباتها؟».

استمرّت المفاوضات على هذا النحو حتى تمّ التوصل إلى
اتّفاق. ستأتي مي-جا إلى هادو كلّ يومين إلى أن يغادر سانغ-مون
إلى البرّ الرئيسيّ؛ وستدفع والدته ثمن طعامها مع بعض المال
الإضافي تعويضاً عن المخاطر التي قد تتعرّض لها دو-سانغ.

في اليوم التالي، وصلتُ صديقتي مرتدية تنورة، وسترة صغيرة،
وقبعة مع منديل ينسدل فوق عينيها. بدت جميلة بحق. انحنّت،

وانحنيْتُ، ومن ثمَّ تعانقنا. أوَّل الكلمات التي خرجت من فمها كانت: «سوف يرسلون سيَّارة لاصطحابي لاحقاً، لكنَّهم سمحوا لي بالمجيء على الأقل». .

استعارت سروالاً وسترة من القماش المعالج بصباغ الكاكي. بدت حالما غيَّرت ملابسها كالفتاة التي ترعرعتُ معها وأحبَّبتها من كلِّ قلبي. كان لديَّ الكثير لأخبرها به، لكنَّها ظلَّت تثرثر دون توقُّف بينما كانت تُفرغ السِّلَّة التي أحضرتها معها. «كيمتشي، فطر طازج، أرزٌ أبيض. وانظري إلى هذا! يوسفِي! برتقال!». ضحكْتُ، لكن في عينيها، كان ثمة سوادٌ لا آخر له مثل الذي يُرى في عينيَّ أخطبوطٍ محتضر.

أرادت زيارة قبر والدتي قبل الذهاب إلى مزار هالمانغ سامسيونغ؛ إلهة الخصوبة والإنجاب. كنتُ سعيدةً جداً برؤيتها لدرجة أنني لم أسأل لماذا تريد فعل ذلك. حضَّرنَا معاً وجبةً لأُمِّي، ومشينا إلى موقع الدفن، وتناولنا هناك وجبة الغداء مع روحها. بعد أن أكلنا، أسندنا رأسينا إلى بعضهما وبدأنا نتشارك ما في قلوبنا كما كنَّا نفعل دائماً. كنتُ متشوّقة لسماع ما ستقوله مي-جا عن ليلة زفافها وكلُّ الليالي - وربَّما الأيام - منذ ذلك الحين.

- «لا بأس بذلك»، قالت مي-جا. «إنَّه ما تفعله كلُّ الزوجات والأزواج».

فهمتُ من هذا أنَّها لم تستمتع بمشاركة الحبِّ. «هل حاولتِ رفع وركيكِ للأعلى بحيثَ يتمكن من —».

لكنَّها لم تكن تصغي إليَّ. أخرجتُ قطعة حرير ملفوفة من جيبها، فتحتُها ببطء. كان ثمة سوارٌ ذهبي بسيط بداخلها. حتَّى وقتِ ليس ببعيد لم أكن أعرف ما هو السوار، لكنني رأيتُ في أوساكا، وبوسان، وفلاديفوستوك نساءً يضعنه في الشارع، وعلى العبَّارات،

وفي الحافلات. «إنَّه للزينة»، أوضحت مي-جا. توصّلتُ لاحقاً فقط، بعد أن تسنّى لي المرور أمام واجهات متاجر المجوهرات، وتمكّنتُ على نحو بسيط من إدراك قيمة الذهب والفضّة - توصّلتُ إلى قناعة مفادها أن «الزينة» ليست سوى إسراف لا معنى له.

- «هل أعطاه سانغ-مون لك؟». أمكنني تخيّل أنّه يرغب في أن تكون زوجته امرأةً مبهرجة.

- «إنَّه يعود لأُمّي»، قالت مي-جا بصوتٍ تشوبه الهيبة. «لم أكن أعرف بوجوده. أعطته لي العمّة لي-أوك يوم زفافي».

- «عمّتك؟»، سألتُ غير مصدّقة. «لا أصدّق أنّها لم تبعه».

- «أعرف. كل ذلك العمل الذي أرغمتني على القيام به...».

- «هل ستردينه؟».

- «أبداً. إنَّه كلّ ما لديّ من أمّي. ماذا لو أضعّته؟».

- «أتمنّى لو كان لديّ شيءٌ يخصّ أمّي».

- «أوه، لكن أنتِ لديكِ بالفعل أشياء تخصّها. أدواتها.

و...». أمسكتُ يدي. «أنتِ تحملين روحها، بينما لا أعرف شيئاً عن أمّي. هل أشبهها في أيّ شيء؟ هل أملك ابتسامتها؟ هل شعرتُ حيال والدي على نفس النحو الذي أشعر به حيال زوجي؟ أنا لا أعرف حتّى أين تمّ دفنها. لم يتسنّ لي يوماً أن أفعل لأجلها الأشياء التي تفعلينها كُرمى لوالدتك - أشياء مثل هذه». أشارت بيدها حولنا، ثمّ نظرتُ إليّ بجديّة. «إذا زرع زوجي طفلاً في أحشائي، فماذا لو...».

- «أنتِ لستِ والدتك. لن تموتي أثناء ولادة طفلك».

- «لكن إن حدث ذلك، فهلاً زرتِ قبري؟ هلاً تأكّدتِ من قيام الشامانة كيم بتأدية الشعائر؟».

وعدتها أنني سأفعل، لكنني لم أستطع حتى التفكير فيما كانت تقترحه.

حزمتنا سلالنا، وانطلقنا إلى مزار هالمانغ سامسيونغ. أوقفتني مي-جا إذ اقتربنا من المكان. «انتظري. لست واثقة أنني أريد الذهاب».

حين بدا أنها لم تكن مستعدة لذلك، سألتها: «هل هذا بسبب ما حدث لوالدتك؟».

- «ليس الأمر هكذا. أعني إنه كذلك، لكن أيضاً... أنا لست واثقة أنني أريد أن أنجب طفلاً»، قالت هذا الفتاة التي احتفظت بقطع قماش الكاكي البالية لتصنع منها ملابس أطفال وبطانيات قبل وقت طويل من تفكيرني في أن أصبح أمًا! لا بد أن الدهشة كانت بادية على وجهي، إذ قالت: «الأمر ليست جيدة مع زوجي». ترددت قليلاً وهي تمضغ طرف سبابتها، ثم اعترفت أخيراً: «إنه قاس جداً حين نكون على حصيرة نومنا».

- «لكن أنت من الهينيو! أنت قوية!». - «انظري إليه في المرة القادمة التي ترينه فيها. هو أقوى مني. وقد أفسد بالدلال. لذا يحب أن يكون مسيطراً. نحن لا نتشارك الحب. هو يأخذه وحسب».

- «لكن أنت من الهينيو»، كررت لها. ثم قلت: «تملكين كل الحق في تركه. أنت بالكاد تزوجت. تطلقي منه». - «أنا زوجة مدنية الآن. لا أستطيع فعل ذلك». - «لكن مي-جا —».

- «لا تلقِ بالاً»، قالت محبطة. «أنت لا تفهمين فحسب. إنسي الذي قلته. دعينا فقط نفعل هذا. ربّما إذا زرع طفلاً بداخلي ستتغير الحال».

كان بإمكانني في تلك اللحظة أن أقول شيئاً يمكن أن يحدث فرقاً، لكنني كنتُ شابةً، ولا زلتُ قليلة الخبرة. أوه، كنتُ أفهم مسألة الحياة والموت، لكن لم يكن لديّ بعد فهمٌ حقيقيّ لكلِّ ما قد يحدث بين أوّل أنفاسك وآخرها. لقد كان هذا خطأً سوف أعيش معه لبقية حياتي.

قدّمنا قرايبنا وصلّينا أن نصبح حُبْلَتَيْن سريعاً.

- «ليس فقط حُبْلَتَيْن»، تضرعتُ، «لكن حُبْلَتَيْن بطفلين ذكّرين».

- «طفلان سيولدان متمتّعين بصحّة ممتازة وسيحظيان بأُمّين رؤومين لرعايتهما». أقنعتُ نفسي لدى هذه الإضافة من مي-جا أنّها تخطّت مرحلةً عصبية على المستوى الذهني.

خلال الأسبوع، زرت مع مي-جا الإلهة كلّ يومين. كانت تصل دائماً بملابسها المدنية، ثمّ تغيّرها إلى ثياب مصبوغة بعصير الكاكي، ومن ثمّ تعود إلى ملابسها المدنية كي ترجع إلى مدينة جييجو. بمجرد مغادرتها، كانت حماتي تدفعنا - أنا وجون-بو - للخروج من المنزل الكبير «كي نكون وحدنا». سواءً في الليل أو في النهار؛ وجدنا طرقاً كثيرة كي نضطجع معاً فوق حصيرة نومنا دون أن نغمض أعيننا أبداً.

في منتصف الأسبوع الثاني، طلبتُ من مي-جا أن تدعو زوجها كي يأتي لاصطحابها فتمكّن بذلك من تناول العشاء سوياً. وافقتُ مي-جا، لذا حين جاءت في المرّة التالية، قدّمنا قرايبنا بسرعة وسارعنا إلى المنزل لتحضير الوجبة. كان المطبخان في المنزلين الكبير والصغير - مفتوحين على الفناء، لذا حرصنا أن نبقي أصواتنا منخفضة، فقد كنّا نعرف أنّ حماتي ستحاول الاستماع إلى

كل كلمة نقولها رغم كل الضرر الذي لحق بأذنيها بعد سنوات طويلة تحت سطح البحر.

بدت مي-جا أكثر سعادةً منذ تلك الزيارة الأولى، فسألْتُها ما إذا كانت تستمتع بعودتها إلى مدينة جيغو. لكنَّ إجابتها بيّنت لي أنَّني قرأتُها على نحوٍ خاطئ.

- «حين تكونين طفلة»، قالت لي، «يبدو كلُّ شيءٍ كبيراً ومثيراً للإعجاب. كان القدوم إلى هادو كفتاة صغيرة بمثابة الرجوع في الزمن إلى الوراء، ما جعل الحياة مع والدي ربّما تبدو أروع ممّا كانت عليه في الواقع. لكن أنا وأنّيت رأينا ما هو أكثر بكثير من هذه الجزيرة. أحبُّ جمال الجدّة سيولمونداي وامتداد البحر إلى ما لا نهاية، لكنَّ مدينة جيغو تبدو لي صغيرةً وقبيحة الآن. أنا أفتقد هادو. أفتقد الغوص. أفتقد زيارة بلادٍ أخرى. والأهمُّ من ذلك كلّه أنّني أفتقدك».

- «أنا أفتقدك أيضاً، لكن ربّما هذا ما يعنيه أن نكون متزوّجين».

صَفَرَ الهواء بين أسنان مي-جا المطبقة. «أنا من الهينيو، لستُ زوجةً كونفوشيوسية ما. إنّ زوجي ووالديه ليسوا معتادين على أساليبنا. هم يؤمنون بتعاليم من قبيل: عندما تكونين ابنة، أطيعي أباك؛ عندما تكونين زوجة، أطيعي زوجك؛ وعندما تكونين أرملة، أطيعي ابنك».

حاولتُ أن أضحك ساخرةً من الفكرة. «مَن الهينيو التي قد تفعل هذا يوماً؟ علاوةً على ذلك، لطالما ظننْتُ أنّ اعتناق الكونفوشيوسية يعني أنّ الرجال يحتاجون إلى التفكير في مسائل كبيرة تحت شجرة القرية طوال اليوم».

لم تضحك مي-جا، ولم تبتسم حتّى لسخافة الطرح. عبَرَ

ملاحمها بدلاً من ذلك تعبيرٌ ينم عن الاضطراب. دخل زوجي إلى الفناء قبل أن أتمكن من قول شيء. رسمتُ مي-جا ابتسامةً على وجهها وهمستُ: «علينا أن نتذكر أن زواجينا هما بمثابة الارتقاء خطوة للأعلى بالنسبة لكلتينا. فلكلّ منّا زوجٌ يعرف القراءة وإجراء العمليات الحسابية».

بينما كان جون-بو يغتسل، سرّْتُ مع مي-جا إلى الطريق لانتظار وصول زوجها. بعد بعض الوقت، ظهر زوجٌ من المصاييح عبر الظلمة الداكنة. حالما وصل زوج المصاييح إلينا، توقّف سانغ-مون وخرج من سيارة والده. كان يلبس ثياباً غير رسمية كالتي رأيناها يرتديها أوّل مرة التقيناه. انحنى مي-جا وانحنيتُ إظهاراً للاحترام.

- «أين ملابسك؟»، سأَل بفضاظة.

- «لم أرد لها أن تتسخ»، أجابت مي-جا بصوتٍ يكاد لا يكون مسموعاً.

كان يمكن أن آخذ هذا كإهانة، لكنني كنتُ مرّكة أكثر على الانقلاب الدليل الذي طرأ على مي-جا.

تقدّمتُ خطوةً إلى الأمام وانحنيتُ مجدداً. «زوجي يتطلّع إلى اللقاء بك».

نظر سانغ-مون إلى مي-جا بطرف عينه. كانت مجمّدة في مكانها. أدركتُ أنّها كانت خائفةً منه.

- «أنا أتطلّع للقاءه أيضاً»، قال أخيراً. «هلاً ذهبنا إذاً؟».

عندما وصلنا إلى المنزل، بدا سانغ-مون مسترخياً بعد أن خلع حذائه وخطا إلى الداخل. كان العشاء مسألةً مختلفة. الرجال! ما هذا الشيء في طبيعتهم الذي يجعلهم يشعرون بأنهم ملزمون بأن يهيمنوا على الحديث وأن يناقشوا مسائل لا سلطة أو سيطرة لهم عليها؟

- «سيكون اليابانيون في السلطة دائماً»، أكد سانغ-مون. «ما حاجتنا إلى مقاومتهم؟».
- «لطالما حارب الشعب الكوري كلَّ غازٍ، وعلى وجه الخصوص هنا في جيجو»، أوضح جون-بو. «في نهاية المطاف سوف ننهض، وسوف نطرد اليابانيين».
- «متى؟ كيف؟ إنَّهم أقوىاء جدًّا».
- «قد يكونون كذلك. لكنَّهم يخوضون معارك كثيرةً جدًّا في أماكن كثيرة جدًّا»، ردَّ جون-بو. «الآن وبعد أن دخل الأمريكيون الحرب، من المؤكَّد أنَّ اليابانيين سيفقدون مناطق نفوذ لهم. سنكون مستعدين حالما يبدوون في التراجع».
- «مستعدون؟ مستعدون لماذا؟»، ردَّ سانغ-مون بقوة. «سوف يقومون بتجنيد أيِّ رجل متوقِّر بغض النظر عن عمره أو تعليمه أو حالته الاجتماعية أو حتَّى ولاته!».
- لم يكن هذا تهديداً فارغاً أو خيالياً. لقد أخذ شقيقاي بالفعل، وما زلنا لا نعرف أين هما أو إذا كنَّا ستمكَّن من رؤيتهما مرَّة أخرى.
- «كما يجدر بك التفكير في هذه النقطة يا صديقي»، استطرد سانغ-مون. «ما الذي سيحصل لأشخاصٍ مثلك عندما ينتصر اليابانيون - وهو ما سيحدث بكل تأكيد؟».
- «أشخاصٌ مثلي؟ ما معنى هذا؟».
- «أنت تدرس في الخارج. لقد تأثَّرت بأفكار أجنبية. أنت تبدو مثل محرَّض، لكن هل أنت شيوعيٌّ أيضاً؟».
- ضحك زوجي ضحكة طويلةً وعالية.
- «أنت تضحك الآن»، قال سانغ-مون. «لكن حين يربح اليابانيون —».
- «في حال ربحوا —».

- «سوف يقتلون الخونة والأشخاص الذين يتلفظون بكلمات تقطر خيانة، ينبغي بك الحذر يا أخي»، قال سانغ-مون محدراً. «لا يمكنك أبداً معرفة مَنْ قد يكون مصغياً».

ضغطت مي-جا على يدي كي تطمئنني، لكن زوجها كان قد زرع بذور الشك في داخلي.

حلَّ يوم الرابع عشر من سبتمبر، وahan وقت عودة زوجي إلى اليابان لإتمام سنته الدراسية الأخيرة. كانت ليلتنا الأخيرة معاً عامرةً بالقبلات وكلمات الحب. فاجأت نفسي كثيراً بالبكاء حين استقلَّ في الصباح التالي قارباً بمحركٍ صغير لأخذه إلى الميناء الرئيسي. هذه الفتاة التي خاب أملها بشدة لدى معرفة من اختاروا لها قريناً، وقعت الآن في حبِّ زوجها بعد ما لا يزيد عن أربعة أسابيع من الزواج. كنتُ محظوظةً في هذا - كما كانت جدتي ومي-جا قد أشارتا حتَّى قبل الزفاف - حيث لم تحمل الكثير من العرائس مشاعر الودِّ للرجال الذين تشاركنَ معهم حصائر النوم. سوف أفتقد جون-بو، وكنتُ أشعر بالقلق لكونه بعيداً عني بينما الحرب مستعرةً في كلِّ مكان من حولنا.

في اليوم التالي، وصلتُ مي-جا كما جرت العادة في الأسابيع الأخيرة. أخذتها لزيارة الإلهة، ولكن ما فائدة ذلك بالنسبة لي طالما زوجي بعيد؟ قدَّمتنا القرايين، ثمَّ جلسنا في طريق عودتنا إلى البيت فوق تلٍّ يطلُّ على البحر.

- «ستكون هذه زيارتي الأخيرة، سيمرُّ بعض الوقت قبل أن أتمكن من العودة إلى هنا»، قالت لي. «سوف يغادر زوجي خلال يومين. سيسافر على امتداد البر الرئيسي الكوري للتأكد من وصول

القوافل العسكرية اليابانية إلى وجهتها. إشرافٌ على التحميل والتفريغ وأشياء كهذه كما سبق لك أن سمعت. اليابانيون يثقون به. يقول إنَّ هذه ترقية كبيرة. لقد قرّرتُ حماتي أنني لن أكون بحاجة لزيارة الإلهة طالما أنّه غير موجود كي يزرع الطفل بداخلي».

كانت هذه الأسابيع الأخيرة بمثابة هديّة، لكن كان علينا الآن أن نفترق مجدّداً. شعرتُ بالوحدة والوحشة منذ الآن.

حبلى ذهبى

أكتوبر 1944 - أغسطس 1945

- «أتى إليك بصفتي رئيسة جماعة»، قالت كيم إن-ها - امرأة من حي سيومون-دونغ في هادو - لحماتي. «أنا أسعى لملء قارب كبير بعشرين امرأة من الهينو للعمل في البحر بعيداً عن الديار. سوف نذهب إلى فلاديفوستوك لمدة تسعة أشهر، ثم نرجع كما هي العادة لحصاد موسم البطاطا الحلوة في أغسطس».

كان ذلك في نهاية أكتوبر، وكان زوجي قد رحل منذ ستة أسابيع. وصلت مع دو-سانغ إلى البولتيوك باكراً، ووجدنا كيم إن-ها تنتظرنا. جلست الاثنتان قبالة بعضهما على جانبي حفرة النار. كانت إحدى المتدربات قد أشعلت النار بالفعل، ووضعت قدراً من الماء فوق الشواية. كنتُ أفرز معدّاتي، لكنني توقفتُ لدى سماعي كلمة فلاديفوستوك. لقد حصلتُ على أجورٍ جيدة أثناء عملي هناك في العامين الماضيين.

- «عشرون هينو. هذا مثيرٌ للإعجاب»، قالت دو-سانغ. «كيف يمكنني مساعدتك؟».

- «أنا أبحثُ عن شاباتٍ متزوّجات ليس لديهنّ أطفالٌ بعد»، أجابت إن-ها. «صحيحٌ أنّهنّ يشعرن بالحنين إلى الوطن أحياناً،

لكنهنّ لا يملكن الخبرة الكافية للاشتباه في أنّ أزواجهنّ قد يبدوون في خوض علاقة مع امرأة قروية ما، أو قد يبحثون عن زوجة صغيرة. هنّ لا يقلقن بشأن ما إذا كان أطفالهنّ مرضى أو واقعين في مشكلة. أعتقد أنّه من المهم أن يكون لدينا هينيو هادئة ومستقرة عاطفياً، وغير مضطربة بسبب التفكير في معشر الرجال.

كانت تلك طريقة طويلة جداً لتقول إنّها جاءت من أجلي. شعرتُ بالسعادة والحماس. سيكون من الممتع العودة إلى هناك مرة أخرى، إذ كانت تأدية الأعمال المنزلية لحماتي وإطاعة أوامرها في البولتيوك مصدر إزعاج بالنسبة لي. وكان الاعتناء بيو-ري صعباً، حيث تكون متقلّبة المزاج ومتوتّرة دائماً في فترة بعد الظهر. كما تركني عدم وجود زوجي بقربي كي يحبّني أو مي-جا كي تهدّئي، تركني ذلك في مزاج مضطرب وكئيب دائماً. لكنني شعرتُ بانقباضٍ شديد في معدتي حين قالت حماتي ما كنتُ أتمنّى أن تقوله بالضبط. «هل لي أن أقترح زوجة ابني؟». كانت دو-سانغ مستعدّة جداً للسماح لي بالذهاب.

- «بحسب عمرها، هي غوّاصة-طفلة»، تابعت دو-سانغ، «لكنّها ماهرة بما يكفي لتأهيلها كغوّاصة-صغيرة». تلك كانت أول مرة يُطلق عليّ فيها رسمياً لقب الغوّاصة-الصغيرة، وقد شعر جزء منّي بالفخر، لكنّ الانقباض في معدتي بقي على حاله. «إنّها عاملة مجتهدة، لكنّ أفضل ما يمكنني قوله عنها هو أنّ زوجها بعيدٌ عنها، أي أنّها لن تفتقده أكثر ممّا تفتقده الآن. كما يبدو أنّها لم تكن مع ابني لوقتٍ طويل بما يكفي كي تحمل طفله».

تعجّبتُ عندئذ من مدى عمق رغبة دو-سانغ في ألا أكون بقربها. لقد أخطأت جدّتي في هذا، وكنتُ محقّة في مخاوفي. سوف تظل دو-سانغ تنحي باللائمة عليّ للأدوار التي تشبه أنّي لعبتها في

حادثة يو-ري وفي موت والدتي . إذا كان بمقدوري المساعدة في دفع تكاليف تعليم زوجي ، فليكن ، طالما أنني بعيدة عن ناظريها . حسنٌ ، إذاً . أنا لم أكن راغبة في العيش معها أيضاً .

بعد خمسة أيام ، حين لم يكن الظلام قد انقشع بعد ، حُزمتُ حقيبتِي ، وحملتُ أدوات المرأة البحرية خاصّتي ، وسرْتُ بمفردي إلى منزل عائلتي ، حيث نصحتُ أختي الصغيرة : «بقي دائماً قريبة من الأخريات أثناء الغوص . تعلّمي بأذنيك ، تعلّمي بعينيك . لكنّ الأهمّ من كل شيء هو أن تبقي آمنة» . وحذّرتُ أخي الثالث : «أطع شقيقتك . وابق في المنزل ، لا تدع اليابانيين يرونك» . ودّعتُ والدي ، لكنني لم أكن واثقة أنّه سيتذكّر هذا بحلول الفجر . ثم خرجتُ وشققتُ طريقي على طول رصيف المراكب ، وصعدتُ القارب الذي سيأخذني مع بضعة عرائس شابّات من مناطق مختلفة من هادو إلى المرفأ الرئيسي . شعرتُ بمعنوياتي ترتفع .

وجدتُ إن-ها تنتظر مع بقيّة الغوّاصات التي قامت بتوظيفهنّ عند سلّم العبّارة . رأيتُ فتاةً أو اثنتين عرفتهما من رحلات سابقة إلى الخارج ، لكنّ البقيّة كنّ غريبات بالنسبة لي . كنتُ أسترّق النظر منتقلة من فتاة إلى أخرى ، أحاول من خلال التقاط علاماتٍ دقيقة معرفة الفتاة التي أرغب في أن تكون شريكتي - من التي تملك ساقين وذراعين قويّتين مخبأتين تحت ملابسها ، ومن التي تبدو شخصاً مسؤولاً أو مجازفاً ، ومن التي تبدو وكأنّها تتحدّث كثيراً أو أنّها تبقى هادئة طوال الوقت - عندما رصدتُ مي-جا وهي تحدّق في وجهي مباشرةً ، منتظرةً بفارغ الصبر أن أعثر عليها مع ابتسامة مرتبكة على وجهها .

- «مي-جا!». ركضتُ إليها وأسقطتُ حقيبتِي وأدواتي الأخرى عند أقدامنا.
- «أنا قادمةٌ معكِ»، أعلنتُ مي-جا.
- «سمحتُ لكِ حماتك بالذهاب؟».
- «تلقيّ حماي رسالة من سانغ-مون يقول فيها إنّه يتعلّم الكثير وسوف لن يعود إلى الديار إلّا بعد وقتٍ أطول ممّا كنّا نتوقّع. ليس بمقدوري الغوص في المدينة، لذا فأنا مجردٌ فمٍ إضافي يجب إطعامه طالما أنّ زوجي على البرّ الرئيسي».
- لم يبدُ إرسال مي-جا للعمل في البحر بعيداً عن الديار منطقياً بالنسبة لي، إذ إنّ سانغ-مون لم يكن قد تزوّج صديقتي من أجل مهاراتها في الغوص أو قدرتها على كسب المال له أو لعائلته، لكن وإن يكن؟ سوف نكون معاً من جديد. بدأتُ تضحك وانضمتُ إليها.
- تعرفنا خلال اليومين التاليين على الفتيات الأخريات. كنّ لطيفات بما فيه الكفاية، رغم أنّ معظمهنّ أُتِينَ هرباً من المخاطر حيث كنّ يعشنَ في جيحو أكثر من كونها رغبةً منهنّ في كسب المزيد من المال.
- «كنتُ أغوص مع جماعتي حين جرفت المياه جثثاً منتفخةً كسرِبٍ من الأسماك إلى حقلنا الرطب»، حكّت لنا فتاة ذات خدين مدوّرين وهي ترتعش مسمّزة. «كانت الجثث في الماء لفترة طويلة، العيون والألسنة والوجوه كانت مأكولة».
- «هل كانوا صيّادين؟»، سألتها.
- «بحّارةٌ على ما أظنّ»، أجابت الفتاة. «كانت جثثهم محروقة من الحرب».
- «يابانيون؟»، سألتها.

هزّت رأسها . «بزّاتهم لا تبدو كذلك» .

فتاةٌ أخرى - أشبه بالسّمكة بسبب عينيها المتباعدتين كثيراً - كانت قد فقدت ثلاثاً من شقيقاتها . «خرجنَ لجمع الحطب ذات صباح ، ولم تعدنَ أبداً» .

كان يقال إنّ الجنود اليابانيين ما كانوا ليجرؤوا أبداً على خطف امرأةٍ من الهينيو كي يجعلوا منها امرأةً راحةٍ ومتعةً ، لكن من يدري؟ إذا اختُطفَتْ إحدى آل هينيو أو أيُّ امرأةٍ من جيّجو واستُخدمت من قِبل الجنود اليابانيين لممارسة الجنس ، فسيلحق بها عارٌ عظيم لدرجة أنّها لن تكون قادرةً أبداً على العودة إلى موطنها .

- «على الأقل سنكون في فلاديفوستوك بعيداً عن المحتلّ اليابانيّ» ، قالت إحداهنّ . «السوفييت يقاتلون في أوروبا ، وقد تجاهلوا اليابان» .

- «الأمر أقرب إلى أنّ اليابانيين تجاهلوا السوفييت» ، ردّت الفتاة مدوّرة الخدين بنبرة العارف بالأمور .

لم يحدث أن تكلمنا أنا ومي-جا عن الحرب ؛ يكاد لا يكون ذلك ممكناً لأنّ ذلك يتطرق إلى ماضي عائلتها . لم نفكّر يوماً في سبب شعورنا بالأمان في فلاديفوستوك ، لكنّ غرائز الهينيو لدينا أخبرتنا أنّنا كنّا بأمان بما يكفي كي لا نتساءل عما يقبع خلف كلّ زاوية . كنّا قد عرفنا من زوجينا المزيد حول المؤتمرات العالمية ، واستراتيجيّات المعارك ، والخطط التي توضع لبلدنا في غرفٍ مغلقةٍ بعيدة عن أي تأثير لنا . مع ذلك ، فقد بدونا أقلّ اطلاعاً ومعرفة من هؤلاء الفتيات .

كان ثمة مشوى مفضّل لنا أنا ومي-جا في فلاديفوستوك ، لكن

بقينا جميعاً هذه المرة؛ الفتيات العشرون إضافةً لإن-ها، في عنبرٍ للنوم. كانت الغرفة طويلةً وضيقةً مع نافذةً وحيدةً قدرةً ملطخةً بالهباب وسخام الميناء على الجهة الأخرى. أخذت بعض الفتيات أماكنهنَّ على الأسرة المتراكبة فوق بعضها في ثلاث طبقات. فضلتُ ومي-جا وضع حصائر النوم على الأرض كي نكون بجوار بعضنا البعض.

نهضنا في صباح اليوم التالي، جمعنا معدّاتنا وشققنا طريقنا إلى رصيف الميناء. لم يكن القارب كبيراً بالمرّة - لم تكن هناك مساحة تتسع لنا جميعاً للنوم على سطحه أو لتتجمّع في الداخل إذا باعّتنا طقسٌ سيئٌ - لكنّ القبطان كان كورياً وبدا أنّه يمكن الاعتماد عليه. بعد أن تحرّك مبتعداً عن أمان الرصيف، ركب القارب موجةً عالية قبل أن ينقذف ويحطّ على جانبها الآخر. ارتفعت معدتي ثم سقطت سقوطاً حرّاً. كان المحرّك قوياً، لكن البحر كان جبّاراً ولا نهائي الاتّساع. أعلى... أسفل... أعلى... أسفل... شعرتُ بدوار البحر قليلاً، لكنني ما كنتُ لأبدو شاحبة بقدر مي-جا. لم تتدّمّر أيُّ منّا على أيّة حال، بل وضعنا وجهينا في الريح وتركنا للضباب المالح أن يرشّ رذاذه عليهما.

عندما أطفأ القبطان المحرّك وأخذ القارب يتمايل فوق ذرى الأمواج البيضاء، تجرّدنا من ملابس اليابسة. شدّت لي مي-جا أربطة ملابسني المائية، وتحقّقت من ملابسها. وضعنا حزام أدواتنا، وثبتنا نظّاراتنا ذات العدسات الصغيرة فوق عيوننا، ثمّ رمينا بعواماتنا إلى البحر، وقفزنا إلى الماء نزولاً على أقدامنا. ابتلعني البرد القارس. ركلتُ بقدمي كي أظلّ طافية. لكنّ المياه كانت مع ذلك هائجة بما يكفي كي تصفع وجهي. نفّس، نفّس، نفّس، ثمّ إلى الأسفل مباشرةً. يخيمُ الصمت. قلبي يخفق في أذني، يذكّرني أن أكون

حذرة، أن أبقى متيقظة، وأتذكر مكاني بالضبط، وأنسى تماماً كل شيء آخر. لن أكون جشعة، وسأخذ وقتي. في الوقت الحالي، كنت أنظر حولي ببساطة. أحصيتُ ثلاثة من حلزون البحر يمكنني بسهولة جمعها في غطستي التالية. كنتُ سأجني الكثير من المال اليوم! كنتُ على وشك الصعود إلى السطح حين رصدتُ مجساتٍ تزحف خارجةً من وكرها الصخري. حفظتُ تلك البقعة في رأسي، وسبحتُ بسرعةٍ إلى السطح. آآآآآه! فصلتُ شبكتي عن عوامتي، ابتلعتُ عدّة أنفاسٍ سريعة، وعدتُ إلى الأسفل. لدى وصولي إلى الشقّ الصخري، لم أرَ أخطبوطاً واحداً فحسب، بل أخطبوطين يتمرّغان معاً. طعنْتُ أحدهما ثمّ طعنْتُ الآخر في الرأس كي أفقدهما الوعي. قمتُ بحشرهما سريعاً في شبكتي قبل أن يستيقظا، وركلتُ بسرعةٍ إلى السطح. آآآآآه! فوزٌ عظيم من الغطسة الثانية!

اكتشفت مي-جا أولاً أنّها حبلّى. توقّعتُ أن تبكي وتشعر بالقلق، وهذا ما حدث.

- «ماذا لو أنجبتُ طفلاً يشبه أباه؟».

- «إن كان هناك طفلٌ في أحشائك، فسيكون مثالياً لأنك ستكونين أمّه».

- «ماذا لو مُت؟».

- «لن أسمح لك أن تموتي»، تعهّدتُ لها.

لكن أياً كان ما حاولتُ قوله، ظلّت مي-جا كثيبة ومتخوّفة.

بعد أسبوع... حلّت الفرحة! هذا ما شعرتُ به، رغم أنّي كنتُ أمّ رأسي من درابزين القارب وأتقيّاً. أنا أيضاً كنتُ أحمل طفلاً في أحشائي. كانت معظمنا متزوجات منذ سنةٍ أو أقلّ.

وانظروا! ثمانية منا كنَّ حبالى . ارتفعت معنويات مي-جا وسط هذا القدر من السعادة . هي لم تكن وحيدة في هذا بعد كل شيء . لم تكن إن-ها مسرورة جداً بالطبع .

يجلب الأطفال الأمل والفرح ، لكنَّ كلاً منا كانت تتمنى بالطبع أن تنجب ولداً . اثنتان منا كانتا قد عرفتا سرّاً بحملهما قبل أن تغادرا الديار . هذا يعني أنَّ الأطفال سيبدؤون في الوصول في غضون خمسة أشهر . اتضح لنا أنا ومي-جا أننا سننجب طفلينا في منتصف يونيو إذا كنَّا قد أجرينا الحسابات بشكلٍ صحيح . لكن كان علينا قبل ذلك أن نجتاز الأسابيع الأولى الصعبة من غثيان الصباح . عند كلِّ مطلع فجر ، أثناء ذهابنا إلى البحر ، كان كلُّ ما احتجنا إليه هو أن تتقيأ هينيو واحدة كي تطلق العنان لبقيتنا . لم يمانع القبطان ذلك طالما أنَّ ما في بطوننا يذهب إلى البحر مباشرةً ، بينما غيَّرت إن-ها طريقة تفكيرها وقرَّرت أنَّ كلَّ امرأة تحمل طفلاً يكبر في أحشائها سيكون لديها دافعٌ أكبر حتَّى للحصول على حصاد يومي كبير .

كنَّا نأكل عصيدة أذن البحر بأعضائه كاملة كلَّ يوم تقريباً ، عارفات أنَّ هذه أكثر وجبةٍ مغذيةٍ يمكننا تناولها وأنَّ هذا سيدرِّب أيضاً أطفالنا على حبِّ المذاق الخاص بهذا النوع من الأطعمة . سرعان ما بدأت بطوننا تنتفخ ، وبدأنا نُرخي الأربطة التي تُحكم إغلاق جوانب بزّاتنا المائية . كنَّا نأمل أن يولد أطفالنا «في الحقل المائي» ، ما يعني أنهم سيأخذون أنفاسهم الأولى على متن القارب أو سينزلون خارجين من بطوننا عندما نكون في البحر .

لا يتسبَّب الحمل في حدوث تغييرات في جسد المرأة فحسب ، بل في عقلها أيضاً . الأشياء التي كنَّا نفعلها أنا ومي-جا في فلاديفوستوك بدت سخيفةً الآن . لم نعد نندفع من مكان لآخر كي نفرِّك رسومات ذكرياتنا . كنا قد التقطنا تلك الذكريات بالفعل .

كنّا نربّي أطفالاً بداخلنا بدلاً من ذلك. مع وصول أشهر الشتاء القاسية، كان غثيان مي-جا قد توقّف تماماً. استمرّ غثياني وقتاً أطول، لكنني وجدتُ أنّ المياه المتجمّدة تجلب لي راحة فورية. بدا أن لحظة الغمر في الماء في هذا البرد القارس تهدّئ طفلي، وتدخله في نوم عميق، وتجعله يثبتُ في مكانه. مع مرور الأشهر واستمرار بطوننا في النموّ، وفّرت المياه وسائل راحة جديدة. كنتُ حالماً أغطس في المياه أشعر بها تُدلك كل مواضع الألم في جسدي، وتطفو بطفلي حتى يصبح بخفة الريشة. شعرتُ أنّي قويّة، ومي-جا كذلك الأمر.

بدأ أوّل الأطفال في الوصول. لم يكن لدى الأمّهات أحدٌ على الشاطئ كي يعتني بأطفالهنّ الرُضع، لذا وُضع كلُّ طفلٍ في مهدٍ له حبلٌ يثبتّه جيّداً على سطح القارب. كما هي العادة، كان القبطان يتحرّك مبتعداً عنّا قليلاً حالماً نصبح في الماء. ينام الأطفال حديثو الولادة كثيراً، كما أبقاهم اهتزاز القارب هادئين. مع ذلك، وبمرور ساعات الصباح، وفي كلّ مرّة نصعد فيها إلى السطح، كنّا نسمع ليس فقط الأصوات الفردانيّة والفريدة لأنفاس سومبيسوري الخاصّة بكلّ امرأة، ولكن أيضاً الصرخات الفردانية والفريدة لكلِّ طفلٍ على متن القارب. كانت وجبات الغداء مفعمةً بالحويّة والنشاط. أرضعت الأمّهات أطفالهنّ بينما يضعنّ الدخن والكيمتشي داخل أفواههنّ. أمّا بقيّتنا فكنا نثرثر ونتفاخر بصيدنا. ومن ثمّ كان يحلُّ وقت العودة إلى المياه.

في منتصف يونيو، جاء مي-جا المخاض وهي في البحر. ظلّت تعمل حتّى الساعة الأخيرة، عندها انضمتُ إليها مع إن-ها على ظهر المركب من أجل الولادة. بعد كلّ مخاوفها وهواجسها التشاؤمية، فإنّ ذلك الصبي عملياً سبّح خارجاً من أحشاء مي-جا.

لقد كان صبيّاً! أسمته يو-تشان. سوف تتمكّن مي-جا حين تغادر إلى العالم الآخر من البقاء على اتّصال مع عائلتها على الأرض وذلك عبر طقوس تبجيل الأسلاف التي سيؤدّيها يو-تشان في المستقبل. قدّمت مي-جا حالما عدنا إلى المهجع القرابين إلى هالمانغ سامسيونغ وهالمانغ جوسيونغ - إلهة تحمي الأطفال وأخرى يمكنها قتلهم بزهرة الخراب - بينما حضّرتُ قدراً من حساء نودل الحنطة السوداء كي تأكل منها، إذ عُرف عن هذا الحساء أنّه يطهّر دم المرأة بعد الولادة. لم تكن الشامانة كيم هنا لتبارك الملابس الواقية الخاصة التي يرتديها الرضيع في أيّامه الثلاثة الأولى، لكنّ مي-جا وضعتُ مخاوفها جانباً في صباح يومه الرابع.

كنتُ أفضل أن يأتيني المخاض في المحيط، وأن أنجب طفلي في الحقل الرطب، لكنّ مائي سال في منتصف الليل بعد ثمانية أيّام من ولادة يو-تشان. كان مخاضي أسهل حتى من مخاض مي-جا. فتاة؛ هذا ما خرج من أحشائي. كنتُ أحبّ اسم مين ملحقاً بلي الذي سيكون اسم جيل البنات الذي سينشأ في عائلتنا، وستشاركه مين-لي مع شقيقاتها المستقبلات. كنتُ لا أزال بحاجة إلى إنجاب طفلٍ ذكر، ولكن يا لها من نعمة أن أنجب ابنةً ستعمل من أجلي ومن أجل جون-بو وتساعد في كسب المال لإرسال ابننا أو أبنائنا المستقبلين إلى المدرسة. قدّمت لي مي-جا الحساء الخاص بالأمّ الحديثة، وقدّمتنا القرابين، ثمّ انتظرنا ثلاثة أيّام للتأكّد من نجاة مين-لي وتجاوزها الأيام العصيبة. قمنا بعدها بأخذ طبعةٍ لآثار أقدام طفلينا تكريماً لهذه اللحظة الأكثر أهميّةً في حياتنا على صفحات من كتاب والد مي-جا.

في غضون بضعة أيّام، عدنا نحن الأربعة إلى القارب. رقد الطفلان جنباً إلى جنب في مهديهما المتّصلين بباقي المهود على

القارب. حين عدنا إلى القارب كي ندقّ أجسادنا، فتحنا ثيابنا المائية من الأعلى، كشفنا أئداءنا، وتركنا لطفلينا أن يلتصقا بجلماتنا. كنتُ قد تربّيتُ على اتّباع القول المأثور: المرأة الصالحة هي أمٌ صالحة. تعلّمتُ من أمّي كيف أكون أمّاً صالحة، ومن ثمّ عبر كوني أمّاً ثانيةً لإخوتي، لذا فقد أحببتُ طفلي منذ اللحظة التي شهقتُ فيها أوّل أنفاسها. لم يكن ينبغي بشعور الأمومة أن يتملّك مي-جا بشكلٍ تلقائي، لكن ارتباطها بولدها جاء على نحوٍ فوريٍّ وعميق. كانت كلّما أَرْضَعْتُ يو-تشان تهمس في وجهه، وتدعوه بأوجيني؛ وهو الإنسان رقيق القلب. «كُلّ جيّداً، أوجيني». ثمّ تهدده «نم هائناً. لا تبك. والدتك هنا».

حين انتهت عقود عملنا في أواخر يوليو، كان طفلانا يبلغان من العمر ستة وخمسة أسابيع على التوالي. ركبنا العبّارة إلى جيجو. كان وصولنا إلى هناك باعثاً على الخوف ومفعماً بالأمل على حدّ سواء. رأيت الجنود اليابانيّين طيلة حياتي، لكن الآن كانت أعدادهم على رصيف الميناء كبيرة جداً. المئات، وربّما الآلاف، ينزلون من السفن، يطوفون في الأرجاء، ينتقلون جيئةً وذهاباً. كان مشهداً مذهلاً بما يكفي كي تسأل مي-جا بفضولٍ شديد زوجاً من عمّال الرصيف: «لَمْ أعدادهم كبيرةً جدّاً؟».

- «لقد تغيّر مسار الحرب»، أجاب أحدهما بصوتٍ منخفض.
- «قد يخسر اليابانيّون!»، هتف الآخر قبل أن يطرق برأسه حتى لا ينتبه أحدٌ إليه.

- «يخسرون؟»، كرّرت مي-جا.
كنا نتمنّى جميعاً حدوث شيء كهذا، لكنّ محتليّنا كانوا أقوياء لدرجة يصعب معها تصديق ذلك.
- «هل تعرفين مصطلح الصمود الأخير؟»، سأل عامل الرصيف

الأول. «يقول المستعمرون إنه ينبغي بالحلفاء أن يأتوا عبر جيجو كي يصلوا إلى اليابان. هذا هو المكان الذي ستحدث فيه أعتى المعارك في البر والبحر! سمعنا أن هناك ما يزيد عن خمسة وسبعين ألف جنديّ يابانيّ يعيشون تحت الأرض —».

- «وهناك عددٌ أكبر فوق الأرض. يقال إنهم أكثر من مئتين وخمسين ألف رجل —».

- «سوف يدوس الحلفاء علينا، سيسحقون اليابانيّين هنا، ويتقدّمون خطوةً أخرى باتّجاه اليابان».

تذكّرتُ ما كانت تحكيه جدّتي عن اتّخاذ المغول لجيجو نقطة انطلاق لغزو اليابان والصين. كما استخدمت اليابان جيجو مؤخراً كمُنطلقٍ لشنّ غارات على الصين. إذا كان هذان الرجلان على حقّ، فهذا يعني أننا سنكون نقطة انطلاق مجدّداً، لكن هذه المرّة إلى اليابان.

- «عشر فرق من الجيش الياباني متواجدةٌ هنا - الكثير منها مختبئة! في الكهوف! في قنوات الحمم البركانية! في قواعد خاصة قاموا ببنائها على المنحدرات عند خط الشاطئ مباشرة! سوف ينقضون بزوارقهم الحربية مباشرةً على السفن الأمريكية. تعرفين كيف هم اليابانيّون. سوف يستمرّون في الدفاع عن الجزيرة حتّى يموت الجميع. سوف يقاتلون حتّى آخر رجل!».

رفعتُ مي-جا يدها إلى فمها. شددتُ مين-لي أقرب إلى صدري. فكرة أن الحرب آتية إلى جزيرتنا كانت مرعبة.

- «ماذا ينبغي بنا أن نفعل؟»، سألتُ مي-جا بصوتٍ مرتعش.
- «ما من شيءٍ يمكننا فعله»، قال عامل الرصيف الأول، وهو يحكّ وجهه. «من حسن حظّكما أنكما لم تكونا هنا قبل ثلاثة أشهر —».

- «كان اليابانيون بصدد نقل جميع النساء إلى البرّ الرئيسي واستخدام مَنْ تَبَقَّى مِنَ الرجال لمساعدتهم في القتال —».
- «لكن عندها بدأ الأمريكيان في قصفنا —».
- «قصفوا جيجو؟»، سألتُ وقد اتّجهت مخاوفي على الفور نحو عائلتي.
- «ولديهم غوّاصات حربية قبالة الشاطئ»، قال عامل الرصيف الأول.
- «لقد أغرقوا سفينة كوامارو»، أضاف عامل الرصيف الثاني.
- «لكنّها سفينة رگّاب!»، هتفت مي-جا.
- «كانت سفينة رگّاب. المئات من أهالي جيجو لقوا حتفهم».
- «يريد اليابانيّون الآن من كلّ شخصٍ في جيجو أن يقاتل الأمريكيان حين ينزلون على اليابسة —».
- «كلّ شخصٍ في جيجو؟»، كرّرت مي-جا.
- «يجدر بكما الذهاب إلى منزليكما»، قال عامل الرصيف الثاني. «ولنأمل الأفضل».
- كان ألم الافتراق عن مي-جا وابنها أشدّ وطأة بسبب الأخبار المخيفة، إذ كانت ستعود إلى منزل زوجها في مدينة جيجو، والتي ستكون بالتأكيد الهدف الأوّل في الغزو. استحالَت مي-جا التي توصّلت ربّما إلى نفس النتيجة بيضاء اللون تماماً. مستشعراً توتّر والدته، بدأ يو-تشان في البكاء. دَفَعَ الاستعجال كلّاً منّا إلى استئجار صبيٍّ للمساعدة في أمتعتنا. حالما أصبحت مشتريات مي-جا في عربة الصبيّ، التفتت إليّ.
- «آمل أنّي سأراك مجدّداً».
- «سوف تفعلين»، وعدتها، لكنني لم أكن واثقة.

لمسْتُ خَدَّ يو-تشان. وضعتُ مي-جا راحة يدها فوق رأس مين-لي. بقينا على هذا الحال وقتاً طويلاً.

- «حتى حين نفترق، سنبقى دائماً معاً»، قالت مي-جا.

وضعتُ في يدي ورقةً مطوية. فتحتها ورأيتُ بعض الأحرف المكتوبة. «قبل مغادرتنا أعطاني حمائي عنوان منزل زوجي في حال حدث أيُّ شيء لي»، قالت مي-جا. «أعطيها لك الآن. أتمنى أن تتمكنني من زيارتي ذات يوم». أشارت عندئذٍ للصبي أن يتحرك ثم لحقتُ به عبر مجاميع الجنود. راقبتها حتى اختفت عن ناظري. لم تلتفت للوراء أبداً.

في الرحلة بالشاحنة إلى هادو، جلب كلُّ منعطف معه مشهداً يشي بالتغيير. بدا أنَّ الجزيرة بأكملها قد تحوّلت إلى حصن. أقام الجنود مخيمات في كلِّ حقل وفوق كلِّ تلة. في البعيد، رأيتُ نقاطاً متقدّمة عند قاعدة كل برج منارةٍ قديم على قَمّة كل مخروط بركاني. لقرون، كانت أبراج المراقبة هذه التي تحتلُّ قمم المخاريط البركانية طريقة شعب جيغو لنقل رسائل الدفاع التحذيرية عبر الجزيرة. الآن كانت المدافع موجّهة نحو البحر. حتّى الغربان التي كانت منتشرةً جداً في جيغو، بدت نذير شؤم.

صارت مخاوفي حول ما قد يحدث لجزيرتنا شخصيّة فور وصولي إلى المنزل. علمتُ أنَّ أختي الصغيرة ماتت في الشتاء الفائت بـ«نزلة برد». لم يتلقَّ والدي أيَّ خبرٍ عن شقيقيّ الأوّل والثاني أيضاً. إلّا أنَّ الفرصة لم تتح لي كي أشعر بكثيرٍ من الحزن حيث كان أبي وجدتي وأخي الثالث سعداء للغاية بقاء طفلي. كانت دو-سانغ أكثر من سعيدة لكونها رُزقت بحفيدة، فردّدت لدى رؤيتها لنا الكلمات التقليدية في مناسبة كهذه: «حين تولد فتاة، فثمة حفلة. حين يولد صبي، فثمة ركلة على الورك». علّقتُ على الباب الأمامي حبلًا

ذهبي اللون مع أعواد صنوبر إعلاماً لجيراننا بالخبر السارّ بأنني أنجبتُ ابنةً ستساعد ذات يوم في تأمين الطعام لعائلتنا . لم تستطع يو-ري أن تتوقف عن الابتسام بجذل، لكن كان عليّ البقاء يقظة ألا تكون بمفردها مع مين-لي . لن تتسبّب يو-ري بأيّ أذى متعمّد، إلّا أنّه ليس بوسعي المراهنة على أن تكون لطيفة طوال الوقت .

الشخص الذي تمنيتُ رؤيته كثيراً - زوجي - لم يكن هناك . كان جون-بو قد رجع بأمان من اليابان وعُيّن على الفور في مدرسة بوكتشون الابتدائية والتي تبعد حوالي ستّة عشر كيلومتراً عن هادو . كان هناك الآن، يؤسّس منزلنا الجديد . أردتُ أن أغذّي السير إلى هناك في الحال، لكنّ دو-سانغ أخبرتني أنّهما اتفقا على أن أساعدها في حصاد البطاطا الحلوة، ومن ثمّ أنضمّ إليه في بداية سبتمبر حين يبدأ العام الدراسي . وحتى ذلك الحين، كان عليّ الاستقرار ثانية في حياة هادو القروية .

بالطبع، كنّا جميعاً نشعر بالرعب . إذا بدأت القنابل تتساقط من السماء أو وصلت قوارب الإنزال المليئة بالجنود، فلن يكون لدينا ما ندافع به عن أنفسنا سوى المجارف والمعاول التي نستخدمها في حقولنا الجافة والخطاطيف والرماح التي نستخدمها في حقولنا الرطبة . لكن ما من شيء يذكرك بأنّ الحياة تستمرّ مثل وجود طفل . أنجبت إحدى الأختين كانغ - غو-سُن - طفلةً أثناء غيابي، أسمتها وان-سون، وكانت بنفس عمر ابنتي . أمضينا نحن الأربعة ساعاتٍ كثيرة معاً . غالباً ما ثرثرت غو-سُن بشأن كيف ستكون طفلتينا مقرّبتين كحالتها هي وأختها أو كحالنا أنا ومي-جا : «لربّما مين-لي ويو-تشان سيتزوّجان ذات يوم، لكنّهما لن يكونا أبداً صديقين كما ستكون مين-لي ووان-سون» . لم أجادل غو-سُن في ذلك أبداً، بل تقبّلتُ صداقتها بدافع الضرورة أكثر من كونه بدافع الحب أو تقارب

العقول. كانت طفلتان بحاجة للرعاية والتجشؤ والغتسال وتغيير الملابس والنوم. لذا كنتُ سعيدةً برفقة غو-سُن.

كانت مين-لي طفلةً طيبةً لحسن الحظ، ما عني أنه أمكن ليدي أن تظلاً مشغولتين. حين كنتُ في المنزل الصغير، استخدمتُ قدمي كي أهرّ مهدها، حتى أتمكّن من استغلال يدي في إصلاح الشباك، وشحذ السكاكين، وترميم ملابس الغوص. عندما ذهبنا إلى حقول البطاطا، كانت تبقى في مهدها الذي لففته بقطعة قماش لحمايتها من أشعة الشمس. اعتنى والدي بمين-لي من أجلي حين ذهبتُ للغوص مع دو-سانغ وباقي الجماعة. كان يقابلني خارج البولتيوك لدى عودتنا من أجل الغداء وفي نهاية اليوم فأتكّن بذلك من إرضاعها في الممرتين. لطالما كان جيداً في رعاية الأطفال، وكان يشرب كميات أقل الآن.

استمرت تلك الحياة - حياة امرأة ناضجة، وأم، وهينيو - أسبوعاً واحداً بالضبط. سمع الرجال الجالسون تحت شجرة القرية الأخبار على جهاز الراديو. لقد ألفت الولايات المتحدة في ذلك اليوم - السادس من أغسطس - قنبلة ذرية على هيروشيما. لم نكن نعرف ما هي القنبلة الذرية، لكن بحسب التقارير التي سمعناها فإنّ مدينةً بالكامل قد سوّيت بالأرض... فكّرنا في والد زوجي الذي كان في هيروشيما... إذا عاد زوجي إلى البيت لتأدية الشعائر مع الشامانة كيم، فسيكون علينا عندئذٍ تقبّل حقيقة أن والد زوجي قد مات. لكنّ جون-بو لم يأت. ذرفت دو-سانغ مع ذلك الكثير من الدموع قلقاً وحزناً، لم تعرف ما إذا كان زوجها قد نجا أم لا لكنّها كانت تشكّ في ما هو أسوأ. ثمّ بعد يومين، أخبرنا المذيع أنّ الاتحاد السوفييتي أعلن رسمياً الحرب على اليابان. ثمّة الآن قوّة عالمية أخرى قد ترغب في استخدام جيغو كقاعدة انطلاق. في اليوم

التالي، ألقت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية الثانية، هذه المرة على ناغازاكي. إذا كان بمقدور الولايات المتحدة الوصول إلى اليابان جواً، فهذا يعني أنه يمكنها بسهولة الوصول إلى جيجو حيث تتواجد الكثير من القوّات اليابانية. وماذا سيفعل الاتحاد السوفييتي عندئذ؟

لكن لم تصل إلينا أيُّ قنبلة، ولم يحدث غزوٌ بريّ أو بحري، لأنَّ الإمبراطور اليابانيّ استسلم بعد ستّة أيّام. لطالما أطلقنا على الأحداث التاريخية أسماءً مقرونة بتاريخ حدوثها. أصبح هذا الحدث يُعرف بـ 8/15 يوم التحرير. لقد تحرّرنا أخيراً من المستعمر اليابانيّ! كما أعتقنا كذلك من العدد الهائل من القتلى الذي كان يمكن للغزو أن يتسبّب به. ذهبنا للنوم مبتهجين، لكن في صباح اليوم التالي كان كلُّ اليابانيين - عسكريّين ومدنيّين - لا يزالون في جيجو.

سمعنا عبر الراديو أنّ كوريا ستخضع لإشرافٍ دولي بوسايةٍ مشتركة من أربع دولٍ هي: الولايات المتّحدة، الاتحاد السوفييتي، المملكة المتّحدة، والصين. قامت الآن مجموعة أخرى من الرجال على الجانب الآخر من العالم بتقسيم بلادنا أيضاً على امتداد خطّ العرض الثامن والثلاثين. عنى هذا - رغم عدم فهم أيّ منّا للجانب العمليّ للأمر - أنّ الاتحاد السوفييتي سيشرّف على كوريا التي تقع فوق ذلك الخطّ، والولايات المتّحدة ستشرّف على كوريا التي تقع تحت ذلك الخط ريثما نعبر المرحلة الانتقالية للاستقلال ونقوم بتشكيل دولتنا.

اعتقدنا أنّنا أصبحنا أحراراً، لكن الفرق الوحيد الذي لمسناه في جيجو كان إنزال العلم اليابانيّ، ورفع العلم الأمريكيّ. استُبدلَ مستعمرٌ بمستعمرٍ آخر.

ذيلُ تنّورة

سبتمبر 1945 - أكتوبر 1946

بعد أسبوعين، تحضّرتُ للانتقال إلى كنف زوجي . ساعدتني دو-سانغ، ولمّا أنهينا حزم كلِّ أمتعتي، قالت لي: «أنتِ وابني متزوّجان حديثاً، كما أن لديكِ طفلةً رضيعة لم يرَها جون-بو بعد، لكنني أتوسّلُ إليك أن تأخذي يو-ري معك. لطالما كنتِ طيّبةً معها، وسيكون ذلك لفترةٍ قصيرة فقط». كنتُ أعرفُ أنّ دو-سانغ قلقةٌ بشأن مصير زوجها في اليابان، فقبلتُ بذلك تخفيفاً للعبء عنها. وهكذا، في الأوّل من سبتمبر، قاد والدي خنزيري، بينما حملتُ جدّتي وأخي الثالث - الذي لم يعد مضطّراً للاختباء - حصائر النوم واللُحف والملابس وأدوات المطبخ خاصّتي إلى الأولي، حيث قاموا بتحميل كلِّ شيء في العربة التي تُجرُّ بواسطة حصان والتي كنتُ قد استأجرتها. لطالما كانت دو-سانغ امرأةً قويّة، لكنّها كانت تمشي الآن إلى العربة ممسكةً بذراع يو-ري والدموع تنهمر على خديّها.

- «اعتني بها جيّداً»، قالت دو-سانغ.

- «سأفعل»، وعدتُها.

- «ارجعي من أجل مهرجان رأس السنة القمرية»، قال أبي.

- «سوف أرجع في مناسبات أكثر من ذلك. بوكتشون ليست

ببعيدة. سيكون بمقدوري العودة من حين لآخر». لكنني كنتُ أيضاً أفكر في زيارة مي-جا في مدينة جيجو والتي كانت تبعد حوالي عشرين كيلومتراً عن بوكتشون. تلك كانت مسافات أستطيع أن أقطعها مشياً.

كان السائق يتوق للانطلاق، لذا لم نكن نملك الكثير من الوقت للدموع، لكنّ شعوراً بالتوجّس والرّهبة جعلَ الفراق قاسياً وحسب. حين بدأت العربّة تتفاّز على الطريق الترابي، ظلّت عيناى شاخصتين باتجاه عائلتي. حتّى دو-سانغ لم تتزحّج من مكانها حتّى اختفينا عن الأنظار.

وصلنا بعد بضع ساعات إلى بوكتشون. تركتُ السائق على الطريق كي ينتبه إلى يو-ري، وخنيري، وأغراضى الأخرى، ثمّ مشيت عبر الأزقة مروراً بالمنازل الحجرية ذات أسقف القش، وصولاً إلى الشاطئ. بُنيت بوكتشون حول خليج صغير محميّ جيّداً. كان الشاطئ هنا رملياً أكثر منه في هادو، لكن لا يزال هناك الكثير من الصخور البركانية لأسير عليها وأنا أشقّ طريقي إلى البولتيوك. دخلتُ حاملّة طفلي بين ذراعيّ. كانت ثلاث نساء يجلسن قرب حفرة النار والشمس تغدق عليهنّ أشعّتها عبر الهيكل الذي لا سقف له. انحنيتُ لهنّ عدّة مرّات بينما اندفعن على أقدامهنّ وهتفنّ بأصواتهنّ العالية: «أهلاً بك! أهلاً بك!».

قلتُ بعد أن عرّفتُ عن نفسي: «زوجي هو المعلّم الجديد في قريتك. هل بوسعكم إخباري كيف أعثر على منزل يانغ جون-بو؟». خطتُ إلى الأمام امرأة في الأربعينيات من عمرها، بارزة عضلات الفخذين والذراعين. «أنا رئيسة الجماعة هنا. اسمي يانغ جي-وون. أخبرنا زوجك بأنك قادمة. سمعنا أيضاً أنك هينيو خيرة. لذا نودّ أن نعرض عليكِ حقوق الغوص في قريتنا».

انحنيت مجدداً بضع مرّات تعبيراً عن امتناني، لكن كان عليّ أن أضيف شرطاً: «عليّ أن أري ما يقوله زوجي في هذا الشأن. هو رجلٌ عامل كما تعلمون».

لم يكن وضعي هذا مألوفاً بالنسبة لهنّ، فأخذنَ يضحكنَ بلطف.

- «لا بدّ أنكِ وطفلتكِ متعبتان»، قالت جي-وون. «دعينا نأخذكِ إلى منزلِك»، ثمّ تقوّست زاويتا فمها نحو الأعلى، وأضافت بنبوة تشي بالكثير: «لقد كان زوجكِ يتوق إلى وصولكِ». ووعت الأخريات. احمررتُ خجلاً.

- «لا داعي لأن تشعري بالخجل معنا. أنتِ لم ترزقي بهذه الطفلة عبر كونكِ جميلة فقط».

أشارت لي أن الحق بها، لكن الأخريات أتينَ أيضاً. عبرنا سلسلةً أخرى من الأزقة. بعيداً إلى الأمام، رأيتُ المدرسة، وإلى اليمين منها سلسلةً من المنازل الصغيرة التي يقبع كلٌّ منها خلف جداره الحجريّ الخاص.

- «يعيشُ جميع المدرّسين في هذه المنازل»، قالت جي-وون. «هذا هو منزلِك».

صاحتِ امرأةٌ أخرى: «أيّها المعلّم يانغ، زوجتك هنا!». دفعْتُني النساء الثلاث عبر البوابة مع كثيرٍ من الضحك. ثمّ استدرنَ عائدات عبر الزقاق مفسّحاتِ المجال لي ولجون-بو كي نسلمَ على بعضنا بخصوصية. حين رأيتُ طيفه في المدخل، تلاشى كلُّ قلق الأشهر الأخيرة - فراقنا، والاعتناء بطفلة بغياب والدها، والمعركة الوشيكة للسيطرة على جزيرتنا كقاعدة انطلاق. كنتُ من الهينيو - امرأةٌ مستقلة وقوية - لكنني كنتُ مشتاقةً لزوجي. اندفع

نحوي، وتوقف على بعد مترٍ واحد كي يتسنى لنا الانحناء وتبادل التحية.

- «اشتقتُ إليك».

- «سعيدٌ أنك بخير».

- «تبدو بصحةً جيّدة».

- «تبدین نحيفة».

- «هذه ابنتك. أسميتها مين-لي».

أزاح قطعة القماش التي تحمي وجهها من الشمس. ابتسم.
«فتاة جميلة، واسمٌ جميل».

- «يو-ري معي، إنها تنتظر عند العربة».

شحبت ملامحه بعض الشيء. ربّما لم يكن هذا لَمَّ الشمل الذي كان يتوقّعه، لكنّه استعاد حيويّته سريعاً وقال: «دعينا نذهب ونحضرها هي وكلّ شيءٍ آخر».

جرّ السائق أمتعتي، فيما رافق جون-بو شقيقته. حضّرتُ لها مكاناً قرب جدار المطبخ الدافئ. وضعتُ بمساعدة جون-بو أغراضِي في أماكنها. نامتُ مين-لي في مهدها. تمدّدنا فوق حصيرة نومنا دون أن نتناول العشاء الذي كان زوجي قد حضّره. كان جائعاً لافتراس لحمي. كنتُ حتّى أكثر جوعاً لافتراس لحمه. لم نقلق بشأن ما إذا كانت يو-ري تشاهدنا أو تستمع إلينا. حين انتهينا، كوّمتُ نفسي تحت ذراعه المثنية، وصليتُ لها لمانع سامسيونغ: ازرعني الليلة ابناً بداخلي.

في اليوم التالي، وقّع امبراطور اليابان رسمياً اتّفاقية إنهاء الحرب، والتي أخرجت الكثير من الجنود اليابانيين المرابطين في جييجو من كهوفهم وأنفاقهم مثل النمل الذي غمرت المياه أوكاره. لم ينتظروا وسائل النقل العسكرية، بل أمّنوا على الفور طريق عودتهم

على العبّارات وغادروا. لكنّ الآلاف منهم بقوا في مخيّماتهم على سفوح التلال. قبل أن ينقضي أسبوعي الأول هناك، عرفتُ من دورة القمر أنّ فترة الغوص الأولى لهذا الشهر تكاد تنتهي. وقفتُ عند مدخل منزلي، يو-ري جالسةً عند قدميّ، بينما نساء الهينيو من أجزاء أخرى من بوكتشون يشقن طريقهنّ من أمام منزلي إلى البحر. نادتنني الكثير منهنّ: «انضمّي إلينا»، أو «تعالِ إلى البولتيوك». لوَحْتُ لهنّ فحسب، وتفرّجتُ عليهنّ يذهبنّ. وتفرّجتُ عليهنّ يرجعنّ في فترة بعد الظهر - سعيدات، صاخبات، وقويّات، وذلك بعد أن أكون قد كنستُ الفناء، وحمّمتُ يو-ري، وخلّلتُ الخضار للشتاء. وجدتُ نفسي أفتقد رفقة كانغ غو-سُن ووان-سون، الرفقة ووسائل الراحة في البولتيوك، وغير ذلك الكثير.

في العاشر من سبتمبر، اجتمعت لأوّل مرّة في مدينة جيجو لجنة التحضير للاستقلال الكوريّ. جميع أعضاء اللجنة كانوا قد قادوا أو شاركوا في حركات مناهضة لليابانيّين. بالطبع فقد كانت أهداف اللجنة الحصول على استقلال حقيقيّ للجزيرة وعموم كوريا، وإجراء أوّل انتخابات في تاريخنا. أصبحتُ هذه الهيئة في النهاية لجنة الشعب. أطلقتُ كلُّ قريةٍ في جيجو لجنّتها المحليّة الخاصة لتأسيس نوادٍ للشباب، ووحدات حفظ السلام، وجمعيات نسائية. بذلتُ كلُّ قريةٍ بمساعدة هذه اللجان جهوداً حثيثةً للقضاء على الأميّة. كان على جميع الصّبية أن يتعلّمن، لكن تم أيضاً تشجيع النساء والفتيات على حضور الفصول الدراسية.

- «يرغب قادة القرى في غرس نوع من الوعي السياسيّ في نساءٍ مثلك. أتمنّى منك الذهاب»، قال جون-بو.

- «لطالما أرادت لي والدتي أن أكون متعلّمة، وقد كانت سياسيّةً بالتأكيد»، أجبتُه.

- «يمكنك الآن أن تكوني مصدر إلهام بالنسبة لابتنتنا مثلما كانت والدتك بالنسبة لك». .
لكنني تساءلتُ ما الفائدة التي سأجنيها من التعليم في الوقت الذي كان كلُّ ما أردته هو الغوص .

لم يكن زواجنا تقليدياً: كان جون-بو يذهب للعمل كلَّ صباح ، ما عني أنّ أحداً ما كان عليه أن يهتمَّ بمين-لي ، وهو ما يعني بدوره أنني لا أستطيع الغوص . كان عليّ بالإضافة إلى المهام المنزلية أن أحرص ألاّ تسرح يو-ري بعيداً . نظَّفتُ المنزل وغسلتُ الملابس . كان جون-بو يعود إلى المنزل مرهقاً ولا يزال عليه وضع درجاتٍ لطلابهِ ، ما عني أنّه كان عليّ تحضير العشاء أيضاً . ظلَّ جون-بو يشجّعني على الذهاب إلى المدرسة الليلية كي أتعلّم القراءة والكتابة ، لذا ذهبتُ في نهاية الأمر . لم أملك موهبةً في القراءة والكتابة على أية حال . مهاراتي كانت في البحر ، لكنني حاولتُ أن أكون زوجةً كوريّةً تقليدية . زرعتُ البذور في حديقة مطبخي . وفي يوم خريفيّ حارٍّ على نحوٍ نادر ، أعددتُ لزوجي حساءً منعشاً من الخيار المبشور ومعجون فول الصويا محليّ الصنع في مَرَق سمك الدامسيل . وحين عانى زوجي من نزلة برد ، أعددتُ له عصيدة مسحوق الفول مع التوفو وأرزاً ملفوفاً بأوراق الفاصولياء . من ناحيته ، لم يجلس زوجي تحت شجرة القرية ، بل أعدَّ وأطعم ابنتنا عصيدة أذن البحر ، لم يقامر ، ولم يشرب . كانت نمط حياتنا معكوساً ومخالفاً للنمط السائد في جيجو . اعتقدتُ أننا سنكون بخير . بعدئذٍ ، وإذ تحرّك القمر في سماء الليل ، شعرتُ وأنا أرى فترة الغوص التالية تدقُّ الأبواب بالبحر يجذبني إليه بقوة . كنتُ قد نجحتُ في الابتعاد عنه لما يزيد قليلاً عن ثلاثة أسابيع .

ذات ليلة - بعد أن غطّت الطفلة ويو-ري في النوم، وبعد أن تطارحنا الغرام أنا وجون-بو - استجمعتُ شجاعتي كي أتكلّم. «نحن نعيش سوياً تحت سقفٍ واحد منذ وقتٍ قصير بعد أن كنّا منفصلين لما يقرب من سنةٍ كاملة. قبل ذلك، كنّا معاً لبضعة أسابيع فقط —».

- «وما زلنا لا نعرف بعضنا جيّداً»، أكمل جون-بو الجملة لي. «أريد أن أعرفك أكثر وليس فوق حصيرة نومنا فحسب». مال نحوي وقبّل وجنتي. «هل آذيتُ مشاعركِ بشكلٍ ما؟ أودّ أن تعرفي كم أنا ممتنٌّ لكلّ ما تفعلينه. اعتناؤك بشقيقتي وحدك... لكن أرجوكِ أخبريني كيف يمكنني أن أكون زوجاً أفضل؟».

- «أنتَ زوجٌ رائع، وأريد لك أن تكون سعيداً على الدوام»، قلتُ له. «لكنني أفتقد البحر».

استدار نحوي وقد علا وجهه تعبيرٌ ينمُّ عن الارتباك. «لا أريد أن أكون من نوع الرجال الذي يعيش في منزلٍ قوامه الاعتماد على ذيل تنورة زوجتي».

- «لا أقول أنّك كذلك». حاولتُ أن أشرح له بطريقةٍ قد يفهمها. «أحبّ طريقتك في لمسي والوقت الذي نقضيه فوق حصيرة نومنا، لكنّ كوني من الهينيو —».

- «هو شيءٌ خطير».

صَحَّحتُ له. «إنّ كوني من الهينيو هو ما أنا عليه. هناك جوانب في هذه الكينونة أحتاج إليها كثيراً. أنا أتوق إلى الماء، وإلى الشعور بالانتصار حين أجد شيئاً ذا قيمة كبيرة، كما أفتقد رفقة النساء». لم أضف أنّي كنتُ أحبُّ كيف يمكن للنساء الكلام والضحك في البولتيوك دون الخوف من إيذاء مسامع الرجل عالية الحساسية. «الأهمُّ من ذلك كلّهُ أنّي أفتقد لكوني مساهمة في الكسب. لقد

عملت طوال حياتي، فلماذا عليّ التوقف الآن لمجرد كونك مدرّس؟».

- «كنت أمل أن أبقى في أمانٍ بعد ما حدث لوالدتك وليو-ري، لكن من الواضح أن هذا الأمر شديد الأهمية بالنسبة لك، وسوف لن أتشاجر معك بشأنه. أنا ابن أمي في الأخير، وهي لم تتوقف عن الغوص بعد حادث أختي، ولم تستسلم الآن حتى بعد ما بات والدي...».

حتى جون-بو لم يستطع أن يقرّ بما كان جلياً - بأنّ والده كان الآن طيفاً جائعاً يهيم على وجهه بين أنقاض هيروشيما المدمّرة.

- «لقد رُزقنا بفتاة فعلاً»، قال مغيراً مسار الحديث بسرعة.

«ولربّما نرزق بالمزيد من الأطفال إذا كانت هالمانغ سامسيونغ طيبةً معنا. أريد لهم أن يكونوا متعلّمين سواء كانوا فتية أو فتيات، تماماً كما أريد أن تحظي بفرصتك لنيل العلم».

أرسلُ ابنةً إلى المدرسة؟ لم أكن واثقة من أنني أستطيع فعل ذلك رغم كلّ شغف زوجي بالتعليم. لن أرغب بالتأكيد في إنفاق الرسوم اللازمة لإرسال فتاة إلى مدرسة عامة حتى إذا استطاعت الالتحاق بها. أمّا فكرة إرسال فتاة إلى مدرسة خاصّة... لا بدّ أن جون-بو استشعر أفكاره هذه.

- «يمكننا أن نقرّر معاً ما هو الأفضل لأطفالنا. البحر مهمّ لك، والتعليم مهمّ لي، لكن بما أكسبه لن أتمكّن أبداً من دفع رسوم التعليم لخمسة أو ستة أو سبعة أطفال. سأكون بحاجة إلى مساعدتك».

- «سبعة؟». حاولتُ حساب الرسوم الدراسية في رأسي. كان هذا مستحيلاً.

ضحكنا معاً، وجذبني إليه.

- «حتّى لو لم تُرزق سوى بابتنا هذه، أريد لها أن تحصل على نفس الفرص التي وقرّتها لي والدتي. سوف تذهب إلى المدرسة و—».

- «لكن ليس إن كان لدينا سبعة أطفال! سوف أحتاج إليها عندئذٍ لمساعدتي في رعاية الصغار، وفي وقتٍ لاحقٍ للمساعدة في جعل أشقائنا يلتحقون بالمدرسة».

- «أشقائنا وشقيقاتنا»، قال مذكراً.

رَبَّتْ على ظهره. الكثير جداً من الأفكار المترعة بالأحلام والأمنيات، لكن ماذا قد نتوقع من رجل غير ذلك؟

في صباح اليوم التالي، ذهبْتُ من بابٍ إلى بابٍ بحثاً عن صبيّة أو جدّة يمكنني توظيفها للاعتناء بيو-ري ومين-لي. عثرتُ على امرأةٍ مسنّة كانت قد تقاعدتُ مؤخّراً من حياة البحر. وافقت الجدّة تشو على العمل مقابل خمسةٍ بالمئة ممّا أخرجه من قاع المحيط كبذلٍ طعامٍ لها. بحثتُ في تلك الليلة بين أغراضٍ كي أجمّع معاً الملابس المائية ونظاراتي الواقية وعوامتي وغير ذلك من أدوات الحصاد البحري.

وصلت الجدّة تشو باكراً في اليوم التالي. ذهبت الطفلة إليها دون مشاكل. لم يبدو أنّ يو-ري مهتمةٌ بشكلٍ أو بآخر بتواجد شخص غريب في المنزل. يتعيّن على كلّ أمٍّ تركُ أطفالها كي تعمل، وكلُّ أمٍّ تعاني بسبب ذلك، لكننا نفعل ذلك على أيّة حال. التقطتُ معدّاتي بعد أن ودّعتُ طفلي، ومضيتُ إلى البولتيوك.

- «كنّا نتساءل كم ستستغرقين من الوقت حتّى تأتي إلى هنا»، صاحتُ جي-وون مهلّلة. «لم تُخلق المرأة للبقاء في المنزل!».

يحدث في بعض الأحيان ألاّ ترغب جماعات الغوص في القرية

في السماح لزوجته جديدة بالانضمام إليها. قد تكون مناطق الصيد صغيرة، أو أنها تعرّضت للصيد الجائر بسبب سوء الإدارة أو الجشع، أو لأنهم لا يعطون أهميّة لهذه الزوجة الجديدة ببساطة، أو لأنّ عائلة زوجها كانت سبباً لضغائن وأحقاد، أو أنّ مهاراتها ليست جيّدة بما يكفي للتكيّف مع مياه جديدة. لكن لم يكن هذا هو الحال بالنسبة لي.

- «هيه، إنّ زوجك هو معلّم ولدي»، صاحت امرأة. «تعالى واجلسي معي هنا!».

- «أنا أعيش بالقرب منك»، صاحت امرأة أخرى. «اسمي جانغ كي-يونغ. تلك هي ابنتي». أشارت إلى الجهة المقابلة من الدائرة نحو شابة صغيرة، لوّحت هذه الأخيرة لي مشجّعة إياي للذهاب إليها. ضحكت كي-يونغ وحسب. «كُفّي عن ذلك يون-سو. أنتِ والأخريات مجرّد غوّاصات-طفلات. يونغ-سوك تبدو كغوّاصة-صغيرة».

- «سنرى بهذا الشأن»، قالت جي-وون. «اجلسي حالياً مع كي-يونغ. ستغوصين معها اليوم. سوف تقيّم مهاراتك، وغداً سوف أعلمكِ مع أيّ مجموعة سوف تجلسين». ثمّ خاطبت جي-وون المجموعة بينما كنتُ أشقّ طريقي صوب كي-يونغ. «والآن، أين سنغطس اليوم؟ كنتُ أفكر...».

لاحقاً، جدّنا في عرض البحر. نجذب المجذاف مسافةً طويلة متغلّبات على مقاومة المياه، ثمّ نرفعه فوق الأمواج ونغرقه مجدّداً في البحر كي نجذبه من جديد. كنتُ قد عملتُ خلال السنوات الماضية كعاملة متنقّلة على متن قوارب مزوّدة بمحرّكات. لم أفقد كلّ القوّة في ذراعيّ، لكنني سأعاني آلاماً في الغد بالتأكيد. كم كان ذلك الشعور طيّباً!

لم نبتعد لمسافة كبيرة جداً، ولم يأخذنا غطسنا لأكثر من عشرة أمتار نزولاً إلى القاع. لكنَّ قاع البحر كان يضجّ بالحياة حتى في هذه المياه الضحلة نسبياً. لربّما ستكون هذه تجربة شاقّة ومعقّدة بالنسبة لامرأة لم تدخل يوماً مياهاً جديدة، ولم تعرف غير الحقول الرطبة التي كانت تغوص فيها مع والدتها وأخواتها وبنات عمّها والهيئو الأخريات من قريتها الأم. لكنني غصتُ في بحر اليابان، والبحر الأصفر، وبحر الصين الشرقي. كلُّ بقعة غوص جديدة مختلفة وفريدة من نوعها، لأنّ المحيط معقّد ومتنوّع جداً رغم أنّه كيانٌ واحد عظيم الاتّساع. وكما هو الحال فوق سطح الأرض، كان القاع يحوي جبلاً وأخاديد ورمالاً وصخور، كما يحوي أيضاً أنواعاً مختلفة من الحيوانات: بعضها مفترس، وبعضها فريسة، بعضها يحبُّ ضوء الشمس، وبعضها يفضل أمان الكهوف المظلمة. حتّى النباتات تخبرنا أنّ اليابسة والبحر ما هما إلّا صورتان تطابق إحداهما الأخرى - بوجود الغابات والزهور والطحالب وغير ذلك الكثير. قد لا أكون أتيتُ إلى هنا قبل اليوم، لكنني كنتُ في بيتي الحقيقي، وقد أثبتُ صحّة ذلك. أعجبت جي-وون بأدائي كثيراً، وكافأني بمقعدٍ بين الغوّاصات-الصغيرات والغوّاصات-الجذّات.

- «رغم أنّ يونغ-سوك متزوّجة حديثاً، إلّا أنّ مهاراتها متقدّمة جداً»، شرحتُ جي-وون للجماعة. «يونغ-سوك، نرحّب بأنفاسك السومبيسوري بين أنفاسنا».

بعد أسبوعين، وبينما كنّا نجذّف في البحر، اجتاحتني موجةٌ من الغثيان. عرفتُ في الحال ما يعنيه ذلك، فارتسمتُ على وجهي ابتسامةً عريضةً، ثمّ كان عليّ أن أسحب مجذافي وأنحني فوق طرف القارب كي أتقيأ فطوري. كان خروج القيء حارّاً جداً بوجود الفلفل بقدر ما كان حارّاً حين تناولته. هفت الهيئو الأخريات مهلّلات.

- «فلتكن بنتاً!»، صاحت جي-وون. «ستنضم ذات يوم إلى جماعتنا!».
- «فليكن صبيّاً!»، هتفت كي-يونغ. «لا تزال يونغ-سوك بحاجة إلى صبي».
- «فليكن المولود موفور الصحة»، قال زوجي لدى عودتي إلى البيت.
- «لا يمكن لأيّ امرأة أن تقلّل من شأن عاطفة الرجل»، أكدت جي-وون في اليوم التالي، ووافقنا جميعاً.

في نهاية سبتمبر، وصلت مجموعة من الضباط الأمريكيين إلى جيجو لقبول استسلام بقية الجنود اليابانيين؛ أولئك الذين ظلّوا على الجزيرة مختبئين تحت الأرض. قيل لنا إنّ الأمريكيين سيجلّبون لنا الديمقراطية، وسيسحقون الشيوعية، لكن معظمنا لم يكن يعرف الفرق بين الاثنين. كنّا نريد أن نترك وشأننا كي نتحكّم في شؤون حياتنا. لم نرد حتّى لسكّان البرّ الرئيسي أن يتدخّلوا. في غضون ذلك، ألقي الأمريكيون بنادق اليابانيين ومدافعهم في البحر، كما فجّروا دباباتهم، وأشعلوا النار في الطائرات. أيقظت أصوات الانفجارات العجائز من قيلولاتهم. أحرق الدخان اللاذع الذي جلبته رياح جيجو القويّة أعيننا وراثتنا، وألصق طعاماً حامضياً بالسنتنا.

- «هذه ليست بفترة غوص. ربّما يجدر بك أن تأخذي يوم استراحة لزيارة صديقتك في المدينة»، اقترح جون-بو عليّ. «قد يكون الهواء هناك أفضل لك ولمين-لي».

كانت فكرة رائعة، لكنني لم أرغب في ترك جون-بو وحيداً. إلّا أنّه أصرّ عليّ أن أذهب. بحثت لعدّة أيّام عن بعض الهدايا لأخذها

معي: فطرٌ مقطوف من سفح مخروط بركاني، وحبق الماء المجموع من أطراف الشاطئ إذا احتاجت مي-جا أن تنظف الزجاج، وبعض الأعشاب البحرية حتى تنكّه حساء زوجها. جمعتُ كلَّ هذه الأشياء في سلّة. أعطى جون-بو عنوان مي-جا لسائق العربة، ومضيت أنشد رؤية صديقتي.

كانت الشوارع لدي وصولي مع مين-لي إلى مدينة جيجو بالكاد سالكة بسبب الازدحام الشديد. آلاف من الجنود اليابانيين - ورجال الأعمال اليابانيين والتجار وعائلاتهم - اصطفوا في طوابير طويلة باتجاه الميناء كي يصعدوا على متن السفن. وفي الاتجاه المعاكس كان الآلاف من سكّان جيجو عائدين إلى ديارهم من أوساكا ومناطق أخرى في اليابان حيث كانوا يعملون. رجالٌ ونساء عاطلون عن العمل يتجمعون في كلِّ مكان، إذ أغلقت المصانع ومعامل التعليب التي امتلكها اليابانيون أبوابها. وكان هناك أيضاً اللاجئون الذين فروا جنوباً وإلى جزيرتنا بعد تقسيم البلاد عند خطّ العرض الثامن والثلاثين. كانت الأسابيع الماضية مخيفة، لكنّ الفوضى ومنظر الحشود أصاباني باضطراب شديد.

كنتُ لا أزال مشوّشة عندما أوقف السائق العربة أمام منزلٍ على الطراز اليابانيّ. طرقتُ الباب، واستقبلتني مي-جا مع طفلها على كتفها، كانت رقبتها تتأرجح وهو يحاول رفع رأسه كي ينظر إليّ. لم تكن تعرف بقدومي، لكنّها لم تبدُ متحمّسة لظهوري غير المتوقع في منزلها. استبعدتُ أن يكون ردُّ فعلها تعبيراً عن المفاجأة. خلعتُ حذائي ولحقتها بصمتٍ إلى داخل المنزل، الذي كان أكبر وأكثر أناقة ممّا تخيلت. كان كلُّ شيء نظيفاً ومرتباً. وُضع إناءٌ من الزهور على حافة النافذة. الأرضيات كانت من خشب الساج المصقول بدلاً من الألواح الخشبية المهترئة التي عرفتُها طيلة حياتي. الأرائك التي

جلسنا عليها كانت من الحرير. لكنَّ الغرفة كانت هادئةً على نحوٍ مخيف حتَّى بوجود طفلين لم يبلغا بعد الأربعة أشهر. وضعناهما جنباً إلى جنب. كان ابن مي-جا يمضُّ قبضته، بينما غطَّت ابنتي في النوم. سيكون علينا أنا ومي-جا الانتظار طويلاً قبل أن نراهما يلعبان معاً، ناهيك عن التفاوض على اقترانهما معاً بالزواج. الأطفال هم الأمل والفرح. غمرني إحساسٌ بالسلام، وبأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام - شيءٌ لم أشعر بمثله أبداً مع غو-سُن ووان-سون في هادو، رغم الأوقات اللطيفة التي قضيناها سوياً - لكن حين تأملتُ مي-جا جيداً، انقلب إحساسي بصورةٍ قسرية. بدتُ شاحبةً ومذعورة كحالها حين ودّعنا بعضنا على رصيف الميناء. طرحْتُ أوّل سؤال خطر ببالي.

- «أين الجميع؟».

ارتفع حاجباها عالياً فوق جبهتها مثل اليسروع. «سوف تعتقدين أنَّ العملاء من أمثال والد زوجي سيتلقّون عقابهم. لكن بدلاً من ذلك فقد وظّفته —». كافحت هنا لتتطق الكلمات الجديدة بالنسبة لنا جميعاً. «الحكومة الأمريكية الانتقالية لمساعدة الجيش الأمريكي في الخدمات اللوجستية».

كانت هذه الكلمات والمفاهيم غريبة تماماً بالنسبة لي، لكنَّ الطريقة التي تحدّثتُ بها مي-جا جعلتها مثيرةً للقلق. تكلمتُ همساً، رغم أننا كنّا وحدنا.

- «يريد الأمريكيّون أن تستمرّ الجزيرة في العمل بأكبر قدرٍ ممكن من السلاسة»، تابعت مي-جا كما لو أنّها تستذكر ما شعرتُ أنّه يجدر بها قوله. «هم يخطّطون لاستعادة الأعمال والأنشطة التجارية التي خلفها اليابانيون وراءهم. يقول حمائي أنّه يمكن أن تحدث أعمال شغب بوجود الكثير من مواطنينا وقد أصبحوا الآن عاطلين عن العمل. يقول إنّ هناك أكثر من مئة ألف مهاجر قد عادوا

من اليابان». لا بدّ أن الذين رأيتهم يتسكعون في الشوارع أثناء قدومي إلى هنا هم بعض من أولئك الذين تتحدّث عنهم مي-جا. «الرجال - والنساء أيضاً - سيقدّمون على أفعال تنم عن اليأس حين يقرصهم الجوع».

- «لطالما كنّا جوعاً في جيجو»، قلتُ لها.

- «هذا وضع مختلف. هناك الكثير من الناس وليس هناك ما يكفي من طعام»، تنهّدت مي-جا. «كان والد زوجي عميلاً لليابانيين. الآن هو عميلٌ للأمريكان. ستظلّ هذه الصفة مرافقةً لي على الدوام».

هل كان هذا صحيحاً؟ هل كانت عاجزةً بالفعل عن تغيير قدرها؟ أيّاً يكن عدد القرايين التي نقدّمها للآلهة، يكاد تغيير مصائرنا أن يكون مستحيلاً. حاولتُ توجيه دفة الحديث في اتّجاه جديد.

- «حماتي ليست امرأة سيئة»، قلتُ لها. «أنا أكرّ كل الاحترام لمهاراتها المائيّة، لكنني سعيدة لأنني لا أعيش الآن داخل سور بيتها. كيف هي الأحوال مع حماتك؟».

كلّ العرائس يتحدّثن في هذه المسائل، وتوقّعت أن تفتح لي مي-جا قلبها كما فعلتُ دائماً.

- «ذهبتُ السيّدة لي إلى سوق الأيّام الخمسة»، أجابت مي-جا، وكان هذا كلّ شيء. سرحتُ بعينيها صوب النافذة. شعرتُ أنّها تتوق إلى البحر، لكن كم كان غريباً أنّها لم تستفسر عنيّ أو عن زوجي أو عن الذين نعرفهم. لم تطرح حتّى سؤالاً واحداً بخصوص هادو.

جرّبتُ مقارنةً أخرى. «هل زوجك على ما يرام؟».

عندئذٍ، بدا أن جسدها استحال خفيفاً كالريشة بحيث كان يمكن أن ترتفع عن الأرض وتنطلق خارجةً من النافذة. «آخر مرّة كتب فيها

سانغ-مون إلى والديه كانت منذ خمسة أشهر. كان في بيونغ يانغ؛ فوق خطّ العرض ثمانية وثلاثين، يزور المستودعات ويتعلّم على نحوٍ أفضل إدارة الشحن والتخزين. لم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين».

ربّما لم يكن هذا الخبر الأسوأ. مع ذلك، تردّدْتُ قبل أن أبدي استجابة. وضعتُ يدي على ركبتيها وحاولتُ أن أبدو إيجابية. «لا تقلقي. ما مِن كوريّ قد يؤذي كوريّاً آخر».

لكن بحلول فترة بعد الظهر، أدركتُ أنّه لا فائدة من محاولة مواساة صديقتي. كانت مشلولةً بالحزن. كانت تحتاج إلى مغادرة هذا المكان.

- «يمكنك العودة إلى هادو»، اقترحتُ عليها.

- «وأعيش مع العمّة لي-أوك والعمّ هيم-تشان؟ أبداً».

- «يمكنك أن تأتي إلى بوكتشون وتستأجري بالقرب مِنّي —».

- «لا يمكنني العيش في قريةٍ كما لو أنّني أرملة. سوف لن أكون شيئاً».

- «ليس كأرملة»، أجبتُ مجروحة. «بل كصديقتي».

في العموم، كانت زيارةً محبطة.

أعطتني مي-جا قبل مغادرتي المال كي أستأجر الشامانة كيم في المرّة التالية التي أذهب فيها إلى هادو، كي تضطلع بأداء طقوس استعادة روح سانغ-مون المفقودة والهائمة. عدتُ إلى بوكتشون يغمرني شعور بالامتنان لوجود زوجي، ومنزلي، وللاستقرار الذي أنعم به في حياتي، والتي - ورغم كونها تختلف كثيراً عن أيّ شيءٍ سبق لي أن عرفته - كانت آمنةً مطمئنةً وسعيدة. كنتُ أعمل كهينيو، وجون-بو يدرّس فصوله دون القيود التي كان يفرضها المحتلّ اليابانيّ. إذ تحدّث إلى طلابه بلغتنا الأمّ، واستخدم الطلاب أسماءهم الكوريّة وتكلّموا بلهجة جيجو دون خوفٍ من العقاب. كان

بإمكاننا فعل هذه الأشياء الآن لأننا تحررنا من المستعمرين أخيراً، رغم أننا ما زلنا لا نعرف كيف سيكون شكل الحياة مع المحتلّين الأمريكيين.

عندما قمْتُ مع جون-بو بزيارة عائلية في هادو، بحثْتُ عن الشامانة كيم التي أدّت الشعائر لسانغ-مون. «أين هو زوج مي-جا؟»، وجهت سؤالها للآلهة. «أرجعيه إلى البيت، إلى زوجته. أرجعيه كي يقدّم فروض الاحترام لوالديه. أرجعيه كي يلتقي بابنه».

في يونيو، انزلق طفلٌ صغير خارجاً بسهولة مّتي. أطلقنا عليه اسم سونغ-سو، حيث سيكون سو اسم جيل الصّبية الذي سينشأ في عائلتنا، وسيتشاركه سونغ-سو مع أشقائه المستقبليّين الذين سترزق بهم أنا وجون-بو. ألبستُ سونغ-سو الزي الخاص بأيّامه الثلاثة الأولى والمصنوع من قماش الحظّ السعيد، والذي كانت جي-وون قد أهدته لي. باركتُ شامانة بوكتشون الصّبيّ. نفخت من روحها القويّة في روحه. لم ينجُ من أيّامه الثلاثة الصّعبة فحسب، بل تبَيّن أنّه طفلٌ قويٌّ برئتين كبيرتين وشهيّة قويّة لحليبي.

حين بلغ من العمر الأربعة أشهر وتناثرت ألوان الخريف فوق جناحيّ الجدّة سيولمونداي، أخذنا جون-بو، ومين-لي، ويو-ري، وأنا قارباً إلى هادو لمساعدة والدي على تأدية شعائر تبجيل الأسلاف لأميّ، وشقيقتي، وأخي الرابع، وأخويّ اللّذين لم يعودا للمنزل بعد انتهاء الحرب. أحضر جون-بو والدته فور وصولنا واستقرارنا في بيت عائلتي بالولادة. شعّ وجه دو-سانغ بالفرح لدى دخولها منزل والدي وصاحت مبتهجة: «حفيد!». لكنّها وإلى جانب سعادتها لضمان أنّ طقوس الأسلاف سوف تقام من أجلها لجيلٍ آخر على

الأقل، فقد كانت سعيدة أيضاً لرؤية ابنتها، رغم أنه لم يبدُ على يو-ري أنها تتذكّر أمها. عملتُ مع دو-سانغ على تحضير الأطعمة الخاصة بالطقوس. كانت المكونات والمقادير هذا العام في حدودها الدنيا، لكننا استطعنا تحضير حساء سمك القرميد مع الفجل الأبيض، والأعشاب البحرية، ووعاء من السرخس المتبل، وفطائر الحنطة السوداء باللفت والبصل الأخضر، إذ كان معروفاً أنَّ أسلافنا مولعون بهذه الأطباق.

كان والدي يطارد مين-لي التي باتت تمشي جيّداً وهي في عمر الخمسة عشر شهراً آنذاك؛ حين سمعنا صوت بوق سيارة. كنتُ أعرف عائلةً واحدة فقط تمتلك سيارة. جفّفتُ يديّ وركضتُ عبر الأزقة وصولاً إلى الطريق الرئيسي. كانت سيارة عائلة سانغ-مون هناك بالفعل. وقفتُ مي-جا قرب الباب الخلفي المفتوح وهي تتكئ إلى السيارة. انتصبتُ واقفةً بعد أن سحبت يو-تشان وجعلته يضع قدميه على الأرض. كانت ترتدي ثوباً على الطراز الغربي وقبعة مزينة بريشة طائر طويلة. كان يو-تشان - الذي جعلته وجنتاه المنفوختان يبدو كصورة مصغرة عن أبيه - قد كبر كثيراً خلال العام الماضي.

- «هل فوّت يوماً إحياء هذه الذكرى معك؟»، سألت صديقتي.

«كانت سون-سيل بمنزلة أمّ لي».

عندها بالضبط فُتح ببطء باب السيارة الآخر، وخرج سانغ-مون. لم أكن قد رأيته منذ عامين، وربما ما كنتُ لأتعرّف عليه لو لم يكن برفقة مي-جا وابنها. لقد استحال جلدًا وعظماً، وعيناه ووجنتاه غائرتان عميقاً داخل رأسه. كان يلبس ثياباً على الطراز الغربي أيضاً، لكنّه وضع في قدميه صندل القشّ الذي كانت مي-جا قد صنعته كهدية زفاف تقليدية. غطّت قروح مفتوحة قدميّ سانغ-مون.

- «لقد فرّ زوجي من الشمال»، وضّحت مي-جا متحدّثة نيابةً عن الرجل المحطّم بقربها. «حين عاد للمنزل أول مرّة، اعتقدنا أنّه لن يعيش. نحن الآن هنا كي نسأل الشامانة كيم أن تشكر الآلهة والأرواح الذين عملوا لأجل سلامته. أوّمن أنّه سوف يتعافى هنا».

انتهى بنا الأمر بالبقاء معاً في هادو لمدة أسبوع. أعدّ جون-بو أوعيةً من عصيدة قنفذ البحر التي شربها سانغ-مون بجرعات كبيرة، عُرف عن هذه العصيدة فوائدها الكثيرة للمسنّين والأطفال. ساعد زوجي سانغ-مون في الوصول إلى الشاطئ حتّى يتسنى له نقع رجله في الماء المالح. راقب الرجلان طفلينا بينما ذهبتُ مع مي-جا للغوص مع جماعة دو-سانغ. جلسنا نحن الأربعة في المساء على الصخور نشاهد غروب الشمس، نشرب نبيذ الأرز، ونستمتع بصحبة طفلينا اللذين ما انفكّا يقفان ويسقطان، يتمسّكان بصخرة هنا وهناك، ويستعينان بها كي يرفعا نفسيهما مجدّداً، ثمّ يقفان مترنّحين فوق الأرض غير المستوية، ويسقطان مجدّداً.

في أحد أيّام ذلك الأسبوع، التقط سانغ-مون صوراً لنا أنا ومي-جا أثناء خروجنا من البحر بملابس الغوص مستخدماً الكاميرا التي قدّمتها له زوجته كهديّة زفاف. اعتبرتُ ذلك علامةً على أنّه بدأ يشعر بتحسّن على المستوى الجسديّ، إلّا أنّ ذهنه ظلّ مضطرباً ومرتباً. مثل الكثيرين الذين نجحوا في الفرار من الشمال، كان سانغ-مون يكره الشيوعية، ويشعر بعدم ثقة حيال المنحى الذي قد تتّخذه جيّجو وبقية البلاد، بينما كان زوجي طوباوياً حيال أمّتنا الناشئة وما يمكن أن تصبح عليه. لدى حلول وقت عودتنا إلى منزلينا، كان زوجانا بالكاد يتحدّثان معاً.

اليوم 3 : 2008

تقضي يونغ-سوك ليلةً مضطربة أخرى . تحدّق في السقف وهي مستلقية فوق حصيرة نومها ، تُنصتُ إلى صوت الأمواج المتكسّرة على الصخور . هي تجلد ذاتها بسبب سوء تقديرها أثناء الغوص في الأمس ، وتتساءل ما إذا كان ذلك إشارةً إلى أنّ الأسوأ قادمٌ في الطريق . هي تخشى على أبنائها وأحفادها وأبناء أحفادها . هي تتعذب من التفكير بما قد يحدث إذا قرّر كيم إيل سونغ غزو كوريا الجنوبية مرّةً أخرى . وهي قلقةٌ بشأن رو تاي وو ، الجنرال السابق الذي أصبح أوّل رئيسٍ منتخب من الكوريّين الجنوبيين ، حتّى وإن كان سلفه هو الذي انتقاه . تتساءل ما إذا كان من الأفضل أن تحظى بقائدٍ فاسدٍ تعرفه بدلاً . . . لكن رو سوف يستضيف الألعاب الأولمبية في سيول . . . هي تسمع طوال الوقت كلاماً عن هذا «المسرح العالمي» ، لكن ماذا لو . . . إذا كانت خمسةٌ وثمانون عاماً قد علّمتها شيئاً ، فهو أنّ الحكومات تأتي وتذهب ، وأيّاً كان من يأتي تالياً ، فسوف ينقلب فاسداً في نهاية الأمر .

تتزاخم هذه الأشياء على نحوٍ فوضوي في مقدّمة عقلها فتشوّشه ، لأنّ الذكريات الأعمق والأكثر صراخاً وإلحاحاً لا تنفكُ تطفو على السطح . تبدأ في العدّ تصاعدياً وتنزلياً علّها تنسى

وتسترخي. تمسك بممحاوة خيالية وتبدأ بفركها داخل جمجمتها. تُركّز وهي ترخي كلّ إصبع في قدميها، ثمّ تنتقل إلى كاحليها وربلتيها، وهكذا ببطء صعوداً إلى جبهتها، ثمّ تعاود الكرة نزولاً. تفعل كلّ ما في وسعها لطرد الصور السيئة من رأسها. لا شيء ممّا جرّبته كان نافعاً. لم يكن كذلك يوماً.

عندما يحلّ الفجر أخيراً، ترتدي يونغ-سوك ملابسها، تتناول فطورها، وتفكر فيما ستفعله تالياً. بعض صديقاتها تجدن في المسلسلات التلفزيونية مؤنساً، لكن مشاكل تلك الشخصيات لم تثر اهتمامها أبداً. لا، هي ليست من النوع الذي يجلس في المنزل ويشاهد التلفاز. مع ذلك، إنّها اليوم تشعر بإرهاقٍ شديد - رغم أنّها تكره الاعتراف بهذا. كم سيكون من الممتع النزول إلى الشاطئ والاستراحة في الصيوان. يمكنها من هناك رؤية البحر، ومشاهدة الهينيو تتمايلن مع الأمواج صعوداً ونزولاً ليس بعيداً عن الشاطئ، والاستماع إلى صرخات السومبيسوري الصادحة المفعمّة بالحياة. أو يمكنها أن تغفو هناك فحسب. لا يمكن لأحد أن يزعجها، إذ كانت العجوز التي تحظى باحترام الجميع في هادو.

بدلاً من ذلك، تذهب بحكم العادة إلى المبنى الإسمنتي ذي سقف الصفيح والذي أصبح البولتيوك الخاصّ بهادو. في الخارج تجلس النساء على مؤخراتهنّ. ارتدين القمصان طويلة الأكمام المطبوعة بصور أزهار أو رقع الشطرنج. وجوههنّ محميّة من أشعة الشمس بقبعات قشّ كبيرة أو أغطية رأس عريضة. وفي أقدامهنّ جوارب بيضاء متدلية، ونعالٌ بلاستيكية أو قباقيب. يتحدث إليهنّ الرجل المسؤول عن الجمعية التعاونية عبر مكبّر الصوت. لا يسعها تحديد ما الذي تكرهه أكثر - صوت مكبّره المزعج أم أنّ هؤلاء النساء يأتفرن بأمر رجل. «اليوم ستنجزن عملاً قديماً بقدم تقاليد

الهيئو - لكن بعنوانٍ جديد - عبر العمل كحراسٍ للبحر». لطالما قيل إنَّ عطايا البحر لا تنتهي كحال حبِّ الأم، لكنَّ أجزاءً من البحر تستحيل بيضاء اللون، إذ تلاشى المرجان والأعشاب والكائنات البحرية. بعض هذا كان نتيجةً لتغيّر المناخ، والبعض الآخر بسبب الصيد الجائر، والتجاهل البشري. لذا سوف تغوص الهيئو اليوم لحصاد أعقاب السجائر وأغلفة الحلويات وقطع البلاستيك والستيروفوم. أنهى الرجل تعليماته بـ «ستقوم يونغ-سوك والأختان كانغ بجمع المخلفات عن الشاطئ اليوم». إنّه يحاول إعطاءها فرصة لحفظ ماء وجهها بعد الخطأ الكارثي الذي كاد يؤدي بحياتها في الأمس، لكنها الآن تتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن يُسمح لها بالغوص مجدداً، حتى لو في المياه الضحلة.

تلتقط النساء الأصغر سنّاً - واللواتي باتت أعدادهم أقلّ حتّى مقارنةً بعشر سنوات إلى الوراء - معدّاتهنّ، ويصعدن على ظهر الشاحنة كي يتمّ نقلهنّ إلى المركب. تجمع الأختان كانغ ويونغ-سوك شباكهنّ ووسائدهنّ، وتبدآن في العرج نزولاً إلى الشاطئ. لم تُضع الأختان أيّ وقت.

- «هيه، شكراً لك أيتها العجوز على هذه المعاملة الخاصّة!»، بدأت كانغ غو-جا حفلة التذمّر.

- «نحن نحبّ الجلوس في الشمس الحارقة!»، تحالفت كانغ غو-سن مع أختها في الحال.

كان على يونغ-سوك أن تردّ على مضايقاتهما، لكنها تنتهى إلى كلارا؛ الفتاة النصف-نصف، جاثمةً فوق صخرة، ترتدي قميصاً بلا أكمام، وسروالاً قصيراً بالكاد يغطّي أعلى فخذيها. كانت أشرطة حمالة صدرها ظاهرةً للعيان. ومجدداً، كانت تضع سماعات الأذن.

يهز أبناء أحفاد يونغ-سوك رؤوسهم حين يستمعون إلى موسيقاهم. لكنّ هذه الفتاة ليست كذلك. ثمة مسحة من الحزن تعلو وجهها. تغيّر يونغ-سوك مسارها، وتذهب مباشرة نحو الفتاة. تحاول الحفاظ على كلماتها بلهجة جيغو بسيطةً قدر الإمكان. «أنتِ هنا مجدداً؟».

- «يمكنني قول نفس الشيء لك»، تقول كلارا مع ابتسامة بينما كانت تسحب السماعات وتترك السلك يتدلّى فوق صدرها. - «أنا أعيش هنا».

- «أنا زائرة. لم أستطع تحمّل يوم آخر من مشاهدة معالم الجزيرة. لم أستطع وحسب. سمح لي أبي وأمي بركوب الحافلة إلى هنا».

- «وحدك؟»، تسأل يونغ-سوك، لكنّها في العمق شعرت بارتياح كبير لأنّ العائلة لم تأتِ بأكملها.

- «أنا في الخامسة عشرة. ماذا كنتِ تفعلين حين كنتِ في الخامسة عشرة؟».

تمطّ المرأة العجوز ذقنها. لن تجيب على هذا السؤال. باستثناء الملابس، كان لكلارا عينا مي-جا ورجلاها وأسلوبها. يجدر بيونغ-سوك أن تشيح بوجهها، أو تغادر أو تفعل شيئاً من هذا القبيل. لكنّها بدلاً من ذلك تقول لها ما فكّرت به حين رأت الفتاة أوّل مرّة. «أنتِ ابنة حفيدة مي-جا إذأ؟».

- «نعم، ابنة حفيدتها»، تجيب كلارا. «لقد تشاركنا غرفة، وهي تكلمت معي فقط بلهجة جيغو. كانت تستطيع التحدّث بالإنجليزية. أعني أنّه توجّب عليها ذلك مع امتلاكها للمتجر وما إلى ذلك؟ لكنّ إنجليزيتها كانت سيئة للغاية. وأنتِ تعرفين كيف هنّ

النساء العجائز. يتكلّمَن ويتكلّمَن دون توقّف. كان عليّ أن أتعلّم لهجة جيغو إن كنتُ أريد فهم ما تقوله».

كانت الفتاة تتحدّث بصيغة الماضي. ينبغي بذلك أن يعني أنّ مي-جا قد رحلت. تركّز يونغ-سوك نظرهما على قشرة سلطعونٍ رمليّ نافق، علّها تستطيع التحكّم في عواطفها. تحدّق كلارا بها وكأنّها تنتظر أن تقول يونغ-سوك شيئاً. استقرّت هذه الأخيرة على «إلى أين ذهبتِ؟ زيارة المعالم هذه —».

تردّ كلارا بضع خصل من الشعر على كتفها. «تجولنا في متنزّه جبل هالا. وتسلقنا مخروط سيونغسان إتشولونغ كي نشاهد شروق الشمس. كما ذهبنا في جولة داخل مانجانغول - "أكبر نظام كهفيّ من الحمم البركانية في العالم"». تنهدت كلارا.

- «الكثير من الجمال الطبيعي»، تقول يونغ-سوك لكنّها تتذكّر حين لم يكن مسموحاً للناس بالصعود إلى جبل هالا، وحين كان مخروط الأوريوم من أجل الجلوس والتحدّث مع صديق، وعندما كانت كهوف الحمم أماكن للاختباء والموت. «نطلق على جبل هالا اسم الجدّة سيولمونداي —».

- «لكن هذا ليس كلّ شيء»، انطلقت كلارا من جديد. «زرنا الكثير من المتاحف أو بالأحرى أشياء يسمّونها متاحف أو مزارات أو أشياء من هذا القبيل. ذهبنا إلى حيث تسلّق الأخوة الثلاثة المؤسّسون لجيغو خارجين من حفرة في الأرض. وخمّني ماذا كانت؟ إنّها مجرد حفرة في الأرض! ذهبنا إلى حديقة حجرية. كانت تحوي مجموعة كبيرة من الأحجار. أحجارٌ وحسب! ثمّ ذهبنا إلى ذلك المكان لتكريم ذكرى امرأة ما، كيم شيء ما، تلك التي أنقذت شعب جيغو أثناء المجاعة العظيمة».

- «كيم مانديوك».

- «تلك هي . إنهم يعاملونها مثل إلٍ أيضاً» .

- «إلهة» .

- «وما قصة كل هذه الأشياء السويسرية؟ تعرفين ما أعنيه،

القرية السويسرية؛ المطاعم السويسرية؛ البيوت السويسرية و —» .

- «هل من عادة كل الفتيات الأمريكيات التذمر والشكوى طوال

الوقت؟»، تسأل يونغ-سوك .

تهز كلارا كتفيها، وتبقى صامتة للحظة . ثم تردّد الشعار

التسويقيّ الجديد المصق على جنب الحافلات واللوحات الإعلانية

الكبيرة باللغتين الإنجليزية والكوريّة . «العالم يأتي إلى جيجو،

وجيجو تذهب إلى العالم! ما معنى كل هذا؟» .

- «السياحة؟ المستقبل؟» .

- «حسنٌ، هذا غبيّ فحسب . فالأمر ليس وكأنّ العالم آتٍ إلى

هنا حقّاً . لن يكون هذا المكان على رأس قائمة أولوياتي» . غصّنت

كلارا أرنبه أنفها . «إذا كان هذا حول المستقبل، فهو أكثر غباءً حتّى .

أعني أنّ شعب جيجو يبدو وكأنّه يعيش في الماضي وليس في

الحاضر . وبالتأكيد ليس في المستقبل» .

كيف ليونغ-سوك أن تشرح ما تشعر به حيال كل ذلك لطفلة في

الخامسة عشرة؟ الماضي هو الحاضر . الحاضر هو المستقبل .

اقتحمت ابتسامة ملامح الفتاة . «لا تفهميني على نحو خاطئ .

أنا أحب السفر» .

- «أنا أيضاً»، تعترف يونغ-سوك سعيدة لكونها تقف على أرضٍ

أكثر ثباتاً .

اتّسعت عينا كلارا، كما لو أنّ هذا الاحتمال لم يخطر ببالها .

«أين ذهبتِ؟» .

هل هذا فضولٌ أم صفاقة؟

- «عندما بلغت العشرين من عمري كنتُ قد زرتُ ثلاثة بلدان - اليابان، والصين، وروسيا. عدتُ في العام الماضي إلى الصين. كما ذهبتُ إلى أوروبا، والولايات المتحدة أيضاً. أحببتُ الغراند كانيون ولاس فيغاس. ماذا عنك؟».

- «أوه، الأماكن المعتادة. نحن نعيش في لوس أنجلوس، لذا من السهل علينا الذهاب في إجازة إلى المكسيك أو هاواي. لكننا ذهبنا أيضاً إلى فرنسا، وإيطاليا، وسويسرا —».

- «سويسرا؟ لقد ذهبتُ إليها!».

- «سويسرا وكلُّ —».

- «هل قرأتِ هايدي؟»، تسأل يونغ-سوك.

تُميل الفتاة رأسها مثل عصفور وترمق يونغ-سوك بنظرةٍ ساخرة. «لقد تمّت تسميتي على اسم شخصية في الكتاب».

- «كلارا... بالطبع».

- «لكنني لستُ على كرسيّ متحرّك. ألا تعتقدين أنّه شيء...». تسكت للحظة وهي تحاول العثور على الكلمة الصحيحة بلهجة جيجو. في النهاية، قالتها بالإنجليزية «غريب؟». كانت يونغ-سوك قد سمعتُ ابن حفيدها يستخدم هذه الكلمة، لذا فقد تعرّفت إليها. «غريب»، تكرّر كلارا الكلمة قبل أن تعود للتحديث بلهجة جيجو، «أن تتمّ تسميتي تيمناً بشخصية مصابة بالعجز؟».

اكتسحت عقل يونغ-سوك فجأة ذكرى سماع هذه القصة وهي تُقرأ بصوتٍ عالٍ. هي تريد أن تعود إلى المنزل، وتبتلع بعضاً من مسحوق الغوص الأبيض، ثمّ تستلقي وتغمض عينيها. «لكنّ هايدي تساعد كلارا على التعافي»، تتدبّر أن تقول هذا أخيراً. «جبال الألب. حليب الماعز. الجدّ».

- «يبدو أنك تعرفين الكثير عن هذه القصة»، تقول كلارا.

تُغيّر يونغ-سوك الموضوع. «عليّ أن أعمل».

- «هل يمكنني المساعدة؟».

فاجأت يونغ-سوك نفسها إذ أومأت بالموافقة.

تشقان طريقهما فوق الصخور إلى أن تعثرا على رقعة من الرمال. تربط يونغ-سوك الوسادة بمقعدها، وتُنزل نفسها ببطء حتى غدت جالسةً وركبتها مطويتان قريباً من كتفيها. تجلس الفتاة القرفصاء، يا لتلك السراويل القصيرة... تشيح يونغ-سوك بنظرها.

- «أنتِ تعملين بجِدٍّ كبير بالنسبة لجدة»، تقول كلارا.

الآن جاء دور يونغ-سوك كي تهزّ كتفيها.

إذ رأت أنّها لن تحصل منها على مزيدٍ من الإجابات، حاولت كلارا أن تحثّها، «إذاً لقد سافرت...».

- «الكثير من الهينيو في مثل سنّي سافرن معاً. هل ترين هاتين

المرأتين؟ إنهما شقيقتان. لقد ذهبنا إلى كثير من الأماكن معاً».

- «لكنك ما زلتِ تعملين. ألا ترغبين في تدليل نفسك أبدأ؟

أعني بشيءٍ آخر غير السفر».

- «كيف تعرفين أنني لا أدلّل نفسي؟». لكن في الحقيقة فإنّ

الفكرة بحدّ ذاتها بدت غريبةً بالنسبة ليونغ-سوك. لقد عملتُ كي

تساعد أشقائها وشقيقاتها، وتعيّل والدها حتّى وفاته، وتحضر

الأعشاب البحرية ومختلف القواقع كي يأكل أبناؤها وأحفادها وأبناء

أحفادها. تملأ يونغ-سوك فراغ الصمت. «عندنا قولٌ مأثور: الجدة

التي تنسج على النول لديها خمس طبقات من الملابس في

شيخوختها، أمّا الجدة التي قضت حياتها في الغوص فليس لديها

حتّى ما يكفي من الملابس الداخلية. لقد بدأت من الصفر. لن

أنسى أبداً ذكريات الأيام التي كنتُ جائعةً فيها، لكنَّ القول المأثور خاطئ. لقد استطعتُ مساعدة أطفالي على الذهاب إلى المدرسة وشراء منازل وحقوق لهم». تحدّق في الفتاة التي تحدّق فيها بالمقابل راغبةً بالمزيد. «كما أنَّ لديَّ الكثير من الملابس الداخلية!». يرسم هذا ابتسامةً على وجه كلارا، وتتابع يونغ-سوك. «لا يسعني أن أكون أكثر رضىً ممّا أنا الآن».

- «يجب أن يكون ثمّة شيء أردته —».

تجد يونغ-سوك نفسها تحاول العثور على إجابة. «أتمنّى لو كان في وسعي الحصول على بعض التعليم. لو أنّي تعلّمتُ أكثر، كنتُ سأساعد أطفالي أكثر». تنظر إلى كلارا لترى كيف كانت تستجيب، لكن الفتاة كانت منكبةً على جمع الأعشاب البحرية المنقّطة بجزيئات بلاستيكية صغيرة. هي سريعة وتتحرك بفاعلية كبيرة. تجيب يونغ-سوك من تلقاء نفسها على السؤال الذي كانت تتمنّى أن تطرحه كلارا. «ربّما أكون قد حقّقتُ أكثر ممّا أعترف به، لأنّ أبنائي وأحفادي أنجزوا الكثير في الواقع. يملك ابني شركة كمبيوتر في سيول. وحفيدي يعمل طاهياً في لوس أنجلوس، وإحدى حفيداتي خبيرة تجميل —».

جعلت العبارة الأخيرة كلارا تضحك بصوتٍ عالٍ.

- «لَمْ هذا مضحك؟»، تسأل يونغ-سوك.

تميل كلارا برأسها إلى الأمام كما لو أنّها ستفشي سراً. «أحدٌ ما قد رسم حاجيكِ وشفتيك».

كان هذا مؤلماً، فكلُّ هينيو في عمر يونغ-سوك فعلت ذلك. وصف حفيدها الأمر بالإنجليزية على أنّه بدعةٌ غريبة، تماماً كما كان شعرها المجعّد والمصبوغ بدعةً غريبة.

- «صه»، تستهجن يونغ-سوك. «حتى المرأة العجوز ترغب في أن تبدو جميلة».

تضحك الفتاة النصف-نصف مجدداً. تدرك المرأة العجوز بم تفكر تلك الهجينة: غريب!

ينفذ صبر يونغ-سوك. «لم أنت هنا على أية حال؟».

- «هنا؟».

- «هنا على شاطئ»، تقولها يونغ-سوك بوضوح وحزم.

- «أرسلني أمي إلى هنا. كان عليك أن تعرفي ذلك».

- «أنا لا أستطيع مساعدتها».

- «لا تستطيعين أم لا تريدين؟».

- «لا أريد».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «هذا ما قلته لها».

- «لم أنت هنا إذا؟».

إنه سؤال بسيط، لكن كلاً زاهباً في اتجاه مغاير. «أبناءؤك وعائلاتهم؛ أولئك الذين يعيشون في أماكن أخرى، هل ترينهم في الغالب؟».

- «لقد أخبرتك أنني ذهبتُ إلى أميركا. يأخذني حفيدي إلى هناك كل سنتين —».

- «إلى لوس أنجلوس —».

- «نعم، لوس أنجلوس. كما أذهب إلى البر الرئيسي لزيارة العائلة التي تعيش هناك. ثم كل ربيع، تأتي العائلة بأكملها إلى هنا. كان لي شرف تقديم كل واحد من أحفادي وأبناء أحفادي إلى البحر».

- «ما العمق الذي يمكنك الوصول إليه؟».

- «الآن أم في السابق؛ حين كنتُ أفضل هينيو؟».

- «الآن؟».

فردتْ يونغ-سوك ذراعيها على اتّساعهما. «خمس عشرة ضعف هذه المسافة».

- «هَلّا أخذتني مرّة إلى المياه؟ أنا سبّاحةٌ جيّدة. هل أخبرتكِ بذلك بعد؟ أنا عضو فريق السباحة في مدرستي...».

الجزء 3

الخوف

1949 – 1947

ظلُّ الكابوس

مارس - أغسطس 1947

كنّا بعد الحرب مباشرةً نحمل آمالاً كبيرة بالاستقلال، لكنّ ما حدث أنّ المستعمر الياباني استُبدل بمحتلٍّ أمريكيٍّ عبر الحكومة العسكرية للجيش الأمريكي في كوريا. كان جون-بو في كلّ صباح وكلّ مساءٍ يشغل الراديو الذي أهديته له. سمعنا أشخاصاً أمريكيين يتحدّثون بلغتهم وآخرون يترجمون لهم. بدا أنّهم توصلوا إلى نفس الاستنتاج الذي كان اليابانيون قد توصلوا إليه منذ وقتٍ طويل: تتمتع جيـجو بموقعٍ استراتيجيٍّ رائع. باتت الجزيرة الآن قاعدة انطلاقٍ للأمريكيين، الفرق الوحيد هذه المرّة أنّها قاعدة انطلاقٍ نحو الاتحاد السوفييتي، لذا وبدلاً من الأفواج اليابانيّة، لدينا الآن الكتيبة 749 لمدفعية الميدان؛ الكتيبة 51 لمدفعية الميدان، الفوج العشرون التابع للفرقة السادسة، والسريّة العسكرية الحكومية التاسعة والخمسون. أصبح قائد المجموعة الحكومية، الرائد ثورمان أ. ستاوت هو حاكم جيـجو العسكري. حكّم ستاوت جنباً إلى جنب مع بارك كيونغ-هون الذي عُيّن حاكماً كوريّاً. عارضت اللجان الشعبية ذلك بشدّة، إذ أنّ أيّاً من الرجلين لم يتمّ انتخابه ديمقراطياً، لكنّ تلك اللجان كانت عاجزةً عن إحداث أيّ تغيير. ألقي الحاكم ستاوت الكثير من

الخطابات، لكن الراديو كان يجري مقابلاتٍ أيضاً مع الكابتن جونز، والكابتن بارتريدج، والكابتن مارتن، والكابتن فلان، والكابتن فلان، والكابتن فلان. ثمَّ في أحد الأيام، أعلن الحاكم ستاوت: «بغرض تحقيق انتقالٍ سلميٍّ وفعال، نطلب من موظفي الإدارة السابقة العودة إلى وظائفهم، كما نرحب بجميع أعضاء سلك الشرطة السابقين للعمل معنا».

- «لكنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء هو عميلٌ سابق!»، قال جون-بو متذمّراً. لم يكن الوحيد الذي شعر بالضيق والإحباط. اعتبر معظم الناس أنَّ هذه التحركات تعني اصطفاً الأمريكيان مع الجناح اليميني وأنَّ إدارة الجزيرة - والقرى الصغيرة - سوف تنتقل من اللجان الشعبية إلى الشرطة والدرك. كان الأمر كما لو أنَّ الأمريكيان لم يفهموا ماهية الإرث الذي ورثوه.

لكنَّ الغضب يمكن أن يكون خطيراً، وقد يفضي إلى عواقب غير مقصودة. لم تنفكَّ العلاقة بين الحاكم ستاوت واللجان الشعبية تتدهور. في الوقت نفسه، وُزِّعت في كلِّ قرية منشورات التجنيد الخاصّة بالفوج التاسع للشرطة الكوريّة. قرأ جون-بو لي أحد هذه المنشورات: «الشرطة الكوريّة ليست بمؤسّسة يمينيّة أو يسارية. إنّها منظّمة عسكرية وطنية للشباب الذين يحبّون رفاقهم ومستعدّون للموت فداءً لبلدهم. نحن لسنا كلب الصيد لبلدٍ ما. نحن لسنا دميةً في يد حزبٍ سياسيٍّ معيّن. نحن ببساطة حصن الدولة المنيع الذي يعمل جاهداً لاستقلال كوريا والدفاع عن أرضنا الحبيبة». لكن رغم ذلك، فإنَّ السلوك الفعليّ للشرطة أرسل رسالةً أكثر وضوحاً، حيث انتقل أفرادها الذين خدم الكثير منهم في الجيش الإمبراطوري الياباني إلى القاعدة الجوية السابقة التابعة للقوات البحرية اليابانية في موسولبو، الأمر الذي أثار غضباً عارماً في طول الجزيرة وعرضها.

كافح الناس عبر كلِّ هذا لفهم ما كان يقوله الطرف الآخر، لدرجة أنَّ الحكومة العسكرية الأمريكية افتتحت أكاديميةً للغة الإنجليزية. شُجِّع الرجال الذين جندهم اليابانيون في السابق، أو الذين كانوا عُملَاء لهم، أو أولئك الذين تلقَّوا تعليمًا في الخارج، شُجِّعوا على التسجيل في الأكاديمية، وهو ما فعله كلُّ من جون-بو وسانغ-مون. شرح جون-بو قراره هذا لي: «كيف سأتمكّن من المساعدة في تغيير أيِّ شيء إذا جلستُ جانباً ولم أفعل شيئاً؟». كنتُ أرى في زوجي رجلاً حادّ الذكاء، لكنّه لم يكن بارعاً في تعلّم هذه اللغة الجديدة. كان كلَّ ليلة يجهد أيّما جهدٍ ليتعامل مع تلك الدروس. حتّى أنا والأطفال تمكّنا من التقاط الجمل الأساسية على نحوٍ أفضل وأسرع منه، مردّدين الأسطر لبعضنا ذهاباً وإياباً على طريقة أغنيات الهينيو في النداء والردّ. مرحباً... مرحباً! ما اسمك؟ اسمي هو... هل لديك... نعم، لديّ... أين هو... استدر يميناً عند...

سانغ-مون الذي لا أكنُّ له الاحترام، استوعب اللغة بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنَّ الأمريكيين وظّفوه ليؤدّي نفس الوظيفة التي أدّاها لليابانيين تقريباً. قام بإدارة إمداداتهم، والتأكّد من استلامها من الميناء أو المطار وتسليمها إلى القاعدة أو المستودع المناسبين. أعطوه منزلاً ليعيش فيه داخل منشآتهم في هامديوك التي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن بوكتشون. كثيراً ما كان على الطريق، وغالباً ما قضى ليالٍ بعيداً عن المنزل. ربّما لهذا السبب لم تصبح مي-جا حبلى مجدّداً في الوقت الذي كنتُ أعاني فيه نوبات جديدة من غثيان الصباح. لم يصدّق أحد أنّي كنتُ أحمل طفلاً في بطني بينما لم تبلغ مين-لي الثانية من عمرها بعد، وسونغ-سو بالكاد أكمل شهره التاسع. بالطبع، فقد ضايقته الهينيو اللواتي كنتُ أغوص معهنّ

بالمزاح، لكنني شعرتُ أيضاً بالفخر. مع ذلك، تمنيتُ لو أنني حبلى مع مي-جا ثانيةً كما حدث أثناء وجودنا للعمل في البحر بعيداً عن الديار. شعرتُ أنني قريبة جداً منها آنئذٍ، وكنتُ واثقةً أنّ مين-لي ويو-تشان سيكونان مقربين على الدوام نتيجةً لذلك.

أثناء فترات غياب سانغ-مون الطويلة عن المنزل، كانت مي-جا تمشي مع ابنها عبر الأزقة إلى بوكتشون، وكنتُ أتجه صوب هامديوك لدى عودتي إلى المنزل من البولتيوك، وهكذا يتسنى لنا اللقاء في منتصف الطريق - كما كنّا نفعل تقريباً حين كنّا فتاتين صغيرتين في هادو.

- «أحضرتُ معي اليوم شبكتين مملوءتين بقنفذ البحر»، قد أقول لها.

وقد تردّد بـ «لقد حضّرتُ الكيمتشي»، أو أنها غسلت الملابس أو صبغتها أو زرعت البذور.

كنتُ في بعض الأحيان أنعطف في الزقاق فأجدها تستند بذراعيها أعلى الجدار الحجري وتحذق في البحر.

- «هل تفتقدين الغطس؟»، قد أسألها.

- «سيكون البحر بيتي ما حييت»، دائماً ما أجابت على هذا النحو.

رأيتُ مرّةً كدماتٍ فوق معصمها. الرجل لا يتغيّر بالزواج، ولطالما كانت لديّ شكوكٌ حيال سانغ-مون، لكنني تردّدتُ في طرح أسئلةٍ مباشرة عنه. استجمعتُ ذات يومٍ شجاعتي وبدأتُ أستفسر بصورةٍ عامّة. «هل أنت سعيدة؟».

- «أنا وأنتِ نعيش أخيراً مع زوجينا»، أجابت مي-جا. «نحن نعرف الآن أموراً عنهما لم نكن نعرفها في تلك الأسابيع القليلة الأولى من الزواج. إنّ سانغ-مون على سبيل المثال يشخر في بعض

الأحيان، يضطر عندما يأكل الكثير من اللفت. وكثيراً ما أدرك لدى عودته إلى المنزل أنه كان يشرب. ليس نبذ الأرز الذي نعرفه، بل شيئاً يشربه مع الأمريكيين. شيء لا يمكنني تحمّل رائحته». لم تكن تلك إجابات عن أيّ شيء. كانت تعرف ذلك. وكنتُ أعرف ذلك.

- «عليّ الذهاب إلى المنزل الآن»، قالت لي، ثم نادى ابنها. راقبتهما يمضيان عبر الزقاق حتى اختفيا عن الأنظار.

بصفتي امرأة من الهينيو، وزوجة، وأمّ، فقد ركزتُ على الغوص، وعلى زوجي، وطفليّ، ويو-ري، والطفل القادم. نحن نخوض في ذلك العالم السفليّ كي نكسب قوتنا، ونعود إلى هذا العالم كي ننقذ أطفالنا. نحن الهينيو محكومات بالقمر والمدّ والجزر، لكننا نتأثر أيضاً بتنوّعات من مجموعات تحوي كلّ منها ثلاثة عناصر: الوفرة في الريح والصخور والنساء. القلّة في اللصوص والبوابات والمسؤولين. ونظامنا الزراعي ذي الثلاث مراحل والذي يؤمّن لخنازيرنا الطعام من مخلفاتنا، ولحقولنا السماد من مخلفات الخنازير، ولنا خنزيراً يمكننا أكله في نهاية المطاف. ورغم أنّنا لم نكن نتحدّث عن هذا في الغالب، إلّا أنّ جيجو عُرفت أيضاً باسم جزيرة الكوارث الثلاث - الريح، والفيضان، والجفاف. الريح مجدّداً، الريح دائماً، وإلى الأبد.

كان لدينا الآن تشكيلاً جديدة من ثلاث كوارث. أولاً، تفشّت جائحة جديدة من وباء الكوليرا. ماتت جدّتي على إثرها. كم كان من المؤلم فقدانها، وكم كان من المؤلم أنّني لم أستطع الاعتناء بها في ساعاتها الأخيرة. فقدت مي-جا أيضاً عمّها وعمّتها. ثانياً، كان

محصول الخريف سيئاً للغاية. المحاصيل التي كانت تؤمن الغذاء لنا أخفقت جميعها - الدخن والشعير والبطاطا الحلوة. صدرت لنا تعليمات بالذهاب إلى نقاط التوزيع الأمريكية لاستلام أكياس من الحبوب، لكنّ العملاء اليابانيين السابقين الذين كُلفوا بمهمة توزيع المواد المقتنّة سرقوا تلك المؤن لبيعها في السوق السوداء. تضاعف سعر الأرز في غضون خمسة وأربعين يوماً، وهو ما جعلنا غير قادرين على تحمّل كلفته لأكثر من الاحتفال بمناسبة السنة الجديدة. في الوقت نفسه، قفز سعر الكهرباء خمسة أضعاف في تلك الأماكن القليلة في الجزيرة التي يوجد بها كهرباء.

وثالثاً، بدأ الناس يعانون شحاً في المواد الأساسية الأخرى. تضاعف عدد سكّان جيغو مع أولئك الذين عادوا من اليابان بسبب التحرير والذين لجأوا من الشمال بعد تقسيم البلاد، لكنّ الأمريكيين منعونا من التجارة مع محتليننا السابقين، ما عني أنّ عائلات الهينو لم تكن تملك المال لشراء الطعام. مرّت أيّامٌ حيث خدعنا أسناننا وبطوننا بمزيج من الأعشاب البحرية ونخالة الشعير. عاشت عائلاتٌ أخرى على لبّ البطاطس الذي كان يُعطى في العادة للخنازير، لذا توجّب حتّى على هذه الحيوانات أن تعيش على القليل فقط. في الصباحات التي لم أذهب فيها للغوص، كنتُ أربط سونغ-سو بظهري - مع مين-لي ويو-ري تجرّجان نفسيهما خلفي - وأنضمّ للأمهات الأخريات على الشاطئ الصخري بحثاً عن سرطان البحر الرملي لإعداد يخنةٍ محضّرة بالحُبّ وبركةٍ يديّ الأمّ. كنتُ أقضي فتراتٍ طويلة بعد الظهر في قطف اللحم عن تلك الأصداغ الصغيرة كي أتمكّن من إعداد اليخنة.

اتفقتُ مع مي-جا أن نبقي بعيدتين عن النقاش في السياسة حتّى في وقت كان للأحداث تأثيرٌ مباشرٌ علينا. استمعنا إلى الكولونيل

براون؛ وهو مسؤولٌ أمريكيّ جديد، يتحدّث على الراديو ويخبرنا أنّ الهدف بعيد الأمد لجيجو كان «تقديم برهانٍ لا يقبل الجدل على شرور الشيوعية»، و«إظهار أنّ الطريقة الأمريكية توفر الأمل بما هو أفضل».

- «هناك مشكلةٌ واحدة فقط»، تذرّ جون-بو. «هم يريدون منا قبول نموذجهم الديمقراطيّ بوجود ديكتاتور مدعوم أمريكيّاً يمكنهم التحكّم به بسهولة، بينما نحن الشعب الكوريّ - خاصّة هنا في جيجو - نريد أن نضطلع بانتخاباتنا الخاصّة، مع قائمة مرشّحينا الخاصّة، فنتمكّن بذلك من التصويت بطريقةنا الخاصّة. أليس هذا ما يفترض أن تكون الديمقراطية عليه؟».

دفع جون-بو بموقفه هذا خطوةً إلى الأمام حين جاءت مي-جا مع عائلتها للزيارة. «ينبغي بنا طرد الأمريكيين كما فعلنا مع المبشرين الفرنسيين»، أعلن واثقاً من موقفه.

- «كان ذلك مجرد تمرّد صغير منذ عقودٍ خلت»، جادل سانغ-مون. «لا يزال المسيحيون هنا، بل ويأتي المزيد منهم الآن مع وصول الأمريكيين».

- «لكننا يجب أن نكون مستقلّين! إذا لم ندافع عمّا نؤمن به، فنحن في العمق مذنبون بالعمالة».

العمالة. إنّها تلك الكلمة مجدّداً.

بدا أنّ سانغ-مون يوافق على أمرٍ واحد. «يجب أن تكون لدينا انتخاباتٌ حرّة على أقلّ تقدير»، لكنّه حذّر مباشرةً بعد ذلك: «سواء كانت انتخابات حرّة أم لا، دعني يا صديقي أخبرك شيئاً. يجدر بك أن تكون حذراً. أنت مدرّس. إن الكثير من المتاعب تتم إثارتها داخل المدارس. هل تذكر ما فعلوه بالنسوة المنظّمات من مدرسة هادو الليلية وبالمعلّمين هناك؟».

في الحقيقة، لقد ماتوا جميعاً، لكنني لم أكن أشعر بالقلق لأن زوجي لم يكن منظمًا، ولن يقود ثورةً بالتأكيد. وإلى جانب كل هذا وذاك، كان لدينا مسائل عملية أكثر يجدر بنا القلق بشأنها؛ مثل كيف سوف نطعم أطفالنا.

تلاحقت الأحداث، وأدى شيء إلى آخر، وبدأ أولئك المنضمون إلى حزب العمال الكوري الجنوبي المشكل حديثاً في التخطيط لمظاهرة على مستوى البلاد في الأول من مارس عام 1947، أي بعد تسعة عشر شهراً من انتهاء الحرب وفي نفس التاريخ الذي تجتمع فيه أبناء بلدي ذات يوم دعماً لحملة الاستقلال عن اليابان. هنا في جيجو، وبغض النظر عن اصطفاقات الناس - يميني، يساري، حيادي - إلا أنهم جاؤوا من جميع أنحاء الجزيرة إلى نقطة الانطلاق من إحدى المدارس الابتدائية في المدينة.

كانت السماء مشرقة، وكان هواء الربيع منعشاً. قام جون-بو بحمل مين-لي، وربطت سونغ-سو على ظهري. (بقيت يو-ري في المنزل مع الجدة تشو) مي-جا وسانغ-مون أحضرا معهما يو-تشان. كان زوجانا قد اتفقا على نقطة لقاء، لذا عثرنا على بعضنا بسهولة، رغم أن الحشد كان أكبر من ذلك الذي أخذتنا أمي إليه قبل خمسة عشر عاماً. بدلاً من أن نكون تحت أنظار الجنود اليابانيين، أبقانا المئات من رجال الشرطة تحت المراقبة. العديد منهم كانوا يركبون الخيول.

ابتعد زوجانا كي ينضمّا إلى مجموعة من الرجال، بينما بقيت ومي-جا مع الطفلين. تهادى يو-تشان ومين-لي معاً من بين الحشد، ولم يبتعدا عتاً أبداً. كان ليو-تشان ساقي أمّه القويتين. كانت ابنتي سمراء بالفعل بسبب الشمس، لكنها كانت نحيلة وصلبة العود مثل والدها.

- «صبيّ و بنت»، قالت مي-جا مبتسمة. «حين يتزوّجا —».

- «سنكون كلانا في غاية السعادة». شبكتُ ذراعي بذراعها.

التقينا هناك بأشخاص نعرفهم: الأختان كانغ وعائلتهما، وبعض الهينيو اللواتي عملنا معهنّ في البحر بعيداً عن الديار. أُلقيتُ التحيّة على بعض النساء من جماعة الغوص في بوكتشون؛ وعرفّنتني مي-جا على بعض جاراتها في هامديوك.

عاد زوجانا وانضمّا إلينا لدى بدء الخطابات. «دعونا نقرب أكثر من المنصّة»، قال جون-بو. «من المهمّ أن يسمع الطفلان ما يقال».

لكن حتّى أنا كان بإمكانني إلقاء تلك الخطابات. يجب أن تكون كوريا مستقلّة. ينبغي بنا رفض النفوذ الأجنبي. لا بدّ من توحيد الشطرين الشمالي والجنوبي، ونصبح بذلك أمّة واحدة. طلب متّاً المتحدّث الأخير أن نبدأ في السير، لكنّ جعل عشرين ألف شخص يسировن معاً في نفس الاتّجاه يستغرق وقتاً. بدأنا نتحرّك أخيراً، ورجال الشرطة الخيالة يسوقوننا مثل قطع. فقدنا أثر جون-بو وسانغ-مون. حملتُ ابنتي، وحملتُ مي-جا ابنها. إلى الأمام متّاً مباشرةً كان ثمّة صبيّ صغير - رغم أنّني سمعتُ لاحقاً أنّه قد يكون بنتاً - في حوالي السادسة من العمر يقفز ويضحك، متحمّساً حيال كلّ ما كان يجري من حولنا. حين وصلتُ والدته إليه، استدار واندفع مباشرةً في طريق أحد عناصر الشرطة الخيالة. جذب الفارس اللجام بعنف، فانتصب الحصان واقفاً على قدمين. صرختُ الأم بأعلى صوتها «حذار!». سقط الصبي أرضاً. وهوت حوافر الحصان فوقه بخبطةٍ عنيفة.

الشرطيّ؛ عالياً على صهوة حصانه، شدّ اللجام بقوة محاولاً حمل الحيوان على الاستدارة. أدركنا كحشدٍ أنّه لم يكن ينوي

الترجل لتقديم المساعدة، رغم أنّ ما حصل كان حادثاً على نحوٍ جليّ. خرجتُ على الفور جوقاً من الأصوات: «أمسكوا به! أمسكوا به! أمسكوا به!». رمى الناس الحجارة نحوه، وهو ما أجفل الحصان أكثر. ركل الشرطي كاهلي الحصان. أخذ يترنّح من جهةٍ لأخرى وهو يحاول شقّ طريقه عبر الحشد.

- «إنّه يتّجه إلى مركز الشرطة!»، صاح أحدهم.

- «لا تدعوه يهرب!».

تحوّلت الهتافات إلى: «كلبٌ أسود! كلبٌ أسود!».

انعطفنا عند الزاوية ودخلنا ساحةً كبيرة. وقف رجال الشرطة على الدرج العريض المؤدّي إلى مدخل مركز الشرطة، موجّهين حِراب بنادقهم إلى الأمام في وضعية استعداد وتهديد. لم يكونوا مدرّكين للذي حدث. كلُّ ما كانوا يرونه هو حشدٌ غاضب يندفع نحوهم. حاول المتظاهرون في المقدمة التوقّف، الاستدارة، والفرار، لكنّنا كنّا في بحرٍ متلاطم الأمواج، تتقاذفنا بقوة من هنا إلى هناك. سمعنا أصوات عدّة أعيرة نارية، أعقب ذلك لحظةً من الصمت المشوب بالفرع، حيث تجمّد الجميع في أماكنهم يحاولون تقييم الموقف. ثمّ بدأ الصراخ. تبعثر الناس في كلّ اتجاه. وسط هذه الفوضى، جذبت مي-جا الطفلين وأنا معهما إلى مدخل أحد الأبنية. إذ بدأ الحشد يتضاءل، رأينا جزراً صغيرة من البشر تنقّط الساحة الكبيرة. كان شخصٌ ما ملقّى على الأرض وسط كلّ مجموعة من هؤلاء. بعضهم كان يعول ألماً من جراحه. وخيم صمت الموت فوق بعضهم الآخر. اخترقت صرخات طفلٍ رضيع الساحة. نظرنا مي-جا وأنا إحدانا إلى الأخرى. كان علينا تقديم المساعدة.

هرولنا في الاتجاه الذي يأتي منه الصوت، ونحن لا نزال ممسكتين بطفلينا. وصلنا إلى امرأةٍ على الأرض ووجهها للأسفل.

اخترقت رصاصةً ظهرها . كان بعضٌ من جسدها جاثماً فوق رضيعها .
وضعنا يو-تشان ومين-لي قرب بعضهما حتّى تستطيع مي-جا أن ترفع
كتف المرأة الميتة وأتمكّن من سحب الرضّيعَة من تحتها . كان فمها
ثقباً وردّي اللون انطلقت منه أكثر الصرخات إثارةً للشفقة . كانت
عينها مغلقتين بإحكام شديد لدرجة أنّني رأيتُ أين كانت ستحظى
بتجاعيد ذات يوم . كانت الدماء تغطّيها .

نهضتُ ومي-جا وقوفاً على أقدامنا . وضعتُ الطفلة على كتفي
وأخذتُ أربّتُ عليها ، بينما تفحصتُها مي-جا لتتأكّد ما إذا كانت
مصابة . كنّا مركّزتين على الطفلة بشدة ، لدرجة أنّنا جفّلنا تماماً عندما
أمسك سانغ-مون بذراع مي-جا وسحبها بعيداً عني .

صرخ في وجه مي-جا . «كيف أمكنك تعريض ابني للخطر؟» .
- «لم يكن في خطر» ، ردّت بهدوء . «كنتُ أحمله عندما فرّ
الحصان —» .

- «ماذا عن الرصاص؟» . كانت قبضته مشدودتين بقوة . وكان
وجهه أحمر كما لو أنّه شرب للتوّ زجاجةً من نبيذ الأرز . «ألم تري
خطراً في ذلك؟» .

ركض جون-بو إلى الساحة . بدا عليه الاسترخاء في الحال لدى
رؤيته أنّني والطفلين بخير . هرول باتّجاهنا عندما كانت مي-جا
تعترف : «لم أتوقع أن تطلق الشرطة النار علينا» . سكّنتُ للحظة ثمّ
سألته : «هل توقّعت ذلك؟» .

صفع سانغ-مون مي-جا . ترنّحتُ وسقطتُ إلى الوراء قرب
يو-تشان ومين-لي . هرعتُ إليها . سحب جون-بو سانغ-مون بعيداً .
كان زوجي سيخسر في عراكٍ بالأيدي إذا وصل الأمر إلى ذلك
الحدّ ، لكنّه كان أطول ، ويملك هيئة المعلم .

كانت مي-جا قد هبطت على مؤخرتها. بدأت الكدمة الحمراء على هيئة أصابع سانغ-مون بالظهور على خدّها. بدا يو-تشان خائفاً، لكنّه لم يبذلُ مصدوماً أو متفاجئاً على نحوٍ خاص. عندها أدركتُ بما لا يدع مجالاً للشك أنّ هذه لم تكن المرّة الأولى التي يرى فيها أباه يضرب أمّه. انتابني إحساسٌ فظيع؛ غثيانٌ مصحوب بقلقٍ ورعب. كانت جدّتي قد ربّت لهذا الاقتران - ابنة عميل لابن عميل - لكنّ مي-جا وزوجها لا يمكن أن يكونا أكثر اختلافاً في طباعهما.

وضع سانغ-مون يديه في جيبيه. ربّما كي يخفي الأسلحة التي كان يستخدمها ضدّ صديقتي أو يبقّيها جاهزة للمرّة القادمة، لم أكن متأكّدة. حين أشاح بوجهه بعيداً، انحنيت فوقها، ولم تكن تلك أوّل مرة أهمس لها: «يمكنك أن تأتي وتعيشي معنا. الطلاق ليس شيئاً غير مألوف بالنسبة لهينيو».

هزّت رأسها. «أين سأذهب؟ ماذا سأفعل؟ لدينا منزلٌ جميل في القاعدة. وطفلي يتغذّى جيّداً، كما أنّه يلتقط اللغة الإنجليزيّة من الجنود».

لم يكن عليها أن تسرد الباقي. كنتُ أعيش مع زوجي في منزلٍ صغير مع طفليّ يو-ري، وكان واضحاً أنّنا لا نملك ما يكفي من الطعام. مع ذلك، لو كنتُ مكانها لأخذتُ طفليّ بعيداً قدر الإمكان. يمكنني أن أعمل وأقوم بإعالتنا، تماماً كما يمكن لمي-جا أن تعيل طفلها إذا أرادت ذلك.

لقي ستّة أشخاص مصرعهم أمام مركز الشرطة - كلّهم عدا واحد فقط أصيبوا في الظهر أثناء محاولتهم الفرار. نُقل ستّة آخرون إلى مستشفى المقاطعة. كان أفراد الشرطة المنتشرون هناك في حالة هياجٍ

وارتباك شديد بعد أن سمعوا إطلاق نارٍ من داخل المسيرة، فأطلقوا النار عشوائياً في الهواء وقتلوا اثنين من المارّة. أعلن حظر التجوّل. قرأ لي زوجي في الصباح التالي التقارير المتناقضة في الصحيفة. «يزعم بعض شهود العيان أنّ الصبي قُتل على الفور بحوافر الحصان. ويقول آخرون إنّّه مات في وقتٍ لاحق متأثراً بجراحه». - «هذا فظيع».

- «لكن استمعي إلى هذا»، تابع جون-بو غاضباً. «لقد تبّنى الفيلق الأمريكي الرابع والعشرون وجهة نظرٍ مختلفة تماماً. إنهم يشيرون في تقريرهم إلى إصابة طفلٍ بجروحٍ طفيفة لدى اصطدامه عرضاً بحصان شرطيّ».

هزئتُ رأسي، لكن جون-بو لم يكن قد انتهى بعد. - «ثمّ أخرج قسم الشرطة شخصاً ليصرّح علناً أنّ إطلاق النار في الساحة كان مبرّراً بوصفه دفاعاً عن النفس، لأنّ أشخاصاً مسلّحين بالهراوات قاموا بمهاجمة مركز الشرطة».

- «لكن لم يكن هناك هجوم، ولم يحمل أحدٌ أيّ شيء سوى طفلٍ أو لافتةٍ على عود خيزران!».

- «لست بحاجةٍ إلى إخباري بذلك». هزّ جون-بو كتفيه باشمئزاز. «هم يصفون إطلاق النار بـ ”المؤسف“ و ”المتهور“».

كلُّ شيءٍ كان مزعجاً إلى أقصى حدٍّ، مع ذلك فقد ذهب جون-بو إلى المدرسة وذهبتُ أنا إلى البولتيوك.

في نهاية اليوم، حين كنّا نجذّف عائدات إلى الشاطئ، نادتنا نساءٌ على قاربٍ آخر، فاقتربنا منهنّ لتبادل الأخبار والشائعات.

- «اعتقلت الشرطة منظّمي المظاهرة بالإضافة إلى خمسة وعشرين طالباً في الثانوية»، قالت لنا رئيسة جماعتهم. «سمعنا أنّهم يضربون أولئك الأطفال».

عجزنا عن تصديق ذلك .

في تلك الليلة، قام أشخاصٌ بوضع ملصقاتٍ على الجدران في جميع أنحاء الجزيرة منتهكين حظر التجوال . طلب حزب العمال الكوري الجنوبي من كلِّ سكّان الجزيرة الاحتجاج على الحكومة العسكرية الأمريكية ومحاربة الإمبريالية الأمريكية . كما طلبوا المال لمساعدة الضحايا الذين تمكّنوا من النجاة، ولعائلات أولئك الذين قضوا في المظاهرة . وطالبوا بتقديم أفراد الشرطة الذين أطلقوا النار إلى المحاكمة والحكم عليهم بالإعدام . كما طالبوا بالعزل الفوري لأيِّ متعاطفين مع اليابانيين أو عملاء من صفوف الشرطة . أخيراً، ناشدوا جميع سكان جيجو للانضمام إلى إضراب عام في العاشر من مارس .

كان زعيم هذه الحركة يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وكان معلّماً . قال لي جون-بو إنّه لا يعرفه شخصياً .

انضمّ مزارعون، وصيّادون، وعمّال مصانع وهينيو إلى الإضراب، كما فعل رجال شرطة ومعلّمون وعمّالٌ في مكتب البريد . أفرغ رجال الأعمال مكاتب الموائى والبنوك وشركات النقل . أغلق أصحاب الأعمال أبواب متاجرهم . حقّق الإضراب نجاحاً ساحقاً وفورياً، لكنّ أولئك الذين يشغلون المناصب العليا صنّفوه بأنّه إضرابٌ أحمر، وهو ما جعل الحكومة العسكرية الأمريكية تقف في صفّ المتشدّدين والحكومة في البرّ الرئيسي لجهة إرسال أعضاء من رابطة شباب الشمال الغربي (منظمةٌ شبابية يمينية شبه عسكرية لمحاربة الشيوعية نشطت خلال الحرب الباردة) للمساعدة في الحفاظ على النظام .

ذهبتُ إلى بولتيوك ليس من أجل العمل، بل لتبادل المعلومات.
الجميع لديهم ما يقولونه، لكن لا شيء من ذلك كان جيّداً.
- «معظم رجال رابطة شباب الشمال الغربي هم ممّن هربوا من
شمال خطّ العرض ثمانية وثلاثين. إنهم الأسوأ على الإطلاق!»،
قالت جي-وون متذمّرة.

كان سانغ-مون قد تدبّر أيضاً الفرار من الأراضي التي يسيطر
عليها الشيوعيون، لذا كنتُ أملك فكرة عمّا قد تفعله تلك التجربة
برجل.

- «الكثير منهم من أصحاب الجُنح والبلطجية والمجرمين»،
قالت جارتني جانغ كي-يونغ. ثمّ أضافت مجموعة من ثلاث صفات
أخرى وكأنّها تُكمل مقطعاً من أنشودة. «هم عنيفون، شرسون، وبلا
رحمة».

- «لقد سمعتُ ذلك أيضاً»، وافقت جي-وون. «لقد وصلوا إلى
هنا بأيديّ خاوية، إلى تلك الدرجة اضطروا أن يسرعوا في مغادرة
منازلهم. قيل لهم الآن أن يتدبّروا أمرهم - أن يعتاشوا على ما
يستطيعون الحصول عليه هنا. راقبي ما سيحدث فحسب. سيكونون
أكثر نهماً من اليابانيين حين يتعلّق الأمر بسرقة طعامنا ومواردنا
الأخرى».

لكنّ يون-سو ابنة كي-يونغ هي التي أتت بما ينبغي أن يكون
أكثر المعلومات إثارةً للخوف. «أخبرتني صديقةٌ لي أنّهم مثل الكلاب
المسعورة حين يتعلّق الأمر بالشيوعية. هم يكرهون جيّجو لأنّهم
يعتقدون أنّنا نحمل أفكاراً حمراء. سمعتُ أنّهم أطلقوا عليها اسم
موسكو الصغيرة. يسمّون جيّجو جزيرة الكوايس».

انطلقتُ بضع ضحكات متوتّرة، ثمّ اختفت سريعاً.

تحدّثت غوّاصة-جدّة، وقد كانت صامّة حتّى الآن. «تزوّجت ابنتي على الجهة الأخرى من الجزيرة. بات لديهم هناك ما يشبه القول المأثور عن هؤلاء الرجال الجدد. حتّى الطفل الصغير يتوقّف عن البكاء حين يسمع كلمات "رابطة شباب الشمال الغربي"».

كان يوماً دافئاً، والشمس تسكب أشعتها علينا في البولتيوك، لكنّ شعريّة أصابتنى، وبدا أنّها أصابت الأخريات أيضاً.

تابعت الجدّة بصوتٍ منخفض، وأحسست أنّنا نميل جميعاً باتّجاهها كي نتمكّن من سماعها «تقول ابنتي إنّ الناس في قرية زوجها يطلقون على هؤلاء الرجال ظلّ الكابوس». أدارت رأسها باتّجاه جي-وون. «تقول رئيستنا إنّ هؤلاء الرجال سوف يسرقون طعامنا ومواردنا الأخرى. فكّروا فيما قد يعنيه ذلك. الناس على الجهة الأخرى من الجزيرة يتعرّفون على الإجابة الآن بالفعل. ما هو أئمن مواردنا؟ بناتنا. يجدر باللواتي لديهنّ بناتٌ منكنّ أن تعملن على ترتيب الزيجات سريعاً. في قرية ابنتي، يتمّ تزويج البنات في سنّ الثالثة عشرة».

تسبّب هذا الخبر ببعض الشهقات هنا وهناك.

- «نحن لم نفعل ذلك حتّى عندما كان اليابانيّون هنا»، قالت جي-وون.

رمقت الغوّاصة-الجدّة رئيستنا بنظرة فولاذية. «هذا صعب بالتأكيد. تنصّ التقاليد على أنّ رجالاً كوريين سوف لن يُقدّموا على اغتصاب امرأةٍ متزوّجة، لكن ماذا لو كان هذا غير صحيح؟ ماذا لو —».

خيّم صمتٌ ثقيلٌ فوقنا بينما جلسنا نفكّر في ما قد يحدث لنا أو للفتيات غير المتزوّجات في عائلتنا.

حين عاد جون-بو في ذلك المساء إلى المنزل، حدّثته عن الثروة في البولتيوك. لم يستبعد أيّ شيء. بل قال لي بدلاً من ذلك: «لقد سمعتُ شيئاً من هذا القبيل أيضاً».

لم أسأل لماذا لم يخبرني بذلك من قبل. ربّما لم يردني أن أقلق. الحقيقة هي أنني لم أكن خائفة أو متوترة من أن يهاجمني أحد. شعرتُ بثقة كبيرة في أنني قادرةٌ على الاعتناء بنفسي. لكن ماذا عن يو-ري؟

- «قد لا تكون أحتك سليمة العقل، وفي الأوقات العادية يمكن أن يتمّ تجاهلها بسهولة باعتبارها آنسةً مسنّةً فقدتُ ألقها. لكن لا يمكننا المجازفة». حين نظرتُ إليه أدركتُ أنه يحتاج منّي أن أقرّر ما سنفعله. «لن نسمح لها بالتجول في القرية وحدها بعد الآن. سيتعيّن عليها البقاء داخل سور منزلنا أو أن تكون مع الجدّة تشو طوال الوقت».

لم يعجب ذلك يو-ري على الإطلاق. كانت روح الهينيو لا تزال تسكنها، وكانت غاضبةً من ربطها بالحبل. لكنّ الوضع برمته كان سيّئاً فحسب.

سمعنا في غضون ذلك أن أربعة آلاف فردٍ في مجموعات للدفاع عن النفس يخبئون في أعالي جبل هالا، داخل التحصينات اليابانية القديمة. سرت شائعات بأنهم عثروا على مخابئ أسلحة خلفها اليابانيون وراءهم ولم يكتشف الأمريكيان أمرها لدى وصولهم كي يلقوا بالذخائر والأسلحة المتروكة في البحر.

عندما سردتُ لجون-بو هذه الشائعة التي سمعتها في البولتيوك، قال بسوداوية: «مجدّداً، إنها مواجهة بين سكّان الجزيرة والدخلاء». من ثمّ، وردّاً على الإضراب، قامت الشرطة باعتقال مئتي شخص في مدينة جيجو خلال يومين. بعد ذلك، اعتقلوا ثلاثمئة

آخرين من الموظفين ورجال الأعمال ورجال الشرطة من مواليد جيغو والمعلمين، واحدٌ منهم من المدرسة التي كان يُدرّس فيها جو-بو. عاد الكثير من الناس إلى أعمالهم بفعل الخوف، لكن ليس جون-بو وأنا. كنّا مؤمنين بتأثير الإضراب. لكنّ ذلك تغيّر حين جاء زميل جون-بو إلى المنزل بعد إطلاق سراحه من الاحتجاز. شرب الرجلان كوبين من نبيذ الأرز، وتحدّثا بصوتٍ منخفضٍ بينما كنْتُ أستمع إليهما.

- «لقد أبقوا خمسةً وثلاثين شخصاً منّا في زنزانة مساحتها ثلاثة أمتار بأربعة فقط»، قال صديق جون-بو. «كان رجال الشرطة الذين تعود أصولهم جميعاً إلى البرّ الرئيسي يسحبوننا خارج الزنزانة واحداً تلو الآخر. سمعنا صراخاً واستجداءً. بعد بضع ساعات، كانوا يعيدون الشخص إلى الزنزانة - فاقداً للوعي أو غير قادرٍ على المشي. ثمّ يختارون شخصاً آخر. عندما جاء دوري، ضربوني ضرباً مبرّحاً، صرختُ واستجديتُ كالآخرين. طلبوا منّي تسمية منظّمي الإضراب».

- «وهل فعلت؟».

- «كيف لي أن أعرف من هم؟ ضربني رجال الشرطة أكثر، لكنّ ما حدث لي لم يكن سيئاً كالذي حدث في أماكن أخرى. كان لديهم نساءً أيضاً. أصوات صراخهنّ... يا إلهي! لن أنسى ذلك ما حييت».

- «ماذا ستفعل الآن؟».

- «سوف أعود إلى اليابان. أنا وعائلتي سنكون هناك بأمانٍ أكثر».

كان سماع شخصٍ من جيغو وهو يقول إنه يفضل العيش بين ذوي الحوافر أكثر من جزيرتنا الأمّ صدمةً عصيّةً على الوصف. في

اليوم التالي، عاد جون-بو إلى فصله الدراسي - دون التحدّث إلَيَّ بشأن قراره هذا. كان توقيته جيّداً، لأنّه تمّ في صباح اليوم الذي تلا ذلك استبدال جميع المعلّمين الذين لا يزالون مضربين برجالٍ فروا من كوريا الشمالية. توسّلتُ إلى جون-بو أن يتوخّى الحذر. سيكون موضع شبهات على نحوٍ تلقائي بصفته شخصاً تلقى تعليمه في الخارج وتعرّف على أفكار مختلفة حول المساواة، والإصلاح الزراعي، وأحقّية التعليم للجميع.

- «لا تقلقي»، قال لي. «هم يخافون من الشيوعية فحسب. هم يرونها في كلّ مكان».

لكن كيف لي ألاّ أشعر بالقلق والريح تتغيّر وتُغيّر معها حال البحر في كلّ مكانٍ من حولنا، كما لو أنّ تسونامي مرعب كان يضرب جزيرتنا، ويسحب معه كلّ ما نعرفه ونحبّه إلى أعماق المحيط؟ أُلقي القبض على المزيد من الناس. اضطلع ضباطٌ من الجيش الأمريكيّ بالمحاكمات، وهو ما عنى أنّ التواصل بين المتّهمين الكوريّين والقضاة الأمريكيّين كان في حدوده الدنيا. ذهب الناس إلى السجن. وارتفعت وتيرة الاشتباكات بين القرويين والشرطة واشتدّت حدّتها. علّقت المزيد من الملصقات ووُرّعت المزيد من المنشورات، واعتُقل المزيد والمزيد من الناس، بينما في مكانٍ بعيدٍ جداً عنّا، ظلّت الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفييتي تتنازعان على مصير بلدنا. لم يبدُ أنّ الصراع بينهما كان له علاقةٌ بنا، لكن هنا في جيجو، فرضت الشرطة ما يسمّى بحالة الطوارئ.

لم أستطع التوقّف عن التفكير في لحظات أمّي الأخيرة وكيف التفتّ حبل رمح البيتشانغ حول معصمها تحت الماء. لقد حاربت لتحرير نفسها، وكنتُ قد حاولتُ المساعدة، لكنّ النتيجة كانت محتومة. شعرتُ كما لو أنّ نسخةً عن ذلك تحدث لنا الآن، لكن

فوق أرضٍ جافّة، إلّا أنّنا أردنا مع ذلك أن نعيش حياتنا فحسب. درّس جون-بو طلابه. أخذت الجدّة تشو الطفلين ويو-ري في نزاهاتٍ قصيرة إلى البحر عندما بدت الأيّام هادئةً نسبياً. ذهبتُ للغوص مع الجماعة، وبدأتُ في تدريب غوّاصّة-طفلة. كنتُ مشغولةً جدّاً - وخمّنتُ أنّ مي-جا كانت كذلك أيضاً - لدرجة أنّ الثلاثة كيلومترات بين بوكتشون وهامديوك بدت الآن مسافةً كبيرة. لم أرَ مي-جا بعد المسيرة لمُدّة خمسة أشهر. وظلّت الأحداث تقترب منّا شيئاً فشيئاً.

كان ذلك في الثالث عشر من أغسطس. موسم حصاد البطاطا الحلوة. ذهبتُ مع يو-ري وطفليّ باكرّاً إلى الحقول. كنتُ في الشهر الثامن من الحمل. أصبح بطني كبيراً الآن مع تزايد حجم الجنين، وكان ظهري يؤلمني من الانحناء الدائم. كان سونغ-سو قد بدأ يمشي لتوّه، ولم تكن أخته قد بلغت من العمر ما يكفي لإبقائه بعيداً عن المشاكل، لذا كان عليّ أن أبقى عينيّ على الثلاثة بينما أقوم بعملِي. أخذت السماء بحلول الساعة العاشرة تمطر بغزارةٍ شديدة لدرجة أنّي قرّرتُ العودة إلى المنزل والانتظار حتّى يستقرّ الطقس. ربطتُ سونغ-سو بظهر يو-ري، وأخذتُ بيد مين-لي، وتوجّهنا إلى القرية. التصقّت ملابسِي المبلّلة، شائكة الملمس ببشرتي، وعلقت الأوحال بقدميّ وصولاً إلى رجليّ ساقِي. التقيتُ على الطريق بجارتي جانغ كي-يونغ، وابنتها يون-سو، وبعض قريباتهما لدى عودتهنّ من الحقول إلى بوكتشون.

- «إنّ لديك الكثير من الأعباء»، أثنتُ كي-يونغ عليّ وأنا أسوق طفليّ ويو-ري.

- «أنا امرأةٌ محظوظة»، أجبتهَا. ولأردَّ لها المجاملة، قلتُ:
«إنَّ ابنتكِ تقتفي خطاك. هي غوَاصَّة-طفلة جيِّدة».
- «ستكون ابنتكِ جيِّدةً بذات القدر يوماً ما».
- «ستكون تلك أعظم هديَّة يمكن أن تقدِّمها لي».
دخلنا القرية. كان أحدهم إلى الأمام منَّا يوزِّع المنشورات.
- «هاك. خذي واحداً»، قال الشاب.
- «أنا لا أعرف القراءة»، قلتُ له.
حاول الشاب أن يدسَّ بضاعته في يديّ كي-يونغ ويون-سو.
- «نحن أيضاً لا نعرف القراءة»، اعترفتُ يون-سو.
عندها بالضبط، ظهر رجلا شرطة قرب زاوية الزقاق. صرخ
أحدهما عندما رأى الصبيّ: «توقّف!». ثمَّ صاح الآخر «قف
مكانك!».

امتنع وجه الصبي. ثمَّ استعاد رباطة جأشه، فقذف بالمنشورات
في الهواء وانطلق بأقصى سرعته. اندفع رجلا الشرطة في إثره -
وباتجاهنا. حملتُ مين-لي، ووضعتُ ذراعي حول يو-ري التي
كانت تحمل سونغ-سو على ظهرها وتحركنا سوياً باتجاه الساحة. في
خضمّ الارتباك، جاءت يون-سو معي بدلاً من الذهاب مع والدتها
وشقيقاتها وجذّتها. اندلعت أصوات الرصاص من حولنا - نفس
الأصوات الرهيبة التي سمعناها في الميدان أثناء المظاهرة. تعثّرت
يون-سو بالقرب منّي وسقطتُ أرضاً. تدرجرت ثمَّ نهضت واقفة.
كان الدم ينزف من كتفها. بدا كجرحٍ سطحيّ، لكنني لم أنتظر
لأفحصه.

- «يو-ري، تمسّكي بي جيِّداً!». تشبّثتُ أخْتُ زوجي المذعورة
بطرف ردائي. كانت مين-لي تبكي بشدّة لدرجة أنّها بالكاد استطاعت
التنفس. نقلتها إلى كتفي الآخر، ولففتُ يدي الحرّة حول خصر

يون-سو. كنّا نحن الخمسة نتحرّك كأنّنا شخصٌ واحد. إذ وصلنا إلى الساحة، سقطنا منهارين على الأرض. كانت مين-لي لا تزال تبكي. ويو-ري قرفصت بقربي وقد ابيضّت من الرعب. ودُمّ يون-سو يقطر في كل مكان. مرّرتُ يدي المرتجفة فوق يو-ري، مين-لي، وسونغ-سو. لم يُصب أيُّ منهم بأذى.

دوّث صفّارات الإنذار في أنحاء القرية. اندفع الجيران خارجين من منازلهم - بعضهم مسلّح بالأدوات الزراعية - لملاحقة الشرطيين اللذين أطلقا النار علينا. لم أبقَ لأرى ما سيحدث. جمعتُ زمرتي، ومضينا معاً إلى منزل يون-سو. وقفت كي-يونغ وقرباتها في فناء المنزل، وبدأ الجميع في حالةٍ من الهياج. حين رأت النساء ما حلَّ بيون-سو، هرعنَ مسرعات للقيام بما يلزم. وضعتُ إحداهنَّ قدر الماء حتّى يغلي. ونفضت أخرى بعض قطع قماش البرسيمون النظيفة ثمّ مرّقتها على شكل شرائط لاستخدامها كضمادات. لكنّ الفتاة المسكينة ترنّحت بين ذراعيّ وخارت قواها حين ظهرت كي-يونغ مع سكّين ومقصّ وملاقط، ثمّ انهارت ساقاها إذ فقدت الوعي. كانت مصابة، لكنّ إصابتها لم تكن تشكّل خطراً على حياتها. سيكون بمقدورها الغوص مجدداً بمجرد زوال رائحة الدم من جرحها.

كان عليّ أن أرجع إلى منزلي. عدنا أدراجنا إلى الساحة، حيث كان القرويون قد أمسكوا بالشرطيّين وربطوهما بالحبال. كان الناس يصرخون ويشتون. ركل أحدهم الشرطي الأصغر.

- «إنّ ضربه بالخفّ ليس كافياً»، قال رجلٌ عجوز موبّخاً. «دعونا نأخذهما إلى مخفر شرطة هامديوك! سنحرص على أن يُعاقبا!».

هتف الجميع بالموافقة. كان ينبغي بي الالتزام بخطّتي والعودة إلى المنزل، لكنني وجدتُ نفسي منساقاً مع الحشد. انقلب خوفي

إلى حق. كيف يمكن لكوريين - حتى لو لم يكونوا من جيغو - أن يطلقوا النار علينا؟ كُنّا أناساً أبرياء، وكان على كلِّ هذا أن يتوقّف! لذا انضممنا إلى التجمّع وهو يسحب الشرطيّين عبر الأزقة وعلى طول الشاطئ مسافة ثلاثة كيلومترات وصولاً إلى هامديوك. بالكاد كانت قد مرّت ساعة منذ غادرتُ الحقل الجافّ مع عائلتي.

- «نريد التقدّم بشكوى ضدّ هذين!»، نادى أحد كبار السن من بوكتشون لدى وصولنا إلى مخفر الشرطة. «دعونا نخبركم بمظلوميّتنا».

كان اليابانيّون يستمعون إلى شكاوينّا، لكن أبناء جلدتنا لم يفعلوا. بدلاً من ذلك، شاهدتُ مرعوبةً بعض رجال الشرطة يظهرون على السطح، ويهرعون إلى مدفع رشّاش منصوب هناك، ثمّ يبدوون بإطلاق النار دون سابق إنذار. استغرق منا الأمر لحظةً كي ندرك أنّهم كانوا يطلقون رصاصاتٍ فارغة، لكنّنا كُنّا بالفعل قد تبعثرنا مثل حشراتٍ فوق أرضية المرحاض لدى إشعال مصباح الزيت. اختلستُ النظر بسرعة من خلف بعض البراميل لأرى إن كان الوضع آمناً. وإذا بي ألمح سانغ-مون يحدّق إلى الخارج من نافذة مخفر الشرطة. تواريتُ عن الأنظار. هوى قلبي وسقط داخل أحشائي. لا بدّ أنّ عينيّ تكذبان، لكنّه كان هناك حين استرقتُ النظر مجدّداً. هذه المرّة التقتُ عيوننا.

لم أتوقّف لزيارة مي-جا في طريق عودتي إلى بوكتشون. لم أعرف ماذا يمكنني أن أقول لها. للمرّة الأولى خلال سنوات صداقتنا الطويلة، لم أكن متأكّدة أنّه يمكنني الوثوق بها.

كان زوجي ينتظرنا عند البوابة الخارجية عندما وصلنا إلى المنزل. أخذني بين ذراعيه دون أن يقول كلمة. أخبرته بما رأيت وأنا أشهق بالبكاء.

- «أنتم بخير»، قال جون-بو. «هذا كلُّ ما يهَمُّ».

لكنني كنتُ أشعر بالخلجل الشديد لكوني تركتُ للغضب والارتباك أن يتحكَّما بي في تلك اللحظة، الأمر الذي عرَّض أطفالِي ويو-ري للخطر. وعدتُ نفسي بآلا أسمح بحدوث ذلك مرَّةً أخرى. لن أسمح بذلك كأمّ، ولن أسمح به كزوجة.

في اليوم التالي، أشارت الصحيفة إلى أنَّ الشرطة كانت «مضطَّرة» إلى اتِّخاذ إجراءات صارمة بحقِّ أولئك الذين يوزَّعون المنشورات، لكنَّ المجرم في بوكتشون قد لاذ بالفرار. بعد ذلك بيومين، خرج تقريرٌ مسرَّب عن الفيلق الأمريكي الرابع والعشرين على الصفحة الأولى أيضاً. قرأ زوجي القصة:

- «كانت امرأتان ورجل قد أصيبا في اشتباكٍ عنيف بالأسلحة النارية بين يساريين كانوا يوزَّعون المنشورات والشرطة في بوكتشون».

- «لكن هذا ليس ما حدث!»، صرختُ بسخط.

عاد جون-بو إلى المقالة وقرأ: «هاجم حشدٌ من الغوغاء قوامه قرابة المئتي شخص مخفر الشرطة في هامديوك. كانت الشرطة بحاجةً إلى تعزيزات حقيقية لتفريق الغوغاء».

- «لكن هذا ليس ما حدث!»، كرَّرتُ بسخط أكبر. «كيف يمكنهم تغيير ما رأيته بأمِّ عيني إلى شيءٍ مختلفٍ تماماً؟».

لم يكن لدى جون-بو إجابة. راقبتُ عضلات فكِّه وهي تتحرَّكُ بينما كان يقرأ الكلمات الأخيرة: «إنَّ كلَّ أنواع التجمَّعات السياسية والمسيرات والمظاهرات ممنوعة قطعياً الآن. أيُّ تجمُّع في الشارع سيتمُّ قمعه على الفور، كما أنَّ نشر وتوزيع المنشورات يعدُّ في الحال عملاً غير قانونيٍّ». طوى الصحيفة ووضعها على الأرض. «من الآن فصاعداً، يجب أن نكون في غاية الحذر».

كنتُ قد شاهدتُ أمي تموت في البحر . ورأيتُ يو-ري تنزل في البحر وتخرج منه شخصاً آخر . كنتُ أفهم أن يكون البحر خطيراً ، لكن ما كان يحدث على اليابسة أربكني وأخافني أشدَّ الخوف . شاهدتُ في الأشهر القليلة الماضية عدّة أشخاص يتعرّضون أمامي لإطلاق النار . رأيتُ أناساً يتعرّضون لضربٍ مبرّح من كلا الجانبين . كلُّ الذين قُتلوا أو أصيبوا كانوا كوريّين - سواءً من جيجو أو من البرّ الرئيسي - كما أنّ الجناة جميعهم كانوا من أبناء بلدنا . كان هذا عصياً على الفهم بالنسبة لي ، وألّفتُ نفسي عاجزاً ، ولا أستطيع التوقف عن الارتعاش ، ليس حتّى عندما ضمّني زوجي بقوة وأخبرني بأنّه سيقينا آمنين .

حلقة النار

مارس - أغسطس 1948

كان العام الذي أعقب مظاهرة 1 مارس مليئاً بالعمل ومشاغل العائلة، ولم أرَ خلاله مي-جا مرةً واحدة. لا بدّ أنها كانت تكافح مع وضعها العائلي، ولكم شعرتُ بالانزعاج حيال ذلك. لكن بقدر ما كنتُ أحبّها وأفتقدها، إلّا أنّني كنتُ بحاجة إلى أخذ جانب الحيلة والحذر. كانت تعيش في هامديوك حيث المقرّ الرئيسي للجيش. وكنتُ مقتنعةً أنّ زوجها مصطفى في الجانب الخطأ، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته. لم يكن بوسعي المجازفة باحتمال أنّه في لحظة شكٍّ أو غضب قد ينقلب عليّ أو على جون-بو. مرّت بالطبع أوقات تساءلتُ فيها لمَ لا تسأل مي-جا عنيّ، وما الذي قد يعنيه ذلك. كما تساءلتُ عمّا إذا كانت تفكرُ بي أم أنّها مشغولةٌ جداً بالعمل والعائلة مثلي.

كان طفلاي على ما يرام. سيحتفل مين-لي وسونغ-سو بعيد ميلادهما قريباً حيث سيبلغان الثالثة والثانية من عمرهما. رُزقتُ وجون-بو بصبيّ ثاني، أطلقنا عليه اسم كيونغ-سو. كان طفلاً طيّعاً، وكنتُ سعيدة لأنّ مين-لي كانت تتعلّم بالفعل كيف ترعى أخوتها. حظي زوجي باحترام طلابه، ورسّختُ مكانتي كغوّاصة-صغيرة في

جماعة بوكتشون للغوص. ورغم حظنا الطيّب، فقد حظينا بنصيبنا من الخلافات. بقي جون-بو ثابتاً على موقفه بأنه يريد تعليم جميع أبنائنا، وكنا نخوض هذا النقاش مرّة في الأسبوع على الأقل.

قال لي عصر أحد الأيام بعد أن اضطر لمعاقبة أحد طلابه بسبب الغشّ: «دعيني أذكرك بالمثل القديم؛ إذا زرعت الفاصولياء الحمراء، فسوف تحصد الفاصولياء الحمراء. لطالما ردّدت أمي هذا المثل، وهو يوضّح أنّ الأمر منوطٌ بالوالدين لتنشئة وتغذية أطفالهما حتّى يصبحوا بالغين صالحين ومفيدين لمجتمعهم». ثمّ أضاف قائلاً: «ينبغي بك أن تكوني راغبةً في حصول مين-لي على نفس فرص أبنائنا الذكور».

- «أنا أتفهّم رغباتك»، أجبته. «لكنني ما زلتُ آمل في حال أنجبتُ طفلاً آخر أن تكون فتاة كي تساعد أختها الكبرى في دفع رسوم التعليم لإخوتها الذكور. فقد تطلّب الأمر ثلاث نساء - أمك وأختك وأنا - للتكفّل بتعليمك. حين يصبح سونغ-سو جاهزاً للالتحاق بالجامعة، ستكون مين-لي في التاسعة عشرة وتكسب المال عبر العمل في البحر بعيداً عن الديار. لكن بحلول الوقت الذي سيذهب فيه كيونغ-سو إلى الجامعة، ستكون مين-لي قد تزوّجت بالتأكيد. سأحتاج إلى هينيو أخرى على الأقل في الأسرة للمساعدة في دفع تكاليف الدراسة لولدينا».

ابتسم جون-بو وهزّ رأسه فحسب.

بالنسبة لي، أظهر لي كلّ هذا أنّه وبقدر ما أحببتُ جون-بو واحترمته، إلّا أنّه كان مجرد رجلٍ، وليست لديه المخاوف الأكبر التي كانت لديّ. حين كان جون-بو في المنزل أو في المدرسة، كنتُ أنا أخوض غمار العالم. كان عليّ أن أكون عمليّة، وأن أفكر ملياً في المستقبل، لأنّ كلّ شيءٍ من حولنا كان يقف على أرضٍ غير

ثابتة. ها نحن هنا، بعد عام من المظاهرة وما زالت الأعمال الانتقامية مستمرة. إذا تقدّم شيوخ القرية بشكاوى ضدّ أعضاء رابطة شباب الشمال الغربي لمطالبتهم برشاوى على شكل أموال أو أكياس من الدخن، فلن يرى أحدٌ أولئك الشيوخ ثانية. وإذا نزلت مجموعة من اليساريين من جبل هالا وأطلقوا النار على شرطيّ، فستمسّط فرقٌ من أفراد الشرطة الجبل بحثاً عن الجناة، وإذا لم يتمكّنوا من العثور عليهم، فستطلق الشرطة النار على القرويين انتقاماً.

قرّرت الحكومة العسكرية الأمريكية إجراء بعض التغييرات. استُبدل حاكمنا الكوريّ الأول بالحاكم يو. قيل عن هذا الأخير أنّه يرتدي النظارات الشمسية 24 ساعة في اليوم، وينام مع مسدّسه. حتّى السلطات الأمريكية صنّفته كيميّنٍ متطرّف. قام الحاكم الجديد بعزل جميع المسؤولين المولودين في جيغو، واستبدلهم بآخرين كانوا قد فروا من الشمال ويناصبون مثله الشيوعية أشدّ العداء. كما أجرى حركات تبديل لضباط وأفراد شرطة من جيغو مع نظراء لهم من البرّ الرئيسي، أولئك الذين لم يحبّوا يوماً جزيرتنا أو يتعاطفوا معها. قام أيضاً بحظر كلّ اللجان الشعبية، ووصف تلك اللجان التي كنتُ وعائلي قد استفدنا منها باليساريين المتطرفين. أنا لم أكن يسارية متطرّفة. لم أكن حتّى يسارية. أيّاً يكن الأمر، لن يكون هناك بعد الآن فصولٌ دراسية للنساء أو أيّ أنشطة أخرى كانت فروع القرى تقوم بتنظيمها.

لم يكن لدينا في الجزيرة سوى صحيفة واحدة، لكن بحلول الوقت الذي تصل فيه نسخةٌ إلى بوكتشون، تكون الأخبار قد أصبحت قديمة، أو أنّها غير صحيحة في المقام الأوّل. استمع جون-بو إلى الأخبار عبر الراديو، لكنّه ذات ليلةٍ قال بنبوءةٍ كئيبة: «أعتقد أنّ المحطّة الإذاعية يتحكّم بها اليمينيّون، الذين بدورهم يتحكّم بهم

الأمريكان. لدينا الكثير من القيل والقال والشائعات التي تنتقل من قرية إلى أخرى، لكن هل نستطيع الوثوق بأي شيء نسمعه؟». لم أكن أملك جواباً.

أعلن الأمريكيون أننا نحن الذين نعيش جنوب خط العرض ثمانية وثلاثون سَنتمكّن أخيراً من إجراء انتخاباتٍ خاصّة بنا في يوم العاشر من مايو. ارتفعت معنويات زوجي لبضع لحظاتٍ فحسب.

- «لقد تعهّد الأمريكيون والأمم المتحدة بأننا سنكون أحراراً في التصويت على النحو الذي نرغب به»، قال لي لكنّ لحظةً من الواقعية أعادته إلى الأرض. «الأمريكيون يدعمون ري سينغمان كمرشّحهم المفضّل. تتألّف قاعدة داعميه وناخبيه الأساسية من عملاء يابانيين سابقين. يُصنّف أيّ شخصٍ يقف ضده كأحمر على نحوٍ تلقائي. أيّ شخصٍ يريد معاقبة العملاء السابقين يصنّف كأحمر. هذا يعني أن كلّ شخصٍ تقريباً في جيجو - بما في ذلك نحن - سوف يصنّف كأحمر».

شعرتُ بالقلق من سوداوية جون-بو الآخذة بالازدياد. قدّمت عبر بثّ إذاعي من محطة شمال خط العرض ثمانية وثلاثين دعوةً لقادة الجنوب للذهاب إلى بيونغ يانغ بغرض مناقشة مسألة إعادة التوحيد وكتابة دستورٍ يحل كلّ مشاكلنا. كردّ على ذلك، عزّزت الحكومة العسكرية الأمريكية والحاكم يو حملتهما المناهضة للشيوعية في جيجو. الحاكم السابق بارك، المعيّن بواسطة الجيش الأمريكي في الأساس، كان أوّل من اعتُقل. كان شخصاً مشهوراً، ممّا تسبّب للشعب بصدمةٍ كبيرة. سُجبت بعد ذلك جثة شابٍّ من النهر، تمّ التعرف عليه كأحد المحتجّين. أفاد شاهدٌ على إحدى جلسات التعذيب أنّ الطالب علّق إلى السقف من شعره وثُقِّبَت

خصيتهاه بالمخارز. ما من أمّ على الجزيرة لم تتخيّل حجم الحزن الذي كانت ستشعر به لو كان هذا الصبيّ ابنها.

استفقنا في الساعات الأولى من فجر يوم 3 أبريل على أصوات إطلاق نار، وصراخ، وأناسٍ يتراكمون في الأزقة. حمينا أنا وجون-بو أطفالنا بجسدينا. كنْتُ مذعورة. نشج الأطفال بالبكاء. بدا أنّ الهياج استمرّ إلى الأبد، لكنني في الغالب شعرتُ على هذا النحو فقط لأنّ الليلة كانت حالكة الظلمة. أخيراً، خيم الصمت على بوكتشون. هل كانت هناك حملة اعتقال؟ كم عدد من أصيبوا، وكم عدد القتلى؟ لم تكشف العتمة الكثيفة عن أيّ إجابات. ثمّ بدأنا نسمع صياحاً.

- «أسرع!».

- «تعال بسرعة!».

نهض جون-بو وارتدى سرواله بسرعة.

- «لا تذهب إلى الخارج»، توسّلتُ إليه.

- «أياً كان ما حدث فقد انتهى الآن. يمكن أن تكون هناك

إصابات. يجب أن أذهب».

بعد أن غادر، ضممتُ الأطفال أقرب إليّ. سمعتُ في الخارج

أصوات الرجال يتحدّثون باستعجال.

- «انظر إلى التلال! لقد أضأوا أبراج المنارات القديمة!».

- «إنّهم يرسلون رسالةً عبر الجزيرة!».

- «لكن ما هي الرسالة؟»، سأل زوجي.

ظلّ الرجال بين أخذٍ وردّ حول ذلك دون أن يتوصّلوا إلى

استنتاجات. رجع جون-بو واستلقى بجانبه. غطّ الأطفال في النوم

مجدّداً، كانوا يحيطون بنا مثل صغار الخنازير. إذ خَطَطَ الفجر السماء بتدرّجات من اللون الوردي، نهضتُ بهدوء، وارتديتُ ملابس نهائية، وخرجتُ من المنزل. كنتُ بصدد الذهاب إلى بئر القرية حين انضمّ إليّ جون-بو.

- «أنا قادمٌ معك. لا أريد أن تذهبي وحدك».

- «الأطفال —».

- «لا يزالون نائمين»، قال وهو يلتقط جرّة ماء. «سيكون من الأسرع أن نتركهم هنا لبضع دقائق من أن نأخذهم معنا».

خرجنا إلى البوّابة الأمامية واسترقنا النظر. كان زقاق الأولي فارغاً إلّا من بعض حِراب الخيزران المتروكة. سارعنا إلى الساحة الرئيسية، وهناك اكتشفنا أنّ المتمرّدين اقتحموا مخفر شرطة القرية ذي الغرفة الواحدة. تبعثر الأثاث فوق أرض الساحة المرصوفة. انجرفت الأوراق مع الريح على طول الساحة. تسابق عددٌ من الرجال بزيّ عسكري لالتقاطها. واحدٌ منهم كان لديه ضمادٌ كبير على رأسه، وواحدٌ آخر كان يعرج. تجمّع بعض القرويين تحت الشجرة للنظر إلى المنشور الملتصق عليها. شققنا أنا وجون-بو طريقنا نحوها.

- «أخبرنا ماذا يقول المنشور أيّها المعلّم»، قال أحدهم.

- «مواطنونا الأعزّاء، أهلنا، أشقاؤنا، وشقيقاتنا»، قرأ وعيناه تتنقّلان فوق الحروف. «بالأمس عُثر على أحد أشقائنا الطلاب مقتولاً. اليوم نزل من الجبال حاملين الأسلحة لمداهمة مراكز الشرطة في جميع أنحاء الجزيرة».

همهم الحشد مرتبكاً، خائفاً. ارتفعت بعض الأصوات المؤيِّدة للمتمرّدين. لقد تمّ الثأر للصبي الذي عُدّب وقُتل.

تابع جون-بو القراءة: «سوف نعارض الانتخابات التي تكرّس تقسيم البلاد حتّى الموت. سوف ننقذ العائلات التي فُرِّقت عن بعضها

بواسطة خط. سنطرد أكلة لحوم البشر الأمريكيين وكلابهم اللاهثة من أبناء بلدنا. يا أيّها المسؤولون الحكوميّون، وأفراد الشرطة، ندعوكم للنهوض ومساعدتنا في النضال من أجل الاستقلال».

لم أكرث للأسلوب اللغوي، لكنّ العاطفة كانت صادقةً بالنسبة لنا جميعاً. كنّا نريد بلدنا موحدًا. كنّا نريد اختيار مستقبلنا بأنفسنا.

- «نضال! نضال! نضال!»، صاح الرجال رافعين أيديهم. ثمّ سرعان ما انضمت إليهم أصوات النساء. لكنني تعلّمتُ وجون-بو توخي الحذر. عدنا للمنزل كي نتابع حياتنا بينما كانت الكلمات تنتقل من فمٍ إلى فم. تناولنا الإفطار، واستقرّت الجدّة تشو مع الأطفال ويو-ري، وشققتُ طريقي إلى البولتيوك، حيث بدا بحلول ذلك الوقت أنّ لدى كلّ هينيو فصلاً آخر لتضييفه إلى قصة الليلة الماضية. مكتبة سُر من قرأ

- «حزب العمّال الكوري الجنوبيّ كان وراء الهجمات»، قالت جي-وون حالما أخذنا أماكننا حول النار.

- «لا! لقد كانوا من المتمرّدين، ذلك بسيطٌ وواضح»، قالت كي-يونغ وهي تحكّ أذنها.

- «سمعتُ أنّ خمسمئة نائر هبطوا جبل الجدّة سيولمونداي —».

- «كانوا أكثر من ذلك بكثير! انضمّ ثلاثة آلاف شخصٍ إلى المتمرّدين أثناء انتقالهم من قريةٍ إلى أخرى. هكذا تمكّنوا من مهاجمة العديد من نقاط الشرطة في آنٍ واحد».

- «وهذا ليس كلّ شيء. لقد نسفوا الطرق والجسور أيضاً».

- «بماذا؟»، سألت إحداهنّ بتشكّك.

قبل أن يأتي الجواب على هذا السؤال، هتفتُ غواصةً أخرى: «حتّى أنّهم قطعوا خطوط الهاتف!».

قد يكون هذا جدّياً. لم يكن لدى أيّ منّا هاتفٌ في منزله، لذا كان الهاتف في مركز الشرطة هو الطريقة الوحيدة لطلب مساعدة طارئة من مدينة جيجو.

- «بدا لي أنّهم كانوا مسلّحين بما يزيد قليلاً عمّا نأخذه معنا إلى البحر»، قالت جي-وون.

- «هل نظرتِ إليهم؟»، سألت كي-يونغ بشيءٍ من الهلع.

- «هل تعتقدين أنّ أحداً قد يجرؤ على فعل شيءٍ لي؟». مطّت جي-وون ذقنها تأكيداً على رباطة جأشها. «خرجتُ إلى بوابة منزلي الأمامية. رأيتُ رجالاً، وبعض النساء يحملن المناجل، والمدار، والمجارف، و—».

- «يبدو أنّهنّ مزارعات، لا هينيو»، تكهّنت كي-يونغ.

- «هنّ مزارعات»، قالت ابنتها.

- «وبعض الصيادين أيضاً».

- «هذا لا يتعلّق بما يتحدّثون عنه في الراديو حول اليمينيين واليساريين وما إلى ذلك»، قالت جي-وون. «هذا يتمحور حول عدم الرغبة في أن يملي علينا بلدٌ آخر ما يجب علينا فعله —».

- «كما أنّه يتمحور حول إعادة توحيد البلاد. لديّ عائلة في الشطر الشمالي».

- «من منّا لم يتأثر بشكلٍ أو بآخر؟ في البداية، كان لدينا اليابانيّون. ثمّ جاءت الحرب. والآن كلّ مشاكل المعيشة ونقص الغذاء —».

- «هل قُتل أحد؟»، سألتُهنّ.

خيّم الصمت على البولتيوك. لم يتوقّف أحدٌ في خضمّ الإثارة للتفكير بمن قد يكون تعرّض للأذى.

كانت جي-وون تعرف الجواب. «قُتل أربعة متمردين وثلاثون رجل شرطة في أنحاء الجزيرة —».

تأوّهت المرأة التي تجلس بجانبها مذهولة. «ثلاثون رجل شرطة؟».

- «يا للهول!».

- «يا إلهي!».

- «كما فقد ضابطان في هامديوك»، أضافت جي-وون.

كان ذلك على بعد ثلاثة كيلومترات فقط. مي-جا. ربّما كان ينبغي بي أن أشعر بقلق أكبر عليها، لكنني منذ رأيتُ سانغ-مون في مركز الشرطة؛ كان عليّ أن أفهم أنّها بأمان.

- «فُقد؟ ما معنى فُقد؟ هل فرّا من الجندية؟».

- «لقد اختُطفّا!».

حلّ الخوف على وجوه النساء من حولي. الهجوم والانتقام أصبحا نمط حياة بالنسبة لنا. كان القلق يثقل كاهلنا جميعاً.

- «لم يمت أحدٌ في بوكتشون»، قالت جي-وون. «يمكننا أن نشعر بالامتنان لذلك».

ساد إحساسٌ بالارتياح لا لبس فيه. إذا لم يُقتل أحدٌ هنا، فقد لا نختبر انتقاماً. كان بوسعنا أن نأمل في عدم حدوث شيء.

حالما نزلتُ في البحر، دفعتُ بأفكار اليابسة بعيداً. كانت مخاوفنا بشأن أحداث الليلة الماضية قد تلاشت بحلول وقت عودتنا إلى البولتيوك بعد بضع ساعات لتناول الطعام والحصول على قسطٍ من الدفء.

كان الكولونيل الأمريكي المسؤول غير آبه أيضاً بما يحدث. «أنا لست مهتماً بمسألة الانتفاضة هذه»، قال الكولونيل براون لمراسل

الإذاعة في تلك الليلة. «أسبوعان سيكونان أكثر من كافيين لسحق التمرّد». لكنّه في الواقع كان مخطئاً. إذ انتهى الأمر بهذا اليوم - الثالث من أبريل - بأن يُصبح معروفاً باسم حادثة 4.3، رغم أنّنا لم نكن نعرف بعد أنّ هذا التاريخ سيكون ذا أهميّة كبرى في حياتنا. بعد يومين، أخبرني جون-بو أنّ الحكومة العسكرية الأمريكية شكّلت ما يسمّى بالقيادة العسكرية في جيجو. وتمّ فرض حظر تجوّل أكثر صرامة.

- «لكن كيف لي أن أبقى في المنزل من شروق الشمس حتى غروبها، في الوقت الذي نحتاج إلى إحضار الماء، وجمع الروث، والاعتناء بالخنازير؟»، سألتُ زوجي.

مرّر جون-بو يديه في شعره. لم يكن يملك حلاً.

سمعنا في الراديو قائد الفوج التاسع للشرطة الكورية وهو يشرح كيف كان يحاول التفاوض لتحقيق السلام: «طلبتُ أن يستسلم المتمرّدون استسلاماً كاملاً، لكنّهم يطالبون بنزع سلاح الشرطة، وبإقالة كلّ المسؤولين الحكوميين، وطرّد كافة الجماعات الميليشياوية - مثل رابطة شباب الشمال الغربي - وإعادة توحيد الكوريتين».

لم يكن من الممكن بطبيعة الحال لأيّ من الطرفين الموافقة على هذه الشروط. استقدمت الشرطة بعد ذلك تعزيزات إلى الجزيرة قوامها حوالي الألف رجل. أرسل بعض هؤلاء الرجال لحراسة القرى الواقعة على طول الساحل مثل بوكتشون، وهامديوك، وهادو، وأعترف أنّني كنتُ ممتنةً لذلك. صعد رجال الشرطة بعد ذلك جبل هالا وهاجموا المتمرّدين هناك - سمعنا عن كلّ هذا في الراديو أو من خلال الشائعات. بحلول نهاية أبريل، كانت مدينة جيجو مطوّقة ومعزولةً بالكامل، والشرطة تنتقل من بيتٍ لآخر في عمليات مدهمة وتفتيش للقبض على من أطلقوا عليهم المتعاطفين مع الشيوعية. لكنّ

الكثير من أفراد الدرك والشرطة كانوا من جيغو. ففي مرحلة ما لم يعد بإمكان هؤلاء تحمّل ما كان يحدث، فانشقّوا وانضمّوا إلى المتمرّدين في الجبال. حتّى أنّ عدداً قليلاً من أهل بوكتشون غادروا للانضمام إلى المتمرّدين.

الجنرال دين، وهو الآن الحاكم العسكري الأمريكي لكوريا، جاء إلى جزيرتنا لـ «تقييم الوضع». كرّر الرجل شائعةً مفادها أنّ الجيش الأحمر الكوري الشمالي قد وصل بالفعل إلى جيغو، وهو يقود المتمرّدين الآن. أعقب ذلك شائعاتٌ عن سفن تابعة للبحرية الكورية الشمالية وغوّاصة سوفيتية تحوم حول الجزيرة. شدّدت هذه القصص الكاذبة من قبضة السياسة الراديكالية. أرسل الجنرال دين كتيبةً أخرى إلى جيغو. وحيث كانت الأوامر تقضي بعدم تدخّل الجيش، فقد ظلّ هذا الأخير يتابع العمليات الكوريّة بواسطة طائرات الاستطلاع. مرّت تلك الطائرات في سماء المنطقة حين كنّ تُعمل في الحقول الجافة. وفي الليل، رأيتُ طرّادات في عرض البحر تشغل كشّافات لمسح الأفق. ولما ذهبْتُ إلى سوق الأيام الخمسة، أخبرني بائعو الخضار من منطقة الجبل الأوسط أنّهم صادفوا أكثر من مرّة ضباطاً أمريكيين في سيّارات جيب أو على ظهور الخيل خلال مهمّات بقيادة كورية. بعد مرور ستّة أسابيع، كان أربعة آلاف شخص قد تمّ اعتقالهم.

في بداية الأسبوع السابع، دعا جون-بو النساء اللواتي لا يعرفن القراءة والكتابة من مجموعة الغوص إلى منزلنا كي يعلّمنّا كيفية التصويت. حتّى لو كان سيتمّ التلاعب بنتائج الانتخابات، أردنا انتهاز هذه الفرصة لمحاولة أن نحظى بصوتٍ داخل حكومتنا. «ليس عليكَنّ تمييز الأحرف المكتوبة التي تشكّل أسماء المرشّحين»، أوضح جون-بو لنا. «كل ما أنتنَّ بحاجةٍ إلى معرفته هو مكانه في لائحة

الاقتراع. هل هو رقم واحد أم اثنان أم ثلاثة؟ هذا خيارك. بعدها تحدّد رقم الشخص الذي تُردن التصويت له».

لكن حين ذهبنا إلى مركز الاقتراع، منعنا مجموعة من الرجال من الدخول. قالوا لنا: «استدرن. اذهبن إلى بيوتكن».

ككلّ مرّة، جمعت الأخبار من البولتيوك حيث كانت الهينيو تبربن كالدجاج في صباح اليوم التالي. لم يُسمح لنا في بوكتشون بالتصويت، لكن هذا لم يكن شيئاً مقارنةً بما حدث في أماكن أخرى.

- «الدرك، والشرطة، ورابطة شباب الشمال الغربي منعن».

- «طريق جيغو الرئيسي المتّجه شرقاً —».

- «وغرباً —».

- «كي لا يكون بوسع المتمرّدين المرور».

لم تكن تلك المرة الأولى التي تبدو فيها يون-سو، ابنة كي-يونغ، وكأنّها تملك معرفةً أوسع بما حدث. «لا شيء من هذا يهمّ»، قالت لنا، وسمعتُ وقع الفخر في صوتها. «لا شيء أوقف المتمرّدين. لقد داهموا مراكز الاقتراع وأحرقوا الصناديق. كما اختطفوا مسؤولي الانتخابات، وقطعوا المزيد من خطوط الهاتف».

عندها اضطربت الأخباريات مرّةً أخرى.

- «لقد دمّروا الجسور —».

- «وقطعوا بالذات الطرقات التي لم يكن يُفترض بهم عبورها».

في نهاية المطاف، لم تُحصَ أيُّ أصواتٍ من جيغو، وتمّ انتخاب ري سينغمان - خيار الأمريكيين - رئيساً، وذلك رغم أنّنا لم نصبح بعد دولةً بصورة رسمية.

حين عدتُ في صباح اليوم التالي إلى البولتيوك، كانت ثرثرة

الأمس العصبية قد استُبدلت بالقلق. من المؤكّد أنّ الحكومة ستقوم بمعاقتنا على متاعب ليلة الانتخابات.

- «أنا رئيسة جماعتنا»، قالت جي-وون، «لكنني لا أملك كامرأة خياراً فيما سيحدث تالياً».

- «لا رأي لامرأة فيما سيحدث».

- «لا رأي لطفلٍ أيضاً. لكن ماذا عن الشيوخ؟».

- «لا سلطة لهم كذلك الأمر»، أجابت جي-وون بلساننا جميعاً.

قضى معظم آبائنا وأزواجنا أيّامهم في التأمل بأفكارٍ نظرية وفي رعاية أطفالنا، لذا كانوا هم أيضاً عاجزين. لكنّ الجميع كانوا مجبرين على الاصطفاف مع جهةٍ ما - حتّى الأبرياء، حتّى الصغار وكبار السنّ، حتّى أولئك اللواتي ليس لديهنّ زوج ليقرأ لهنّ الأكاذيب في الجريدة، أو أمثال يو-ري الذين لم يكونوا مدرّكين لما يحدث من حولهم.

ذات يوم في أواخر شهر مايو، وقفتُ مي-جا عند باب منزلي. كانت وحدها، وقد خسرتُ الكثير من الوزن وكان لونها محزناً. دعوتها للدخول، لكن لم يسعني ألاّ أشعر بالقلق. ذهبتُ مي-جا لرؤية يو-ري بينما كنتُ أحضّر شاي الحمضيات. «هل كنتِ على ما يرام؟»، سألتُ مي-جا. «لقد اشتقتُ إليك». ابتسمتُ يو-ري لكنها لم تتعرّف على مي-جا.

- «اشتقتُ إليك أيضاً»، قالت لي حين دخلتُ مع الشاي.

- «ما عدتِ تأتين إلى الزقاق»، أجبتها.

- «كان بإمكانك القدوم لزيارتي».

- «لديّ الأطفال —».

- «فتاة هذه المرأة؟». اقتربت من المهد حيث كان كيونغ-سو نائماً.

رفعت يدي. «إنه صبيّ». ثمّ أنهيت عذري وهي ترجع إلى حيث كانت تقف: «الأطفال ويو-ري، إنهم أكثر من أن أستطيع أخذهم إلى هامديوك. ليس ذلك سهلاً —».

- «أو آمناً».

- «أو آمناً قبل كلّ شيء»، قلتُ متفكّقةً معها.

ساد صمتٌ بيننا. لم أتبيّن ماذا كانت تريد. أخذتُ نفساً وتركته يخرج ببطء. «لقد زرع سانغ-مون طفلاً بداخلي بعد المسيرة بوقتٍ قصير. كنتُ مريضة، لذا لم أستطع القدوم لرؤيتك».

اعتراني شعورٌ مفاجئ بالذنب. بالطبع، يجب أن يكون ثمة سبب.

- «صبيّ أم بنت؟»، سألتُها.

أطرقتُ برأسها. «بنت. عاشتُ ليومين فقط».

- «يا إلهي! أنا آسفة جداً».

نظرت إليّ، متأثرة. «كنتُ بحاجة إليك».

أياً كانت مخاوفي السابقة، اختفت جميعها الآن. لقد خذلتُ صديقة قلبي.

- «هل كان زوجك طيباً معك؟»، غامرتُ بالسؤال.

- «كان لطيفاً حين كنتُ حبلى»، قالت، وأكملتُ قبل أن أدرك المعنى الحقيقيّ لهذه الكلمات. «لا يمكنك تصوّر مدى صعوبة الأمر بالنسبة له. هو يذهب من اجتماعٍ لآخر ومن مكانٍ لآخر في طول

الجزيرة وعرضها. الكتيبة الثالثة من الفوج الثاني تتمركز الآن في سيهوا بالقرب من هنا، لكنّ مقرّهم الرئيسي في هامديوك. هذا يعني الكثير من الضغط عليه».

- «لا بدّ أن هذا صعب —».

تنهّدت ونظرتُ بعيداً. «يعتقد كثيرٌ من الناس عندما يتخيّلون مواجهة الصعاب أنّهم سوف يقاومون. لكنني كنتُ طفلة وكان عليّ أن أعيش مع العمّة لي-أوك والعمّ هيم-تشان، وأنّذاك تعلّمتُ ما يحدث حقّاً. هما حتّى لم يطعماني كما تعلمين. حين جاء الوقت الذي أردتُ فيه المقاومة، كنتُ قد أصبحتُ ضعيفةً جدّاً».

حاولتُ جاهدة العثور على شيء أقوله لرفع معنوياتها. «إنّ ذلك الوضع الرهيب هو ما جمعنا معاً، وسيكون ما نتج عن ذلك الوضع مصدر سعادةٍ دائماً بالنسبة لي».

لكنّ ذهنها لم يكن مرّكزاً الآن في مسألة الصداقة هذه. «تتخيّل بعض النساء الإقدام على الانتحار، لكن كيف يمكن لهذا أن يكون خياراً بالنسبة لأمّ؟». لمعتُ عيناها بالدموع. «لديّ يو-تشان. يجب أن أعيش من أجله».

كنتُ أعرف مي-جا منذ وقتٍ طويل، ولم أرها قطّ حزينةً بهذا الشكل. هي لم تكن تعاني من الاضطرابات الدائرة حولنا فحسب، بل كانت أيضاً ثكلى لفقدان طفلتها. ومن ثمّ كان هناك زوجها. لم تكن هناك كدماتٌ بادية عليها، لكنني لم أكن أنظر إليها وهي عارية أو في ملابسها المائتة. وضعتُ يدي عليها.

- «تعيش النساء بصمتٍ وهدوء»، قلتُ لها. «مهما شعرت المرأة بالغضب أو الانكسار، فهي لا تفكّر في ضرب أحد، أليس كذلك؟».

- «إنَّ زوجي متزوِّجٌ من شخصٍ سيِّءٍ».

أربكني تعليقها أيّما إرباك. «كيف يمكنكِ قول شيء كهذا؟».

- «لقد خذلته. أنا لا أزود المنزل بالطعام. ولا أعتني بالمنزل كما كانت والدته تفعل —».

قاطعتهُا: «لا تدافعي عنه أو تبرّري أفعاله كما لو أنّ ما يفعله بك هو خطأك».

- «ربّما هو كذلك».

- «ما من زوجةٍ تطلب الضرب».

- «لقد فهمتُ والدتك الرجال أكثر منك. كانت تقول إنّه ينبغي بنا أن نتعاطف معهم. قالت إنّه ليس لديهم ما يفعلونه، وما من هدفٍ يحفّزهم خلال اليوم. هم يشعرون بالملل —».

- «لكن ليس بمقدور زوجك استخدام هذه الأسباب! إنّهُ يعمل. إنّهُ يحظى بحياته الخاصة».

لم يُثنِ هذا مي-جا عن الاستمرار في اختلاق الأعذار له. «لقد مرّ بالكثير لئتمكّن من العودة للوطن. إنّ عنفه وقسوته هما أسلوب الجزيرة في هذه الأيام».

لكنّه كان عنيفاً قبل أن تبدأ مشكلاتنا الحالية بوقتٍ طويل...
تمكّن اليأس منّي. «أتمنّى أن نتمكّن من العودة إلى تلك الأيام حين كنّا نلتقي في الزقاق كلّ يوم —».

- «لكنّ هذا ليس آمناً. ينبغي بنا حماية أطفالنا». وهكذا، عدنا إلى ما كنّا نقوله في بداية الزيارة. ثمّ أضافت بعد لحظة: «آمل ألا يطول فراقنا هذه المرّة».

- «وآمل أنّه حين أراك في المرّة القادمة سيكون ثمّة طفلٌ يرضع من ثديك».

رافقتُها إلى البوابة. كنتُ حتّى ونحن نتبادل عبارات الوداع في شبهة من أنني لم أدرك حق الإدراك لأيّ درجة كانت أحوالها سيئة.

في الخامس عشر من أغسطس، تأسست رسمياً جمهورية كوريا في الجنوب. وبعد شهرٍ من ذلك، أسس كيم إيل سونغ بمساعدة الاتحاد السوفيتي، جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية في الشمال. رغم أنّ الجيشين الأمريكي والسوفيتي لم يغادرا بالكامل، إلّا أنّ تقسيم بلادنا بدا وكأنّه قد أنجز وأصبح أمراً واقعاً. بدا أنّ الحياة قد هدأت، وأنني سأكون قادرةً على رؤية مي-جا من جديد. لكنّ الفصائل ظلّت تتقاتل في جيغو طوال فترة أوائل الخريف. كان الجيش مسلّحاً بالمدافع الرشاشة والأسلحة الحديثة الأخرى التي قدّمها الجيش الأمريكي، بينما دافع المتمردون عن أنفسهم بالسيوف اليابانية، وحفنة من البنادق، وحراب الخيزران. بعدئذٍ، في 17 نوفمبر 1948، وضع الرئيس ري جيغو تحت الأحكام العرفية وأصدر الأمر الأوّل:

كلُّ مَنْ يُعثر عليه بعيداً أكثر من خمسة كيلومترات
عن خط الساحل سوف يُردى قتيلاً
دون قيدٍ أو شرط أو سابق إنذار.

سيُطلق على هذا الأمر حلقة النار. كلُّ شيءٍ وكلُّ شخصٍ ينتهكه سيكون عرضةً لسياسة الأرض المحروقة.

ناقشنا لدى ذهابي إلى البولتيوك ما الذي قد يعنيه ذلك بالنسبة لنا.

- «إلى أين سيذهب شعب الجبل؟»، سألت إحدى النساء.

- «سوف يُرسلون إلى الشاطئ»، أخبرتنا جي-وون.
- «لكن ما من مكان لوضعهم فيه»، قالت غواصة أخرى.
- «هذا هو المطلوب»، أجابت جي-وون. «لا يمكن لأحد الاختباء عند حافة البحر».

سألت السؤال الذي شعرتُ على نحوٍ مؤكد أننا جميعاً نفكر فيه. «هل نحن في خطر؟».

هزّت جي-وون كتفيها. «نحن نعيش على الجانب الآمن من حلقة النار بالفعل».

في اليوم التالي، انهمر المطر غزيراً وكأنَّ السماء تبكي بحرقه. الدرك الكوريّ، وشرطة جيجو، والقوّات الأمريكيّة؛ قاموا جميعاً بسوق أوّل بضع مئاتٍ من لاجئيّ الجبل إلى ضواحي بوكتشون. لم يبدُ الأطفال والنساء كمثيرين للشغب بالنسبة لي. وبصرف النظر عن الصّبيّة الصغار وكبار السنّ الذين كانوا يسيرون محنيّي الرؤوس، لم أر سوى القليل من الذكور البالغين في درب الآلام هذا. لم أستطع الوصول إلّا إلى نتيجةٍ واحدة: لقد مات معظم الرجال بالفعل. لم يتكلّم الأطفال أو يغنّوا لتخفيف وطأة حالتهم. حملت العائلات كلّ ما تسنّى لها إنقاذه من منازلها - لحف، وحصائر نوم، وأواني طبخ، وأكياس من الحبوب، وجرارٌ من الخضروات المخلّلة، وبطاطا حلوة مجفّفة - لكنّهم اضطرّوا للتخلّي عن مواشيهم. أسّسوا مخيماً بالإمكانات المتاحة، فبنوا أشباه أكواخ من القصب وأغصان الصنوبر.

في بوكتشون، جاءتنا أوامر باستخدام الحجارة الموجودة في حقولنا لبناء جدارٍ يحيط بالقرية. الرجال غير المعتادين على الأعمال الشاقة، عانوا كثيراً. عاد جون-بو إلى المنزل ببثورٍ في يديه وآلامٍ في ظهره، كما تسبب هذا العمل في عدم تمكّن النساء من العمل في الحقول الرطبة أو الجافّة على حدّ سواء. توجّب حتّى على الأطفال

تقديم المساعدة. حالما أنهينا الجدار، أُجبرنا على الوقوف أمامه ليل
نهار في نوبات حراسة، مسلّحين برماح منزلية الصنع.
حدّرنا ضابط شرطة قائلاً: «إذا سمحتم بدخول شخصٍ ثبتَ أنّه
متمرد، فسوف تعاقبون جميعاً عندئذٍ».

سرعان ما نفذ الطعام الذي أحضره اللاجئون معهم. في الليل،
طافت آهات الجوع فوق الحقول المضاعة بضوء القمر، وعبر
الجدران الصخرية وصولاً إلى داخل منزلي. كانت الروائح الكريهة
للأجساد غير النظيفة مع انعدام وجود صرفٍ صحيّ تتسبّب كلما
تحركت الرياح في تخريش أنوفنا وحناجرنا وحرقت أعيننا.
ذات يوم، ناشدني امرأةٌ بينما كنتُ أسير قرب المخيمّ.
- «أنا أمّ. أنتِ تبدين أمّاً أيضاً. هلّا ساعدتني؟».

رغم أنّ سكّان منطقة الجبل الأوسط لطالما نظروا بازدراءٍ إلى
الهنّيو، إلّا أنّ مشاعرنا المتأذية منهم انقلبت لتصبح شفقةً عليهم إذ
شهدنا ما حدث لهم. لذا فقد سألتها بالطبع ما الذي يمكنني فعله
لها.

- «أنا لستُ غوّاصة»، قالت المرأة. «لا أعرف كيف أجني ثمار
البحر. هل يمكنك أن تعلّمني؟».

كنتُ مستعدةً للقيام بذلك، لكن توجّب عليّ الرفض حين
أدركتُ أنّها لا تعرف حتّى السباحة. إذ بدأت في البكاء، همستُ
لها: «تعالني إلى حقلي الليلة. سأترك لك سلّةً من البطاطا الحلوة
وبعض الأشياء الأخرى».

بكتُ أكثر حين أعطيتها الإرشادات كي تتمكّن من الوصول إلى
الحقل. سرعان ما سمعتُ عن نساء أخريات من بوكتشون تركن
الطعام في حقولهن أو قرب الجدار من جهة المخيمّ. لكنني توقّفتُ

عن المخاطرة بعد أن قُبِض على إحدى جاراتي وهي تفعل ذلك؛ فأخذوها بعيداً، عذّبوها، وقتلوا جزءاً إحسانها.

كان اللاجئون الذين عاشوا خارج بوكتشون والقرى الساحلية قد امتثلوا للأوامر وجاءوا إلى الشاطئ، لكن آخرين - بعضهم خائف، وبعضهم عنيد، وبعضهم من المتمردين - فرّوا أعمق إلى الداخل وحاولوا الاختباء في قرى جبلية نائية أو بناء منازل جديدة في الكهوف أو أقنية الحمام البركانية. كان هذا أسوأ شيء يمكن أن يفعلوه. لقد عجزت الجدة سيولمونداي عن حمايتهم، وأصبحت حلقة النار اسماً على مسمّى بعد إحراق قرى بأكملها. أضرم الجنود النار في جيوراي. عندما حاول الناس الفرار، تمّ إطلاق الرصاص عليهم ومن ثمّ رميهم داخل النيران لتدمير الأدلّة. بعض الضحايا كانوا من الأطفال والرضع. وفي هاجا، قتل الجنود خمسة وعشرين قروياً بينهم امرأة في الشهر الأخير من حملها، ثمّ أحرقوا القرية بعد ذلك. كلّ يوم تقريباً، وبينما كنّا نجذّف إلى بقعة الغوص، رأينا أعمدة الدخان تتصاعد من جبلنا العظيم منجرفةً مع الريح فوق البحر. ذهبْتُ إلى سوق الأيام الخمسة، لكن لم يكن ثمة شيء لأشتريه. كشفت المرأة في جناح الأطعمة المجفّفة ما لديها من معلومات. «لقد حاصرت السفن الأمريكية الجزيرة. لا يمكن استقدام أيّ إمدادات لمساعدة المختبئين أو توفير الطعام لعشرات آلاف اللاجئين الذين يعيشون داخل حلقة النار الآن».

من الواضح أنّها كانت مطلعةً على سير الأمور، لذا سألتها: «ماذا عن طعام لنا؟».

شخرت المرأة. «لن يكون أحدٌ في الجزيرة قادراً على شراء البضائع بعد الآن؛ ليس حتّى أولئك الذي يعيشون على الجانب الصحيح من حلقة النار».

الأسوأ من ذلك بكثير، جاء يومٌ قيل لنا فيه إنّه لم يعد مسموحاً للهينيُو بالغوص. سرق الجنود الياپانيُون ذات يوم طعامنا وخيولنا، لكنَّ أبناء بلدنا الآن يتضوُّرون جوعاً بالمعنى الحرفي للكلمة. حصلتُ أنا وزوجي على حبة بطاطا حلوة واحدة في اليوم لكلِّ منا حتَّى يتسنَّى لنا تقديم المزيد من الطعام لأطفالنا، لكنّهم خسروا الكثير من وزنهم مع ذلك، وصار شعرهم قليلاً، وبدأت أعينهم تغرق داخل رؤوسهم.

حين أخبرني أحدهم أنَّ جماعة الهينيُو في جيمينيونغري قد حصلت على إذنٍ لفتح مطعم لخدمة قوات الشرطة والجيش، مرَّرت هذه المعلومة إلى جي-وون، فدعتُ هذه الأخيرة إلى اجتماعٍ في البولتيوك.

- «تأمل الهينيُو في جيمينيونغري في كبح عنف الشرطة، لكننا لن نغوص لخدمة نفس الأشخاص الذين يقتلون شعبنا»، قالت جي-وون بإصرار. «ألن نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا وجزيرتنا إذا قدّمنا المأوى والطعام واللباس للمتمرّدين؟ أولئك هم أبناء شعبنا. قد يكونون أبناءنا أو إخواننا أو أبناء عمومتنا».

- «سوف نُقتل إذا تمَّ الإمساك بنا!»، هتفتُ جانغ كي-يونغ.

- «من الأفضل أن نجوع معاً بدلاً من أن نموت»، أضافت يون-سو.

- «لَمْ ينبغي بنا مساعدتهم؟»، سألت امرأةً أخرى. «إنَّ المتمرّدين يسرقون الطعام ويقتلون أولئك الذين يحاولون حماية ما زرعوه. أنا أخاف من الدببة كما أخاف من النمور».

كان هذا القول قد انتشر مؤخّراً، ويعني أنَّ الشرطة والدرك كانوا مخيفين بنفس القدر كالمتمرّدين والثوّار.

- «لا يهمني مَنْ بدأ، وبماذا ومتى»، قالت كي-يونغ. «أريد السلام فحسب».

لم يوافق أحدٌ على اقتراح جي-وون. كانت تلك المرّة الأولى التي ننقلب فيها ضدّ قائدتنا، وقد أظهر ذلك أنّنا فقدنا كلّ تعاطفنا مع المتمرّدين.

المزيد والمزيد من الأخبار كانت ترشح عبر الجدار الذي يحمي بوكتشون. في توسان، قتل الجنود كلّ الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وأربعين عاماً. مات مئة وخمسون رجلاً. في جوتشيون، سلّم مئتا قرويّ أنفسهم للجيش كي لا يتعرّضوا للقتل في معركةٍ ضدّ المتمرّدين. لكنّهم أعدموا جميعاً باستثناء خمسين واحداً منهم. كنّا نحاول أن نقول لأنفسنا إنّ أيّاً من هذا كان وارد الحدوث، لكنّه كان كذلك. ثلث سكّان جيجو كانوا قد أُجبروا على النزوح إلى الشاطئ، وقُتل الكثير من الناس لدرجة أنّ أحداً لم يستطع تخمين العدد. اسودّت السماء بأسراب الغربان التي كانت تطير منتقلةً من موقعٍ موتٍ إلى آخر. جعلها النقر في جثث الموتى أكثر قوّة؛ فتكاثرت وفقسّت المزيد من الغربان. كبرت الأسراب وأصبحت أكثر سواداً. لم أقدر على النظر إليها دون أن أشعر بالغثيان.

عثر جنودُ أمريكيّون على قرابة المئة جثة في قريةٍ جبلية نائية، بينما تصادف مرور مجموعةٍ أخرى من جنودهم مع تنفيذ إعدامات بحقّ ستّة وسبعين رجلاً وامرأة وطفلاً في قريةٍ أخرى. قد لا يكون الأمريكيون شاركوا في ارتكاب الفظائع على نحوٍ فعّال، لكنّهم لم يفعلوا شيئاً لمنعها أيضاً.

- «ألا يعدُّ عدم فعل شيء طريقةً يتبعونها لبعث رسالةٍ إلينا بشأن نواياهم الحقيقية؟»، سأل جون-بو.
مجدّداً، لم أكن أملك إجابة.

بعد مقتل المزيد من الرجال والصّبية في مجموعة أخرى من القرى الجبلية، تمّ إيواء الناجين من النساء والأطفال والمسنّين في خيام عسكرية نصبها الجنود الأمريكيّون في مدرسة هامديوك الابتدائية. وحين لم يعد هناك من متّسع، أعدمت الشرطة الكورية فائض الناس فوق حافة جرف شاهق لتهوي الجثث إلى البحر مباشرة.

كان بوسعي توقع سؤال زوجي قبل أن يطرحه. «ألم يرَ الأمريكيون مع عسكريهم في الخيام وطائراتهم الخاصة بالمراقبة ذلك؟».

أقلقنتني رؤية إحباطات زوجي وهي تتعاضم وتتراكم، لكنّ أكثر من فكّرتُ فيه لدى سماعي بما حدث في هامديوك كان مي-جا. كانت تعيش هناك.

كنّا قد ترعرعنا مع الوفرات الثلاث، لكنّنا لم نكن مجهّزين للاستراتيجيات الكلّية الثلاث - اقتل الكلّ، أحرق الكلّ، وانهب الكلّ. كان من الصعب علينا استيعاب الأثر الحقيقي لكلّ ما يحدث. أنتَ تسمع عن حادثة لكنّك لا ترى أمّاً أو طفلاً أو أخاً. أنتَ لا تشعر حقّاً بالمعاناة الفردية، لكنّنا بدأنا نسمع قصصاً عن ذلك أيضاً؛ مثلاً: جُرّت عائلةٌ خارج منزلها. أُجبرت زوجة الابن على فتح ساقبها كي يتمكن والد زوجها من اعتقالها. حين عجز عن إنهاء ذلك، قُتل كلاهما. سمعتُ عن جنديٍّ سخّن مسدّسه في النار ثمّ أقحمه في امرأة حبلى فقط كي يرى ما الذي سيحدث. غالباً ما أصيبت أمّهات وأرامل القتلى بالجنون، فألقين بأنفسهنّ من

المنحدرات، مبحرات إلى أحبائهن في العالم الآخر. في إحدى القرى، اختطف جميع الفتيات واغتُصبنَ جماعياً لمدة أسبوعين، ثم أُعِدمنَ جماعياً مع كلِّ الشباب من تلك القرية. أُجبرت الزوجات على الزواج برجال شرطة وجنود، لأنَّ الزواج كان وسيلة للاستيلاء على الممتلكات بصورة قانونية. باعت بعض الهينو حقولهنَّ الجافة لشراء إطلاق سراح زوج أو ابن من السجن. أسوأ النساء حظاً كانت أولئك اللاتي وافقنَ على الزواج من ضباط شرطة مقابل إطلاق سراح زوج أو أخ أو ابن أو قريبٍ ذكرٍ آخر من السجن، فغالباً ما قُتل أولئك الأحبة على أيّة حال. كم تمنيتُ أن أتمكن من محو كلِّ هذه الأشياء من ذهني، لكنّها لم ولن تبارحه قطّ.

أردتُ أن تعود عائلتنا إلى موطننا في هادو، حيث يمكننا أن نكون مع دو-سانغ، وأبي، وأخي، لكنَّ جون-بو شعر بأنّه يجدر بنا البقاء في بوكتشون. «عليّ أن أواصل التدريس»، قال لي. «نحن بحاجة إلى المال».

ظلّت المدارس مفتوحة من أجل إبقاء الصبية والشبان مشغولين. كافح جون-بو لتأدية دوره في ذلك، لكنّه كان محقّقاً في كوننا بحاجة إلى المال مع منعنا نحن الهينو من الغوص. كنّا نتضوّر جوعاً، ونصبح أضعف فأضعف كلَّ يوم. لم يكن لدى أطفالي حتّى الطاقة للبكاء، لكنّهم كانوا يثّنون في الليل. كل ما أمكنني فعله هو تقديم قرايين هزيلة لهالمانغ سامسيونغ على أمل أن تحفظ الحليب في ثديي من الجفاف. لم أكن واثقة كيف سأطعم كيونغ-سو إذا حدث شيء كهذا.

هواءٌ يردُّ الروح

16-17 يناير 1949

يمكن للشقاء أن يكون طويلاً وكثيباً في جيجو، وقد كان يناير من العام 1949 كذلك بشكلٍ خاص. بدت الريح ذات ليلة وكأنّها تهبُّ على نحوٍ أسوأ من أيّ وقتٍ مضى متسرّبةً عبر شقوق جدران المنزل. بالكاد كان أطفالى قادرين على الحركة لأنّ ملابسهم كانت سميكة ومبطّنة لدرجة أنّ سيقانهم وأذرعهم بدت ناتئةً من أجسادهم مثل الأغصان. جعلنا حصائر نومنا أنا وجون-بو متلاصقة، وزحف كلٌّ من مين-لي وسونغ-سو وانحسرا بقربنا بحثاً عن مزيدٍ من الدفء. وضعتُ كيونغ-سو داخل ثنية ذراعي. تململ الأطفال من البرد والجوع رغم المصاييح المطفاة والظلام الدامس في الغرفة. لم نعرف كيف نفسّر لهم محتتنا، إذ كنّا نحن بأنفسنا نواجه صعوبةً كبيرة في فهمها، لكنني كنتُ أعرف أنّني إذا استطعتُ تهدئة مين-لي فسوف يهدأ سونغ-سو أيضاً. قد تساعد حكايةٌ في ذلك.

- «نحن محظوظون لأنّه لدينا في الجزيرة الكثير من الآلهة لرعايتنا». تحدّثتُ برقةً على أمل أن يجلب صوتي المنخفض السكون والطمأنينة. «لكن لدينا أيضاً امرأةٌ حقيقية، كانت شجاعة ومثابرة مثل آية إلهة. كان اسمها كيم مانديوك، وقد عاشت قبل ثلاثمئة سنة.

كانت ابنة أرسطراطي تَمّ نفيه إلى هنا . والدتها كانت ما كنت لأقول عاهرة. «والدتها كانت تعمل في مدينة جيجو. لكنّ كيم مانديوك لم تتبع خطى والدتها».

ابتسم لي جون-بو في العتمة، وشدّ على يدي.

- «افتتحت كيم مانديوك خاناً وأصبحت تاجرة. باعت كل ما تشتهر به جيجو - شعر الخيل وخردل البحر وأذن البحر. ثمّ حلّت المجاعة الرهيبة. أكل الناس كلّ كلب على الجزيرة. وبعد فترة وجيزة، لم يتبقّ شيءٌ سوى الماء، وليس هناك الكثير منه على جزيرتنا. كان على كيم مانديوك أن تفعل شيئاً للمساعدة. باعت كلّ ما تملكه ودفعت ألف سبيكة ذهبية كي تشتري الأرز للناس. حين سمع الملك ما فعلته، عرّض أن يعوّضها، لكنّها رفضت ذلك. قال إنه سيمنحها أيّ شيءٍ ترغب به، لكنّ طلبها الوحيد كان أكبر حتّى من القمر. طلبت أن تذهب في رحلة حجّ إلى البرّ الرئيسي لزيارة الأماكن المقدّسة. أوفى الملك بوعده، ولم تصبح كيم مانديوك أوّل مواطن مولود في الجزيرة يغادر جيجو إلى البرّ الرئيسي منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان فحسب، بل أوّل امرأةٍ تفعل ذلك على الإطلاق. بفضل كيم مانديوك بات من الممكن تصوّر ما لا يمكن تصوّره. لقد مهّدت الطريق لوالدك ولكثيرين غيره لمغادرة جيجو».

- «كانت كيم مانديوك امرأةً كريمة القلب»، همس جون-بو لمين-لي. «كانت منكرةً لذاتها وتفكّر فقط في الآخرين. كانت يا صغيرتي، مثل والدتك».

غرق الأطفال في النوم. وضعت الرضيع بين أخته وأخيه، وانزلت بين ذراعي زوجي. كان الجوّ أبرد من أن نتمكّن من نزع كلّ ملابسنا. لذا أنزل سرواله أسفل ردفه، وتملّصت خارجه من سروالي. دفعنا جوعنا ويأسنا - وكلّ الموت والدمار المحيطين بنا -

إلى ممارسة ذات الفعل الذي خلق الحياة في الأساس، الفعل الذي
يبيّثنا بالمستقبل، ويدكّرنا بإنسانيتنا.

بعد ساعاتٍ قليلة، استيقظنا على ما بتنا نميّزه كإطلاق نار، وهو
ما كان شائعاً هذه الأيام. هزة الوعي العنيفة، ثمّ لحظة الرعب.
تجمّع أطفالنا حولنا بصورة غريزية. وجون-بو يلقّنا جميعاً بذراعيه.
وقّع خطيئ متوتّرة يتردّد صدهاء في الأزقة. صرخات وهمسات خشنة
تتسلّل إلى غرفتنا. ثمّ يحلّ الصمت. سرعان ما غرق الرضيع في
النوم، وتلاشى التوتر من جسدي الطفلين إذ عادا إلى سباتهما.
استلقينا أنا وجون-بو مستيقظين، نحاول الإصغاء، إلى أن عدنا إلى
النوم نحن أيضاً.

خرجتُ مع مين-لي عند بزوغ الفجر لجمع الروث الجاف
وإحضار الماء، فوجدنا مي-جا واقفة في الفناء الصغير أمام منزلي.
بدتُ أفضل حالاً ممّا كانت عليه حين رأيْتُها قبل ثمانية أشهر. لمع
شعرها تحت أشعة شمس الصباح. كانت عيناها تبرقان، وبدا أنّها
اكتسبت القليل من الوزن. كانت تنفث سحب البخار من فمها.
وكانت وحدها.

- «ماذا تفعلين هنا؟»، قلتُ متفاجئة، ولكن حذرة أيضاً.
شعرتُ بالارتياح لرؤية أنّها كانت على ما يرام، لكنّ جزءاً منّي شعر
أنّه ينبغي بي توخّي الحذر نتيجة معرفتي بالجانب الذي كان زوجها
يتّخذه.

قبل أن تتمكّن من الإجابة، صرخت مين-لي: «أين يو-تشان؟».
سيبلغ الطفلان الرابعة من العمر في يونيو، لذا كانا كبيرين بما يكفي
ليتذكّرا بعضهما رغم أنّ زيارتنا لم تكن متكرّرة.

ابتسمت لها مي-جا . «لقد ذهب مع والده لرؤية جدّيه في مدينة جيچو . لم يكن إنزالي هنا صعباً في طريقهما إلى هناك . والآن» ، نظرت إليّ ، «أنا أزور صديقتي الأقدم» .

كان لديّ الكثير من الأسئلة ، لكن بدايةً كانت المجاملات واجبة . «هل أكلت؟ هل ستقضين الليلة هنا؟» . تساءلتُ ماذا يمكنني أن أطعمها ، وأين يمكن لها أن تنام في بيت المعلّم الصغير خاصتنا ، وماذا ستكون ردّة فعل زوجها حيال ذلك .

- «لا حاجة لذلك . سيعودان من أجلي بعد ظهر اليوم» . أمالت رأسها . «أعطني جرّة . خذيني معك إلى بئر القرية . دعيني أساعد» .

اندفعت مين-لي كي تعثر على جرّة أخرى . وضعتُ مي-جا يداها على خديّ . لم أعرف إن كانت تلتقط كلّ التغيرات التي جلبتها المشاق إلى ملامحي أم أنّها كانت تحفظها في ذاكرتها كي تمّدها بالقوّة حتّى المرّة القادمة التي نرى فيها بعضنا . في كلتا الحالتين ، شعرتُ بالحبّ يسري عبر أصابعها مروراً إلى لحمي . كيف أمكنتني أن أشكّك فيها يوماً؟

عادت مين-لي ومعها جرّة ماء موضوعة في سلّة . وضعتُ مي-جا تلك الجرّة على ظهرها ، وشبكت ذراعها بذراعي . قالت لمين-لي : «قودي الطريق» .

سمعتُ جلبةً إلى الأمام متّاً . أردتُ العودة إلى المنزل ، لكن من واجب النساء والفتيات إحضار الماء لأسرهنّ . كانت بئر بوكشون في ساحة القرية ، لذا كان علينا المضيّ قدماً . إذا كنّا أنا وابنتي لم نعد نشعر بالخوف من صوت إطلاق الرصاص في الليل ، فيمكنني القول أيضاً - بحزنٍ طبعاً - إنّنا لم نعد نشعر بالرعب من رؤية جثّة ، لكنّ مي-جا شهقت بصوتٍ عال حين وصلنا إلى الساحة ووجدنا جنديين بزيّهما العسكري مستلقّيين فوق نقّالتين . أصيب كلّ منهما برصاصةٍ

في صدره، كانت دماؤهما تنزّ من سترتيهما لترسم شكلاً أشبه بزهرة غريبة. وقفت قرابة دزينة من كبار السنّ فوق الجثتين الهامدتين يتجادلون.

- «علينا أخذهما إلى المقر العسكري في هامديوك»، قال أحد الشيوخ. «هكذا ثبت لهم أنّه لا علاقة لنا بهذا».

- «لا»، أجاب آخر بسخط. «كلّ ما سيظهر هو أنّنا تركناهما يموتان هنا».

- «كيف تركناهما يموتان؟ كانا هنا لحمايتنا من المتمرّدين».

استحالت مي-جا بيضاء كزبد البحر. أمسكتُ بمرفقها، وشققنا نحن الثلاثة طريقنا عبر الرجال إلى البئر. ملأنا جرارنا وعدنا آملين أن نصل سريعاً إلى المنزل.

- «إذا أخذناهما إلى هامديوك، فالجيش سينتقم».

- «إذا لم نأخذهما، فالجيش سينتقم».

- «لكنّنا لم نفعل أيّ شيء!»، صاح شيخٌ آخر، كما لو أنّ صوته المرتفع سيعيدهما إلى الحياة.

بدأت مين-لي تثرثر بسعادة حالما وصلنا إلى الزقاق كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. «هل يو-تشان بارعٌ في العدّ؟ هل تعلّم أيّة حروف بعد؟ اسمعي كيف يمكنني العدّ! واحد، اثنان، ثلاثة...».

لكنّ ما كان قد أصبح طبيعياً بالنسبة لنا، كان مروّعاً تماماً بالنسبة لصديقتي القديمة التي ما زالت ترتعش، ولم تقل كلمةً واحدة منذ وصلنا إلى الساحة.

- «ربّما يجدر بكِ العودة إلى منزلك»، قلتُ لها. «قد تحدث متاعب. يمكن لجون-بو أن يسير معك إلى هناك».

- «لا، أنا بخير»، تمتعت مي-جا، ثمّ قالت بصوتٍ أعلى

قليلاً: «أتفق مع الشيخ الذي قال إنَّ عليهم أخذ الجثتين إلى هامديوك. سوف يقرُّ الجيش ببراءتهم عندما يرى ذلك». ظاهرِيّاً، هذا ما كانت حياتنا برمتها قائمةً عليه؛ خِفَّتْها وثباتي، ذكاؤها وبساطتي. لكنَّ الأحوال تغيَّرت. كنتُ الآن أعتقد أنَّها تدَّعي الجهل بصورةٍ متعمَّدة. كان الجيش يتركز في هامديوك، واللاجئون يعيشون في ساحة المدرسة. لقد قُتل الناس هناك. ربَّما كان موقع زوجها يؤمِّن لها الحماية، لكن لا ينبغي بهذا أن يعميها عن رؤية الحقائق. ومع ذلك، لم أجادلها. أردتُ أن أراها كصديقتي فحسب، ليس كزوجة زوجها.

دخلنا فناء بيتي. وضعتُ مي-جا جرَّة الماء والسلة، خلعتُ حذاءها ودخلت المنزل. تبعتها بصمتٍ؛ أنا ومين-لي. كان جون-بو يحمل كيونغ-سو. اندفعت مي-جا نحوه بذراعيْن مفتوحتين. «دعني أراه». استشعرتُ تردّد زوجي. لم ينته الأمر على نحوٍ جيّد بينه وبين سانغ-مون في آخر مرّةٍ كنّا فيها معاً، لكنَّ اللحظة انقضت وسمح جون-بو لمي-جا بأخذ الطفل. اقترحتُ عليها مجدّداً أن يوصلها جون-بو إلى بيتها، لكنّها رفضت الفكرة.

- «سوف أذهب إلى المدرسة إذا»، قال زوجي. ثمَّ أضاف موجَّهاً كلامه لي: «لقد أطعمتُ ولدينا وألبستُهما. ستكون الجدة تشو هنا قريباً. سوف أعود وقت الغداء» ثمَّ شق طريقه خارجاً من الباب. نزلتُ مي-جا التي كانت لا تزال تحمل كيونغ-سو على الأرض حيث كانت يو-ري تلعب بكومةٍ من الأصداَف، وقبلتها على رأسها. لم تستجب أخت زوجي، لكنَّ هذا لم يكن شيئاً غير متوقَّع. قامت مي-جا بوضع كيونغ-سو على الأرض، وعبر سلسلة من الحركات السلسة والرشيقة، سحبت وشاحاً من جيبها، وفكَّت ذاك الذي يغطّي شعر يو-ري، واستبدلته بالوشاح الجديد.

- «لقد اشتراه لي زوجي»، قالت مي-جا. «لكنني عرفتُ لحظة رأيتُه أنه يجب أن يكون لك فقط. وهل ترين؟ إنَّ النمط الأخضر مع الأرجواني يبدو جميلاً جداً بجوار وجهك».

رفعتُ يو-ري يدها إلى أسفل ذقنها تعبيراً عن سعادتها. بعدها، جالت مي-جا بنظرها في أرجاء الغرفة. لم أستطع الجزم ما إذا كانت قد أحبَّت ما رأيته أم لا، ولم تمنحني الفرصة لأسألها، لأنَّ عينيها استقرَّتا عليّ. «تبدین نحيلة»، قالت لي. «ولم أرك يوماً بهذا الشحوب».

لم أكن امرأةً من النوع الذي يسعى للحصول على العزاء والتطمينات من مرآة، لكنَّ أصابعي ذهبت على نحوٍ انعكاسيٍّ إلى وجهي. إذ أفكر في الأمر الآن، لقد كنتُ أكثر شحوباً من مي-جا.

- «أنتِ أمُّ لثلاثة أطفال»، قالت بنبرةٍ موبِّخة. «يجب أن تكوني قويَّة من أجلهم. صحيحٌ أنَّ كلَّ أمٍّ تعطي أفضل لقمةٍ لصغارها، لكن أنتِ أيضاً يجب أن تأكلي».

لم أستطع بكلِّ صدقٍ أن أعرف ما إذا كنتُ قد جُرحتُ لأنها لم تتعاطف معي أو أنني صُدمتُ لأنَّ حياتها كانت قد تغيَّرت لدرجة أنَّها لم تعد تتذكَّر يأس المعدة الفارغة وبؤسها. «يوم التقينا —».

أشارتُ إلى البحر متجاهلةً إيَّاي. «إنَّ حقولك الرطبة هناك. دعينا نذهب للغوص».

- «ربَّما أنتِ لا تعلمين أنه قد تمَّ منع الهينيو —».

رفعتُ يديها في ذات الإيماءة البريئة التي كانت تستخدمها في فلاديفوستوك حين كنَّا نقع في ورطة. «نحن لا نغوص كهينيو»، شرحْتُ للشخص غير المرئي الذي قد يلقي القبض علينا. «نحن مجرد صديقتين تسبحان معاً».

- «في يناير؟»، سألتُ متشككة.

ابتسمتُ لي. وقرّرتُ أن أثق بها.

كنّا أنا ومي-جا قد غيّرنا ملابسنا بالفعل إلى ملابس يمكن النزول بها إلى البحر لدى وصول الجدة تشو. لم تكن بزة مائية؛ تلك التي من شأنها أن تُعرّف عنا كهينيو، بل مجرد ملابس داخلية لي، وقميص نوم قديم لمي-جا. ارتدينا ملابسنا النهارية اليومية فوق تلك الأشياء. كنّا مرگزتين جدّاً على أن نبدو بريئتين ونحن نشقّ طريقنا باتجاه الشاطئ لدرجة أنّا بالكاد ألقينا بالاً لمسيرة الشيوخ التي تحمل جثتي الجنديين على النقالات باتجاه هامديوك. أسندنا ببساطة ظهرينا إلى الجدار الصخري، وتظاهرنّا أنّ كلّاً منّا تهمس بشيء ما للأخرى كما تفعل الصديقات.

لم نجرؤ على دخول البولتيوك. خلعنا بدلاً من ذلك ملابسنا الخارجية على مرأى من الجميع، ومشينا يداً بيد في المياه الضحلة. لم نرتدِ نظّاراتنا ذات العدسات الصغيرة لأنّها قد ترسل أيضاً إشارة بشأن نوايانا. إذا رأنا أحد القرويين، فسوف يظنّ - أو تظنّ - أنّه من الغريب أن نسبح في مياه شديدة البرودة فقط من أجل المتعة في مثل هذا الوقت من السنة، لكنّه قد يرى أيضاً صديقتين لطالما استمتعنا معاً بالبحر مذ كانتا طفلتين. وإذا قرّر جنديٌّ ما إثارة جلبة، فقد خطّطتُ أن أتقاسم معه ما سوف نكون قد حصدناه.

كانت المنطقة قبالة الشاطئ مباشرة غنيّة جدّاً بالقواقع والمحار نتيجة منع الهينيو من الغوص. انتزعنا تلك الأشياء ووضعناها داخل شبّاك صغيرة. لم نكن جشعتين. لا يمكننا أن نبدو جشعتين في حال قبض علينا. كنّا نخطر بخرق قاعدةٍ كانت قد فُرضت بإحكام مثل حظر التجوّل، لكنني تحت البحر شعرتُ أنّ ما أفعله كان صحيحاً بالكامل. هذا كان عالمي. كيف قد أسمح لأيّ شخصٍ أن يقول لي

إنّه لا يمكنني زيارته لإطعام أطفاله؟ كان لديّ مي-جا بجانبه، وهو ما منحني المزيد من الثقة والشجاعة.

حوالي الساعة الحادية عشرة، وبعد أن جمعنا ما يكفي من المكونات لإعداد عصيدة من بطارخ قنفذ البحر وحساء القواقع مع البطاطا الحلوة المجففة، سبحتُ عائدةً مع مي-جا إلى الشاطئ حيث ارتدينا ملابسنا بسرعة، ووضعنا شباكنا في سلتينا وغطيناها بقطع من القماش. أخفينا فعلتنا دون مبالغة، إذ كنّا أكيدتين أنّ آية الأعيب أو حيل متعمّدة ستجعلنا نبدو مذنبين إذا أوقفنا أحدًا ما للتحقيق. أثناء عودتنا إلى منزلي، رأيتُ أناساً يمارسون حياتهم اليومية بهدوءٍ حذر. كان معظم رجال القرية مجتمعين تحت شجرة القرية يهتمّون بالرضع والأطفال الأصغر سنّاً، إلّا أنّني لم أرَ أيّاً من الشيوخ الذين أخذوا الجثثين إلى هامديوك. كثيرٌ من الفتيات مع إخوتهنّ الصغار المربوطين إلى ظهورهنّ بينما يؤدّين بعض المهامّ لأمهاتهنّ. رأينا نساءً في سنّنا وأكبر سنّاً يلبسن الكثير من الملابس بسبب البرد، ويجلسن على درجات منازلهنّ ليفعلنّ ما تفعله نساء الهينيو الذين لا يُسمح لهنّ بالغوص - إصلاح الشباك، وشحذ السكاكين والرماح، وإصلاح الثقوب في ملابسهنّ المائية أو خياطة ملابس جديدة لبناتهنّ. أراد الجميع أن يكون مستعدّاً حين يتمّ رفع الحظر عن الغوص.

تبخّر الهدوء دفعةً واحدة - دون صيحةٍ واحدة، دون أيّ إنذار - بأصوات الشاحنات والرصاص ووقع الخطى المهرولة. كانت فوضى فورية. كان الأمر كما لو أنّ آلهة الشياطين هبطت جميعاً علينا مرّةً واحدة ومن جميع الجهات. الآباء انتزعوا صغارهم والرضع. أمسك الأخوة بيد إخوتهم. هرعت النسوة من المنازل إلى الأزقة بحثاً عن أطفالهنّ وأحفادهنّ وأزواجهنّ. أنا ومي-جا ركضنا أيضاً. كان عليّ

العودة إلى المنزل، إلى أطفالي ويو-ري. بقيتُ مي-جا بقربي. لم يكن بوسعنا أن نفترق. كنتُ بحاجة إليها، لكن ولكونها بعيدةً عن منزلها، فقد احتاجت إليّ أكثر. كانت غريبةً في بوكتشون. لن يأويها أحدٌ إذا افترقنا، لأنّ كلّ ما يعرفونه هو أنّها قد تكون متمرّدة أو جاسوسة.

شممتُ رائحة الدخان وسمعتُ فرقة النيران قبل أن أراها. إذ انعطفنا مسرعتين عند زاوية الزقاق، تدهرجت كراتٌ مشتعلة نحونا. كانت تلك جرذاناً تحترق! إلى الورااء منها كانت ألسنة اللهب تندلع من أسقف القشّ، وابتلعتُ عدّة منازل بالفعل. الرجال الذين ارتدوا الزيّ العسكري كانوا يحملون المشاعل ويندفعون من منزلٍ إلى آخر مضرمين النار في المزيد من الأسقف.

- «تعالِي! ثمة طريقٌ آخر!»، صحتُ بصوت عالٍ.

استدردنا ورجعنا مسرعتين من حيث أتينا، نشقُّ طريقنا عبر أولئك الذين يندفعون مهرولين بعكس اتجاهنا. لكنّ الجنود كانوا في كلّ مكان. وسرعان ما بتنا جميعاً محاصرين.

- «لا تتحرّكوا!»، صاح أحدهم بنا.

- «لا تستديروا!»، صرخ آخر.

لكن أطفالي! أخذتُ أنظر على نحوٍ محموم في كلّ الاتجاهات. كان عليّ أن أعود إلى المنزل. ركض عشراتٌ غيرنا إلى نفس الفخّ الذي أوقع بي وبمي-جا. أراد كلّ منّا الفرار بالطبع - رغبةً في إنقاذ حياته أو البحث عن عائلته - لكن مع البنادق من أمامنا والنيران من خلفنا لم يكن لدينا خيارٌ سوى الانصياع. إذا أُريدتُ في هذا الزقاق، فلن أتمكّن من مساعدة أطفالي، ولن أعثر على زوجي وأخت زوجي. تملّك الهينيو التي بداخلي غضبٌ محقّق. سوف أنجو من أجل عائلتي. سوف أحمي عائلتي.

ساقنا الجنود مثل قطع من الماشية يدفعونه للأمام. انضمَّ جنودُ
آخرون مع المزيد من الأسرى إلى مجموعتنا.
تَشَبَّثْتُ مي-جا بأعلى ذراعي بقبضةٍ متَشَبِّجة. «أين يأخذوننا؟»،
سألت بصوتٍ مرتعش.

لم تكن لديَّ إجابة. كنتُ ومي-جا في قلب الحشد. انعصرنا
بين الأجساد التي تضغط علينا من كلِّ جانب. واصلوا اقتيادنا حتى
انعطفنا إلى الزقاق الذي يحوي صفَّ بيوت المعلمين حيث كنتُ
أعيش. اندفعتُ محشورةً بين الأجساد البشرية المتكدَّسة حتَّى بلغتُ
طرف الحشد. كانت بوابة فنائي مفتوحة. كان جبل يو-ري مرتخياً
وغير مستخدم. كان باب المنزل موارباً. وبدا أنَّه لم يكن هناك أحدٌ
في الداخل، لكنني صرختُ على آية حال: «مين-لي، سونغ-سو،
الجدَّة تشو». لا جواب. أملتُ أن تكون الجدَّة تشو قد اصطحبت
الأطفال إلى مكانٍ آمن - منزلها أو الحقول. لكن في أعماقي كنتُ
أعرف أنَّ ذلك غير مرجَّح. تملكني الرعب، لكن دمي كان يغلي مثل
فولاذٍ منصهر. تركتُ للحشد أن يسحبني إلى قلبه مجدداً.

- «المدرسة». لم أتعرف على الصوت الذي صدر مني. «إنَّهم
يأخذوننا إلى المدرسة الابتدائية».

- «جون-بو —»، قالت مي-جا.

- «ربَّما سبق له أن أخذ الأطفال معه».

تمَّ اقتيادنا عبر البوابات الرئيسية للمدرسة. فُصل الأزواج
والأشقاء والآباء ودُفعوا نحو اليسار. كان العديد لا يزالون يحملون
الرضع والصغار بين أذرعهم، بينما سيقَ بقيتُنا بمن فيهم كبار السن
نحو اليمين. عند نقطة الانفصال، كان شيوخ بوكتشون العشرة،
أولئك الذين أخذوا الجنديين إلى هامديوك في محاولةٍ لتجنُّب
الأعمال الانتقامية، كانوا ممدِّدين على أرض الملعب مثل أعشاب

البحر حين تُترك كي تجفّ. كلُّ واحدٍ منهم كان قد تلقى رصاصةً في الرأس.

- «تابعوا التقدّم! تابعوا التقدّم!»، صاح بنا الجنود. اصطدمتُ رجلاي وذراعاي بمن هم أمامي إذ كنتُ أدفع بقوة من الخلف. تشبّثتُ مي-جا بذراعي. كانت ثمّة راحة في وجودها معي. في ذات الوقت، كنتُ أقاوم الرغبة في التخلّص منها، إذ كان عليّ أن أجد أطفالاً.

رفعتُ نفسي على أطراف أصابع قدميّ على أمل أن أتمكّن من رؤية جون-بو والأطفال، لكن بدا أنّ كلّ سكّان بوكتشون كانوا موجودين هنا. شعرتُ بالرعب وأنا أفكر في ما قد يفعله الجنود بنا بعد أن سمعتُ عن قرى أبيدت بالكامل عبر تسويتها بالأرض حرقاً وإبادة جميع سكّانها.

وصلنا إلى مساحةٍ بها مجموعة أخرى من الجنود، وكانت لديهم أوامر جديدة لنا. «اجلسوا! اجلسوا! اجلسوا!».

نزلنا على الأرض في ما يشبه الموجة البشرية. كان الناس من حولي ينتحبون. بعضهم كان يصلّي للآلهة. ردّدت إحدى العجائز صلاةً بوذية. ناح الصغار، وبكى الأكبر قليلاً يريدون أمّهاتهم. أطرق الشيوخ برؤوسهم. عددٌ قليل منهم، الضعفاء أو المرضى، استلقوا على الأرض منكمشين على أنفسهم، مرهقين لأقصى حد، عاجزين عن الحركة. قبالتنا على امتداد مسافةٍ من التربة الجرداء، جلس الرجال والصبية المراهقون من بوكتشون. وفوقنا، حامت غربانٌ سوداء، كان عشاؤها في الطريق.

وقف الجنود مباعدين بين أرجلهم كي يثبتوا أنفسهم على الأرض. تأرجحت بنادقهم فوقنا جيئةً وذهاباً بحثاً عن أيّ شخصٍ قد يحاول الهرب. حجب الدخان الأسود الكثيف الهواء عنّا، ما جعل

التنفس صعباً للغاية. بدا أنَّ النيران تشتعل في القرية بأكملها عدا المدرسة.

ملاً ساحة المدرسة عويلٌ صاخبٌ صادر عن مكبر صوت، وتقدّم رجلٌ إلى الأمام. «أنا قائد الفوج الثاني من الكتيبة الثالثة. إذا كان أيُّ منكم فرداً من عائلات رجال الشرطة أو الجيش أو من أولئك الذين يعملون معنا، فليقدّم إلى الأمام، ولن يتعرّض للأذى».

كانت مي-جا تندرج ضمن هذه الفئة. «اذهبي»، همستُ لها. - «لن أترككِ»، همستُ لي. «إن بقيتُ هنا، فلربّما أتمكن من مساعدتك. حين يأتي سانغ-مون، سأجعله يلمّ شملنا جميعاً. سوف ينقذنا. أنا أعرف بالضبط كيف أطلب منه».

عضضتُ شفتي. كنتُ أشكُّ أنَّه سيضع نفسه في موقع المساعد لي ولعائلتي. والأهم من ذلك، شككتُ أن يكون لمي-جا تأثيرٌ عليه. لكنني حاولتُ أن أصدّقها.

كرّر القائد إعلانه، وأضاف: «أعدكم أنكم سوف تُسلمون بأمان إلى عائلاتكم». وقف عندئذ القليل من الأشخاص. جمع الجنود ورجال الشرطة أقاربهم واقتادوهم بعيداً عمّا كان سيحدث لنا. حالما اختفوا عن الأنظار، توجّه القائد إلينا من جديد قائلاً: «نحن نبحث عن المتمرّدين الذين قتلوا اثنين من رجالي في ساعات الصباح الأولى من هذا اليوم».

كانت عائلتي نائمة حين حدث ذلك، والأرجح أنَّ هذا كان حال العائلات الأخرى.

- «نحن أيضاً نبحث عن أولئك الذين قدّموا المساعدة للعدوّ، وعن المخبرين الذين أفسّوا تحرّكاتنا».

لم أفعل أيّاً من هذا. ولكن... كنتُ قبل ما يزيد عن عام مضى قد تركتُ الطعام في حقلي الجاف لمساعدة تلك الأمّ وأطفالها الذين

هُجِّرُوا مِنْ بَيْتِهِمْ فِي الْجِبَالِ. كُنْتُ أَثْرَثُ مَعَ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَةِ حِينَ كَانَ لَا يَزَالُ مَسْمُوحاً لَنَا الْعَمَلُ وَالْغُوصُ، وَمَعَ جَارَاتِي فِي الْأَشْهُرِ الْأَخِيرِ. كَمَا سَمِعْتُ زَوْجِي يَدِينُ بِمَرَارَةٍ مَا كَانَ يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِنَا.

- «إِذَا تَقَدَّمْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ الْآنَ، فَسَوْفَ نَكُونُ أَكْثَرَ تَسَامِحاً»،
صَاحِ القَائِدِ. «إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا فَسَوْفَ تَعَانِي عَائِلَاتُكُمْ وَأَصْدِقَاؤُكُمْ
الْأَمْرَيْنِ».

لَمْ يَقْبَلْ أَحَدٌ الْعَرْضَ.

- «لَقَدْ ذَهَبْنَا بِالْفِعْلِ إِلَى الْقَرْيَةِ الْمَحِيطَةِ بِبُوكْتَشُونِ»، وَاصِلٌ.

«لَقَدْ خَلَّصْنَا جِيغُو مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ شَخْصٍ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَزَارِعُونَ».

لَا بَدَّ أَنْ «خَلَّصُوا» كَانَتْ تَعْنِي «قَتَلُوا». لَكِنْ مَجْدِّدَا، لَمْ يَتَطَوَّعْ أَحَدٌ.

- «حَسَنٌ إِذَا»، أَشَارَ القَائِدُ إِلَى الْجُنُودِ الْأَقْرَبِ إِلَيْهِ. «خَذُوا أَيَّ

عَشْرَةِ رِجَالٍ تَخْتَارُونَهُمْ».

خَاضَ الْجُنُودُ فِي بَحْرِ الْأَزْوَاجِ وَالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ الَّذِينَ جَلَسُوا عَلَى التَّرَابِ قِبَالَتَنَا. تَابَعْتُهُمْ بَعِينِيَّ بَحْثاً عَنْ جُون-بُو بَيْنَمَا كَانُوا يَقَرَّرُونَ. اصْطُحِبْ أَوَّلَ عَشْرَةِ رِجَالٍ - مَعْظَمُهُمْ فِي سَنِّ الْمَرَاهِقَةِ وَفِي الْعَشْرِينِيَّاتِ مِنَ الْعُمُرِ - مِنَ الْمَلْعَبِ إِلَى دَاخِلِ الْمَدْرَسَةِ. بَدَأَتْ فِي جَهْتِنَا أُمَّهَاتُ وَزَوَاجَاتُ وَبَنَاتُ أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ بِالْبُكَاءِ. كُلٌّ مَا أَمَكَّنَنِي الشُّعُورُ بِهِ هُوَ الْارْتِيَاخُ لِأَنَّ اخْتِيَارَ الْجُنُودِ لَمْ يَقَعْ عَلَى جُون-بُو.

بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ، بَدَأَتْ رِيَاخُ جِيغُو الْقَاسِيَةِ تَحْمِلُ إِلَى آذَانِنَا أَصْوَاتَ صَرََاخِ الرِّجَالِ وَهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِلتَّعْذِيبِ. تَجَمَّدْتُ مِنَ الْخَوْفِ. صَلَّيْتُ إِلَى هَالْمَانِغِ جَاتَشِيُونْغِي؛ إِلَهَةُ الْحُبِّ، الْمُسْتَقْلَّةُ، رَابِطَةُ الْجَاشِ التِّي لَا تَهَابُ الْمَوْتَ، لَكِنَّ الرِّجَالَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْفَنَاءِ. جُمِعَ عَشْرُ رِجَالٍ آخَرِينَ وَاقْتِيدُوا إِلَى الدَّخْلِ. مَجْدِّدَا، نَدَبْتُ نَسَاؤَهُنَّ حَزْناً عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَلَا عَوِيلُ أَلْمَهَنِّ، تَلَا ذَلِكَ صَمْتُ مَخِيفٍ.

التقت عيناى بعينى مي-جا . لم أدرك ما الذى كانت تفكر فيه .
- «إذا كنتُ سأموت هنا ، فسيكون ذلك مع أطفالى» ، أعلنتُ
بصوتٍ مسموع .

بعد أن اقتيدت المجموعة الثانية من الرجال إلى الداخل ، بدأتُ
أزحف على مؤخرتي عبر الحشد . جاءت مي-جا معي .
- «هل رأيتِ أطفالى؟» . كنتُ أسأل النساء من حولي كلّ بضعة
أمتار . «هل رأيتِ الجدّة تشو؟» .

لم أكن الوحيدة التي تبحث وتطرح الأسئلة .
اقتربنا كثيراً من سيّارة إسعاف أثناء إحدى مجازفاتنا باتّجاه طرف
الحشد . كانت الأبواب الخلفية مفتوحة ، واستطعنا سماع بعض
الرجال يتجادلون في الداخل .

- «أخشى أنّه سيتعيّن علينا قتل الجميع هنا» ، قال رجلٌ ما .
- «هذا مستحيل» ، ميّزتُ صوت القائد وشعرتُ ببصيصٍ من
الأمل . ثمّ تابع قائلاً: «لكن إذا تركناهم يعيشون ، فكيف سنؤمّن
احتياجاتهم - اللباس والطعام والمسكن - بعد أن أحرقنا كلّ
شيء؟» .

- «ولا يمكننا ترك شهودٍ خلفنا» .
- «لكنّهم — كم؟ ألف شخص» ، سأل القائد .
- «ليس عددهم كبيراً بهذا القدر سيّدي ، هم بضعة مئات
فقط . . .» .

عندها بالضبط ، فتح سائق سيّارة الإسعاف بابه ، وانسحب إلى
طرف الساحة ، وأخذ يتقيّأ . بعدها بلحظة ، نزل القائد ورجاله من
مؤخرة سيّارة الإسعاف . إذ بدأوا ينتشرون على شكل حرف V ،
زحفُ مع مي-جا إلى داخل الحشد مجدّداً . لم نخبر الناس من
حولنا بما هو قادم ، فالذعر لن يفيد في شيء .

تحوّلتُ إلى حيوان يريد حماية صغاره، ويتصرّف وفقاً لغريزة قديمةٍ بقدَم الأرض ذاتها. اقتربتُ ومي-جا من مقدمة الحشد وصولاً إلى أكثر منطقةٍ نخشاهَا. كنّا نقترَب أكثر فأكثر من الجنود المسلّحين حين فتحت مي-جا فمها بصعوبة لتقول في نصف همسة، ونصف صرخة: «انظري!».

على بُعد بضعة أمتار إلى الأمام منّا، رأيتُ الجدّة تشو ويو-ري على مسافة عشرة رؤوس تقريباً. جلستُ ابنتي مين-لي بسلامٍ بينهما. ووضعتُ يو-ري ابني الأكبر سونغ-سو في حجرها، بينما كان شقيقهما الأصغر كيونغ-سو غافياً على كتف الجدّة تشو. غمرني شعورٌ بالراحة. كان أطفالِي الثلاثة بأمان. كلُّ ما عليّ فعله الآن هو شقُّ طريقي نحوهم دون لفت الانتباه. ومن ثمَّ عليّ أن أعثر على زوجي.

كنتُ ومي-جا على وشك الوصول إليهم حين تقدّم القائد مجدّداً إلى المساحة المفتوحة بين المجموعتين.

- «نحن نأخذ رجالكم، لكنكم لا تبالون. لِنَرَ ماذا سيحدث عندما نطرح بعض الأسئلة على بناتكم».

مدّ يده وأمسك بأقرب شخصٍ رأى أنّه يفي بالغرض. لقد كانت يو-ري. سقط سونغ-سو من حجرها، نهض وكان على وشك أن يبدأ الركض حين أمسكتُ الجدّة تشو بذيل سترته وسحبته إلى الخلف.

صاح أحدهم: «تلك الفتاة خرساء! لن تكون قادرةً على مساعدتك!».

دفنتُ وجهي بين يديّ، مدركةً أنّ ذاك كان صوت زوجي. كان حياً، وكان هنا.

- «مَن قال ذلك؟»، سأل القائد بحدّة. «مَن يعرف هذه الفتاة؟
تقدّم إلى الأمام الآن! ابذل حياتك مقابل حياتها».
- «لا»، صرختُ باكية.

انبطحتُ يو-ري على الأرض مذعورة. نفّض القائد يده بحركةٍ
سريعة، فتقدّم عدّة رجالٍ نحوها، عندها فعل زوجي الشيء الوحيد
الذي يستطيع فعله: نهض واقفاً على قدميه.
- «تلك الفتاة أختي! هي لا تتكلّم، ولن يكون بوسعها
مساعدتك».

التفتَ القائد إلى زوجي، كانت عيناه تلمعان. «وأنتَ مَن
تكون؟».

- «أنا يانغ جون-بو. أنا معلّم في هذه المدرسة».
- «أه! معلّم. أسوأ أنواع المحرّضين».
- «أنا لستُ محرّضاً».
- «دعنا نرى ماذا لدى أختك لتقوله بهذا الشأن».

تحركَ الجنود نحو يو-ري وبدأوا يمزّقون ملابسها. لم يضعوا
التعذيب في اعتبارهم. حاول زوجي الركض إلى الأمام، لكنّ أذرع
جيراننا أوقفته، وثبتت ساقيه من حيث كانوا يجلسون. صرخ غاضباً.
استغللتُ حالة الإلهاء لأرفع نفسي قليلاً في وضع القرفصاء وأقطع
المسافة المتبقية إلى الجدّة تشو وأطفالي. جذبتُ ابنتي إلى حجري.
شعرتُ بمي-جا تنزل بالقرب منّي. تنقّلت عيناى بسرعة بين يو-ري
وزوجي والقائد.

أيتها الإلهة، أيتها إلهة، ساعدينا. كانت أخت زوجي بين أيدي
الجنود. وكنّ تُعمل على منع عقلي من التفكير فيما قد يفعلونه
بزوجي، عندما جاء - كما لو من العدم - زوج مي-جا راکضاً عبر
الفناء.

- «أيها القائد! أيها القائد!».

كان سانغ-مون يحمل يو-تشان الذي ارتدى زيَّ بحار من أجل زيارة جدّيه.

لوح سانغ-مون للقائد على نحوٍ محموم. كان يعرف جون-بو جيّداً، لكنّه بدا غير مدركٍ أنّ زوجي كان واقفاً هناك بالضبط.

- «زوجتي هنا. دعني أجدها!»، قال مناشداً القائد. «إنّها ضمن الفئة المحميّة!».

لم يقل كلمةً واحدة عن جون-بو. كنتُ في أعماقي أقول له: انظر!

صارعتُ ابنتي في حضني كي تركض إلى يو-تشان.

- «مي-جا!»، صرخ سانغ-مون. «تعال!».

قبضتُ على ذراع مي-جا. «خذي أطفالي».

- «لا أستطيع»، قالت دون لحظة تردّد.

شعرتُ بتلك الكلمتين مثل سكّين تنغرز في خاصرتي.

- «عليكِ ذلك».

- «هم يعرفون أنّ لديّ طفلاً واحداً. ويو-تشان مع والده

بالفعل».

- «هؤلاء أطفالي —».

- «لا أستطيع».

- «سوف يقتلوننا جميعاً. أرجوك»، توسّلتُ إليها. «خذيهم».

- «ربّما يمكنني أخذ واحدٍ منهم...».

لكن فيمَ كانت تفكّر؟ لقد قالت سابقاً إنّها تستطيع مساعدتنا. إنّ

مساعدتنا لا تعني أخذَ طفلٍ واحد!

- «مي-جا!»، صرخ سانغ-مون مجدّداً.

احدودبتُ مثل كلبٍ مضروب.

قباالتنا، كانت يو-ري قد جُرِّدَتْ من ملابسها. جثت أخت زوجي التي لم تُؤذِ نفسها قط، ولم تفهم ما الذي كان يحدث؛ جثت على ركبتيها. ركلها أحد الجنود طارحاً إياها أرضاً.

- «واحد»، كرّرت مي-جا. «سيتعين عليك الاختيار».

كنت أتمرّق من الداخل. غضبٌ وخيبة أمل في مي-جا. أملٌ في أنها بطريقةٍ ما ستظلُّ قادرةً على مساعدتنا. ويأسٌ من قدرتي على اتخاذ القرار الذي تطلب منّي اتّخاذُه. هل أنقذ ابنتي التي ستنضمُّ إليّ في البحر ذات يوم؟ أم أنقذ سونغ-سو، ابني الأكبر، والذي سيكون قادراً على أداء الشعائر لنا جميعاً حين نصل العالم الآخر؟ أم أنقذ كيونغ-سو الذي كان ابن أبيه المفضل؟

- «يجب أن يكون سونغ-سو، لأنّ بقيّتنا ستموت هنا اليوم»، قلتُ لها. «خذيهِ. احرصِي على أن يؤدّي شعائر تبجيل الأسلاف لنا في السنوات القادمة».

نشجتُ مين-لي بجانبِي. كانت كبيرةً بما يكفي لتفهم أنّي لم اخترها. سيكون عليّ طمأننتها خلال لحظّاتنا الأخيرة معاً، لكن قبل أن يتسنّى لي البدء في ذلك، قالت مي-جا شيئاً جعل الدماء تجفّ في عروقي.

- «سيكون عليّ التحدّث إلى سانغ-مون أولاً وأرى ما إذا كان يوافق على ذلك».

تحدّث إليه أولاً؟ ترى ما إذا كان يوافق؟

- «يجب أن أحمي ابني أيضاً، كما تعلمين». كان هذا آخر شيءٍ قالته لي قبل أن تنهض. توجّهت البنادق والمسدّسات نحوها. لفتت الحركة انتباه سانغ-مون، فأشار للقائد نحو مي-جا، ونفض القائد يده بحركةٍ سريعة مجدّداً؛ هذه المرّة كي يسمح لها بالمرور.

راقبها الجميع وهي تسير، أصبحت مشيتها الجميلة أبطأ حتى بفعل الرعب. إذ تركّز الانتباه على مي-جا للحظات، نجح زوجي في الإفلات من الأذرع التي كانت تحتجزه واندفع مسرعاً إلى أخته. أمسك الجنود به مستخدمين قوتهم لقمع محاولاته للمقاومة. خلفهم بمترين فحسب، كانت مي-جا تهمس بشيء ما في أذن زوجها. راقبتُ وانتظرت.

- «هل تريد أن تَعْتَلِيها أنتَ بدلاً منهم؟»، سأل القائد جون-بو. بدأ الجنود الآن يدفعون جون-بو إلى الأمام. أردتُ أن أصرخ بأعلى صوتي، لكن كان عليّ حماية أطفالي أيضاً. نظرتُ نحو مي-جا. بدا سانغ-مون في حيرة من أمره وقد بدأ للتوّ يستوعب ما كان يحدث. ماذا كانت مي-جا تفعل حين حملت طفلها بين ذراعيها في الوقت الذي كان ينبغي أنْها تطلب الرحمة لعائلتي؟.

- «من الممكن جعل الناس يقومون بمختلف أنواع الأشياء»، قال القائد.

- «ربّما يكون هذا صحيحاً»، قال زوجي بصوتٍ رفيعٍ مثل خيط. «لكنني لن أفعل ذلك».

حاولتُ أن أعطي عينيّ ابنتي، لكنني لم أكن سريعةً بما يكفي. حركةٌ سريعةٌ أخرى من يد القائد، رفع على إثرها أحد الجنود مسدّسه وأطلق النار منه. تناثر رأس زوجي قطعاً مثل بطيخة كُسرت بواسطة صخرة.

ثمّ بدا أنّ كلّ شيءٍ حدث دفعةً واحدة. هوى زوجي على الأرض. وضع سانغ-مون راحة يده على جبينه وقد أدرك ما حدث. لا بدّ أنّ الجذّة تشو أرخت قبضتها من هول المشهد، لأنّ سونغ-سو أفلت فجأة وركض باتجاه والده. دوى صوت رصاصةٍ أخرى. تصاعد الغبار أمام قدميّ ولدي.

- «لا تهدروا الرصاصات»، صاح القائد. «سوف تحتاجونها لاحقاً».

لذا التقط ذاك الجندي ولدي من كاحله. قاوم سونغ-سو وركل حتى أمسك الجندي بكاحله الآخر. ثمّ راح يؤرجح ولدي كما لو كان سيرمي شبكةً في البحر غير أنّ ولدي هو الذي طار في الهواء إلى أن اصطدم جسده الصغير بحائط المدرسة. سقط ساكناً بلا حراك. رفع الجنديّ ما كنتُ أعرف بالفعل أنّها جثةٌ هامة وكرّر العمليّة ثلاث مرّاتٍ إضافية.

أمسك سانغ-مون بذراع مي-جا وبدأ يسير مبتعداً.
- «مي-جا!»، صرختُ. «ساعدينا!».

لم تُدر وجهها نحوي، لذا هي لم ترَ ما حدث عندما قرّر الجنود ألاّ يضيّعوا المزيد من الوقت مع يو-ري. لقد كانت عاجزةً عن الكلام طوال هذه السنوات، لكنّها صرخت ملء حنجرتها عندما قطعوا ثدييها. تعذّبتُ لعذابها، واكتويْتُ بألمها. من ثمّ توقّفتُ عن الصراخ.

في غضون ثوانٍ، كنتُ قد فقدتُ زوجي، وابني، وأخت زوجي التي لطالما شعرتُ بالمسؤولية تجاهها منذ أول مرّة غطستُ فيها كهينيو. ومي-جا، أقرب صديقاتي وأقدمهنّ، لم تفعل شيئاً للمساعدة.

كففتُ عن التنفّس، حبستُ الهواء لوقتٍ أطول من الممكن، كما لو أنّي أقبع في أعماق أعماق المحيط. وعندما لم أستطع حبسه لوقتٍ أطول، لم أبتلع الموت السريع مع مياه البحر، بل هواءً لا يغفر، لا يلين؛ هواءً يردُّ الروح.

ثمّ بدأ إطلاق النار.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قرية الأرامل

1949

هناك من يقول إنَّ أحداً لم ينبُج من مجزرة بوكتشون. يقول آخرون أنَّ شخصاً واحداً فقط قد نجا. وسيخبرك آخرون إنَّ عدد الناجين كان أربعة. أو سترى تقارير تقول إنَّ عدد القتلى كان 300، أو 350، أو 480، أو 1000 شخص... سيخبرك البعض عن مجموعة من مئة أو نحو ذلك من الناجين الذين اقتيدوا إلى هامديوك حيث انتهى بهم الأمر بأن تمت «التضحية» بهم. لذا، بلى، كان هناك ناجون. لفت إحدى الجدّات حفيدها ببطانية ورمته في قناة صرف. زحف خارجاً يتلمّس طريقه في العتمة. تمكّنت بعض العائلات من النجاة في الليلة الأولى، ومن ثمّ الهرب عبر الجدار الذي يحدّد حلقة النار. علاوةً على ذلك، كان هناك زوجات، وآباء، وأبناء الجنود وضباط الشرطة الذين تمّت حمايتهم داخل حجرة لتقشير الأرز حتّى انتهاء المجزرة.

سأخبركم بهذا. مات في بوكتشون عددٌ من الناس أكثر من أيّة قرية أخرى خلال سنوات حادثة 4.3 (الثالث من أبريل) كلّها. أُجبر أولئك الذين نجوا من الأيام الثلاثة من التعذيب والقتل - سواءً في المدرسة أو في إحدى القرى الصغيرة المجاورة - على المساعدة في

التعامل مع مئات الجثث. اتّضح أنّ التخلّص منها - قد يُطلق عليه البعض مصطلح إخفاء الأدلة - يمثل مشكلةً على الصعيد اللوجستي. حفرنا حفرةً هائلة. ثمّ جررنا جثث جيراننا وأحبّتنا إلى حافّتها وألقينا بها هناك. لم يطلقوا سراحنا إلّا بعد إهالة التراب فوق الحفرة. قيل لنا إنّنا كنّا المحظوظين.

عندما غادرتُ ساحة المدرسة مع مين-لي وكيونغ-سو، انضممنا إلى مجموعةٍ من الأشخاص المذهولين، المشلولين بسبب ما كنّا قد شهدناه. لم يكن لدينا ما نعود إليه بعد أن أُحرق كلُّ منزلٍ في بوكتشون، لكنّ غريزة البقاء وحدّتنا. أصلحنا الجدران الحجرية المتداعية. جمعنا القشّ كي نضع سقوفاً فوق رؤوسنا. في غضون ذلك، كنّا ننام في خيام وقرها لنا الجيش الأمريكيّ. بحثنا في كلِّ منزلٍ محترق عن أيِّ موادّ غذائية قد تكون نجت من النيران. أكلنا ما أمكننا أكله من الخزائير التي شُويت حيّةً في أماكنها. عثرتُ على بعض الملفوف الذي لم يكن قد سُرق، وحيث إنّهُ لم يكن لديّ ملح، فقد استخدمتُ مياه المحيط وبعض رقائق الفلفل الأحمر لصنع الكيمتشي عبر نقع المزيغ في وعاءٍ حجريّ لليلتين ثم وضعه في أوانٍ فخاريّة. فعلتُ كلّ ما بوسعي لإطعام أطفالِي، حتّى لو عنى ذلك التسلّل ليلاً بغرض الغوص. وتلك كانت المناسبة الوحيدة التي أمكنني بها أن أكون بمفردي، فمين-لي - التي تعرف أنّني كنتُ مستعدّةً للتخلّي عنها لصالح إنقاذ أخيها - باتت الآن ملتصقةً بي كما يلتصق أخطبوطٌ بصخرة.

لم ألقَ عزاءً من معرفة أنّني لستُ وحيدةً في بؤسي. قُتل الكثير من الرجال في بوكتشون لدرجة أنّها أصبحت تسمّى قرية الأرامل. كان الحزن يملؤني، لكن عقلي كان يتراكم مثل جرذٍ عالٍ في قفص. الجرذ عندي كان مي-جا، التي ما انفكت تنزلق وتحفر

بأظافرها جيئةً وذهاباً داخل جمجمتي . لقد حملتها مسؤولية ما حدث لعائلتي، سواءً كان ذلك محققاً أم ظالماً . لو أنها تقدّمت للأمام منذ البداية حين تمّ اقتيادنا إلى الساحة، كانت سستمكّن من التحدّث مباشرة إلى الأشخاص المسؤولين بصفتها زوجة أحد الأشخاص الذين يعملون معهم . أو كان يمكنها الانتظار حتّى يصل زوجها وتلفت انتباهه بعناية وعلى نحوٍ محدّد . بدلاً من ذلك، كلُّ ما فعلته كان حماية نفسها . وربّما ابنها وزوجها، رغم أنني لم أستطع إرغام نفسي على تصديق أنّهما كانا بحاجةٍ للمساعدة في أيّ وقت . ما شهدته كان ببساطة ابنة عميلٍ يابانيّ تقوم بحماية نفسها أولاً وقبل كلّ شيء .

احترقَت ألماً من فكرة أنني لطالما كنتُ أعرف هذه الحقيقة عنها لكنني لم أعطها يوماً وزنها الحقيقيّ . أنت لا تدرك أنّ ملايسك تكون آخذةً في الابتلال أثناء المطر . كانت مي-جا تخدعني، يوماً بعد يوم، وسنةً بعد سنة . يمكنني الآن أن أرى، بالوضوح الذي يمكنني فيه رؤية الحرائق التي تبتلع المزيد من القرى على سفوح جبل هالا، أنّ تصرف مي-جا التضخوي لإنقاذ والدتي قبل سنواتٍ طويلة حين جاء الجنود اليابانيّون إلى حقلنا كان دافعه الوحيد هو غريزة البقاء . إذ حرصت أمّي بعد ذلك على إطعام مي-جا، وعلى منحها عملاً . لقد سمحتُ لمي-جا أن تصبح هينيو ضمن جماعتها . والأهم من ذلك كلّهُ، أنّ سلوك مي-جا في الحقل ذاك اليوم أعمانني عن حقيقتها . لقد رأيتُ ما أردتُ رؤيته فقط، في حين كان ما فعلته مصمّماً على مقاس مصلحتها الشخصية هي فحسب .

إذا كانت هناك من لحظاتٍ حيث كان عقلي يخوض صراعاً مع نفسه بشأنها - كان خلالها يحاول إخباري أنّه لا بدّ أنني قرأتُ أفعالها وسمعتُ كلماتها بصورةٍ خاطئة - فإنّ اختفاءها من حياتي كان

كفيلًا بتذكيري في كلِّ يوم بأنني كنتُ على حقٍّ. لو أنَّها بريئة، لكانت أتت لتري كيف هي حالي، لكانت أحضرت طعاماً للأطفال، أو حضنتني بين ذراعيها وأنا أبكي. لكنَّها لم تفعل أيًّا من هذه الأشياء. اعتبرتُ هذا ذنب سانخ-مون لكونه يملك من النفوذ والسلطة عليها أكثر ممَّا كنتُ أستطيع أن أتخيّل. لربّما كان قد رأى جون-بو واختار ألا يفعل شيئاً. ربّما همس للقائد أن يقتل جون-بو. ربّما حرّض الجندي كي يقتل ولدي الصغير. لكن لا شيء من ذلك كان قد حدث في الحقيقة، وهو ما ترك روحي عالقةً في شعورٍ يشبه الغرق في برمبلٍ من الخلّ.

كان حزني على فقدان زوجي، وابني، وأخت زوجي، والجدّة تشو، والكثير من الجيران والأصدقاء عميقاً ورهيباً لدرجة أنّه حين لم يصل وقتٌ ملابس الماء السوداء في الموعد المحدد من الشهر، لم أبه لذلك. وحين تكرّر ذلك في الشهر التالي، أُلقيتُ باللوم على مأساتنا وقلة الطعام. عندما فاتني الشهر الثالث، لم تسمح لي هوة الحِداد المظلمة التي أقبع فيها بتمييز الألم في ثديي، وإرهاقي الشديد، والغثيان الرهيب الذي أُصِبتُ به في كلِّ مرّة فكّرتُ فيها كيف انفجر رأس زوجي، وكيف تعرّض ابني للضرب بالحائط، وصرخات يو-ري من الرعب والألم. في الشهر التالي - وكنا لا نزال نعيش مثل الحيوانات - فهِمْتُ أنَّ زوجي كان قد زرع طفلاً بداخلي قبل موته.

في الليل، حين كنتُ أعجز عن إغلاق عينيّ خوفاً ممَّا قد أراه في الجهة الخلفية من جفنيّ، فكّرتُ في زوجي في العالم الآخر. هل كان يعلم أنّه منحني طفلاً آخر؟ هل كانت ثمة طريقة تمكّنه من حمايتنا؟ أم من الأفضل أن يُسحب هذا الشيء الذي ينمو بداخلي خارجاً قبل أن يتمكّن من تنفّس الهواء المرّ الخطير لهذا العالم الذي

لا يرحم؟ كنتُ منهكة - من الطفل الذي ينمو بداخلي، من عدم النوم، من العيش في خوفٍ مستمرٍّ من عودة فرق الجيش أو الشرطة أو رابطة شباب الشمال الغربي أو المتمرّدين. لم يكن بوسعي السماح لطفلي أن يولد في قرية الأرامل. ولأَيّام كنتُ أمعن التفكير في ما ينبغي بي فعله. قدّمت الجدّة سيولمونداي العديد من الخيارات التي تساعد على الاختباء - الكهوف وقنوات الحمم البركانية، ومخاريط الأوريوم - لكن كلّها كانت داخل حلقة النار. إذا رُصدنا، سيطلقون النار علينا في الحال - أو سيفعلون ما هو أسوأ من ذلك، وقد بتُ أعلم ذلك جيّداً. كان أُملي الوحيد - رغم المخاطرة الكبيرة - هو محاولة العودة إلى هادو.

جمعتُ ما أمكنتني حملة من طعام وماء. لم يكن لديّ شيءٌ آخر لأحزمه عدا ذلك وطفليّ. لم أودّع أحداً. انسللتُ حافية القدمين عبر القرية تحت جناح الظلام وفي أكثر أوقات الليل حلكةً. كان الطعام والماء مربوطين إلى ظهري، وكيونغ-سو مقيّداً إلى صدري، فيما أمسكتُ بيد مين-لي. حشوتُ فيها بعض القش وربطته بخرقه كي لا تصدر أصواتاً إلى أن نخرج من القرية بأمان. مشينا طوال الليل، متجنّبين مخيّمات اللاجئين بروائحها الكريهة والبكاء المثير للشفقة الصادر منها. نمنا خلال النهار، متكويّمين معاً في ظلّ جدارٍ صخري يحيط بحقلٍ مهجور. استأنفنا المسير بمجرد حلول الظلام، وحرصنا على البقاء بعيدين عن الطريق الترابية الرئيسية في الجزيرة، والتزمنا خطّ الساحل، وتجنّبنا أيّ شيءٍ ينذر بتجمّع بشريّ - منازل، مصاييح زيت، أو نيرانٌ مكشوفة. لفّ الألم جسديّ بكامله. غفا كيونغ-سو على صدري، لكنني كنتُ الآن أحمل مين-لي على خصري إضافةً إلى عبء الحمولة التي على ظهري.

فقط إذ شعرتُ أنّي لستُ قادرةً على أن أخطو خطوةً أخرى،

ظهرت الحدود الخارجية لهادو. فجأةً، بدأت قدماي تطيران فوق الحجارة. كنتُ أتوق للعثور على والدي وأخي، لكن كان من واجبي أن أذهب مباشرةً إلى منزل حماتي. اندفعتُ إلى الفناء بين البيت الصغير والبيت الكبير.

- «مَن هناك؟»، قال صوتٌ مرتعش.

لقد عشتُ ومررتُ بالكثير، لكن لم يخطر ببالي قط أن دو-سانغ، وهي إحدى أقوى النساء اللاتي عرفتَهنَّ على الإطلاق، يمكن أن تتسربل بالخوف هكذا.

- «أنا يونغ-سوك»، همستُ في العتمة.

فُتح الباب الأمامي ببطء. خرجتُ يداً وسحبتهنَّي إلى الداخل. كنتُ مضطربة مع غياب ضوء النجوم المتلألئة، وكنتُ أنتظر أن تتكيف عيناى. ظلَّت كفُّ دو-سانغ الخشنة ممسكةً بمعصمى. «جون-بو؟ يو-ري؟».

عجزتُ عن لفظ الكلمات، لكن صمتى كان بمثابة جوابٍ كافٍ لحماتى. اختنقتُ بالعبرات، وشعرتُ بها في الظلمة تقاوم اندفاع جسدها للانهيـار من شدّة الكرب. مدّت يدها، ولمستُ وجهى، ثمَّ أخذتُ تمرّر كلتا يديها على جسدى قبل أن تتلمّس مين-لى، وتبدأ بمداعبة شعرها، ورجليها الصغيرتين القويّتين، وتعاين حجمها. ثمَّ شعرتُ بالطفل على صدري. وحين لم تعثر يداها على صبيّ صغير، عرفتُ أنني فقدتُ ابناً أيضاً. وقفنا معاً على هذا النحو؛ امرأتان ترزحان تحت وطأة حزنٍ لا تُسبر أغواره، والدموع تنهمر فوق وجهينا، خائفَتين من إصدار أيّ صوت خشية أن يسمعنا أحد.

كنّا نتحرّك مثل زوج من الأشباح رغم إغلاق الباب والجدار الجانبى الخاصّ بالتهوية. فرشتُ دو-سانغ حصيرة نوم. وضعتُ مين-لى عليها أولاً، ثمَّ فككتُ كيونغ-سو عن صدري. عندها دخل

الهواء البارد عبر سترتي وسروالي الغارقين في بول طفلي الرضيع .
نزعتُ لي دو-سانغ ملابسي كما لو كنتُ طفلةً صغيرة ، ومسحتُ ثديي
وبطني بقطعة قماشٍ مبلّلة . توقفتُ يدها أسفل بطني ، حيث كان طفل
جون-بو قد بدأ يعلن عن وجوده للتوّ . ما من كلمات يمكن أن تصف
الحزن والأمل اللذين طافا بيني وبين حماتي في تلك اللحظة .
همستُ لي وهي لا تزال تتلمّس طريقها في العتمة كي تضع قميصاً
فوق رأسي وتسحبه نزولاً فوق جسدي : «سيكون لدينا الوقت
للتحدّث لاحقاً» .

نمتُ لساعات . كنتُ واعيةً لما يحدث حولي مع بزوغ الفجر .
وقع أقدام تدخل المنزل وتخرج منه . حماتي تسحب مين-لي من
قربي لأخذها إلى المرحاض أو ربما لجلب الماء والحطب .
كيونغ-سو يزعم مرّةً أو اثنتين ، ولكوني واعية بما يكفي ، شعرتُ
بيدين ترفعانه عن حصيرة النوم وتحملانه بعيداً حتى لا أشعر بالذعر
أو أستيقظ . سمعتُ أصواتاً ذكوريةً منخفضة ويشوبها القلق ، وعرفتُ
أنّها تعود لكلٍّ من أبي وأخي .

عندما فتحتُ عينيّ بعد ذلك بساعات ، رأيتُ دو-سانغ تجلس
القرفصاء على بعد مترٍ منّي تقريباً . كان كيونغ-سو يحبو حولنا
ويستكشف المكان ، ومين-لي تضع أزواجاً من عيدان الطعام على
أطراف الأطباق الموضوعة على الأرض . كانت الغرفة تعبق برائحة
الدخن المطهوّ على البخار والكيّمشي المخمّر جيّداً .

- «أنتِ استيقظتِ!» . سمعتُ في صوت ابنتي الخوف من أن
أتركها أو أتخلّى عنها . ساعدتني الطفلة المسكينة على الجلوس
وناولتني أحد الأطباق . كانت رائحة الطعام لذيذة - تمنح إحساساً
بالبית والأمان - لكنّ معدتي كانت تتخبّط وتتلوّى .

- «بعد انفجار هيروشيما» ، قالت حماتي بصورةٍ تلقائية ، «لم

أستطع تقبّل ما حدث. لم يأت نرزي الشهري لستّة أشهر، لكنّ زوجي لم يكن قد أنعم عليّ بحياةٍ أخرى كي أتي بها إلى هذا العالم. في النهاية كان عليّ أن أقرّ بأنّه مات وحيداً، بدوني وبدون أيّ فردٍ من عائلته ليعتني به. أسوأ جزءٍ كان السؤال الملحّ حول ما إذا كان قد مات على الفور أم ظلّ يتعذب لفترة قبل أن يموت. كحالك الآن، لم أقدر أن أكل. لم أقدر أن أنام —».

- «أشكرك لقلقك عليّ».

ابتسمت لي دو-سانغ بحزن. «اسقط ثماني مرّات، وانهض تسعاً. بالنسبة لي، فإنّ هذا المثل ليس عن الموتى الذين يمهّدون الدرب للأجيال القادمة بقدر ما هو عنّا نحن نساء جيّجو. نحن نعاني ونعاني، لكننا نواصل النهوض أيضاً. نواصل العيش. لَمّا كنتِ هنا الآن لو لم تكوني شجاعة. الآن ينبغي بك أن تكوني أكثر شجاعة حتّى».

تلك كانت طريقتها في إخباري أنّه ورغم عدم حدوث شيءٍ في هادو حتّى الآن، إلّا أنّ الرعب قد ينتشر أيضاً هنا في أيّة لحظة، سواءً بسبب المتمرّدين أو الجيش أو الشرطة.

أكملت حماتي بنبرةٍ رقيقة. «يونغ-سوك، عليك أن تمضي قدماً. يجب أن تأكلي. ينبغي بك أن تساعدني الطفل بداخلك على النمو. يجب أن تعيشي وتصيبي النجاح. عليك فعل هذه الأشياء من أجل أطفالك». تردّدت لحظة، ثمّ قالت: «كما يجدر بك أن تستعدي على نحوٍ جيّد كي تكوني الرئيسة القادمة للجماعة».

كان ثمّة وقتٌ حيث كنتُ لأرغب بهذا أكثر من أيّ شيءٍ آخر. أمّا الآن، لم تتلاشَ رغبتني فحسب، بل بدت الفكرة مستحيلةً أيضاً. «رئيسة الجماعة؟ حتّى لو سُمح لنا بالغوص مجدّداً، فلن أستطيع القيام بذلك، لستُ قويّة بما يكفي».

- «إذا انقطع الخيط أثناء العمل، فلا يزال هناك الحبل. حين تبلى المجاذيف، فلا تزال هناك الشجرة»، ردّدت دو-سانغ القول المأثور. «أنتِ تشعرين بأنّه ليس بوسعك المضيّ قدماً، لكنّك ستمضين». انتظرتُ منّي استجابةً. حين لم تأتِ، أكملتُ قائلة: «ألم تتساءلي يوماً عن السبب الحقيقي الذي جعلني أسمح لك بالذهاب للعمل في البحر بعيداً عن الديار بينما كنتِ قد تزوّجتِ ابني لتوك؟ كنتُ أريد أن أسرّع عملية تدريبك كي تصبحي رئيسة. ماذا لو أصابني شيءٌ ما؟».

لكنّ هذا كان يناقض كلّ ما كنتُ أوّمن به حيالها. «اعتقدتُ أنّك تلوميني —».

- «كنتُ ذات يوم أرغب في أن تصبح يو-ري رئيسة —»، قاطعتني دو-سانغ، «لكنّ كلّنا نعرف أنّها لم تكن تملك البصيرة اللازمة...». كان من الصعب عليها التحدّث عمّا حصل حتّى بعد كل هذه السنوات. «لقد أظهرتِ الشجاعة، رغم أنّ ذلك كان أوّل غوصٍ لك. أن تصبحي رئيسة جماعة هينيو هو ما كانت والدتك تخطّط له من أجلك أيضاً. كانت أمّاً جيّدةً لك، وكانت تثق بك. لقد كنتِ أمّاً جيّدة لأطفالك، لكن عليك الآن أن تكوني أمّاً أفضل وأقوى. الأطفال هم الأمل والفرح. ستكونين أمّاً على اليابسة. وفي البحر، يمكنك أن تكوني أرملةً مكلومة. ستُضاف دموعك إلى محيطاتٍ من الدموع المالحة التي تندفع في أمواج عاتية على امتداد كوكبنا. هذا ما أعرفه؛ إذا حاولتِ العيش، فيمكنك أن تعيشي وتردهري».

كنتُ أعتقد أنّ الحمّوات شديداً وصعبات الإرضاء في كلّ مكان من هذا العالم، لكنني أدركتُ في ذلك اليوم أنّهنّ ببساطة عصيّات على الفهم: دوافعهنّ. الأشياء التي يقلّنها. ومن يخترن

لأبنائهنّ وبناتهنّ من أجل الزواج. وقرارهنّ في مشاركتك طريقتهنّ في صنع الكيمتشي من عدمها. لكن كان ثمة شيء واحد واضح: مع كلّ الخسارات التي تكبّدها دو-سانغ، والتي كانت بحجم خساراتي على أقلّ تقدير، بل ربّما أسوأ بكثير إذ لم يبق لديها ابنٌ ليعتني بها حين تذهب إلى العالم الآخر، رغم كلّ ذلك فقد استمرّت في العيش. مجدّداً، ووجهتُ بأكثر الحقائق بساطة وأساسية، تلك التي تعلّمْتُها حين ماتت والدتي: عندما تحلُّ النهاية، يكون الأمر مقضياً. المسألة واضحة وبسيطة. ما من عودةٍ لعقارب الساعة إلى الوراء، وما من طريقةٍ للتعويض، وما من طريقة بأيّ حال من الأحوال لنقول وداعاً. لكنني تذكّرتُ أيضاً كيف قالت جدّتي: «الآباء حاضرون في الأبناء». كان جون-بو يعيش في طفلنا الذي لم يولد بعد، كان حاضراً في أطفالنا جميعهم. كان ينبغي بي أن أعمل بنصيحة حماتي، وأن أستمّد القوّة من كلّ الأشياء التي تعلّمْتُها، حتّى لو كان ذلك من أجل حماية تلك المضغة الدقيقة من زوجي التي أحملها في بطني. سوف أعيش لأنّه لا يمكنني أن أموت.

بحلول شهر يوليو، البحار والريح والهواء سخنتُ وسكنتُ. كان حملي الآن غير مشكوك فيه. خلال ستّة أشهر من الحمل، انتفخ بطني على نحوٍ أكبر من سوابق حملي كلّها، وذلك رغم أنّي كنتُ أكل أقلّ بكثير. وكلُّ شيءٍ أصبْتُ حظّاً بأن أضعه في فمي كان يعود أدراجه صعوداً في الحال. فالتقيؤ الذي كان يُفترض أن أعاني منه في الأشهر الأولى، جاء بكامل قوّته في الأشهر الأخيرة ولم يتوقّف. شعرتُ وكأنّني في بحارٍ متلاطمة لكنني لا أستطيع النزول من المركب. تقيأتُ في المرحاض حيث تقاتلت الخنازير في الأسفل

على ما يسقط من فمي. تقيأت في أزقة الأولي بينما كنتُ أحضر الماء أو أجمع الروث من أجل النار. تقيأت خارج منازل جيراننا وبداخلها. كلّ هذا وبطني ما انفكتُ تكبر وتكبر.

- «ربّما لأنّك لا تستطيعين الذهاب إلى البحر»، تكهّنتُ حماتي. كان ذلك صحيحاً، إذ كان من الصعب عليّ أن أتسلّل ليلاً، وأسرع عبر الصخور، ناهيك عن حمل شبكةٍ ثقيلة على ظهري، وهو ما عني أنّني لم أحظّ ببرودة المياه المنعشة، ولا بمتعة الطفو، ولا بالهدوء.

كان أبي وأخي يضحكان كلّما رأياني، وحاووا رفع معنوياتي عبر ممازحتي ومضايقتي بلطف. قدّم جيراننا بعض العلاجات المنزلية لتخفيف انزعاجي. قالت كانغ غو-جا إنّه يجدر بي أكل المزيد من الكيمتشي؛ وقالت كانغ غو-سُن إنّني يجب أن أتجنّب الكيمتشي. قالت إحداهنّ إنّه ينبغي بي النوم على جانبي الأيسر؛ قالت أخرى إنّني يجب أن أنام على جانبي الأيمن. جرّبتُ جميع الاقتراحات باستثناء واحد.

- «تحتاجين للزواج مجدّداً»، قالت غو-سُن. «تحتاجين رجلاً ليحرّك القدر».

- «لكن من قد يرغب في الزواج بي وتحريك قدري الممتلئ بطفل رجل آخر؟»، سألتها متماشيةً مع الفكرة رغم أنّني ما كنتُ لأنفّذها أبداً.

- «يمكنك أن تصبحي زوجةً صغيرة —».

- «أبداً!». جيجو، التي لم يكن لديها يوماً ما يكفي من الرجال، بات ما تملكه منهم الآن أقل بكثير. كان من الطبيعي أن يكون هناك الكثير من النساء - أرامل مع أطفالهنّ، خاصّة من منطقة الجبل الأوسط - الذين يحتاجون رجلاً ليمنحهم الأمان، لكن ليس

أنا. «أنا هينيو. يمكنني أن أعطني بنفسني وبأولادي. سوف يأتي وقت حيث سأتمكن من الغوص مجدداً».

علاوة على كل ذلك، فقد كنتُ أحبُّ جون-بو. لم يكن شيئاً يمكن استبداله مثل أداة غوصٍ مكسورة. لا، لا يمكنني أن أصبح زوجةً أو زوجةً صغيرةً أبداً.

كانت لديّ نظريةً مختلفة على أية حال عن سبب حجمي الكبير جداً. لقد استطالت عضلاتي التي لطالما كانت قويةً ومشدودةً جداً؛ استطالت بما يتجاوز الحد الطبيعي جرّاء ما مررتُ به وما كان لا يزال يحدث من حولي. أحرقت عشرات القرى منذ بداية العام، وقُتل المزيد من السكّان الذين كانت غالبيتهم الساحقة من الأبرياء. شعرتُ وكأنني أحملهم جميعاً بداخلي. صنعتُ مع حماتي شواهد روحيةً ليو-ري، وجون-بو، وسونغ-سو، وكنا ننحني أمامها كلَّ يوم ونقدّم القرايين، لكن لا شيء خفّف انزعاجي وهذاّ حالتي المضطربة. آلمني ظهري ورجلي طوال الوقت. تَوَرَّمْتُ قدماي وكاحلي ووجهي وأصابعي. لم أتمكن من الشعور بالراحة فوق حصيرة النوم. كان النهوض عن الأرض والنزول عليها مشقّة ما بعدها مشقّة. اشتكتُ مين-لي من أنّني لم أعد أحملها. شعرتُ بالرطوبة والتعرّق في كلّ ثنيةٍ من ثنایا بشرتي. جفّت دموعي في العموم، لكن كانت هناك أوقات حيث كنتُ لا أزال أفكّر في الموت. كان يمكنني أن أسبح ليلاً عبر المسار الذي تحدّده ظلال القمر حتّى لا تعود لديّ القوّة للعودة إلى الشاطئ. كان يمكنني شرب السمّ، أو رمي نفسي في البئر، أو فتحُ شرايين معصمي بسكّين الغوص. أردتُ بشدّة أن أجد السلام.

في أغسطس، تغيّر الطقس مع هبوب الرياح على بحر الصين الشرقي واندفاعها دون عوائق عبر المياه حتّى ضربت جيّجو، لتخبّرنا

أَنَّ ثَمَّةَ إعصاراً قادم. قطعتُ دو-سانغ وعداً بأننا سنكون بأمان. قالت إنَّ جدَّ زوجها الأكبر كان قد بنى هذين المنزلين وقد صمدا في وجه كلِّ إعصار مرَّ على الجزيرة. كنتُ مع ذلك خائفة، وأتوق للانتقال أعمق في اليابسة إلى منزل عائلي. لم يكن الإعصار الذي ضربنا أسوأ ما كنّا قد شهدناه من أعاصير، لكننا كنّا ضعيفين جدّاً على المستوى الذهنيّ والجسديّ لدرجة أنَّ الأثر كان تماماً مثل ضربة وحشية تضاف إلى سابقتها. ضربت الرياح العاتية الجزيرة، وتفجّرت أمواجٌ عملاقة عند الشاطئ وصولاً إلى داخل البيوت. جاء المطر العنيف أفقيّاً بفعل قوّة الرياح. تهشّمت القوارب على الصخور. تلك العائلات القليلة التي كان لديها محاصيل، رأوها تغرق أو تُجرَف بعيداً. عندما هدأ المطر، واستقرّت البحار المتلاطمة، وظهرت الشمس، رأيتُ أنَّ دو-سانغ كانت محقّة. خسر الكثيرون منازلهم أو اقتلعت أسقفها في أحسن الأحوال، وانهار أحد جدران البولتيوك، لكننا لم نصب بأذى. ساعدتُ جيراني في جمع أحجار الجدران المتساقطة وقطع القش من أجل أسقفهم. عملتُ كل أعضاء الجماعة معاً لإعادة بناء البولتيوك خاصتنا، ومرافق الاستحمام، والجدار الحجري الذي يشكّل بركة المياه الضحلة التي كنّا نستعملها لاصطياد أسماك الأنشوفة.

في سبتمبر، أصبنا بنكسةٍ أخرى، إذ دخل المتمردون إلى هادو وأحرقوا المدرسة الابتدائية. من حسن الحظّ أنَّ ذلك حدث في الليل ولم يكن هناك أطفالٌ في المدرسة. في بداية أكتوبر، اشتعلت سفوح الجدّة سيولمونداي، لكن ليس جرّاء حرق قريةٍ أخرى، بل بسبب الألوان النارية الخاصة بهذا الفصل. كان هذا بمثابة تذكيرٍ لنا أنَّ أيّاً ما كان يحدث بين البشر فسوف يمرُّ وينتهي، وسوف تدوم الطبيعة بجمالها ودوراتها. كان الناس في هادو لا يزالون يعملون بجدّ،

ويرون إن كان هناك أي شيء يمكنهم زراعته لأشهر الشتاء، ويصلحون الشباك وأدوات البحر الأخرى على أمل أن يُسمح للهينيوي بالعودة إلى الماء في وقتٍ ما. لم يكن هذا عرضاً للإيجابية والتفاؤل. كنّا نحاول البقاء على قيد الحياة فحسب.

ثمَّ جاء يومٌ حيث لاحظتُ أنَّ دو-سانغ تنزع للهدوء على نحوٍ غير عاديٍّ. لا مزاح. لا أوامر. لا شيء. قلتُ لنفسِي إنَّها لم تعد معتادةً على وجود أطفال صغارٍ في حياتها، وإنَّ ضحكاتهم وبكاءهم ومزاجهم الصعب كانت بمثابة تذكيرٍ فجائعيٍّ بالابن والابنة اللذين فقدتهما. كان أبي وأخي يأتيان لمساعدتي في رعاية الطفلين، لكن بدلاً من اصطحابهما إلى شجرة القرية، كما كان الرجال يفعلون في السابق، فقد لعبا معهما في الفناء. قالَا إنَّهما يريدان أن تكون العائلة مجتمعة في حال وصول الفوج التاسع. عندما كان أبي، أخي، أو دو-سانغ يعرضون أن يقوموا بإحضار الماء من البئر، كنتُ أوافق في الحال. ما الذي يمكن لامرأة حبلَى ضخمةٍ جداً - والتي تتمتع برشاقة حوتٍ جانح - أن تفعل لحماية نفسها إذا قرَّر العسكر أو المتمرّدون اغتصابها أو قتلها؟ لأوّل مرّةٍ في حياتي تركتُ للآخرين أن يعتنوا بي. ثمَّ ذات يوم، أصبح كلُّ شيءٍ جلياً.

كنتُ في شهري التاسع، وكنتُ وحدي في المنزل. ذهبت حماتي إلى سوق الأيام الخمسة في سيهوا لترى ماذا يمكنها أن تشتري من أساسيات. وأخذ أبي وأخي الطفلين إلى منزل عائلتي القديم كي يتسنّى لي أخذ قيلولة. لكن حالما غادروا وخيّم السكون على المنزل، أخذ عقلي يتخبّط بالصور والذكريات. قمْتُ بكنس الفناء في محاولةٍ لإلهاء نفسي. ثمَّ قرّرتُ أن أغسل ثياب الأطفال وأتركها لتجفّ في الشمس. جمعتُ الملابس وربطتها بقطعة قماش، أخذتُ الدلو، ولوح الغسيل، والصابون، وشققتُ طريقي بحذر عبر

الصخور إلى منطقة المياه الضحلة المحاطة بالصخور حيث كنا نستطيع غسل ثيابنا وأجسادنا دون أن يرانا أحد. كان الدخول إلى هناك أشبه بالدخول إلى البولتيوك: لم أكن أعرف مطلقاً مَنْ قد يكون هناك، لكنني كنتُ أتطلع للثرثرة وسماع القيل والقال. هذه المرة، كانت هناك امرأة وحيدة تجلس عارية في الماء، وتدندن لنفسها. تعرّفتُ إليها من انشاء عمودها الفقريّ. تقلّصت أحشائي ملتفةً حول طفلي كأنني أحاول حمايته.

- «مي-جا».

تبيّس ظهرها لدى سماع صوتي. ثمّ أمالت رأسها على جانبه ببطء لتنظر إليّ بطرف عينها.

- «أنتِ ضخمةٌ بالفعل كما يقول الجميع».

حقاً! هذا ما تبادر إلى ذهنها لتقوله لي؟

- «ما الذي تفعلينه هنا؟»، قلتُ بصوتٍ مختنق.

- «أنا أعيش مع ابني هنا الآن»، ثمّ أضافت بعد لحظة صمتٍ

طويلة: «في منزل عمّي وعمّتي. الإعصار دَمّر منزلنا في هامديوك ومنزل أهل زوجي في مدينة جيجو. لقد ذهب زوجي إلى البرّ الرئيسي. هو يعمل في الحكومة. أنا —».

ضربتني موجة تقلّصات ثانية بضراوة جعلتني أنحني للأمام ممسكةً ببطني. أسقطتُ الدلو والأشياء الأخرى التي أحضرتها معي وحاولت تثبيت نفسي عبر الاستناد إلى الجدار الصخري.

- «هل أنتِ على ما يرام؟»، سألتُ مي-جا. «هل يمكنني

مساعتك؟».

نهضتُ وبدأتُ تخرج من الماء. انساب الماء نزولاً عن ثدييها وساقها، وماج جلدها بفعل القشعريرة. إذ مدّت يدها لتلتقط ملابسها، استدرتُ وخرجتُ من هناك. تقلّصُ آخر. انحنيتُ أكثر،

وبالكاد استطعتُ أن أمشي. رأيتُ دو-سانغ من بعيد تقف خارج المنزل، وتمسح الشاطئ بعينيها. حين رأيتني، أفلتت حقائب التسوق من يديها، وهرعتُ إليَّ بسرعة مثل سلطعون فوق الصخور. لفتُ ذراعها حول جذعي وأسرعتُ بي إلى المنزل. لم تلحق مي-جا بنا، لكنني كنتُ أبكي غضباً، وحزناً، وألماً.

- «كيف يمكن أن تكون هنا؟».

- «يقولون إنَّ منزل زوجها دمره الإعصار»، أجابت دو-سانغ مؤكّدة ما أخبرتني به مي-جا للتوّ.

- «لكن ثمة أماكن أخرى يمكنها أن تذهب إليها».

- «هادو هي مسقط رأسها، كما أنَّ زوجها —».

- «أرسل إلى البرّ الرئيسي»، تنهّدت وأنا أكمل جملتها. «لَمْ لم تخبريني بأنّها هنا؟».

- «أنا ووالدك وشقيقك اعتقدنا أنّه من الأفضل ألا تعرفي. لقد أردنا أن نحملك».

- «لكن كيف يمكن أن تكون هنا؟ كيف يمكن لأيّ أحد أن يسمح لها بالعيش هنا بعد ما فعلته؟».

زمتُ دو-سانغ شفّتيها في خطّ رفيع كالح. كان هذا مؤلماً بالنسبة لها أيضاً.

تقلّص آخر. كنتُ واثقة أنَّ الطفل سينزلق خارجاً بسهولة، فأنا لم أواجه مشاكل في الولادة سابقاً. كنتُ مخطئة. كان هذا الطفل صعباً في كلّ شيء منذ اللحظة التي علمتُ فيها بوجوده. هل كان لا يريد الخروج؟ أم أنّني لم أرد له أن يخرج؟ كلّ ما أعرفه أنّ الأمر استغرق من الطفل ثلاثة أيّام كي يشقّ طريقه إلى العالم. تقيّأت طوال الوقت. بكيت. صرخت. فكّرتُ في كلّ ما خسرتُه. شعرتُ بالكراهية تجاه مي-جا وبالحبّ تجاه طفلي. شعرتُ بالفقد تجاه

جون-بو، وابني، ويو-ري حتّى وأنا آتي بحياة جديدة إلى هذا العالم. أخيراً، سحبْتُ دو-سانغ الطفل من بين ساقَيَّ ورفعتهُ لي كي أراه. كانت فتاة؛ سمّيتها جون-لي.

ردّدت دو-سانغ الكلمات التقليدية. «حين تولد فتاة، فشمّة حفلة»، لكنني كنت منهكة، وجسدي يؤلمني، ولم أقدر أن أتوقف عن البكاء. جون-لي المتعبّة من رحلتها التي استغرقت ثلاثة أيّام كانت نعسانة جدّاً بحيث لم تتمكّن من التقاط صدري. حككتُ أسفل قدميها بأظافري. رمشتُ بعينيها ثمّ أغلقتُهما مجدّداً.

أت مي-جا إلى المنزل عدّة مرّات، جالبةً معها الهدايا للطفلة، أكياسٌ من الشاي، أكياسٌ من الليمون اليوسفي - وأشياء مسرفة كهذه. اعتمدتُ على دو-سانغ، وأبي، وأخي في صرفها من المنزل: - «يونغ-سوك نائمة».

- «يونغ-سوك تُرضع الطفلة».

- «يونغ-سوك ليست هنا».

بعض هذه الأعذار كانت حقيقية، وبعضها الآخر لم يكن كذلك. كان صوتها يتغلغل من خلال الشقوق في الجدران حين أكون في المنزل:

- «أخبروا يونغ-سوك أنّي أفتقدها».

- «أخبروها أنّي أتوق لحمل طفلتها».

- «أخبروها أنّي سعيدة لأنّ نعمة كهذه جاءت من رحم مأساة عظيمة كتلك».

- «أخبروها أنّي سأكون صديقتها للأبد».

كنتُ في بعض الأحيان أختلس النظر خارجاً لأراقبها وهي تمشي مبتعدة. لقد عادت إلى هادو مع عرجة لم أنتبه لها في حوض الاستحمام ذلك اليوم. سمعتُ أناساً يتكهّنون كيف حصلتُ عليها، وكم كانت مؤسفة خسارتها لمشيّتها الجميلة. لم أهتمّ. قلتُ لنفسي إنّ أياً ما كان قد حدث لها فهي تستحقّه على الأرجح. من ناحية أخرى، فقد تدبّرتُ أن أتجنّبها. كانت تذهب إلى البئر باكراً؛ وكانت دو-سانغ تأخذ مين-لي لجلب الماء لأنّه كان لديّ رضيع يجب أن أعني به. مثل كلّ الفتيات الصغيرات، ركضت مين-لي في أرجاء القرية كي تنجز لي بعض المأموريّات، كما بدأت في الاعتناء بأخويها الأصغر. «هكذا تتعلّمين أن تكوني زوجةً، وأمّاً، وفوق كلّ شيء امرأةً مستقلّة»، قلتُ لها. «أنت بحاجة إلى الثقة واحترام الذات كي تتولّي زمام أسرتك ذات يوم». لكنّ وجود مين-لي خارجاً للقيام ببعض المهام كان أيضاً وسيلتي لتجنّب مي-جا.

في الليل، كنتُ ودو-سانغ نذهب بعد أن تنام الرضيعة إلى البولتيوك للتحدّث عن المسؤوليات التي تنتظرني. «سوف تجلسين حيث أنا الآن»، قالت لي. «يجب أن تصغي جيّداً. أنتِ تعرفين كم نشيد بالشامانة كيم لحساسية عينيها وقدرتها على قراءة المزاج الجمعيّ. هذه هي الخصائص التي تحتاجين إلى تنميتها في نفسك». جعلتني أحفظ مواسم التكاثر لمختلف الكائنات البحرية. علّمتني طرقاً جديدة لربط العُقد، وشدّدت على أهمية الحفاظ على البولتيوك منظّماً ونظيفاً. «لا تحتاج الهينيو إلى الفوضى من حولها. كثيرٌ من الفوضى والضوضاء في العالم الجاف لهما القدرة على تشويش العقل في الوقت الذي يحتاج أن يكون صافياً ومنتبهاً في العالم الرطب». كنتُ قد تشربْتُ بالفعل الكثير من هذه الأشياء دون أن أعرف، لكنّ زرعها في رأسي بشكلٍ مباشر أعطها سبباً ومعنى. بمرور

الوقت، انتقلت دو-سانغ إلى النصائح الخاصة بكيفية تسوية الخلافات، وتهدة الغيرة والحسد الطبيعيين اللذين يظهران حين تكون بعض الغواصات أفضل من غيرهنّ، بالإضافة إلى كيفية البقاء متنبّهة للمخاطر التي قد تؤثر على المجموعة.

- «عليك تتبّع دورة الدم لكل امرأة في الجماعة. أحياناً تنسى المرأة أنّ وقتها يقترب، لذا يمكنك أن تهمني لها بتذكير. إنّ مياهانا المحليّة آمنة في العموم، لكن يمكن لأسماك القرش أن تشتم رائحة الدم من مسافة بعيدة جداً. تستطيع الجماعة أن تتعارك مع سمكة قرش واحدة. لكنّ سرباً من أسماك القرش...». هزت رأسها. ثمّ أكملت قائلة: «أحد أصعب الواجبات التي ستضطلعين بها هو إبلاغ امرأة بلغت الخامسة والخمسين أنّ الوقت حان كي تعود إلى أبنائها وأحفادها». عندما أشرت أنّها تقترب من ذلك العمر، قالت: «بالضبط».

أخيراً، رُفع الحظر الذي كان مفروضاً على الغوص، فعدت مع دو-سانغ إلى البولتيوك، وجاء أبي وأخي لرعاية الأطفال في المنزل. غاصت مي-جا مع الجماعة الخاصة بالقسم الذي تعيش فيه من هادو، وهي الجماعة التي كانت ستنضم إليها لو لم تضمها والدتي إلى جماعتنا. كان هناك الكثير من الغلّ والضعينة في كلّ مكان من حولنا لدرجة أنّه لم يكن من المفاجئ أن يكون للجيوب المختلفة في هادو انحيازاتها واصطفافاتها الخاصة. وقف معي أهالي غول-دونغ، وهو القسم الذي أعيش فيه من هادو؛ بينما كان الناس في سوت-دونغ، حيث اعتنّت عمّة مي-جا وعمّها بها، يشعرون الآن بالأسف عليها. كان هذا بعد كلّ السنوات التي نظروا إليها كابنة عميل يابانيّ. لكنّ هذا كان حال تلك الأيام، حيث باتت القرى تعاني من انقسامات حادة - حالها كحال العائلات والأصدقاء، ولم

يعد بإمكانك الوثوق بأحد. أصبحت مناطق الصيد التي لطالما كانت محدّدة ومخصّصة على نحوٍ متفقٍ عليه، أصبحت تحت حراسة مشدّدة من قبل نساء الجماعتين. أصبح البحر مكاناً للصراع على مناطق النفوذ، والضغائن القديمة، والمرارة الدائمة. أصبح المنزل ملاذّي الآمن، المكان الذي استطعتُ أن أغلق الباب على المشاكل، وأركّز فيه على حبّ أطفالي.

مرّت سنة، وحلّت الذكرى السنوية الأولى لمجزرة بوكتشون. كان كيونغ-سو الذي لم يبلغ من العمر عامين ونصف أصغر من أن يقيم شعائر تبجيل الأسلاف لوالده وعمّته وشقيقه، لكنّ جدّه وخاله كانا حاضرين لمساعدته. طهوتُ مع دو-سانغ لعدّة أيّام، ثمّ ابتعدنا كي يتمكّن الرجال من أداء طقوسهم. قام والدي بتوجيه ولدي خلال المراسم، فوضعا القرابين معاً أمام الشواهد الروحية التي تمثّل جون-بو، ويو-ري، وسونغ-سو. قدّم الجيران تعازيهم مع الكثير من البكاء.

في طقوسٍ منفصلة، ذهبَت النساء من عائلتي وجماعة الغوص إلى الحقل الذي دُفنت فيه والدتي، نظراً لعدم وجود قبورٍ للآخرين الذين فقدتهم. رقصَت الشامانة كيم بشرّاباتها. لكُم تمنيتُ أن تصلني من الأموات رسائل تهدّئ قلبي، لكنّ جون-بو، ويو-ري، وسونغ-سو ظلّوا جميعاً صامتين. خاب أُملي بشدّة. نهضتُ عن ركبتيّ إذ انتهت المراسم، واستدرتُ لأواجه جيرانِي، فرأيتُ مي-جا تقف عند مدخل الحقل. اعتراني غضبٌ شديد جعل الدم يصعد إلى وجهي، وتسبّب في ضيق أنفاسي. شككتُ أنّ وجودها كان السبب في عدم إرسال أحبائي أيّ رسائل إليّ. مشيتُ مسرعةً نحوها مباشرةً.

- «أنتِ لم تسمحي لي بزيارتك»، قالت مي-جا وأنا أقترّب منها. «لم تعطني آيةً فرصة للشرح».
- «ما من شيءٍ لشرحه. لقد مات زوجي. وماتت أخت زوجي. ومات ابني البكر».
- «لقد كنتُ هناك. رأيتُ ذلك». هزّت رأسها كما لو كانت تحاول طرد الذكريات.
- «وأنا كذلك الأمر. قلتُ لي إنّه يتعيّن عليكِ حماية عائلتكِ! رفضتِ حتّى أخذ أطفالي!».
- خرجتُ شهقاتٍ مكتومة من حولنا. استحالَت مي-جا حمراء اللون، لم أعرف إن كان ذلك بفعل الغضب أو الإذلال. ثمّ تصلّب جسدها، وبردت عيناها.
- «كلُّ أسرة على هذه الجزيرة عانت وتألّمت. أنتِ لستِ الضحيّة الوحيدة».
- «كنتِ صديقتي. كنتِ ذات يوم أقرب من أخت».
- «بأيّ حقّ تهمينني بعدم إنقاذ عائلتكِ؟ أنا فقط امرأة —».
- «وهينيو أيضاً. كان يمكنكِ أن تكوني قويّة. كان يمكنكِ —».
- «أنا أسألكِ مجدّداً. من أنتِ لتدينيني؟ انظري إلى أفعالكِ أولاً. لماذا لم تمنعي يو-ري من القيام بتلك الغطسة —».
- ترنّحتُ متراجعةً من هول الصدمة. هذه المرأة، التي لطالما أحببتها، والتي دمرّت عائلتي سواءً بأفعالها أو بتقاعسها عن الفعل، كانت الآن تستخدم ضديّ سرّاً كنتُ قد ائتمنتُها عليه. ولم تكتفِ بذلك القدر.
- «وماذا عن موت والدتكِ؟ لقد كانت أفضل هينيو على الإطلاق. نزلتُ معكِ في الماء ولم تعد إلى السطح حيّة. إنّ تسرّعكِ

في الركل صعوداً جعل أذن البحر يطبق على رمح البيتشانغ . وقد اعترفت أنك لم تستخدمى سكينك بالبراعة اللازمة — .

تقدّمت دو-سانغ - التي اعتقدتْ لوقتٍ طويل أنها ترانى بصورةٍ معيبة بسبب كلّ الأشياء التي كنتُ متّهمةً بها الآن - إلى الأمام . إلى جانبيها كانت كلُّ من غو-جا وغو-سُن . شكّلن ثلاثياً يوحى بالقوّة والصلابة .

- «هذا يوم حِدَادٍ لعائلتنا» . كان لصوت دو-سانغ نبرة السُلطة التي تتمتع بها رئيسة الإهينيو . «من فضلك يا مي-جا ، اتركي عائلتنا وشأنها» .

ظلّت مي-جا ثابتةً في مكانها لبضع لحظاتٍ طويلة . عيناها فقط تحرّكتا ، وجالتا ببطء على الوجوه التي عرفتْها منذ الطفولة . ثمّ استدارت ، وخرجت وهي تعرج من الحقل لتختفي خلف الجدار الصخري . لم أتحدّث إليها مجدّداً لسنواتٍ عديدة .

عيونٌ كبيرة

1950

بعد خمسة أشهر، في 25 يونيو 1950، غزا الشمالُ الجنوبَ. أطلقنا على هذا حرب 6.25. سقطت سيول بعد ذلك بثلاثة أيام. في جيغو، أمرت الشرطة بتسليم جميع أجهزة الراديو. لم أرغب في إعطائهم هدية الزفاف التي اشتريتها لزوجي. فكَّرتُ في كلِّ الأماكن التي يمكنني إخفاؤه فيها. ربّما في مخزن الحبوب، أو في حظيرة الخنازير، أو في المرحاض. لكنني تخلّيتُ عن هذه الأفكار عندما رأيتُ أنّه لم يتمّ فقط ضبط أجهزة الراديو التي أخفاها الجيران بعثاية، بل أُلقي القبض على أصحابها، ولم يسمع أحدٌ شيئاً عنهم ثانية. سلّمتُ الراديو، وذهبتُ قطعةً أخرى من زوجي أدراج الرياح.

لم أكن أعرف ما الذي يحدث في أماكن أخرى من البلاد، لكننا استقبلنا هنا في جيغو أكثر من مئة ألف لاجئ من البرّ الرئيسي، إضافةً إلى عشرات آلاف اللاجئين الذين كانوا معنا من الجبال وما زالوا يعيشون في مخيمات على أطراف القرى. أصبح الطعام أكثر ندرة حتّى من ذي قبل. جثمّت قذارات البشر في كلِّ مكان. انتشرت الأمراض. اقتيد المزيد والمزيد إلى المعتقلات. اعتُقل جميع من اشتبه في كونهم شيوعيين - أو أنّهم حضروا يوماً اجتماعاً ذا صبغة يسارية - بالإضافة

إلى زوجاتهم، وإخوتهم، وأخواتهم، وآبائهم، وأجدادهم. قيل إنَّ هناك ما يزيد عن الألف شخص الآن رهن الاحتجاز في جيغو، كان بعضهم من هادو. هؤلاء أيضاً لم نرهم ثانية.

فُرِز أولئك الذين احتُجزوا منذ بداية حادثة 4.3 إلى مجموعات A, B, C, D بحسب تصوّرهم لخطورة المحتجزين. في 30 من أغسطس، صدرت التعليمات لشرطة جيغو بإعدام أفراد الفئتين C وD رمياً بالرصاص. الخبر السارّ الوحيد في كلّ ما كان يحدث من حولنا هو أنّ معظم أعضاء رابطة شباب الشمال الغربي انضمّوا إلى الجيش للقتال ضدّ نظام الشطر الشمالي.

ظللنا نحن الهينيو نجذّف، ونغثّي، ونغوص. عندما سُمح لنا بالعودة إلى البحر أوّل مرّة، كانت دو-سانغ قد جعلت من امرأة تدعى كيم يانغ-جين شريكة لي في الغوص؛ تزوّجت هذه الأخيرة بعد أن كانت أرملة، وهي تقطن في الجزء الخاص بنا من هادو. كانت في مثل سنّي. شعرها قصير. ومنحت ساقاها المقوّستان لمشيتهما نمطاً ظريفاً، لكنّهما لم تسبّيا لها مشكلة تحت الماء.

- «إذ أمخر عباب البحر، ترنو إلّي الآخرة وتبتعد»، رثمت دو-سانغ ونحن نشق طريقنا في المياه المفتوحة. «أنا آكل الريح بدلاً من الأررّ. أنا أتقبّل الأمواج كبيت لي».

- «قدّر سقيم، هو كلّ ما أملك. مثل شبح تحت الماء، يغوص عميقاً ثمّ يطلّ برأسه»، أجبتها غناءً.

- «ها قد ضربت موجة قويّة»، هتفت دو-سانغ. «فلتجاهلها ونواصل الغوص».

- «أزواجنا في الديار، يدخنون ويشربون، ولا يعرفون شيئاً عن معاناتنا. أطفالنا في الديار، سيكون مطالبين بنا، ولا يرون شيئاً من دموعنا».

بعيداً إلى اليمين منّا، رصدنا قارباً مليئاً بالهنيئو. كان علينا أولاً التأكد أنّهنّ لسن من سوت-دونغ، وأنّ مي-جا لم تكن بينهنّ. أمسكتُ العديد من النساء برماجهنّ أو سكاكينهنّ، وأبقينها متوارية عن الأنظار في حال اضطررنا للقتال من أجل منطقتنا. اقتربنا أكثر حالما رأينا أنّهن لسن من منافساتنا. لم أُميّز أيّاً من النساء على متن القارب. نظرتُ إلى حماتي، كانت مستعدة للمواجهة إذا كنّ صيادات غير شرعيات، لكنّها كانت أيضاً على استعداد لتبادل المعلومات إذا كنّ مسالمات.

رفعنا مجاذيفنا إذ اقتربنا منهنّ. تمايل القاريان وهما يعلوان ويهبطان مع الأمواج مقتربين من أحدهما الآخر، إلى أن أصبحنا قريباً لدرجة أنّنا استخدمنا المجاذيف لمنع القاريين من الاصطدام ببعضهما. تحدّثتُ رئيسة المجموعة الأخرى أولاً.

- «نعتذر إن كنّا نتعدّى على حقلكنّ الرطب. قرّرنا أن نجذّف بعيداً عن الديار لبضعة أيّام. لم نرد أن يتمّ تقفّي أثرنا وصولاً إلى عائلاتنا».

- «من أين أنتنّ؟»، سألتُ دو-سانغ.

- «نعيش إلى الشرق من مدينة جيجو، بالقرب من المطار».

لقد قطعنّ إذاً ما يزيد عن ثلاثين كيلومتراً للوصول إلى هنا. شيءٌ ما أو أحدٌ ما كان قد أخافهنّ لدرجة الابتعاد كثيراً ليس عن مناطق صيدهنّ فحسب، بل عن ديارهنّ أيضاً. كان واضحاً أن النساء على متن ذلك القارب - جميعهنّ قوَّيات بدنياً - قد تعرّضن لصدمة. ما كانت إحداهنّ لتنظر في عينيّ أيّ منّا.

- «ماذا حدث؟»، سألتُ دو-سانغ.

لم تجب الرئيسة الأخرى. الصوت يسافر بعيداً عبر المياه، كما

يمكن للريح أن تحمل الأصوات لمسافةٍ أبعد. مددتُ يدي وأمسكتُ بطرف مجذاف من القارب الآخر. والنساء اللواتي يمسكن بذاك المجذاف سحبنَ مجذافي. فعلت امرأتان أخريان نفس الشيء فأصبحنا قريبات بما يكفي لسماع أصوات أقرب للهمس، دون أن نكون قريبات لدرجة قد تسبّب الضرر لقاربينا. أصبح بمقدورنا الآن مشاركة المعلومات دون الخوف من وصولها إلى الآذان الخطأ على الشاطئ.

- «رأيناهم يلقون جثثاً في البحر»، قالت الرئيسة بصوتٍ أجشّ.
- «في البحر؟»، جلجل صوت غو-جا التي كانت تجلس في مؤخرة القارب مع أختها.

- «الكثير من الرجال...». هزّت الرئيسة رأسها.
طرحت دو-سانغ سؤالاً عملياً. «هل ستجرف الأمواج الجثث إلى الشاطئ؟».

- «لا أعتقد ذلك، كان المدُّ منخفضاً».
مجدّداً، لن يكون هناك من إثبات على ما حدث. لكنّ هذا عني أيضاً - وكان التفكير في ذلك مزعجاً لدرجة أنّ معدتي انقلبت - أنّ البحر قد أصبح أشبه بمراحيضنا المنزلية. الفرق فقط أنّ الدورة التي تبدأ من مؤخراتنا وصولاً إلى أفواه الخنازير انتهاءً بأكلنا للحوم أجسادها، تبدأ الدورة هنا بأجسادنا التي تكون الأسماك وغيرها من الكائنات البحرية قد تغذّت عليها الآن، والتي نقوم بدورها بحصادها وأكلها.

- «هل سمعتِ شيئاً؟»، سألت الرئيسة على القارب الآخر.
عندها كشفت حماتي عن شيءٍ لم تكن قد أخبرته سواء لي أو للجماعة في البولتيوك. «تقول رئيسة الهينيو في سيهوا إنّ ابن عمّها

رأى المئات من الأشخاص يُردّون بالقرب من المطار. لقد دُفِنوا جميعاً هناك».

بدأتُ أرتعش. لماذا، لماذا، لماذا كان على أبناء بلدي أن ينقلبوا على بعضهم البعض؟ ألم تكن مضاعفات وعواقب حادثة 4.3 المستمرة مفاعيلها حتّى الآن كافية؟ الآن لدينا غزوٌ وحربٌ دموية. بالنسبة إليّ، لم يكن هذا إلّا مراكمةً للمزيد من الأحزان والمآسي للعائلات على كلا الجانبين. كنّا نحن الناجين مترابطين معاً في شبكةٍ معقّدةٍ من الحزن والألم والشعور بالذنب.

عرضتُ دو-سانغ السماح للنساء بقضاء الليلة في البولتيوك الخاصّ بنا. «لكن سيكون عليكُنّ المغادرة في الصباح».

وجدتُ نفسي خلال الأشهر التالية أقدم القرايين لإلهةٍ مختلفة كلّ يوم. أحصيتُ الجوانب التي كنتُ محظوظةً بها. أولاً: كان ابني صغيراً جدّاً ليقاتل. ثانياً: لم تصل الحرب أبداً إلى جيجو بصورة مباشرة. وكان هذا كلّ شيء - أولاً وثانياً - لأنّ الأوقات الحزينة استمرّت في جميع النواحي الأخرى. أولئك الذين كانوا قد شاركوا في انتفاضة جيجو ونُقلوا إلى سجون البرّ الرئيسي تمّ إعدامهم تحسّباً لاندفاع القوات الكورية الشمالية أبعد إلى الجنوب لتحرير هؤلاء السجناء كي يقاتلوا إلى جانبهم. وهنا في جيجو، عالياً عند قمة الجدّة سيولمونداي، كان المتمردون لا يزالون متحصّنين هناك، مع شتّهم لغارات أصبحت أضعف فأضعف مع عجزهم عن الحصول على الإمدادات أو تجنيد أتباع جدد. استمرت الشرطة في البحث عن المعسكرات وتدميرها وقتل كلّ من تشبه في كونه متمرّداً، حتّى لو تضمّن ذلك فلاّحاً، وزوجته، وأطفاله. ما أقوله هو أنّ القتل حدث على كلا الجانبين هنا في جيجو، وهناك في البرّ الرئيسي. كلّ يومٍ في بلادنا، كان يموت المذنب ويموت البريء. كان هذا يحدث دون

توقّف منذ سنوات. تخيّلوا للحظة رؤية الموت واشتمام رائحته، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، بينما لا تزال الأمّهات يحاولن إطعام أطفالهنّ وإلباسهم وطمأنتهم.

بعد ستّة أشهر من الحرب، بلغت دو-سانغ الخامسة والخمسين من عمرها. كانت كلّ امرأة في البولتيوك تعرف ما يعنيه ذلك، لكنني أخذتُ على عاتقي مسؤولية نطق الكلمات.

- «لقد قادتنا حماتي لاثنتي عشرة سنة، لم نتعرّض لأيّة وفاة أو إصابة تحت البحر خلال سنوات قيادتها. حان الوقت لها الآن كي تجمع الطحالب والأعشاب وتقضي المزيد من الوقت مع أحفادها».

- «فلنصوّت على انتخاب رئيسة جديدة»، اقترحت كانغ غو-سُن. «أنا أُرشّح أختي الكبرى غو-جا».

فعلتُ كلّ ما بوسعي كي لا أنظر باتجاه دو-سانغ. كنّا قد اتّفقنا في وقتٍ سابق أنّه ينبغي بشخصٍ آخر غيرها أن يقوم بترشيحي، وأنّها كانت تعمل على ذلك بصمتٍ نيابةً عنيّ، لذا كان ما حدث بمثابة مفاجأة. وحتىّ خيانة.

- «لطالما عاشت أختي في هادو»، استطردت غو-سُن. «لم تتزوّج أختي خارج القرية ولم تنتقل منها. والأهمّ من ذلك كلّ أنّها لم تصب بفاجعة، ولم تكسر الأحزان قلبها».

سألّت دو-سانغ إن كان هناك من ترشيحات أخرى. لكن لم يأتِ أيّ منها. دعت دو-سانغ للتصويت، وفازت غو-جا بالإجماع. لقد لوّن الحزن كل لحظةٍ عشتها في تلك الأيام، لكنني أحسب أنّ الهينيو أخذن ردّة فعليّ المكبوتة كنوع من التواضع.

- «سأكون حاضرةً دائماً لمساعدة غو-جا»، قالت دو-سانغ.

«الآن تغادرني حقول أعماق البحار إلى غير رجعة، ولسوف أفقدها».

حين عدنا إلى المنزل في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، أعطتني دو-سانغ شيئاً ملفوفاً بقطعةٍ من قماش البرسيمون باهت اللون. «كنتُ أمل أن الأمور ستسير على نحوٍ مختلفٍ اليوم»، اعترفت لي. «رغم أن هذا ليس المتعارف عليه، إلا أنني اشتريتُ هديةً لك».

فتحتُ طيّات القماش فوجدتُ قطعةً من الزجاج محاطةً بإطار مطاطي أسود مع حزام جلديّ يتدلّى من الخلف.

- «لطالما عانينا جميعاً من نظاراتنا ذات العينين الصغيرتين»، أوضحت دو-سانغ. «إذ تضغط حوافها المعدنية على وجوهنا، وتحدُّ أطرافها من قدرتنا على الرؤية. هذا الشيء جديد. يسمّيه اليابانيون العيون الكبيرة. سوف ترين بشكلٍ أفضل ولن تسبّب لك أيّ ألم. قد لا تكونين الرئيسة، لكنك أول هينيو في جيجو لديها عيونٌ كبيرة».

فكّرتُ عندئذٍ في مي-جا وقد اعتراني الغضب والارتباك، كحالي في معظم الأوقات. تساءلتُ كم سيمضي من الوقت قبل أن تحصل هي أيضاً على عيونٍ كبيرة.

عندما ذهبنا إلى البحر في اليوم التالي، انبهرت الهينيو الأخريات في الجماعة بالعيون الكبيرة، وتزاحمن للإلقاء نظرة على قناعي. ارتديته، قفزتُ في الماء، واتّجهتُ للأسفل. نظرتُ من خلال عينيّ الكبيرتين، فبدأتُ أنسى الأشياء التي رأيتهما، والأشخاص الذين فقدتهم. صفا عقلي وسكّن إذ بدأتُ البحث عن أذن البحر وقنفذ البحر. أدركتُ خلال هذه الثواني القليلة أن هذا القناع سيكون أيضاً درعاً أحمي نفسي به من الشعور بأيّ شيء تجاه المرأة التي كانت صديقتي ذات يوم، أو من السماح لمشاعري بالإفلات مني ولو عن طريق الصدفة.

اليوم 4 : 2008

تستيقظ يونغ-سوك، تطوي حصيرة نومها وبطانياتها، وتكدّسها جانباً. تتدلى بذلة غوصها وقناع وجهها من الخطافات بينما تستند زعانفها إلى الحائط؛ لكنّها لن تغوص اليوم. تشقّ طريقها إلى الخارج، وتلتفتُ عند زاوية المنزل الصغير إلى الحمام الذي أضافته إلى ظاهر المنزل قبل ثماني سنوات (لم تكن آخر شخصٍ يبيع خنازيره في هادو ويشترى دورة مياه، لكنّها كادت تكون كذلك). حالما تنتهي من شأنها الخاص، تقطف الزهور من حديقته وتتّجه إلى المطبخ. تقف عند المغسلة، تزيل الأوراق والأشواك، تضع أطراف السيقان في كيسٍ بلاستيكيٍّ صغير، تسكب القليل من الماء بداخله، ثمّ تحكم إغلاقه بشريطٍ مطاطي. تجمع بعد ذلك الباقة إلى بعضها بورق التغليف والشرائط. أنجزتُ مهمّة.

تمسح جسدها بإسفنجة مبلّلة عند المغسلة في مطبخها، تغيّر ثيابها الليلية إلى بنطال أسود، وكنزة مزهرة، وسترّة وردية اللون. بدلاً من طاقيّتها المعتادة وضعت قبعةً كانت قد اشترتها من سوق الأيام الخمسة. تحزم حقيبتها بالأشياء التي ستحتاجها اليوم، تمسك الباقة بعناية، وتغادر منزلها. هي تتمنّى لو كانت دو-سانغ هنا لتكون جزءاً من هذا اليوم، لكنّها توفيت قبل أربعة عشر عاماً عن عمرٍ يناهز

الخامسة والتسعين. كانت هناك خسارات أخرى مماثلة: والد يونغ-سوك في العام 1980 بالسرطان، وشقيقها الثالث السنة الماضية بتمدد الأوعية الدموية. تمتّ لو كانا يستطيعان أيضاً مرافقتها اليوم. كانت صديقات يونغ-سوك قد تجمّعن بالفعل على الطريق الرئيسي عند وصولها. لا تزال هادو تحوي من الهينيو أكثر من أئة قرية أخرى في جيغو، لكنهن أخذات في الاختفاء يوماً بعد يوم. هناك اليوم ما لا يزيد عن أربع آلاف هينيو في الجزيرة. أكثر من نصفهنّ تجاوزن سنّ السبعين. وكثيراتُ منهنّ، أمثال يونغ-سوك والأختين كانغ كنّ أكبر من ذلك بكثير. ليس ثمة من يتبع خطاهنّ إلى البحر. بدلتُ بنات يونغ-سوك ومثيلاتها بزّاتهنّ المائية ببزّات العمل والأزياء الموحّدة الفندقية. إذ تنظر يونغ-سوك الآن إلى الوجوه المسنة من حولها، تقول لنفسها: لسنا سوى أساطير حيّة، وسرعان ما سنختفي تماماً.

ارتدتُ كل امرأةٍ منهنّ أفضل ما لديها. حصلتِ الأختان كانغ على صبغة شعر جديدة ودائمة. لبستُ إحدى النساء سترةً خضراء زاهية ذات ياقة زرقاء وبيضاء. العديد منهنّ ارتدّين الفساتين. حملتُ بعضهنّ باقات الزهور. وتدلّتُ سلالاً من أذرع أخريات. تشبك الرئيسة الحالية للجماعة أزهار أقحوان بيضاء على طيّة صدر السترة لكل امرأةٍ تكريماً للموتى. لقد انتظرن هذا اليوم لستين عاماً، وقد ساهمتُ جميعهنّ في استئجار حافلة. يُفترض بالنساء أن تكنّ هادئات - بل حتّى كئيبات - حين يصعدن إلى الحافلة، لكنهنّ نساء هينيو؛ أصواتهنّ عالية، يضايقن بعضهنّ البعض، ويُلقيّن النكات. لكن كان من السهل سماع بكاء بعضهنّ مغلفاً بضحكاتهنّ.

كان الطريق المشرف على الساحل معبداً الآن. في كلّ قرية، ترى يونغ-سوك أناساً يستقلّون الحافلات - بعضها عام والبعض

الآخر خاص - لكن الكثير من السيّارات والشاحنات الصغيرة والدراجات النارية تنطلق أيضاً في نفس الاتجاه. تغمض يونغ-سوك عينيها إذ تعبر الحافلة بوكتشون. تؤلمها رؤية الفنادق والنزل التي تقوم على امتداد خطّ الساحل. ثمّ تأتي بعد ذلك هامديوك. وكعادتها دائماً، يعاود يونغ-سوك الألم وهي تفكّر في الأزقة بين القريتين والشخص الذي اعتادت لقاءه هناك. لكن هذا ليس كلّ ما في الأمر. كلتا القريتين قبيحتان الآن، كحال معظم القرى على امتداد كوريا، بما في ذلك قريتها. كانت حركة القرية الجديدة السبب في ذلك - عبر استبدال العديد من المنازل الحجرية بصناديق من الجصّ، وجميع أسقف القشّ بالقرميد أو ألواح الصفيح. كان يُفترض بهذا أن يكون نوعاً من التحسين، وأن يجعل القرية أكثر حماية من الحرائق والأعاصير، لكنّ معظم سحر الجزيرة كان قد تلاشى نتيجةً لذلك.

ينعطف السائق مبتعداً عن خط الساحل، وأعمق باتجاه اليابسة. ثمّ تبدأ الحافلة طريقها صعوداً. الخيول تقضم العشب في الحقول. أشجار الصنوبر تتمايل مع النسيم. الجدة سيولمونداي - المبجلة والباقية على حالها - تراقب وتشرف على كلّ شيء. كانت يونغ-سوك الآن قد حلّقت على متن طائرات، وشاهدت المعالم السياحية في أوروبا وعبر آسيا، حتّى أنّها ذهبت إلى إفريقيا في رحلة سفاري. في المقابل، كانت الأختان كانغ تخبرانها دائماً عن هذا المتحف، أو المتنزه، أو المَعلم الذي كانتا قد زارته أو ذاك. «هنا على جزيرتنا!»، كانتا تنفجران حماساً بانسجام تام. متحف الميثولوجيا اليونانية، متحف ليوناردو دافنشي للعلوم، والمتحف الإفريقي. «لَمْ قد أذهب إلى تلك الأماكن إن كنتُ قد رأيتُ الشيء الحقيقي؟»، سألت يونغ-سوك بسخط. وعندما أثارت الأختان موضوع متنزه جيغو الثقافيّ المحجريّ، استهجنّت يونغ-سوك الفكرة.

«لقد عشتُ طيلة حياتي بين هذه الحجارة وداخلها. لم أحتاج للذهاب إلى متنزه كي أنفّرج عليها؟». (في البداية أربك هذا السؤال الأختين، إلى أن قالت غو-جا: «لديهم في المتنزه أشياء لم نعد نراها. منازل حجرية كالتي كنّا نعيش فيها، جرارٌ حجرية لحمل المياه، وتمائيل حجرية للأجداد...»). اقترحتا أيضاً متحف الجنس والصحة. «لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك!»، صاحت يونغ-سوك وهي تضع يديها على أذنيها. حاولتا إغراءها بأرض الشوكولاتة ومتحف الشوكولاتة، وتجادلتا بشأن إيجابيات وسلبيات كلّ منهما. عرضتا اصطحابها لزيارة المعالم ورؤية المناظر الطبيعية. «إنّ جيجو الآن من ضمن مواقع التراث العالمي لليونيسكو! هل تريدان أن تكوني العجوز الوحيدة في جيجو التي لم تشهد شروق الشمس من على قمة مخروط سيونغسانغ إيلتشوبونغ؟».

تدخل الحافلة ممراً يقود إلى مجمّع من الأبنية والحدائق. ينتصب الهيكل الرئيسي بينها شامخاً ومهيئاً مثل وعاء قرابين عملاق. يلوّح المرافقون للحافلات بالتوجّه للأمام كي يتسنّى إنزال الركّاب منها. خيم الصمت على يونغ-سوك وصديقاتها، إذ بدا عليهنّ أخيراً التهيب من هذه الاحتفالية الكبيرة. إنّهنّ موجودات هنا من أجل الافتتاح الكبير لمتنزه الثالث من أبريل للسلام في جيجو، والذي سيحيي ذكرى المجزرة التي دامت لسنوات، ويكرّم أولئك الذين ماتوا فيها. ترتعش ركبتا يونغ-سوك. إذ تشعر بالشيخوخة والضعف، تلزم يونغ-سوك جانب رفيقاتها، لكنهنّ بدّون متهالكات مثلما كانت تبدو تماماً. يقوم المرافقون بتوجيههنّ مجدّداً. تشقّ النساء طريقهنّ بجانب المتحف وعلى طول ممراً مرصوف نحو القاعة التذكارية. وُضعت على مرجة العشب الواسعة بين المبنيين صفوفٌ متتالية من الكراسي القابلة للطّي. يُتوقّع حضور الآلاف. حُدّد كلُّ قسم بلافتات تحمل

أسماء القرى. تتجول النساء بين الممرات حتى يجدن لافتة هادو. هنا يرون الأصدقاء والجيران. عائلة يونغ-سوك حاضرةً بأكملها، وهي ممتنةٌ جداً لذلك، لكنّها تجلس مع الهينيو رغم ذلك.

يبدأ البرنامج بخطبةٍ وفقرات موسيقية. يعلّق أحد المتحدثين على المشهد الجميل، وتوافقه يونغ-سوك الرأي. إذا أبقت عينيها مفتوحتين، فذلك هو ما ستراه: الجمال. لكنّها تخشى أن تغمض عينيها بسبب كل الصور القاتمة التي تندفع عائدةً إليها. «من يسعه أن يسمّي موتاً لم يكن مأساوياً؟»، يسأل المتحدث. «هل من سبيلٍ يجعلنا نستخلص معنىً من كلّ الخسارات التي عانينا بسببها؟ من يسعه القول إنّ لروح مظلوميةٍ أثقل من مظلومية روحٍ أخرى؟ نحن جميعاً ضحايا. ونحتاج أن نسامح بعضنا البعض».

تذكّر؟ نعم. تسامح؟ لا. لا تستطيع يونغ-سوك أن تفعل ذلك. ماذا عن السماح بقول الحقيقة؟ لقد أخذ هذا وقتاً طويلاً، طويلاً جداً. قبل ثلاثين سنة، في العام 1978، نشر كاتبٌ يدعى هيون كي-يونغ قصّةً عنوانها العمّة سوني. لم تتمكّن يونغ-سوك من قراءتها، فهي لم تتعلّم القراءة قط. لكنّها سمعت أنّها كانت عمّا حدث في بوكتشون. اقتيد الكاتب إلى وكالة التجسس الوطنية، حيث تمّ تعذيبه، ولم يُطلق سراحه إلّا بعد أن تعهّد بعدم الكتابة عن حادثة 4.3 مجدّداً. بعد ثلاث سنوات من ذلك، انتهى العمل بنظام الجرم بالتبعية. كان هذا البرنامج قد دمر الكثير من العائلات على امتداد الجزيرة. إذا كان أحدٌ ما قد اتّهم بأنّه متمرّد، أو إذا قُتل شخصٌ ما، فقد لا يتمّ توظيف بقيّة أفراد أسرته، أو لا يحصلون على ترقية، أو يُمنعون من السفر. حين أوقف العمل بهذا البرنامج، قيل إنّ مراكز الشرطة أتلّفت ملفّاتها، لكنّ الناس أبقوا أفواههم مغلقة تحسباً. بعد ثماني سنوات، استضافت مجموعةٌ من الشباب احتفاليةً عامّة إحياء

لذكرى حادثة 4.3. لم تذهب يونغ-سوك يومها، إذ ما الفرق الذي سيحدثه ذلك طالما تصرّ الحكومة أنّه ما من دليلٍ حسيّ على حدوث أيّ شيءٍ في جيجو؟ ومن جديد، خيّم الصمتُ الثقيل فوق الجزيرة بأسرها.

توجّه متحدّثٌ جديد إلى الحضور قائلاً: «كلُّ شخصٍ أعرفه - كبيراً كان أم صغيراً - يعاني ندوباً في روحه. هناك مَنْ اختبر المذبحة على نحوٍ مباشر، هناك مَنْ كان شاهداً، وهناك مَنْ سمع القصص. نحن عبارة عن جزيرة من البشر الذين يعانون من متلازمة اضطراب ما بعد الصدمة. لدينا أعلى معدلاتٍ لإدمان الكحول، والعنف المنزلي، والانتحار، والطلاق في عموم كوريا. النساء بما في ذلك الهينيو هنَّ أكبر ضحايا هذه المشكلات».

تطرد يونغ-سوك المتحدّث وإحصائياته خارج رأسها، وتعود إلى ذكرياتها الخاصّة. قبل ستّة عشر عاماً، اكتُشفت إحدى عشرة جثة في كهف دارانغشي، بما في ذلك جثثٌ لثلاث نساء وطفل. لم يكن هناك من بنادق أو رماح متناثرة حولهم، بل أشياء حملها الناس من منازلهم: ملابس، أحذية، ملاعق، عيدان طعام، مقلاة، زوجٌ من المقصّات، قِدر، بعض أدوات الزراعة. كانوا قد التمسوا في الكهف ملجأً، لكنّ الفوج التاسع كشف أمرهم. أغلق الجنود مدخل الكهف عبر تكديس العشب هناك ثمّ أضرموا النار فيه، فمات مَنْ في الداخل اختناقاً. أخيراً كان هذا هو الدليل الذي لم يعد بمقدور الحكومة إنكاره، غير أنّ الرئيس رو تاي-وو أمر بإغلاق الكهف من جديد. وتَمَّ حرقياً طمس الأدلّة.

ثمّ، في العام 1995، نشر المجلس الإقليمي في الجزيرة قائمةً - كانت الأولى من نوعها - بأسماء 14125 ضحيّة. لكنّ هذه القائمة كانت بعيدةً عن الاكتمال. لم يكن جون-بو، ويو-ري،

وسونغ-سو من بين الآلاف في القائمة، لكن يونغ-سوك اعتبرت أنه من الخطير جداً التقدّم للإعلان عن ذلك. ثمّ حلّت الذكرى الخمسون في العام 1998، وأقيمت المزيد من المناسبات التذكارية، فضلاً عن مهرجانٍ فنيّ وأنشطةٍ دينية تدور جميعها حول حادثة 4.3. في العام التالي، وعد الرئيس الجديد لجمهورية كوريا، كيم داي جونغ، بأنّ الحكومة سوف تقدّم ثلاثة مليارات وون لبناء متنزه تذكاريّ. «لا يمكننا أن نرحّل حادثة القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين». أصبح هذا شعار المرحلة. في نهاية ذلك العام، أقرّت الجمعية الوطنية قانوناً خاصاً للتحقيق في حادثة 4.3 في جيجو وتكريم ذكرى الضحايا. خطّطت اللجنة لمقابلاتٍ مع الناجين في جيجو، ومع أولئك الذين انتقلوا إلى البرّ الرئيسي، واليابان، والولايات المتّحدة. عُثر على أدلّة ماديّة وتمّ فحصها والتحقّق منها - مثل تقارير الشرطة والجيش، والصور المخبّأة منذ سنواتٍ طويلة في المعاهد والأرشيف في كوريا والولايات المتّحدة. لكن فقط بحلول عام 2000 رُفع أخيراً ورسمياً تجريم الحديث عن المجزرة. جاء المحقّقون لرؤية يونغ-سوك عدّة مرات، لكنّها رفضت مقابلتهم. سعوا للوصول إليها عن طريق أبنائها وأحفادها الذين جاؤوا إليها بنفس الرسالة. «إنّ من واجب الجيل التالي جلب الراحة والسكينة لأرواح الضحايا»، قال حفيدها. «وسوف نفعل ذلك يا جدّتي، لكن أنتِ الوحيدة التي يمكنكِ إخبار قصّتك. وقد حان الوقت لذلك». لكن الوقت لم يكن قد حان بالنسبة لها. حتّى الآن، هي معتادةٌ جداً على غضبها وألمها أكثر من أن تعمل على تغيير ذلك. مكتبة سرّ من قرأ

يصعد إلى المنصّة متحدّث جديد. «أعلنت الحكومة المركزيّة قبل ثلاث سنوات عن نيّتها إعلان جيجو جزيرةً للسلام العالمي. وها نحن ذا». سكّت للحظات حتّى يخمد التصفيق. «في نفس السنة، أعلنت

هاغوي الصفح، بعد أن كانت قد قُسمت نتيجة الأحداث إلى قريتين منفصلتين. لن يكون هناك بعد الآن قريةً للضحايا وأخرى للجناة. لن يكون هناك المزيد من التصنيفات بالحرر والمعادين للشيوعية. معاً، قدّم الأهالي التماساً لإعادة توحيد القريتين في قرية واحدة سيُطلق عليها هاغوي من جديد. لقد بنوا نصباً للمصالحة، مع ثلاثة مزارات تذكارية حجرية: واحدٌ لتذكّر أولئك الذين عانوا أثناء الاستعمار اليابانيّ، وواحدٌ لأبنائنا الشجعان الذين قضوا في الحرب الكورية، والآخر للمئات من كلا الجانبين الذين ماتوا خلال حادثة 4.3.

يضرّب الغثيان معدة يونغ-سوك بعنف. لن يغير معلّم تذكاريّ ما تشعر به أبداً. ليس عدلاً أن يكون الضحايا مضطّرين إلى مسامحة أولئك الذين اغتصبوا وعذبوا وقتلوا، أو أحرقوا قرىً عن بكرة أبيها. ألا ينبغي في جزيرة السلام العالميّ أن يُجبر أولئك الذين ألحقوا أفدح الأضرار بالآخرين على الاعتراف بالذنب ومحاولة التكفير، وألا تدفع الأرامل والأمهات من أجل بناء الصروح التذكارية؟

- «لا تزال لدينا الكثير من الأسئلة التي ينبغي بنا طرحها على أنفسنا»، يتابع المتحدث. «هل كانت هذه المأساة عبارةً عن أعمال شغب خرجت عن السيطرة؟ هل كانت تمرّداً، أم ثورة، أم نضالاً ضدّ الوجود الأمريكي؟ أم نقول إنّها كانت حركةً ديمقراطية، نضالاً من أجل الحرية، أو انتفاضةً جماهيرية بطولية أظهرت الروح المستقلّة التي تسري في دماء شعب هذه الجزيرة منذ مملكة تامنا؟».

- «هل يجب علينا لوم الأمريكيين؟»، يسأل المتحدث. «لقد كان كولونيالاتهم وقادتهم وجنراتهم هنا. ورأى جنودهم ما كان يحدث. حتّى لو لم يقتلوا أحداً بشكلٍ مباشر، إلّا أنّ القتل كان يحدث أمام أعينهم، لكنّهم لم يتحمّلوا المسؤولية ويتدخلوا مرّة واحدة لوقف إراقة الدماء. أم نقبل أنّهم كانوا يحاولون قمع التهديد

الشيوعي الحقيقي في المراحل المبكرة لما سيعرف لاحقاً بالحرب الباردة؟ هل كانت حادثة 4.3 حرب فيتنام الأولى بالنسبة للأمريكيين؟ أم كانت قتالاً من أجل شعب يتوق إلى إعادة توحيد الشمال والجنوب، ويرغبون في أن يكون لهم رأي مسموع حول ما كان يحدث في بلدنا، دون تدخل أو تأثير لقوى أجنبية؟».

تنتهي الخطابات أخيراً. قرية تلو قرية، يمر الناس أمام الشواهد التي تكرم ذكرى الضحايا الذين لم يُعثر على جثثهم. تتوقف يونغ-سوك للحظات. تستذكر حين أُعيد حفر المقبرة الجماعية في بوكتشون، وجاؤوا لإخبارها أنه تم التعرف على جثامين زوجها وشقيقة زوجها وابنها. تسنى لها أخيراً مع أبنائها الآخرين أن تدفنهم في موقع ملائم اختاره عراف الأرض. يرقد الآن جون-بو مع يو-ري وسونغ-سو جنباً إلى جنب وإلى الأبد، وتزور يونغ-سوك مدفنهم كل يوم. لم يكن آخرون محظوظين لهذه الدرجة.

توقظ نفسها، تنظر حولها، تسارع للحاق ببقية مجموعة هادو، ويدخلون معاً القاعة التذكارية. هنا، حيث نُقشت على جدار رخامي طويل مقوس أسماء ما لا يقل عن ثلاثين ألف قتيل. تتكدس قرايين من الزهور، والشموع، وزجاجات الخمر الصغيرة على حافة يمكن اعتبارها مذبحاً وتمتد على طول الغرفة بالكامل. تنفصل يونغ-سوك عن رفيقاتها الهينيو لدى اقتراب أفراد عائلتها. هي تحمل ما يكفي من الزهور والقرايين ليقدموها معاً كأسرة، لكنها مسرورة أن كلاً منهم أحضر معه شيئاً ما أيضاً. مين-لي؛ ابنة يونغ-سوك الكبرى، تحمل باقة من الزهور ملفوفة بالسيلوفان. بينما يحمل كيونغ-سو - لا بد ليونغ-سوك من الاعتراف بأنه كان مكتنزاً وبليداً - زجاجة من نبيذ الأرز لوالده، وكيساً من الحَبَّار المجفَّف ليو-ري، وإناء من الأرز الأبيض المطبوخ لأخيه الأكبر. تلك كانت أشياء أحبها زوج

يونغ-سوك، وأخت زوجها، وابنها منذ ستة عقود خلّت، لكن هل كانت أذواقهم قد تغيّرت في العالم الآخر؟

تورمّت عينا مين-لي من البكاء. تأخذ يونغ-سوك بذراع ابنتها. «سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام»، تقول لها. «نحن معاً».

القاعة مكتظة، والناس يتدافعون متشوّقين للعثور على أسماء أولئك الذين فقدوهم. يصرخ الناس على بعضهم لإفساح المجال أو الابتعاد عن الطريق. لا تخجل مين-لي من استخدام كوع للكرز أولئك الذين يسدّون دربهما. تصلان إلى الحائط. بقية العائلة خلفهما. لو لم يكن هذا الأمر مهماً جداً، كانت يونغ-سوك ستفعل أيّ شيءٍ لتهرب من طوفان الأجساد هذا، ومن نقص الأوكسجين، ومن إحساسها برهاب الأماكن المغلقة. تبحث مين-لي على طول الجدار عن القسم الخاص ببوكتشون. بعض القرى كان بها عددٌ قليلٌ من الضحايا. بينما قوائم قرىٍ أخرى كانت تمتدّ اسماً بعد اسم، صفّاً بعد صفّ. يصرخ الناس من حولهم باكتشافاتهم. آخرون ينتحبون.

- «بوكتشون!»، تصيح مين-لي. «دعونا نجد أبي أولاً».

مين-لي الآن في الثالثة والستين من عمرها. كان عمرها ثلاث سنواتٍ ونصف يوم مات والدها وشقيقها وعمّتها. هي امرأةٌ قويّة بكل المقاييس، لكنّها الآن شاحبةٌ لدرجة أنّ يونغ-سوك شعرت بالقلق من أن تصاب ابنتها بالإغماء. «أمي! هنا!»، تصرخ مين-لي وهي تضغط بسبّابتها على الرخام المنقوش. تفرّقت العائلة لتسمح ليونغ-سوك بالمرور. تمُدُّ يدها وصولاً إلى البقعة التي حدّدتها ابنتها. تحكُّ بأصابعها الأحرف المحفورة. يانغ جون-بو.

- «انظري، هنا عمّتي يو-ري وشقيقي الأكبر». تبكي مين-لي الآن بحرقة، وأبناؤها يحدّقون بها قلقين.

تشعر يونغ-سوك بهدوءٍ غريب. تمُدُّ يدها داخل حقيبتها

وتسحب منها ورقة وقطعة من الفحم. مرّت عقود منذ فركت بالفحم آخر مرّة، لكنّها لم تنسَ كيف تفعل ذلك. تضع الورقة فوق أسماء موتاهـا وأخذت تفرك الفحم فوقها جيئةً وذهاباً. إنها على وشك درس الورقة داخل كنزتها قريباً من قلبها حين تحسّ بجفول الناس - الغرباء - وتحديقهم بها. تنظر حولها خجلةً. أبناءها وأحفادها منشغلون بتقديم القرابين. لكن إذ ينحنون سوياً، تلمح يونغ-سوك العائلة الأجنبية...

ترسل رسالةً عبر ملامح وجهها. اتركوني وشأني. ثمّ دون أن تقول كلمةً لمين-لي أو للآخرين، تعود لتنصهر داخل الحشد، وتضع في بحر البشر بينما تشق طريقها نحو المخرج، ثمّ تنحرف سالكةً أحد الممرّات. تصل إلى منصّة نُصبت فوق شيء يشبه إلى حدّ ما بولتيوك ذي جدارٍ واطئٍ مبنيٍّ بالحجارة. تجد لدى النظر بداخله تمثالاً برونزياً لامرأةٍ تحوم حول طفلها بطريقةٍ توحى أنّها تريد حمايته. يلتفت شريط قماشيّ أبيض حول ساقها ويمتدّ وصولاً إلى الحفرة على الطرف البعيد. تميّز يونغ-سوك المجاز في كل المراسم التي حضرتها على مرّ السنين للهينيو اللواتي فُقدن أو قُضين نخبهنّ في البحر. لم يكن أيّ من هذه الاحتفالات أكثر أهميّةً لها من ذاك الخاصّ بوالدتها، وهي تتذكّر جيّداً كيف ألقت الشامانة كيم شريط القماش الطويل في الماء لاستحضار روح والدّة يونغ-سوك إلى الشاطئ. يونغ-سوك غارقةٌ تماماً في ألمها - مع الكثير من صور الأموات والمآسي في رأسها - حتّى أنّها جفلت لدى سماعها صوتاً يتحدّث بلهجة جيّجو المنكّهة بنبرة جنوب كاليفورنيا ورفاهية ومزايا الحرّيات التي لا حدود لها.

- «طلبتُ منّي أمّي أن ألحق بك. تريد أن أتأكّد أنّك على ما

يرام».

إنّها تلك الفتاة. كلارا. هي ترتدي فستاناً مناسباً على سبيل
التغيير، لكنّ الأسلاك كانت بالطبع موصولةً إلى أذنيها لضمان
تغذيتها بالموسيقى.

الجزء 4

اللوم

1961

سنوات التكتّم

فبراير 1961

لطالما كان لدى جيجو فائضٌ من النساء، لكنّ عدم التوازن بات حتّى أكبر مع مقتل الكثير من الرجال والفتية. نحن النساء أجبرنا أنفسنا على مدار الإحدى عشرة سنة الماضية على القيام بأكثر ممّا كنّا نقوم به في الماضي. تعلّمنا نحن اللواتي ندير شؤون منازلنا أنّ بمقدورنا جمع المزيد من الثروة دون أن يبذرها الأزواج في الشرب والمقامرة. ساهمنا بأموالنا في إعادة بناء المدارس وغيرها من المنشآت القرويّة. تبرّعنا من أجل إصلاح الطرق القديمة وبناء طرق جديدة. لكنّ أياً من هذا ما كان سيصبح ممكناً لو لم نكن حُرّات بالكامل في الغوص من جديد. ولكي نغوص كنّا بحاجةٍ إلى أن نبقى آمنات، ولهذا السبب كنّا في اليوم الثاني من الشهر القمريّ الثاني نصقّي أذهاننا من كلّ السفاسف، ونلتقي الشامانة كيم في الحفل السنوي للترحيب بالإلهة.

اجتمعنا على الشاطئ، على مرأى من الجميع، وشعرْتُ بوخزٍ في مؤخرة رقبتني جرّاء القلق والإثارة. كان ما فعله مخالفاً للقانون. رغم أنّ المستعمرين اليابانيين كانوا قد سعوا إلى حظر الشامانية، إلّا أنّ زعيم بلدنا الجديد قرّر القضاء عليها مرّةً واحدة وإلى الأبد. وصل

الرئيس بارك تشونغ-هي إلى السلطة عبر انقلاب عسكري، وقد قارب وظيفته الجديدة بنفس تلك العقلية. كان هناك المزيد من عمليات الخطف، وحالات التعذيب، والاختفاء، والوفاة. أمر بتفكيك وإزالة جميع الأضرحة والمزارات. أُرغمت الشامانة كيم على كسر طولها وحرق شراباتها، أمّا الأشياء التي يصعب إتلافها - كالصنوج - فقد تمّت مصادرتها. جاء ذلك في وقتٍ احتجنا فيه وأردنا أن نتطهر من لوم أنفسنا وإحساسنا بالذنب لكوننا من الناجين. لجأ البعض إلى المبشرين الكاثوليك طلباً للمساعدة. بحث آخرون عن الراحة في البوذية والكونفوشيوسية. لكن ورغم كون الشامانية محظورة، إلّا أن الشامانة كيم وكثيرات مثلها على امتداد الجزيرة لم يتخلّين عنا.

كنّا في العادة نأخذ احتياطاتنا ونخفي أنشطتنا بأفضل ما نستطيع، لكنّ هذا الحدث السنوي كان أكبر من أن يمكن عقده في مكانٍ خاص. لم يقتصر الأمر على جماعتي فحسب، بل اجتمعت كلّ جماعات الغوص من مختلف القرى الصغيرة التي شكّلت هادو. وعلى عكس الطقوس في جامسو، والتي كانت مخصّصة لنساء الهينيو وحدهنّ ولتكريم الملك التّين وملكة البحر، فقد كان الحفل في هادو يتضمّن الصيادين من الرجال. ارتدت النساء سترات مبطنّة وأوشحة وقفّازات. خبط الرجال الحاضرون بأقدامهم باحثين عن شيءٍ من الدفء عبر الحركة.

- «أتوجه بالدعاء لكلّ إله وإلهة في جيغو»، قالت الشامانة كيم. «نرحّب بيونغديونغ إلهة الريح. نرحّب بجميع الأسلاف والأرواح التي ترافقها. فلتستمتعي برائحة الدّراق والكاميليا الآخذين بالتفتح. عانقي جمال جزيرتنا. انثري بذور الحبوب الخمس على أرضنا. انثري في البحر البذور التي ستنمو لتصبح محاصيل تحتمايّة».

قَدِّمْتُ قَرَابِينَ مِنَ الْفَاكِهَةِ، وَالْأَرْزِ، وَالْأَسْمَاكِ الْمَجْفُفَةِ،
وَالْحَبَّارِ، وَزَجَاجَاتِ خَمْرِ مَنْزِلِي الصَّنْعِ، وَبَيْضَ مَسْلُوقٍ عِنْدَ الْمَذْبَحِ
الْمَوْقُوتِ. كُلُّ امْرَأَةٍ وَفَتَاةٍ مِنْ جَمَاعَتِنَا كَانَتْ حَاضِرَةً هُنَا. جَلَسْتُ
كَانَغْ غُو-جَا فِي بَقْعَةٍ بَارِزَةٍ. وَبِالْقَرَبِ مِنْهَا جَلَسْتُ أَخْتَهَا غُو-سُنْ مَعَ
ابْنَتِهَا وَان-سُونِ الَّتِي كَانَتْ الْآنَ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمْرِهَا. حِينَ
عَدْنَا إِلَى هَادُو، أَصْبَحْتُ مِين-لِي وَوَان-سُونِ صَدِيقَتَيْنِ. كَانَتْ
مِين-لِي نَزَاعَةً لِلْكَأَبَةِ، وَهُوَ مَا كُنْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَيْهِ، لِذَا كَانَ مِنَ
الرَّائِعِ رُؤْيَا الْفَتَاتَيْنِ وَهُمَا تَضْحَكَانِ مَعاً. جَلَسْتُ دُو-سَانِغْ مَعَ جُون-
لِي ابْنَتِي الصَّغِيرَى الَّتِي سَتَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ اثْنَيْ عَشَرَ عَاماً فِي الْخَرِيفِ.
وَكَانَتْ يَانِغْ-جِينِ، شَرِيكَتِي فِي الْغُوصِ بِجَوَارِي. وَفِي الْطَرَفِ الْبَعِيدِ
مِنَ التَّجَمُّعِ، وَبِأَقْصَى مَا أَمْكُنْهَا أَنْ تَكُونَ بَعِيدَةً عَنِّي، جَلَسْتُ مِي-جَا
مَعَ جَمَاعَتِهَا. كَانَ الْجَمِيعُ قَدْ اسْتَحْمَوْا وَارْتَدَوْا ثِيَاباً نَظِيفَةً، لَكِنَّهَا
تَدَبَّرَتْ بِطَرِيقَةٍ مَا أَنْ تَبْدُو أَكْثَرَ نَضَارَةً مِنْ بَقِيَّتِنَا.

أَخَذْتُ الشَّامَانَةَ كَيْمَ تَدُورُ فِي ثَوْبِ الْهَانِبُوكِ. صَنَعْتُ
مُسَاعِدَاتَهَا طَبْلَةً جَدِيدَةً مِنْ ثَمَرَةِ الْقَرَعِ، حَيْثُ إِنَّ صَوْتَ هَذِهِ الْأَدَاةِ
هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَى آذَانِ الْأَرْوَاحِ، كَمَا دَقَّتِ
الْمُسَاعِدَاتُ عَلَى قَدْرِ طَهْيِ مُسْتَحْدِمَاتِ إِيَّاهُ جَرَساً لِإِيقَازِ أَرْوَاحِ
الرِّيَّاحِ وَالْمِيَاهِ. قَرَعْتُ الشَّامَانَةَ كَيْمَ جَرَساً كَانَتْ قَدْ خَبَّأَتْهُ لَدَى
مَدَاهِمَةِ مَنْزِلِهَا لِاسْتِحْضَارِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ. كَانَتْ
شَرَابَاتِهَا الْآنَ عِبَارَةً عَنْ مِزْقٍ مِنْ قِمَاشِ الْبَرَسِيمُونِ. كُنَّا نَخْشَى
عَلَيْهَا، فَإِذَا ضُبُطَتْ وَبَحُوزَتْهَا أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَسَوْفَ يُقْبَضُ
عَلَيْهَا.

- «أَصْلِي لِإِلَهِةِ الرِّيحِ أَنْ تَعْنِي بِالْهَيْنِيُو»، تَضَرَّعَتِ الشَّامَانَةُ.
«لَا تَتْرَكِي عَوَامَةً تَنْجَرِفُ مَعَ الْمَوْجِ. لَا تَدْعِي أَدَاةً تَنْكَسِرُ. لَا
تَسْمَحِي لِرَمَحٍ أَنْ يَعْلقَ أَوْ لِأَخْطُوبِطٍ أَنْ يَقْبِضَ عَلَى ذِرَاعِي هَيْنِيُو».

ركعنا وصلينا. وانحنينا مراراً. بصقت الشامانة كيم في الماء لإبقاء الأرواح الشريرة بعيدة. اشتكت قليلاً من حالة الطقس والمد والجزر، ثم تملقت إلهة الريح كي تكون لطيفة في الأشهر المقبلة. «أبقي الهينيو خاصتنا آمناً طيلة الموسم. احمي الصيادين من الضياع في الأعاصير أو البحار العاصفة».

إذ انتهى الحفل، تناولنا بعضاً من القرايين ثم ألقينا بقية الطعام في البحر لكي تستمتع به جميع إلهات وآلهة الماء والريح على أمل أن يشملونا بعطفهم. ثم جاء وقت الرقص. شبكت مين-لي ووان-سون أيديهما وبدأتا تتمايلان. بدتا حرتين وسعيدتين. عندما بلغت مين-لي الخامسة عشرة في العام الماضي، أعطيتها عوامة مصنوعة من الستيروفوم. حصلت وان-سون على واحدة أيضاً. علّمت وغو-سُن ابنتينا الغوص، لكن مصيرهما كان في مكان آخر. اعتقدت ذات يوم أن جون-بو كان مجنوناً حين قال إنه يريد لكل أبنائنا أن يكونوا متعلمين، لكنني فعلت كل ما بوسعي كي أحترم رغباته. إذا زرعت الفاصولياء الحمراء، فسوف تحصل على فاصولياء حمراء. كانت مين-لي في المدرسة الثانوية، وكيونغ-سو في المدرسة الإعدادية، وجون-لي في الابتدائية. كان ولداي الأكبر سنّاً طالبيين بمستوى متوسط، لكن جون-لي كانت ابنة أبيها بحق؛ ذكية، مجتهدة، ومثابرة. كلّ عام، كان معلّموها يعلنونها الأذكي في الفصل. غو-سُن ادّخرت المال أيضاً لإرسال ابنتها الصغرى وان-سون إلى المدرسة، لذا فقد غاصت ابنتانا معنا فقط إذا توافقت أيام عطلتهم مع المد والجزر المناسبين. وحيث أنه قلّما ما كانتا تعملان، قلنا أنا وغو-سُن لهما إنه يمكنهما استخدام أرباحهما لشراء اللوازم المدرسية، لكنهما غالباً ما دلّتا نفسيهما بشرائط ملوّنة لشعرهما أو بقطع من الحلوى.

خلال الأسبوعين التاليين، وبينما مرّت إلهة الريح فوق جيحجو، ظللنا نحن مكتوفات الأيدي. لم نغص، ولم يركب الصيادون قواربهم، إذ كانت الرياح التي أتت بها الإلهة عنيفة ومتقلّبة على نحوٍ خاص. لم يكن إنجاز الأعمال المنزلية الأخرى ممكناً أيضاً، قيل إنّه إذا صنعتَ صلصة الصويا في هذا الوقت فسوف تفقس الحشرات بداخلها. وإذا قمتَ بإصلاح سقفك، فسوف يُسرّب الماء. وإذا زرعتَ الحبوب، فسيحلّ الجفاف. وبالتالي، كان هذا وقتاً لزيارة الجيران، والثرثرة الطويلة في الليل، وتشارك الوجبات والقصص.

- «أمّي، تعالي وانظري!»، نادتنِي جون-لي.

نظرتُ سريعاً من الباب نحو الخارج بينما كانت تدخل الفناء مع الماء الذي سحبته من بئر القرية. رأيتُ من خلال البوّابة المفتوحة رجالاً يعبرون، واحداً تلو الآخر مثل خيطٍ من الأسماك.

- «أسرعي إلى هنا!»، صرختُ خائفة. تركتُ جون-لي الجرّة على الأرض، وركضتُ إليّ. دفعْتُها خلفي على نحوٍ غريزيّ. «أين شقيقتكِ؟»، سألتُها.

دخلتُ مين-لي عبر البوّابة قبل أن تجيب جون-لي. وضعتُ جرتّها على الأرض وركضتُ باتّجاهنا. «إنّهم غرباء»، همستُ لي. كانوا بالطبع غرباء. ارتدوا سراويل سوداء ذات ثنيات حادة، وأحذية مصنوعة من الجلد. كانت ستراتهم لا تشبه أيّ ستراتٍ رأيتُها من قبل، إذ بدتُ منتفخة وخرقاء. كان بعض أولئك الرجال كوريّاً؛ من البرّ الرئيسي على ما يبدو. لكن كان هناك أيضاً يابانيّون وبِيض. اعتبرتُ البِيض أمريكيين على نحوٍ تلقائيّ لأنّهم كانوا طوال القامة وشعرهم رمليّ اللون. لم يرتدِ أيُّ منهم زيّاً رسميّاً موحّداً. ولم

يكونوا مسلّحين أيضاً بحسب ما رأيت. ارتدى نصفهم على الأقل النظارات. حلّ الفضول محلّ القلق. عبر آخر رجل أمام البوابة، وخلفه كان الجيران يمظّون أعناقهم محاولين الحصول على لمحة أفضل بينما هم يثرثرون ويشيرون بأصابعهم.

- «أريد أن أرى مَنْ يكونون»، قالت جون-لي وهي تمسك بيدي. كانت أصغر من أن تفهم معنى الرعب، لكنني لسبب ما لم أكن خائفةً، وكذلك مين-لي، حتّى أنّني ناديتُ على دو-سانغ كي تنضمّ إلينا.

سرنا وصولاً إلى الزقاق حيث اندفعنا مع الحشد على طول طريق الشاطئ.

- «مَنْ يكونون؟»، سألت جون-لي.

سألت أختها الكبرى السؤال الأكثر أهميّة. «ماذا يريدون؟».

خرجت المزيد من النساء من منازلهنّ. رأيتُ شريكتي في الغوص؛ يانغ-جين إلى الأمام متّا، فأسرعنا كي نلحق بها.

- «هل هم ذاهبون إلى ساحة القرية؟»، سألتها.

- «ربّما لديهم عملٌ مع الرجال هناك»، أجبته.

لكنّنا لم نعطف أعمق باتجاه ساحة القرية، بل مضينا في طريقنا إلى الشاطئ. رأيتُ لدى وصولنا إلى هناك أنّ عددنا لم يكن كبيراً جدّاً؛ حوالي الثلاثين امرأة وطفلاً ربّما. استدار الغرباء نحونا. حيث إنهم كانوا يديرون ظهورهم للبحر، فقد نفشت الريح الباردة شعرهم وجعلت سراويلهم تخفق بقوة. تقدّم رجلٌ ضئيل الحجم إلى الأمام. تحدّث إلينا باللغة الكورية القياسية، لكنّنا تمكّنا من فهمه.

- «اسمي الدكتور بارك. أنا عالم»، قال وأشار إلى الرجال من حوله. «نحن جميعاً علماء. بعضنا من البرّ الرئيسي، لكن لدينا أيضاً

علماء من جميع أنحاء العالم. نحن هنا لدراسة الهينيو. لقد أمضينا أسبوعين للتو في قرية بالقرب من بوسان، حيث تنتقل الكثير من الهينيو للعمل في أماكن مختلفة. الآن جئنا إلى الموطن الأصلي للهينيو. نأمل أنكن سوف تساعدنا».

كانت لدينا ستّة من رئيسات الهينيو - واحدة لكلّ من الأقسام التي تتكوّن منها هادو - لكن لم تكن أيّ منهنّ معنا وقتئذٍ. لكزّت حماتي. «أنت الأعلى رتبةً بيننا. يجب أن تتحدثي إليهم».

استجمعتُ شجاعتها، ثمّ خرجت من الحشد وقطعتُ نصف المسافة إلى الرجال. «أنا يانغ دو-سانغ؛ الرئيسة السابقة لجماعة سوت-دونغ للغوص. أنا أصغي إليكم».

- «فهمنا أنكن رحبتن لتوكن بإلهة الريح، وسوف تكونن في حلّ من نشاطكن المعتاد خلال الأسبوعين المقبلين —».

- «المرأة لا تكون أبداً في حلّ من نشاطها»، قالت دو-سانغ. ابتسم الدكتور بارك ردّاً على تعليقها، لكنّه اختار ألا يجادل به. «قد لا تعرفين هذا، لكن إجهاد المياه الباردة الذي تتحمّله الهينيو أكبر من ذاك الذي تتحمّله أيّة جماعةٍ بشريةٍ أخرى في العالم».

قوبلت هذه المعلومة بنظراتٍ لا مبالية. لم نكن نعرف شيئاً عن الجماعات البشرية الأخرى أو «إجهاد المياه الباردة». كنّا نملك تجاربنا الخاصّة وحسب. عندما كنّا نغوص أنا ومي-جا شتاءً في فلاديفوستوك؛ لم نرَ أحداً معنا في الماء باستثناء الهينيو الأخريات. اعتبرنا قدرتنا هذه بمثابة النعمة التي سمحت لنا بمساعدة عائلاتنا.

- «نحن نبحث عن عشرين متطوعة»، تابع الدكتور بارك. «نريد عشراً من الهينيو، وعشراً من غير الغوّاصات».

- «ما الذي يتطوّعن من أجله؟»، سألت دو-سانغ.

- «سوف نجري اختبارات على النساء داخل الماء وخارجه»،
أجاب الدكتور بارك.

- «نحن لا ننزل إلى البحر حين تكون إلهة الريح هنا»، قالت
دو-سانغ.

- «أنتنّ لا تنزلن إلى البحر، أم أنكنّ لا تحصدن؟»، سأل
الدكتور بارك. «نحن لا نطلب منكنّ حصاد أيّ شيء. لهذا السبب
جئنا الآن - أي في الوقت الذي لستنّ مشغولات فيه. إذا لم تحصدن
شيئاً، فلن تكون الإلهة غاضبة».

لكن ما الذي يعرفه حقاً عن إلهتنا ومدى جبروتها؟ مع ذلك،
كانت لديه وجهة نظر. لم يسبق لأحد أن قال إنّ النزول إلى الماء
ممنوعٌ خلال هذه الفترة.

- «سوف نقيس درجات حرارتكنّ»، تابع، واثقاً جداً من نفسه.
«وسوف —».

- «هل يمكنني المساعدة؟»، شقشقت جون-لي.

علت الضحكات من كلا الجانبين. أولئك الذين عرفوا جون-لي
كانوا ليتوقعوا شيئاً كهذا منها، بينما فكّر الغرباء كم هي لطيفة.
ركضت ابنتي إلى جدّتها. جلس الدكتور بارك القرفصاء بحيث يصبح
وجهها لوجه مع جون-لي. «نحن ندرس معدّلات الأيض الأساسية
للهينيو مقارنةً بالنساء اللواتي لا يمارسن الغوص. سوف نأتي إلى هنا
في كل فصل من الفصول الأربعة. هل والدتك غوّاصة؟». ثمّ تابع
بعد أن أومأت برأسها: «سوف ننشئ مختبراً ميدانياً على هذا
الشاطئ. سنقيس درجات حرارة النساء قبل وبعد نزولهنّ في الماء.
نريد أن ندرس مؤشّر الارتجاع لديهنّ. نحن نتساءل عمّا إذا كانت
قدرة الغوّاصة - الحابسة لأنفاسها - على مقاومة البرد وراثية أم أنّها
نوعٌ من التكيف المكتسب. نحن —».

استدارت جون-لي وحدّثت إليّ بعينيها السوداوين. «أمّي، يجب أن تفعلني هذا. وأنت أيضاً، يا جدّتي! وأنت أيضاً أيتها الأخت الكبرى». ثمّ عادت لتستدير نحو الدكتور بارك. «هؤلاء ثلاثة. أوه، وكيم يانغ-جين ستفعل ذلك أيضاً، أليس كذلك؟». إذ أومأت شريكتي برأسها، رمقت جون-لي الدكتور بارك بنظرة صارمة. «سوف أساعدكم في العثور على الأخريات. لا يوجد لدينا الكثير من المنازل التي نساؤها لسنّ من الهينيو، لكن هناك الأرملة التي تطحن الدخن وتبيعه، والمرأة التي تصنع الفحم، والأخرى المعروفة كخيّاطة. متى تريد منهم البدء؟». ثمّ جالت بنظرها على وجوه الرجال الآخرين. «أين ستضعون مختبركم؟».

مختبر. لم أكن أعرف ما هذا. إلى هذه الدرجة كانت ابنتي قد أصبحت بعيدة بالفعل.

لم يكن العثور على متطوّعات مسألة سهلة على أية حال. تلك كانت لا تزال سنوات التكتّم، ولدينا كلّ الأسباب لتوخي الحذر. في 21 سبتمبر من العام 1954 - أي بعد سبع سنوات ونصف من بداية التمرد - قُتل آخر المتمرّدين أو تمّ اعتقالهم، وأُلغي أخيراً الأمر الذي يسمح بإطلاق النار بمجرّد الرؤية في جبل هالا. حادثة 4.3 كانت قد انتهت رسمياً - رغم أنني لم أفهم يوماً كيف يمكن اختزال شيء استمرّ لأكثر من سبع سنوات بمصطلح «حادثة». جمّعنا المعلومات وقاطعناها معاً بطرقٍ متنوّعة، وكان ما عرفناه صادمًا بحق. أُحرقت أو سُويت بالأرض أكثر من ثلاثمئة قرية، دُمّر أكثر من أربعين ألف منزل، وكان عدد القتلى كبيراً لدرجة أنّ أسرة واحدة في جيجو لم تنج من فاجعة. طُلب من الكوريّين في البرّ الرئيسي عدم تصديق القصص حول المذبحة. لطالما كان شعب جيجو متشكّكاً بطبيعته حيال الغرباء، وبِتنا الآن حتّى أكثر تشكّكاً. وبالنتيجة، أصبحت

جزيرتنا أكثر انغلاقاً على نفسها. بدا الأمر كما لو أنّ جيّجو تحوّلت مجدّداً إلى جزيرة للمنفيين، كنّا جميعاً عبارةً عن أرواح شاردة، هائمة.

كانت رسائل التذكير بما حدث في كلّ مكانٍ من حولنا. الرجل الذي يسير على عكازين بعد أن هُشمت ركبته بضربة فأس. الفتاة التي أصيبت بحروق في معظم أنحاء جسدها، نضجت لتبلغ سنّ الزواج دون أن تتلقّى أيّ عروض. والشابّ الذي نجا من أشهر من التعذيب، يجوب الأزقة، بشعرٍ أشعث، ووجهٍ غير حليق، وعينين ساهمتين. جميعنا عانينا من الذكريات. لا يمكن لأيّ منّا نسيان رائحة الدم الخانقة أو الغربان التي احتشدت مشكّلةً سحباً كبيرة فوق الموتى. طاردتنا كلّ هذه الأشياء في أحلامنا وأثناء كلّ لحظة يقظة. لكن إذا كان لدى أحد ما يكفي من الحماقة ليتلفّظ بكلمة حزنٍ واحدة أو إذا ضُبط وهو يذرف دمعاً على موت أحد أحبّائه، فسوف يُقبض عليه - أو عليها - في الحال.

كانت قائمة القيود طويلة، لكنّ أكثرها رعباً بالنسبة لي كانت تلك التي تحدّ من إمكانية الحصول على التعليم. إذ وبغض النظر عن سوء الأحوال، كان عليّ بذل كلّ ما بوسعي للتأكد من تحقيق أحلام جون-بو بخصوص أطفالنا. عنى هذا أنّه بينما كان وجود مجموعة من الغرباء الذين يتفحّصونني بفضول فكرةً غير مستحبةً بالنسبة لي، فقد وافقتُ على المشاركة - وجعلتُ ابنتي الكبرى وحماتي تشاركان أيضاً - لأنّ جون-لي كانت مهتمةً بالمشروع، ولربّما يمكن لهؤلاء الرجال مساعدتها بطريقة لا يمكنني تصوّرها.

طُلب منّا تناول عشاءٍ خفيف، وارتداء ثياب الغوص تحت ثيابنا

الخاصّة باليابسة، والتواجد في المختبر صباح اليوم التالي دون تناول وجبة إفطار. مرّت وان-سون وغو-سُن لاصطحابي مع ابنتيّ وحماتي. نزلنا نحن الستّة إلى الشاطئ، حيث كانت قد نُصبتْ خيمتان. بفضل جهود ابنتي واستفسارات الفريق، تمكّنوا من العثور على عشر نساء هينيو - بما في ذلك الأختان كانغ وشريكتي في الغوص يانغ جين - وعشر نساء لا يعملن في البحر.

قدّمنا الدكتور بارك إلى بقيّة فريقه: الدكتور لي، والدكتور بوك، والدكتور جونز، وما إلي ذلك. ثمّ قال لنا: «سوف تبدأن اليوم بثلاثين دقيقة من الراحة».

تبادلتُ النظرات مع دو-سانغ. راحة؟ يا لها من فكرة. لكنّ هذا ما حدث بالضبط. اصطحبونا إلى الخيمة الأولى، حيث استلقينا على أسرّة نقالة. ظلّت جون-لي بجانبني، لكنّ عينيها تنقلتا من سريرٍ لآخر، من طاولةٍ لأخرى، من رجلٍ لآخر. رغم أنّني استطعتُ فهم كلماتهم الكورية، إلّا أنّ معظم المعنى تاه منّي.

- «أنا أستخدم مقياس كولينز للتنفّس ذي التسعة لترات، لقياس كمية الأكسجين ومعادلتها إلى ما يقابلها من السعرات الحرارية للوصول إلى معدّل التمثيل الغذائي الأساسي بانحرافٍ بأجزاء في المئة عن معيار دوبوا»، قال الدكتور لي بصوتٍ عالٍ متحدّثاً إلى جهاز تسجيل.

كان ذلك أشبه برطانيةٍ غير مفهومة، لكن بدا أنّ جون-لي تستوعب كلّ كلمةٍ وفعل.

الخطوة التالية اضطلع بها الدكتور بوك الذي وضع أنبوباً زجاجياً في فمي. وأفاد بأنّ درجة حرارتي طبيعية عند مستوى 37 درجة مئوية أو 98,6 درجة فهرنهايت. ضحكت ابنتي الكبرى في الممرّ عندما وضع أحد الأطباء البيض على صدرها شيئاً له أنابيب تصل إلى أذنيه.

لم يعجبني ذلك، ولم تعجبني فكرة أنه سيفعل ذات الشيء معي .
كنتُ على وشك اصطحاب ابنتي والخروج من هناك عندما تنحنح
الدكتور بارك .

- «لقد أخبرتك بالأمس شيئاً لا بدّ أنكنّ تعرفنه بالفعل . لديكنّ
قدرة على تحمّل انخفاض حرارة الجسم أكبر من أيّ جماعة بشرية
أخرى على هذا الكوكب . في أستراليا، يمشي السكّان الأصليون
عراة حتّى في فصل الشتاء، لكن نادراً ما تنخفض درجات الحرارة
لديهم عن 35 درجة مئوية . الرجال والنساء الذين يسبحون في
القنوات العريضة - في تشيلي - يفقدون الكثير من دفء أجسادهم،
لكنّ حرارتهم نادراً ما تنخفض دون 34 درجة مئوية . الصيّادون في
غاسبي - كندا - ومشرّحو الأسماك الإنجليز يقضون أيّامهم وأيديهم
مغمورة بالماء المالح البارد، لكن فقط أيديهم . ثمّ هناك الإسكيمو؛
إنّ حرارة أجسادهم تبقى ضمن الحدود الطبيعية . نعتقد أنّ السبب في
ذلك هو أنّهم يتبعون نظاماً غذائياً غنياً بالبروتين، ويرتدون الكثير من
الملابس» .

كانت طريقته في الكلام غريبة، لكن مشيته المفعمة بالحيوية
كانت حتّى أكثر غرابة . لم أكن حمقاء مع ذلك، وفكرتُ أنه يستخدم
أسلوبه المتّقد نشاطاً كوسيلة لإلهائنا عمّا يفعله الأطباء الآخرون بنا .
وضع أحدهم رباطاً حول ذراعي وأخذ يضغط على كرة مطاطية وهو ما
جعل الرباط ينتفخ ويضغط بالتالي على ذراعي . ما حدث تالياً كان
سريعاً للغاية بحيث لم يكن لدى أيّ منّا الوقت لاستيعابه بالكامل .
كان ثمّة رباط حول ذراع غو-جا مثل الذي لديّ، لكن العلماء لم
يكونوا معجبين بما يرونه . «إنّ ضغط دمها مرتفع إلى مستوى لا يؤهلها
 للمشاركة في الدراسة»، سمعتُ أحد الرجال يقول . وتمّ اصطحاب
رئيسة جماعتنا خارج الخيمة قبل أن يتمكّن أحدٌ من الاعتراض .

لم يُلقِ الدكتور بارك بالاً لما بدا لي مفاجئاً جدّاً، بل ظلّ يتحدث ببساطة. «نريد أن نرى كم من الوقت يمكنكُ البقاء في الماء، وما تأثير ذلك الغمر على درجات حرارة أجسادكُن. نحن نفترض أنّ مؤشّر الارتعاش لديكُن هو نوعٌ من التكيّف البشري الكامن مع الانخفاض الحادّ في درجة حرارة الجسم؛ انخفاضٌ نادر الحدوث جدّاً إن حدث أصلاً لدى الرجل المعاصر، أو في حالتنا هذه، المرأة».

بالطبع، لم تكن لدينا أدنى فكرة حول الذي يتحدث عنه.

- «هل يمكن أن يكون لهذه القدرة علاقةٌ بالغدّة الدرقية؟»، سأل كما لو أنّنا قد نعرف الإجابة حقّاً. «هل ثمة شيءٌ في نظام الغدد الصمّاء لديكُن يتيح لكنّ الأداء والإنجاز في البرد كحال بعض الحيوانات الصغيرة على اليابسة وفي الماء؟ هل يعقل أن تكنّ مثل فقمة الويدل التي —».

- «قل لذاك الرجل أن يتوقّف عن لمس ابنتي!». جلستُ غو-سُن فوق سريرها وهي تحدّق بشراسة في وجه طبيب أبيض حتّى أنّه رفع يديه وابتعد عن وان-سون. «عليك أن تخبرنا ما الذي تفعلونه بالضبط وإلا سنغادر».

ابتسم الدكتور بارك. «ليس هناك ما تخشيه. أنتِ والأخريات تساعدن العلم —».

- «هل ستجيب على سؤالِي؟»، سألتُ غو-سُن بينما أخذت تُنزل ساقها عن السرير النقال. حدث بعض النساء من الهينيو وغير الهينيو حذوها، كنّا ببساطة لا نحبّ هؤلاء الرجال الذي يلمسون بناتنا.

شبك الدكتور بارك يديه معاً. «لا أعتقد أنّك تفهم الأمر جيّداً. نحن نحترم ما تفعله. أنتنّ مشهورات!».

- «مشهورات بالنسبة لمن؟»، سألت غو-سُن.

تجاهل الدكتور بارك السؤال، وتابع كلامه قائلاً: «كلُّ ما نطلبه هو أن تنزلن في الماء كي يتسنى لنا قياس عتبة الارتعاش لديكنَّ».

- «عتبة الارتعاش»، ردّدت غو-سُن مع شخيرة وذقني ممطوطة.

لكن أمكنني معرفة أنّها لم تكن تخطّط للمغادرة، فعبر بقائها ضمن الدراسة سيكون لديها نوعٌ من الأفضلية على شقيقتها التي صُرفت. لا شيء من هذا عنى أنّني كنتُ مرتاحة. كنتُ عالقةً بين رغبتني في حماية نفسي ومين-لي ورغبتني في مساعدة ابنتي الصغرى.

- «هل هناك طريقةٌ لإجراء هذه الاختبارات دون أن...». كنتُ أرملة ولم يلمسني رجلٌ منذ مذبحة بوكتشون.

اتّسعتُ عينا الدكتور بارك وقد أدرك حقيقة الأمر، فتلاشت حماسته، وقال بحزم: «نحن أطباء وعلماء. أنترنّ مادّتنا للدراسة. نحن لا ننظر إلّيك بتلك الطريقة».

لكنّ كلّ رجلٍ ينظر إلى النساء بتلك الطريقة.

ثمّ أضاف: «حتّى لو كنّا كذلك، فإنّ لدينا هذه الفتاة الصغيرة هنا، وينبغي بنا حمايتها من أيّ شيءٍ غير لائق. كما أنّ وجودها يحميكنّ أيضاً».

احمرّت جون-لي خجلاً، لكن كان من الواضح أنّها تستمتع بتمييزها عن بقيّتنا.

- «لقد ساعدتُ في إحضاركُنّ إلى هنا»، قال الدكتور بارك. «لنرى كيف يمكنها المساعدة الآن».

عاد الرجال عندئذٍ لاستكمال اختباراتهم. لم يسمحوا لجون-لي بالتعامل مع أدواتهم، لكنّهم استغلّوها كي تشرح لنا - بكلماتٍ يمكننا فهمها - ما الذي كانوا يفعلونه. تبين أنّ متوسطَ عمر العيّنة المدروسة كان تسعة وثلاثين عاماً. متوسطُ أطوالنا 131 سنتيمتراً،

ومتوسط أوزاننا 51 كيلوغراماً (أو بحسب تعبير أحد العلماء الأمريكيين: أكثر بقليل من واحدٍ وخمسين إنشاً، ومئة واثني عشر رطلاً). بعد خمسة عشر دقيقة، طلب العلماء منا نزع ثيابنا الخاصة باليابسة. لم نكن نحن الهينيو نخجل أبداً من إظهار أجسادنا. كنّا قد رأينا بعضنا البعض عراة مراراً، كما أنّنا تعايشنا لأجيال مع وصمة العري الملتصقة بنا. مع ذلك، ورغم وجهة نظر الدكتور بارك حول كونهم فريقاً من الأطباء والعلماء، فقد كان من المخرج أن نتجرّد من سراويلنا وستراتنا أمامهم. كانت النساء غير الغواصات الأكثر انزعاجاً. ربّما لم يكنّ أبداً في وضعٍ حيث ارتدين القليل جداً من الملابس أمام رجل باستثناء أزواجهن، وقد اتّضح أنّ هذا كان كثيراً جداً بالنسبة لإحدى النساء التي قرّرت الانسحاب من الدراسة. أصبح فريقا الهينيو وغير الهينيو متعادلين مجدّداً؛ تسع نساءٍ في كلّ فريق.

كان هذا أبرد أوقات السنة، لذلك اخترنا هذه الفترة للترحيب بالآلهة. مع ذلك، كانت الهينيو معتادات على درجات الحرارة الصقيعية، في حين ولولت النساء غير الغواصات وهنّ يتقدّمن على رؤوس أصابعهنّ فوق الصخور، والرياح تصيبهنّ بالقشعريرة وتحيل لون بشراتهنّ أزرق. جلسْتُ جون-لي على الرمل وضمتُ ركبتيها إلى صدرها كي تدفئ نفسها. نزلت بقيّتنا إلى المياه وسبحنا مسافة عشرة أمتار عن الشاطئ. غطستُ أنا ودو-سانغ إلى الأسفل معاً. كنّا نعرف هذه المنطقة جيّداً. لم تكن عميقة جداً، وكان الضوء يتدفّق وصولاً إلى القاع. الربيع كان على الأبواب، وما يحصل على اليابسة - نموّ الأوراق وتبرعم الزهور - يحصل في البحر أيضاً، إذ تنمو الأعشاب البحرية مع تعاظم دفء الشمس، وتتزاوج مخلوقات البحر وتنجب أطفالاً. عندما صعدتُ إلى السطح لألتقط أنفاسي، سبحتُ متّجهةً إلى غو-سُن لأطلب منها أن تخبر شقيقتها ورئيستنا غو-جا عن

بقعةٍ رصدتها تحوي الكثير من قناذل البحر والتي يمكننا حصادها في الأسابيع المقبلة.

في غضون خمس دقائق، رجعت النساء غير الغواصات إلى الشاطئ. غطست مجدداً إذ اختفين عن الأنظار داخل الخيمة. تدبرت أن أبقى في الماء لنصف ساعة - نفس مدة الغوص التي اعتدنا أنا ومي-جا عليها في فلاديفوستوك. أراد العلماء أن يروا ارتعاشاً. هذا شيء يمكنني أن أعطيه لهم.

حين عدتُ إلى الخيمة، كانت النساء غير الغواصات على أسرتهن، والاختبارات السابقة يعاد إجراؤها عليهن. تنقلت جون-لي من سريرٍ لآخر؛ وحاولت أن تتحدث إلى كل امرأة وتشئت انتباهها عبر الدردشة عن مختلف مستويات الانزعاج التي تعاني منها - البرد، والرجال، والطريقة التي يتكلمون بها، والأدوات التي يستخدمونها، والغربة التي تلت كل ذلك.

اقترب الدكتور باريك مني. «أمل أن تسمح لي بإجراء اختباراتك».

أومأت برأسي موافقة، فوضع الأنبوب الزجاجي في فمي. حاولت أن أجري تقييماً شخصياً له دون أن يظهر علي أنني أفعل ذلك. بدا شاباً، لكنه ربّما بدا كذلك لأنه لم يقض حياته في الخارج. كانت يده ناعمتين وبضاوين على نحوٍ مدهش. عاد للتحديث إلى جهاز التسجيل كما فعل سابقاً. ومجدداً، لم أفهم سوى القليل جداً ممّا قاله.

- «كانت درجة حرارة الماء اليوم عشر درجات مئوية؛ خمسين درجة فهرنهايت. بقيت مادة الدراسة رقم 6 مغمورة بالماء لثلاث وثلاثين دقيقة. انخفضت درجة حرارة جلدها بعد الغوص إلى سبع وعشرين درجة مئوية؛ ست وثمانين درجة فهرنهايت، في حين بلغت

درجة حرارة فمها اثنتان وثلاثون درجة مئوية؛ خمس وتسعين درجة فهرنهايت. تمَّ أخذ القياسات بعد خمس دقائق من الخروج من الماء». نظر في عينيّ. «إنّه مستوى مذهل من الانخفاض في حرارة الجسم. دعينا الآن نرى كم تستغرقين للعودة إلى المستوى الطبيعي». ثمَّ تركني وانتقل إلى دو-سانغ، وقاس طبيبٌ مختلف درجة حرارتي كلّ خمس دقائق. عدتُ إلى المستوى الطبيعي بعد نصف ساعة. «هل تنزلين في البحر مجدّداً في هذه المرحلة؟»، سألتني الدكتور بارك. - «بالطبع»، أجبتُ متفاجئة من كونه قد يسأل سؤالاً غريباً كهذا. - «هذا استثنائيّ».

التقتُ عينيّ بعينيّ دو-سانغ. استثنائي. كان هذا عصياً على الفهم بالنسبة لنا.

في اليوم التالي، أجرى الأطباء نفس الاختبارات. في اليوم الثالث، طلبوا من جون-لي إحضار مناشف وبطانيات لنا لدى خروجنا من البحر. بحلول اليوم الرابع أصبحنا أكثر تقبلاً لأساليبهم. لقد كان من السهل جداً ممازحتهم. كنّا نردّد الكلمات التي يستخدمونها بأصواتٍ مغنّاة، وهو ما جعلهم يضحكون. مين-لي ووان-سون كانتا المحرّضتين الرئيسيتين، وقد أحَبَّهما الأطباء. في صباح اليوم الخامس، كانت مجموعتنا الصغيرة على وشك الدخول إلى الخيمة حين لمحتُ مي-جا واقفةً على السور البحريّ. كان ابنها يركب درّاجة بالقرب منها. كلٌّ من في القرية الآن قد عرف بأمر التجربة العلميّة، وجاء الكثيرون إلى السور البحري بقصد الفرجة. يمكنني أن أتخيّل رغبة مي-جا في أن تكون جزءاً من الدراسة. ربّما حتّى شعرتُ بالغيرة لأنّ هذه الفرصة أتتْ لي. بالتأكيد كانت الغيرة

هي السبب، لأنها عبر إحضار يو-تشان ودراجته كانت تستعرض وتفاخر بما يمكنها أن تقدمه لابنها.

قطعت جون-لي سلسلة أفكار ي إذ جذبت كمي وهتفت: «انظري يا أمي! يو-تشان لديه دراجة! هل يمكنني الحصول على واحدة أيضاً؟».

- «لا أعتقد ذلك».

- «لكنني أريد أن أتعلم ركوب —».

- «هذا ليس شيئاً تفعله الفتيات».

- «أرجوك أمي، أرجوك. يو-تشان لديه واحدة. ألا ينبغي أن تكون لدينا على الأقل واحدة لعائلتنا؟».

أزعجتني حماسها. أولاً، كانت ابنتي بالطبع تعرف يو-تشان ووالدته، لكن هذا لا يعني أنني أحببت ذلك. ثانياً، لقد كنا هنا فقط لرغبتي في منح جون-لي فرصة، لكن يبدو أنها نسيت الآن الدراسة تماماً لصالح الدراجة المعدنية اللامعة.

فجأة، استدارت مي-جا واندفعت مبتعدة، لكن الصبي بقي في مكانه يحدق في اتجاهنا. أدركت أنه لم يكن ينظر إليّ، بل إلى مين-لي ووان-سون. كان الثلاثة يذهبون إلى نفس المدرسة ويحضرون معظم الفصول معاً. كان الثلاثة في السادسة عشرة، وهي سن كافية للزواج وللوقوع في المشاكل على حد سواء. لكزت الفتيات في كتفهما كي تتحرّكا وتابعا طريقهما إلى الخيمة.

كان يو-تشان قد غادر حين خرجنا من الخيمة بملابس الغوص. كانت المياه شديدة البرودة كحالتها طيلة الأسبوع الفائت. مجدداً، استطاعت نساء اليابسة البقاء لبضع دقائق فقط في الماء، بينما ظللنا نحن الهينيو في الماء حتى أخذنا نرتجف بشدة. حين خرجت، كانت جون-لي تنتظرني حاملة منشفتي.

- «أمي»، قالت لي. «هل يمكنني الحصول على درّاجة؟ أرجوك!».

يمكن لابنتي الصغرى أن تكون متقلّبة الأهواء، لكنّها يمكن أن تكون شديدة التصميم أيضاً.

- «هل تريدان أن تكوني عالمة أم راكبة درّاجات؟»، سألتها.

- «أريد أفعل كلا الأمرين. أريد —».

قاطعتها، «أنتِ تريدين؟ نحن جميعاً نريد. أنتِ تشتكين حين أضع البطاطا الحلوة في وجبة غدائك للمدرسة، لكنني قضيتُ سنواتٍ حيث كانت وجبتي الوحيدة طوال اليوم هي حبة بطاطا حلوة واحدة». لسوء الحظ، فقد وجّهتُ كلماتي جون-لي في اتجاه آخر؛ اتّجاه مألوف بكل أسف. «الأطفال الآخرون يحصلون على أرزّ أبيض، أمّا الطعام الذي تعطيه لنا فيجعلنا نبدو وكأنّنا نعيش حياة الكفاف».

- «أنا أشتري الأرزّ الأبيض في عيد رأس السنة»، قلتُ مجروحة. «وغالباً ما أضع الشعير ضمن غدائك —».

- «ذلك حتّى أكثر إحراجاً، لأنّه يعني أنّنا فقراء حقّاً».

- «يا لك من طفلةٍ محظوظة لتتمكّني من قول ذلك. أنتِ لا تعرفين معنى الفقر —».

- «إذا لم نكن فقراء، فلم لا يمكنني الحصول على درّاجة؟».

أردتُ أن أشدّ شعرها وأذكرها أنّ المال الذي ادّخرته كان من أجل تعليمها وتعليم شقيقتها وشقيقها.

في تلك الليلة، جاءت وان-سون كعادتها بعد العشاء، وخرجتُ الفتيات الثلاث في نزهةٍ على الأقدام. أعددتُ شاي الحمضيات، وأخذتُ كوبين عبر الفناء إلى منزل دو-سانغ. كانت فوق حصيرة نومها بالفعل، لكنّ سراج الزيت لا يزال مشتعلًا.

- «كنت أنتظرك»، قالت لي. «كنت تبدين مستاءة طوال اليوم. هل فعل أحد أولئك الرجال شيئاً لك؟».
- هزئت رأسي وجلست على الأرض بجانبها، وسلمتها كوب الشاي.
- «لقد كنت أماً جيّدة لجون-بو»، قلت لها. «أرسلته إلى المدرسة حين لم تفعل كثيرات من الهينيو ذلك».
- «أو لم يستطعن فعل ذلك. كان لدى أمك أطفالٌ كثيرون»، قالت بحزن. «لكن انظري إلى ما تفعلينه أنت الآن. ثلاثة أطفال في المدرسة. هذا أكثر من أية عائلة أخرى في القرية».
- «ما كنت لأتمكّن من فعل ذلك بدون مساعدتك».
- أمالت رأسها تعبيراً عن الشكر، ثمّ قالت بعد لحظة صمتٍ طويلة: «أخبريني إذاً، ما الخطب؟».
- «رأيتُ مي-جا وابنها اليوم».
- «لا تفكّري بها —».
- «كيف لي ألا أفعل؟ هي تعيش على بعد عشر دقائق سيراً على الأقدام من هنا. نحن نفعل كلّ ما بوسعنا كي نتجنّب إحداها الأخرى، لكن هادو صغيرة».
- «وماذا في ذلك؟ في كلّ قرية يعيش الضحايا بجوار الخونة أو الشرطة أو الجنود أو العملاء. القتلة وأبناء القتلة هم الذين يديرون الجزيرة الآن. هل يختلف هذا كثيراً عن تلك الأيام حين كنت فتاة صغيرة؟».
- «لا، لكنّها تعرف كلّ شيءٍ عني —».
- «مَن لا يعرف كلّ شيءٍ عنك؟ هادو صغيرة، كما قلت. أخبريني بسبب قلقك الحقيقي».

ترددت قليلاً، ثم سألتها: «ما المستقبل الذي يمكنني منحه لأطفالي في ظلّ نظام الجرم بالتبعية القائم لدينا؟».

- «لم يكن أولئك الذين فقدناهم مذنبين بأيّ شيء».

- «الحكومة لا ترى الأمر على هذا النحو. كلُّ من مات يعتبر مذنباً».

- «يمكنك أن تفعلي ما فعله آخرون، وتدّعي أن زوجك مات قبل الثالث من أبريل»، اقترحت دو-سانغ.

- «لكنّ جون-بو كان مدرّساً! كان معروفاً للجميع في بوكتشون».

- «كان مدرّساً، هذا صحيح، لكنه لم يكن محرّضاً أو متمرّداً أو شيوعياً».

- «أنتِ تقولين ذلك بصفتك والدته». ثمّ سمحتُ لنفسني بالتعبير عن أعماق مخاوفي. «هل يمكن أنّه كانت لديه أسرار لا نعرف بشأنها؟».

- «لا».

كانت تلك إجابةً بسيطة، لكنني لم أكن واثقة تماماً. «لقد قرأ الملصقات. واستمع إلى الراديو».

- «لقد أخبرتني أنّه قرأ الملصقات من كلا الجانبين بحيث يتسنى له إخبار الناس بما كان يحدث»، قالت دو-سانغ. «واستمع إلى الراديو للسبب نفسه. الأرجح أنّ السلطات ستفكّر فيه كزوج نموذجي من جييجو —».

- «والذي عمل كمدرّس؟».

- «لطالما كنتُ فخورةً به لأنّه أصبح مدرّساً. اعتقدتُ أنّك كنتِ فخورة أيضاً».

- «لقد كنتُ فخورة. أنا فخورة بالفعل». امتلأت عيناى بالدموع. «لكنني أظُلُّ خائفةً على أطفالي؛ لا حيلة لي في ذلك».

- «أياً كان ما فعله أو لم يفعله ولدي، أنتِ تعلمين جيداً أنَّ يو-ري وسونغ-سو لم يرتكبا أيَّ خطأ. كانا ضحيَّتين. أولئك الذين تبَقَّوا مِنَّا هم ضحايا أيضاً. لكن على عكس كثيرين آخرين، لا أشعر أننا كنَّا مستهدفين على وجه التحديد. لم نضطرَّ لتسجيل حضورنا في مركز الشرطة كل شهر كما حدث مع بعض العائلات».

- «هذا صحيح».

- «وهل سبق أن شعرتِ يوماً بأنَّك مراقبة؟».

هزرتُ رأسي.

- «حسنٌ إذا»، قالت بحزم. «فلتبقي تركيزك على الخير في حياتنا. ابنك يؤدِّي طقوس تبجيل الأجداد، ويتعلَّم القيام بالواجبات الأسرية كالطهي. ومع الوقت يتَّضح أنَّ مين-لي غوَاصَّةٌ جيِّدة، بينما جون-لي...».

إذ واصلت حماتي الحديث عن فضائل أطفالي، شعرتُ أنني بثُّ أكثر هدوءاً. لربَّما هي على حق. حقيقةً أننا لم نُستدعَ إلى مركز الشرطة ولم نكن ملاحقين لا بدَّ أنها تعني شيئاً ما. هذا لا يعني أننا لم نكن رغم ذلك مدرَّجين على قائمةٍ ما في مكانٍ ما.

بحلول اليوم السادس، أصبحت النساء من غير الغوَاصات أكثر اعتياداً على أن يقفن في ملابسهنَّ المائية أمام الرجال. والعلماء أصبحوا أكثر جرأةً أيضاً. في البداية كانوا يحرسون على عدم النظر إلينا حين ننزل إلى الشاطئ، لكنَّهم الآن يحدِّقون بنا كما يفعل الرجال إذ ينظرون إلى النساء. كنتُ على نحوٍ خاص قلقة بشأن

الكيفية التي رمقوا بها مين-لي ووان-سون. كانتا فتاتين جميلتين، ممشوقتي القوام، بوجهين جميلين وبشرة ناعمة. لم يسعني لدى النظر إليهما سوى التفكير بنا؛ أنا ومي-جا عندما كنّا في ذلك العمر. أو عندما كنّا أكبر بقليل في فلاديفوستوك. في ذلك الوقت، لم ندرك دائماً حقيقة الانطباع الذي نتركه عنّا، رغم أنّنا حاولنا توخّي الحذر حين نكون على أرصفة الموانئ. كان تركيزنا منصباً على الخوف ممّا قد يفعله الجنود اليابانيون بنا أكثر من تركيزنا على النظرات التي رمقنا بها الرجال في جيجو أو في أيّ مكانٍ آخر. لكنّ مين-لي ووان-سون لم تكونا كبيرتين بما يكفي لتتذكّرا اليابانيّين، كما أنّ وان-سون لم تشهد في هادو شيئاً كالذي حدث في بوكتشون. لطالما تبادر إلى ذهني قولُ كان والدي ووالدتي يردّدانه: في الشجرة كثيرة الأغصان، سيكون أخفّ نسيم كفيلاً بهزّ بعضها. لطالما كان المعنى جليّاً بالنسبة لي. بوجود الأطفال، سيكون هناك العديد من النزاعات والأحزان والمشاكل. كان من واجبي بصفتي والدة مين-لي منع أيّ من هذه الأشياء من الحدوث.

بعد يومين، غادر الدكتور بارك وفريقه هادو على وعدٍ بالعودة في غضون ثلاثة أشهر. بعدها بيومين، في اليوم الرابع عشر من الشهر القمريّ الثاني، أي بعد أسبوعين بالضبط من ترحيلنا بإلهة الريح في جيجو، كان الوقت قد حان لمغادرتها الجزيرة. من جديد، تجمّعت الهينيو والصيّادون بحذرٍ على الشاطئ. شغلّت غو-جا مقعداً بارزاً بصفقتها رئيسةً لجماعتنا، لكن أختها وابنة أختها لم تجلسا معها في هذه المناسبة. رغم أنّ خصام الأختين كانغ كان أمراً معتاداً منذ الطفولة، إلّا أنّ حقيقة كون غو-سُن ووان-سون قد شاركتا في الدراسة أزعجت غو-جا على نحوٍ لم تتوقّعه أيّ منّا، كما لو أنّ سباحتنا في مياهٍ متجمّدة دون مقابلٍ ماليّ قد هدّد بطريقةٍ ما مركزها

وسلطتها. قد يستغرق الأمر ساعة أو يوماً أو أسبوعاً قبل أن يعود الدفء للعلاقة بين غو-جا وغو-سُن.

قدّمنا قرايين من كعك الأرزّ ونبيد الأرزّ للإلهات والآلهة. ثمّ حان وقتُ قراءة الطالع. جلستِ العجائز اللواتي يسافرن من قريةٍ إلى أخرى لهذا الغرض على حصائرهنّ. بحثتُ مين-لي ووان-سون عن أصغر عرّافة. اقتربتُ من امرأة ذات وجهٍ داكن ومتغضّض بفعل الشمس. هي لم تتذكرني، لكنني كنتُ أذكّرها لأنّ والدتي وثقتُ دائماً بالمستقبل الذي تنبأتُ به. نزلتُ على ركبتيّ، ثمّ رجعتُ مستندةً على كعبيّ. ملأتِ العجوز كفّها بحفنة من حبات الأرزّ النيئة ورمّتها في الهواء. تفرّجتُ على قَدري وهو ينهمر متساقطاً، بعضه في كفّ المرأة العجوز، وبعضه الآخر على الحصيرة.

- «ستُ حَبّات ستعني الحظّ الطيّب لك»، قالت وهي تغطّي ظاهر يدها بسرعة. «ثمانِي حَبّات، أو عشر، أو اثنتي عشرة لن تكون جيّدةً بذاك القدر، لكنّها جيّدةٌ بما يكفي. أربع حَبّات ستكون أسوأ رقمٍ يمكنني أن أقوله لك. هل أنت مستعدّة؟».

- «أنا مستعدّة».

أبعدتُ اليد التي تغطّي الحَبّات وقامت بعدها. «عشرة. ليس سيئاً جدّاً، ليس جيّداً جدّاً»، قالت ورمّت الحَبّات بعيداً لتسقط في الفراغات بين الصخور من حولنا.

تنهّدتُ. الآن سوف أقدمّ المزيد من القرايين وسوف أصلي أكثر. حصلت أخريات على قراءاتٍ سيّئة؛ بكّت بعضهنّ على نبوءاتهنّ، وسخرت بعضهنّ منها. حصلتُ كلُّ من مين-لي ووان-سون على الرقم ستّة. طلبتُ العرّافة منهما ابتلاع الحَبّات لعلّهما تحملاّن معهما حظّهما السعيد.

أخيراً، تحت أنظار الشامانة كيم، نسجنا قوارب مصغّرة من

القشّ، يبلغ طول كلّ منها حوالي المتر. ملأنا تلك القوارب بالعطايا والقرايين، وثبّتنا أشرعةً صغيرةً عليها، ودعّونا الإلهات والآلهة للصعود على متنها، ثمّ أرسلنا القوارب إلى البحر. ألقينا المزيد من نبيذ الأرز وحفّات من الدخن والأرز في الماء. عند ذلك، وصل الربيع رسمياً.

في اليوم التالي لطقوس الوداع، وإذ تذكّرتُ ما قالته جون-لي عن أنّنا نبدو فقراء، بدأتُ بتقطيع البطاطا الحلوة لخلطها مع الشعير كي أجعل وجبات أطفالي تبدو أكثر غنى وفخامة. فتحتُ جرّةً فخّارية وسحبت من مخزوني من سمك الأنشوفة المملّحة كي أضعها فوق الشعير في وجبتها. كنت أنتظر منها أن تشكرني لدى عودتها إلى المنزل من المدرسة، لكنّ أفكارها كانت في مكانٍ آخر. دخلتُ راكضة، فتحتُ حقيبتها وأخرجت منها كتاباً جديداً. على الغلاف كانت ثمة صورةٌ لفتاةٍ صغيرة ترتدي تنورة مكشكشة ومريلة وجزمة قصيرة، وخصلاتٍ شقراء تؤظّر وجهها. كانت تمسك بيد رجل عجوز. حولهما كانت الماعز تقضم العشب. وخلفهما ارتفعت جبالٌ وفيرة العدد ومهيبة العلوّ، جميعها مغطّاة بالثلوج.

- «إنّها هايدي»، أعلنتُ جون-لي، «وأنا أحبّها».

وصلتُ إمدادات من الكتاب إلى المدارس في جميع أنحاء الجزيرة. لمَ ذلك؟ نحن لم نعلم قطّ، لكنّ كلّ فتاةٍ في عمرها حصلتُ على نسخة. ابنتي التي كانت قبل أيّام قليلة فقط تركّز على تعلّم ركوب الدراجة، وقبل ذلك بأيّام أعلنتُ رغبتها في أن تصبح عالمة، أصبحت الآن مهووسةً بهايدي. ورغبةً منّي في تشجيعها، طلبتُ منها أن تقرأ القصّة لي. بعدئذٍ، أنا أيضاً بتُ شغوفةً بهايدي، وكلاّرا، وبيتر، والجدّ. تالياً، أصبحت دو-سانغ مأخوذةً بالقصّة. قامت مين-لي بحمل وان-سون على قراءتها. قرأت هذه الأخيرة

الكتاب لأُمّها. وسرعان ما أضاءت مصابيح الزيت منازل هادو في الليل بينما كانت الفتيات يقرأن الحكاية لأُمّهاتهنّ وجدّاتهنّ. أراد الجميع التحدّث عن هذه القصّة، وكنا نزور بعضنا البعض في المنازل أو نتجمّع في الأزقة كي نتناقش فيها.

- «كيف تتخيّلون طعم الخبز؟»، سألت وان-سون ظهيرة أحد الأيام.

أجابت والدتها: «ستحظين بالفرصة لتذوّقه عندما تذهبين إلى فلاديفوستوك للعمل في البحر بعيداً عن الديار. لديهم الكثير من المخازن هناك».

- «ماذا عن حليب الماعز؟»، سألتني مين-لي. «هل شربته حين ذهبت للعمل في الخارج؟».

- «لا، لكنني تذوّقتُ الآيس كريم مرّة واحدة»، أجبتُ وأنا أتذكّر كيف لعقنا المخاريط عند زاوية أحد الشوارع؛ أنا ومي-جا واثنين من الصبيّة الروس.

أحبّت إحداهن جدّة كلارا. وأحبّت أخرى جدّ هايدي. عشقت العديد من الغوّاصات-الطفلات - اللواتي كانت اهتماماتهن قد بدأت تنصبّ على فكرة الزفاف - بيتر، حتّى أنّ وان-سون قالت إنّها تريده زوجاً لها، بينما قالت مين-لي إنّها تفضّل الطبيب، لأنّه كان لطيفاً جداً. لكن مجدّداً، لا أحد كان مسحوراً بالقصّة أكثر من جون-لي. كلارا كانت شخصيّة المفضّلة.

- «لَمْ قد تختارينها؟»، سألتها. «هي مصابة، ولا تستطيع مساعدة عائلتها. هي تبكي. وهي أنانية أيضاً».

- «لكنّها شُفيت بواسطة الجبال، والسماء، والماعر وحليها!». ثمّ بعد لحظة صمت، أعلنت: «ذات يوم، سأذهب إلى سويسرا».

إذ سمعت ذلك، عرفت أنّه ينبغي بي توجيهها في اتّجاه آخر.

فبغض النظر عما قالته دو-سانغ، كان وجود ثلاث ضحايا في عائلتنا - أحدها كان مدرّساً - يجعلنا مشمولين على نحو مضمون بنظام الجرم بالتبعية. لا يمكن لجون-لي أن تحصل على إذن عبور إلى البر الرئيسي، ناهيك عن سويسرا. وحيث إنها كانت لا تزال صغيرة جداً لتفهم كل هذه التبعات، فقد طرحْتُ عليها أوّل سؤالٍ تبادر إلى ذهني: «كيف يمكنك الذهاب إلى عالم خرافي؟». ضحكْتُ جون-لي فحسب. «أمّي، سويسرا ليست عالماً خرافياً. هي ليست أرض الإلهات أيضاً. سوف أغادر جيجو تماماً كما فعلتُ كيم مانديوك. وسوف أشتري لنفسي درّاجة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

البحر الشاسع الذي لا تُسبر أغواره

أغسطس - سبتمبر 1961

بعد ثلاثة أشهر من الزيارة الأولى، عاد الدكتور بارك وفريقه كما كانوا قد وعدوا، ثم بعد ذلك بثلاثة أشهر، في نهاية أغسطس، عادوا مرة أخرى. لأسبوعين في كلّ زيارة، كانت نفس المجموعة المكونة من ثماني عشرة امرأة - تسع غوّاصات وتسع من غير الغوّاصات - تتناول عشاءً خفيفاً وترتاح على الأسرة في الصباح، وتُجرى عليها الاختبارات. لكن هذه المرة، نقلونا بالقارب إلى الوادي تحت الماء حيث غطست مع مي-جا لأول مرة. اختار العلماء هذا الموقع لنفس سبب اختيار والدتي له: كانت التضاريس تسمح لغير الغوّاصات بالطفو فوق الصخور القريبة من السطح، بينما كان بإمكان الغوّاصات النزول عشرين متراً في برودة الوادي. لم تزل النساء من غير الغوّاصات غير قادراتٍ على البقاء أكثر من بضع دقائق، أمّا نحن الغوّاصات، ومع الطقس الذي أصبح أكثر دفئاً، فقد واصلنا الغوص على مدار ساعتين ونصف على الأقل قبل العودة إلى القارب. تعلّمنا أنّ درجات حرارة أجسادنا لم تنخفض بالقدر الذي كانت عليه في الشتاء، وهو ما بدا بديهياً بالنسبة لنا. لكن الآن كان لدى الدكتور بارك القياس الدقيق الذي يريد: 35,3 درجة مئوية في الماء الذي

كانت حرارته 26 درجة مئوية أو 95,5 درجة فهرنهايت في الماء الذي كانت حرارته 79 درجة تقريباً. قال لنا: «هذا مثير للإعجاب، ليس بمقدور الكثير من الناس الاستمرار في تأدية وظائفهم على نحو جيد مثلكم مع انخفاض حرارة أجسادهم عن المعدل الطبيعي».

أضاف العلماء بعداً جديداً للدراسة: الطعام. كانوا يأتون إلى بيوتنا ثلاث مرات في اليوم لفحص كل شيء قبل أن نضعه في أفواهنا. طرحوا علينا نفس السؤال الذي لطالما أضحكنا في البولتيوك. «من يجب أن يحصل على طعام أكثر - الرجل أم المرأة؟». كنّا نعرف الإجابة، لكن اختباراتهم أثبتت ذلك. لم تحتج نساء الهينو إلى 3000 سعرة حرارية في اليوم مقارنةً بال 2000 سعرة التي احتاجتها النساء غير الغواصات فحسب، لكنهنّ أكلن أكثر من أي رجل اختبروه في هادو. «لم نشهد هذا القدر من فقدان الحرارة بصورة طوعية لدى أيّ إنسان آخر»، قال الدكتور بارك بحماس عفوي، «لكن انظرون كيف تعوّض ذلك!». إلّا أنّه كان يدرسنا في مرحلة مختلفة جداً من حياتنا. عدتُ بالذاكرة إلى حيث كنتُ ومي-جا مجرد فتاتين نتعلّم الغوص لتوّنا، ثمّ في وقت لاحق عندما كنّا في فلاديفوستوك، ولاحقاً خلال سنوات الحرب العجاف، حيث لم يكن لدينا ما يكفي للأكل، وكنّا نحيفتين للغاية.

أرادت كلُّ امرأة - غواصة وغير غواصة - أن تظهر كمضيافة. أعدت كلُّ امرأة أفضل أطباقها، كي يتسنى لها تقديم وجبة للعالم الذي جاء لزيارتها. في منزلي، قمنا أنا، ودو-سانج، ومين-لي، بدفع كيونغ-سو جانباً، وهو الذي كان عادة ما يقوم بالطهي، حتى تتمكن من إعداد الأطباق التي تناولناها في البولتيوك: محار مشوي، أذن البحر الأزرق مطهو على البخار، سلطعون مقلي مع الفاصولياء، أو أخطبوط مشوي على أسياخ. طرحت جون-لي أسئلة لا تنتهي

على كلِّ عالِمٍ جاء ليجلس على أرضية منزلنا ويأكل : كيف كان الحال في سيول؟ ما الجامعة التي التحق بها؟ هل من الأفضل أن يكون المرء باحثاً في العلوم أو طبيباً؟ أجاب هؤلاء الرجال على أسئلة جون-لي، لكنهم جميعاً كانوا يرمقون أختها الكبرى متى ما عبرت الغرفة .

عندما جاء الدكتور بارك أخيراً إلى منزلي، دعوته للجلوس وسكبتُ له طاساً من نبيذ الأرز. كانت الطاولة الواطئة قد جُهِّزت بالفعل بالأطباق الجانبية: الكيمتشي، الفاصولياء المخللة، جذر اللوتس، القرع المسلوق، شرائح الخنزير الأسود، سمك دامسيل المملح، السرخس المتبل، وخيار البحر المسلوق والمقطَّع والمتبل. إذ كنّا على وشك البدء في تناول الطعام، خطَرَ معلِّم جون-لي بالباب، انحني، ثم أصدر إعلاناً.

قال: «لقد فازت ابتك في مسابقة على مستوى الجزيرة لطلاب الصف الخامس، ستمثل جون-لي الآن جانبنا من جبل هالا في مسابقة أكاديمية في مدينة جيجو. هذا شرف عظيم».

هبتُ جون-لي على قدميها وراحت تدور قافزةً في أرجاء الغرفة. هنأتها أختها وكذلك أخوها. بكت دو-سانج دموع الفرح. أما أنا، فلم أستطع التوقف عن الابتسام. ثم بعد أن قال الدكتور بارك: «الابنة ذكية لأن الأم ذكية»، عندها لم أستطع حقاً التوقّف عن الابتسام.

دعوت المعلِّم أوه للانضمام إلينا. أفسح له المجال، وسُكب المزيد من نبيذ الأرز. عندما استفسر الدكتور بارك عن المسابقة، أجاب المعلِّم أوه: «جون-لي ليست مجرد فتاة ذكية. إنّها أُلِّمَ طالبة في مدرستنا الابتدائية. ستكون لدى أبناء المدارس في مدينة جيجو فرصٌ أفضل، لكنني أعتقد أنّ لديها فرصة جيدة للفوز بالمسابقة بأكملها».

كان ينبغي بكلمات المديح هذه أن تبعث في ابنتي إحساساً بالتواضع، بدلاً من ذلك، شجّعته الكلمات على أن تسأل: «أمي، إذا فزت، هل ستشتري لي دراجة؟».

أجبتها على الفور: «ركوب الدراجة ليس لك. يعلم الجميع أن ركوب الدراجة يمنح الفتاة مؤخرة كبيرة».

رفع الدكتور بارك حاجبيه، لكنّ حجّتي لم تؤثر على جون-لي ولو قليلاً. «ولكن إذا فزت، ألا تعتقدين أنه يجب أن أكافأ؟».

أن تكافأ؟ احمرّ وجهي جرّاء نفاذ الصبر. غيّر العالم الموضوع بأدب. «هل التقطت هذا الحبار بنفسك؟ إذا كان الأمر كذلك، هل يمكنك إخباري عن عملية التجفيف؟».

بعد العشاء، سرعان ما جاءت وان-سون لاصطحاب ابنتي في النزهة الليلية. غادر المعلم أوه معهنّ، وعادت دو-سانغ إلى المنزل الصغير، آخذة كيونغ-سو معها. استفسرتُ عن حياة الدكتور بارك في سيول، وحاول التعمق أكثر في حياتي بصفتي من الهينيو. سار كل شيء كما كان متوقعاً، أي بصورة طيبة. كان يهمل بالمغادرة عندما اقتحمت مين-لي الباب مسرعة.

- «أمي، تعالي بسرعة!».

لبستُ صندلي في الحال وركضتُ في إثرها. هرول الدكتور بارك ورائي. لحقنا بمين-لي إلى الميدان الرئيسي. كانت جون-لي متكوّمة على الأرض، ذراعاها ورجلاها متشابكتان بالدراجة. كانت تبكي بهدوء. وكان يو-تشان يجثم منحنيّاً فوقها. طبعاً. يو-تشان، ودراجته، وابنتي. اجتاحتني موجة من الغضب.

- «ابتعد عنها»، قلتُ له.

تراجع الصبي لكنّه لم يغادر. قرصتُ بجانب جون-لي.

- «أعتقد أنني كسرت ذراعي»، نشجت جون-لي.

بدأت في رفع الدراجة. فصرخت متألمة.

قال الدكتور بارك: «أنتِ ثبتتي ذراعها، دعينا أنا والصبي نحرك الدراجة».

أشار إلى يو-تشان الذي تقدم إلى الأمام وقال: «هذا خطأي». قال له الدكتور بارك: «لا تقلق بشأن ذلك الآن، دعنا نعمل معاً لمساعدتها. اتفقنا؟ هل أنت مستعد؟».

بكت أختها الكبرى بينما كنا نرفع الدراجة، وتمتعت: «أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة». ليس بعيداً عنها، أسندت وان-سون ظهرها إلى شجرة القرية. بدت شاحبة مثل القمر.

- «سأقود بها إلى المستشفى في مدينة جيجو»، قال الدكتور بارك عندما أصبحت جون-لي حرة.

- «أنا قادمة أيضاً»، قلت.

- «بطبيعة الحال. ويمكن للآخرين مرافقتنا إذا أرادوا ذلك، هناك متسع».

أشرت لمين-لي وو-ان-سون أن تتبعانا. نظرتُ قبل أن نغادر الساحة إلى الورا نحو يو-تشان. كان رأسه محنياً، وكتفاه محدودبان.

لم أكن قد ذهبتُ إلى مستشفى مدينة جيجو من قبل. توهجت الأضواء الكهربائية على نحوٍ مبهر. كانت الممرضات والأطباء باللباس الأبيض. وضعوا جون-لي على كرسي متحرك. «مثل كلارا»، قالت وهي تبسم بوهن. ثم دفعتهَا ممرضة نزولاً عبر الردهة حتى اختفتا عن الأنظار.

- «إنّه ليس كسراً مرگباً، يمكنك أن تكوني سعيدة بهذا الشأن»،
قال الدكتور بارك.

أغمضت عيناى كى يتسنّى لى التركيز على إيجاد الطمأنينة. هو لم يستطع ربما أن يعرف كيف كنتُ أشعر لرؤية ابنتى الصغيرة وقد تأذت، وأن أفهم أنّ ابن مى-جا متورطٌ فى الأمر بطريقة ما. ما جعل الأمر أسوأ هو أنّ يو-تشان كان على الأرجح يعلم جون-لى ركوب الدراجة كى يتقرب من أختها الكبرى. كانت كلّ تلك المرات التى حلمنا فيها أنا ومى-جا أن ابناها وابنتى سيتزوّجان ذات يوم تتقدّ فى صدري متسببةً بحروق بالغة. لن يحدث ذلك أبداً.

لم يمض وقتٌ طویل قبل أن تأتي الممرضة إلينا فى غرفة الانتظار، وتأخذنا لرؤية جون-لى. كانت ذراعها موضوعةً فى قالب جبس. كان خدّاهما شاحبين. حاول الطبيب أن يجد معنى ما لمجموعتنا: رجلٌ من الواضح أنّه ليس من جيجو يرتدى ملابس على الطراز الغربى، فتاتان فى السادسة عشرة، وفتاةٌ أصغر سنّاً، وأنا فى سرّوال جزيرتنا التقليدى المصبوغ بالبرسيمون والسترة والوشاح.

- «أخبرتني جون-لى أنّها تتحدّر من عائلةٍ من الهينيو»، قال الطبيب. «أرجوك تأكّدي أنّ إصابتها ستشفى بالكامل. وسوف تكون قادرةً على الغوص معك مجدداً عندما يحين الوقت».

كانت المشاعر فى السيارة أثناء العودة إلى هادو ثقيلة كما لو أنّها ترزح تحت الصخور. حدقت خارج النافذة. كانت الشوارع شبه مهجورة، لكن سارت قلّة من النساء مع رجالهن. أضواء أضواء النيون الحانات والأكشاك التى تقدم لحم الخنزير المشوي. بدت المدينة أكثر حداثة الآن، رغم أنّ معظم المنازل لا تزال مبنية من الحجر والقش التقليدى.

اقترب الدكتور بارك بسيارته من منزلى قدر استطاعته. عندما

أطفاً المحرك وفتح بابهُ، قلت له: «أشكرك على لطفك ومساعدتك، لكننا نستطيع أن نكمل بقية الطريق بأنفسنا. سأراك صباحاً في الوقت المعتاد».

احتضنت جون-لي ذراعها. سارت مين-لي ووان-سون أمامنا يداً بيد. عندما وصلنا إلى منزلنا، قالت وان-سون: «أنا آسفة».

- «سوف أناقش بعض الأمور مع والدتك في الغد»، قلت لها. تبادلْتُ وان-سون ومين-لي النظرات. شعرتُ إذ غَدْتُ وان-سون السير بطعنة، وتذكَّرتُ كيف هو الحال حين يكون لديك صديق مقربٌ جداً.

عندما دخلْتُ مع ابنتيَّ إلى الفناء، وجدنا ابني وحماتي جالسين على درج المنزل الصغير في انتظارنا.

- «جاء يو-تشان ليخبرنا بما حدث»، قالت دو-سانج. «هل أنت على ما يرام أيتها الصغيرة؟».

- «أنا بخير»، أجابت جون-لي بصوتٍ رقيق.

- «هل يستطيع كيونغ-سو البقاء معك الليلة؟»، سألتُ حماتي، «أريد التحدث إلى الفتاتين».

قفز ابني على قدميه. «لكنني أريد أن أسمع —».

جذبته جدّته وأبقته إلى جانبها.

حالما أصبحتُ مع ابنتيَّ في المنزل الكبير، توجَّهْتُ بالحديث إلى مين-لي، وحرصتُ أن أكون مقتضبة لأرى كيف ستستجيب. «لقد أخفيتُ سرّاً عني».

- «وكان سيبقى سرّاً أيضاً لو لم تسقط جون-لي»، اعترفت مين-لي.

- «هل تلومين أختك الصغيرة؟»، سألتُها.

قبل أن تتمكن مين-لي من الرد، قالت جون-لي: «نحن نحب يو-تشان، وأردت أن أتعلم-».

- «نحن؟». التفّت إلى ابنتي الكبرى، فاحمرّت حتى جذور شعرها.

- «جون-لي هي التي أرادت تعلّم كيفية ركوب الدراجة!»، صاحت مين-لي باندفاع. «لقد طلبت من يو-تشان مساعدتها».

- «إنّها مجرد طفلة»، قلت، «ولكنك كبيرة بما يكفي لتمنعي حدوث ذلك. حين أقول لا، فأنا أعنيها تماماً، لكن الأمر أكثر من مجرد دراجة، أليس كذلك؟ لا أريدك أن تري يو-تشان ثانية».

ضحكت مين-لي. «كيف يفترض بذلك أن يحدث؟ إنّها قرية صغيرة و-».

قاطعتها قائلة: «لقد مُنحت الكثير. الطعام. التعليم. لقد عشت حياة سهلة لدرجة أن نرفك الشهري جاء مبكراً». حدّرتها بأشدّ لهجة ممكنة. «قد تصبحي حبلى إذا تشاركت الحب مع يو-تشان». تابعت محدّرة من أسوأ لعنة يمكن لأُم أن تلقّيها على ابنتها في جزيرة لا متسولين فيها. «سينتهي بك الأمر كفتاة متسولة».

هزّت رأسها. شعرت وكأنني أشاهد الأفكار وهي تعتمل داخل رأسها. قالت أخيراً: «الأمر ليس على هذا النحو».

- «إنه ولد. أنت فتاة —».

- «لقد عرفت يو-تشان طيلة حياتي، إنه مثل أخ لي».

- «لكن يو-تشان ليس أخاك. إنه ولد —».

- «أمي، نحن لا نمارس الجنس».

أخذت عيناى ترمشان من شدّة الذهول. كان هذا بالتأكيد ما ألمّح إليه، لكنني لم أتوقع أبداً أن تكون صريحة لهذه الدرجة،

خاصّةً أمام أختها الصغيرة. حوّلتُ انتباهي إلى جون-لي في محاولةٍ لاستعادة هويتي. «يو-تشان ليس بأخ لك، وهو ليس صديقك كذلك. ابتعدي عنه».

أطرقتُ برأسها. «سوف أبذل قصارى جهدي».

- «هذا ليس كافياً. ولكي تفهمي مدى جدّيتي، أنت ممنوعة من النزول إلى الخيام في الغد»، قلتُ بحزم.
- «لكن —».

- «واصلي الكلام قدر ما تشائين، لكنّ كلّ كلمة ستبقيك في المنزل ليومٍ آخر».

في صباح اليوم التالي، تذرّمت جون-لي قليلاً من عقابها، وكيف كان غير عادل، فأخبرتها بأنه كان يجدر بها أن تفكر بذلك قبل ركوب الدراجة. ثم غادرتُ المنزل مع مين-لي ودو-سانغ. التقينا بغو-سان ووان-سون في الزقاق، وسرعان ما اعتذرت وان-سون مرة أخرى عن دورها في حادث الليلة الماضية. كانت عيناها قد انتفختا من البكاء وجفّ اللون الورديّ في خديّها إلى لونٍ أخضر فاتح. قلتُ لها مثمّنةً معاناتها: «شكراً لك وان-سون. أقدر لك أنّك تحمّلت من المسؤولية أكبر ممّا فعلتِ ابتداءً».

- «وقد جعلتها تقطع وعداً بأنّه لن تكون جزءاً من أي شيء له علاقة بيو-تشان أو بوالدته في المستقبل»، أعلنتُ غو-سون.

مجدّداً، تبادلنا وان-سون ومين-لي النظرات، وأرسلنا الرسائل جيئةً وذهاباً دون الحاجة إلى نطق الكلمات. ومجدّداً، فكرت كيف كنّا أنا ومي-جا ذات يومٍ نفعل الشيء نفسه، وهو ما عزّز قناعاتي أنّه ينبغي بي وبغو-سون أن نراقب هاتين الفتاتين عن كثب.

عندما وصلنا إلى خيام المختبر، استفسر الدكتور بارك عن جون-لي. أخبرته أنها لن تأتي اليوم.

- «آمل أن أراها غداً»، قال. «يجب أن تكون منكشفةً على أشياء تجعلها متفوقة على أطفال المدينة».

كان محقاً بالطبع. في اليوم التالي، سمحت لجون-لي بالعودة إلى المختبر، حيث بدا أن الدكتور بارك قد أسرَّ للآخرين بخبر المسابقة التي دعيت إليها. فلأول مرة، سُمح لها بوضع مقياس حرارة في فم امرأة وضخ الكفة التي تلتف حول ذراعها.

بعد يومين، حزم الدكتور بارك وفريقه أداوتهم، وغادروا هادو. سيعودون في غضون ثلاثة أشهر أخرى. عملتُ في حقلي الجاف، بينما بدأ أطفالي فصل الخريف الدراسي. بعد انتهاء اليوم المدرسي، عندما كان شقيقها وشقيقتها يذهبان إلى المياه الضحلة للقاء الأصدقاء والاستمتاع بالهدوء، جلست جون-لي في الغرفة الرئيسية لإنجاز فروضها المدرسية، والدراسة من أجل المنافسة، والقراءة.

حلّت فترة الغوص التالية يوم الأحد، ما عني أن وان-سون ومين-لي كانتا قادرتين على القدوم. لقد كان يوماً عاصفاً بشكل خاص، وضغطت الرياح ملابسنا بشدة على أجسادنا. كانت الأمواج تعلو وتتلاطم كما لو أن عاصفةً تحرّكها. حال دخولها إلى البولتيوك، شغلت غو-جا موقعها الفخري. جلست بقيتنا وفقاً لمستويات مهارتنا. كانت غو-جا غاضبة، إذ ذكّرتها زيارة الدكتور بارك وفريقه الأخيرة بمدى غضبها لكونها استبعدت من الدراسة، لكنني حسبت أنها ستعود إلى طبيعتها الانفعالية العفوية بعد يوم في الماء.

بدأت غو-جا متجاوزةً المجاملات المعتادة. «سيكون الجو حاراً اليوم —».

- «كما أنَّ الريح عاصفة بالتأكيد»، قاطعتها غو-سون. «ينبغي بنا توخي الحذر حيث نفوص —».

لوحت غو-جا لأختها منزعة. «أنا مستعدةٌ لسماع اقتراحات حول المكان الذي سنذهب إليه. أيُّ أحد؟».

رغم أنَّه كان من الواضح أنَّها لم توجَّه السؤال إلى أختها بشكلٍ مقصود، إلَّا أنَّ هذه الأخيرة هي التي طرحت الفكرة الأولى. «دعونا نسير نحو الخليج إلى الشمال منَّا. إنَّ المنحدرات تحمي تلك المنطقة من الرياح».

- «الجو حار جداً للمشي كلَّ تلك المسافة»، قالت غو-جا. حاولتْ غو-سن مرَّةً أخرى: «يمكننا أن نبقى هنا ونفوص بعيداً عن الرصيف».

- «ألم تلاحظي كيف تدفع الرياح الأمواج؟». تفحَّصت غو-جا الوجوه الموجودة في الحلقة، لكن مزاجها السيء لم يستدع أيَّ مقترحاتٍ أخرى. «حسنٌ إذًا، دعونا نجذِّف في البحر مباشرةً إلى الهضبة. نأمل أن تكون الأمواج أكثر اعتدالاً ممَّا هي على الشاطئ، كما أنَّ المياه العميقة ستكون أكثر برودة».

بجوارى، تمتمت يانغ-جين: «هذا ليس جيداً». وافقتْ يانغ-جين. غو-جا كانت الرئيسة، لكنَّها اتَّخذت قرارها هذا فقط كي تكون على النقيض من أختها.

ارتدينا ملابسنا المائية، وربطنا أقنعة الوجه أعلى رؤوسنا أو على جوانبها، جمعنا معدَّاتنا، وخرجنا إلى القارب. ربَّما كان مزاج غو-جا سيئاً، لكنها كانت محقة في أنه في هذا اليوم الحارَّ على نحوٍ غير معتاد، فإنَّ المياه الأعمق والأكثر برودة ستمنح شعوراً بالانتعاش. أخذنا أماكننا على متن القارب. جلسْتُ مين-لي ووآن-سون على الجانب الآخر. وسرعان ما كُنَّا نميل فوق بطوننا

ونعود لنعتدل في جلستنا بينما نغمس مجاذيفنا في الماء معاً. بدت أصوات الفتيات واضحة وطازجة ونحن نغني. عبرت سحابة رقيقة واحدة السماء فوقنا، وكانت النوارس تحوم وتنقض على صيدها في الماء. كما توقعت غو-جا، كان البحر مضطرباً لكنّ الوضع لم يكن سيئاً كما على الشاطئ. مع ذلك، لم تكن أولئك اللواتي لديهنّ معدة ضعيفة مسرورات. سحبت امرأة حبلها بطفلها الرابع مجذافها، تقيأت، وعادت للتجذيف. صفّقنا لها ثم عدنا للغناء، لكنني لاحظت أن لون بشرة وان-سون قد بهت إلى درجة من الأخضر الباعث على القلق أكثر. بدا أنّها ليست على ما يرام، لكنني لم أعرف خلال السنة والنصف التي مارست خلالها الغوص معنا بأنّها تصاب بدوّار البحر. رفعت غو-جا ذراعها، مشيرة لنا بالتوقف عن التجذيف. بعد إلقاء المرساة، قدّمت القرايين التقليدية لآلهة البحر. قالت إذ انتهت من ذلك: «معاً، فلنجلّ قاع المحيط». أنزلنا أقنعة الوجه عن جباهنا، وفركنا حشيشة القط على الزجاج، وجعلنا الأقنعة بوضعية مناسبة فوق أعيننا وأنوفنا. قامت كل امرأة بتفحص أدواتها مرتين. بعد ذلك، ألقّت النساء عوّامات التيوّك في الماء، ثم قفزن وراءها. نزلت غو-جا وغو-سُن في الماء معاً. طلبتُ من مين-لي توخّي الحذر، كما كنت أفعل دائماً، ثمّ نزلت مع وان-سون من جانب القارب. أوّمأت برأسي إلى يانغ-جين ودخلنا البحر معاً.

كنّا في بقعة بعيداً عن الشاطئ كما أرادت غو-سون، لكن التضاريس تحت الماء جعلتها مثالية للغوّاصات من جميع المستويات. على عكس المكان الذي اختارته والدتي لأوّل غطسة لي، والذي كان يشرف على وادٍ عميق، ارتفعت هنا هضبة واسعة ومسطحة، يسهل الوصول إليها وعميقة بما يكفي لعدم كشط بدن القارب، كما أمّن اتّساعها مجالاً وافراً من الفرص. لم أستطع في

المياه العكرة رؤية محيطي جيّداً، لكن إذا بقيت الغوّاصات-الطفلات معاً فسوف تكنّ بخير.

نزلتُ إلى الأسفل. بقيتُ ويانغ-جين على مرمى البصر إحدانا من الأخرى، دون أن نقرب من بعضنا كثيراً بحيث أغزو منطقتها أو تغزو منطقتي. صعدت إلى السطح من أجل نفس السومبيسوري، ولأضع ما كنتُ قد حصدته في شبكتي. كانت المياه رائعة. أسفل، أعلى، سومبيسوري. أسفل، أعلى، سومبيسوري. كان التركيز الذي ينطوي على البقاء بأمان، وانتزاع كلّ ما أستطيع انتزاعه، ونسيان مشاكل اليايسة؛ ذاك التركيز شكّل نمط حياتي.

حالما امتلأت شبكتانا، عدتُ ويانغ-جين إلى القارب. وضّبنا معدّاتنا وبدأنا في فرز ما حصدناه. ساعدنا غو-جا وغو-سُن والنساء الأخريات في سحب شباكهنّ لدى عودتهنّ إلى القارب. بدأت عدّة نساء بفرز صيدهنّ أيضاً، بينما شربت أخريات أكواباً من الشاي. أبقيتُ أذني مع صوت أنفاس السومبيسوري للهينيو اللواتي ما زلن في الماء، وشعرتُ بالارتياح كالعادة إذ سمعتُ زفرة «هرررر» المميّزة لمين-لي. كانت لا تزال تتعلّم الغوص، لكنني كنتُ أثق في مهاراتها. مع ذلك، شعرتُ بعضلات كنفّي تسترخي إذ رأيتها تتعلّق بيديها بجانب القارب. لكن عندما لم تحاول دفع شبكتها على متنه أو رفع نفسها، عرفتُ أنّ ثمة خطباً ما.

- «هل رأى أحد وان-سون؟»، سألتُ مين-لي.

مع هذه الكلمات، رفعتُ غو-سُن رأسها مستنفرة.

- «رأيتها خارجةً بذلك الاتجاه»، قالت امرأةٌ وهي تشير نحو

مقدّمة القارب.

- «وأنا كذلك»، أضافت يانغ-جين. «حين صعدنا لنلتقط

أنفاسنا في نفس الوقت، طلبتُ منها أن تغوص أقرب إلى القارب».

- «إِذَا أَيْنَ هِيَ الْآنَ؟»، سَأَلَتْ غُو-سُنْ مَلْتَفَتَةً إِلَى أختها الأكبر.

- «لَا تَقْلِقِي، سَنَجِدُهَا»، أَجَابَتِ الرَّئِيسَةُ.

سَبَحَتْ زَوْجٌ مِنَ النِّسَاءِ الْمَتَأَخِّرَاتِ نَحْوَ الْقَارِبِ. صَاحَتِ غُو-سَانُ مَنَادِيَةً عَلَيْهِمَا، لَكِنْ لَا، هُمَا لَمْ تَرِيَا وَان-سُونُ أَيْضاً. وَقَفَتِ غُو-سَانُ وَغُو-جَا، وَثَبَّتَا أَقْدَامَهُمَا فَوْقَ سَطْحِ الْقَارِبِ الْمَتَمَائِلِ مَعَ الْأَمْوَاجِ.

- «هَنَّاكَ»، صَاحَتِ غُو-جَا. «إِنَّهَا عَوَّامَتُهُا».

كُنْتُ أَعْرِفُ هَذِهِ الْمُنْطَقَةَ جَيِّدًا - كُلُّ الْغَوَّاصَاتِ-الْجَدَّاتِ عَرَفْنَهَا - وَكَانَ مِنَ الْمَقْلُوقِ رُؤْيَا أَنَّ الْعَوَّامَةَ انْجَرَفَتْ لِمَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ.

التَقَطْنَا نَحْنُ اللَّوَاتِي كُنَّا عَلَى الْقَارِبِ مَجَاذِيفُنَا وَشَرَعْنَا بِالتَّجْذِيفِ، تَارَكَاتِ الْعَدِيدِ مِنَ الْغَوَّاصَاتِ فِي الْمَاءِ. كُنَّا نَرِيدُ الْوَصُولَ إِلَى عَوَّامَةِ وَان-سُونِ بِسُرْعَةٍ، لَكِنْ كَانَ يَنْبَغِي بِنَا الْحِفَافَ عَلَى إِيقَاعِنَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ تَجْذِيفُنَا فَعَالًا. نَهَضَتْ غُو-جَا وَغُو-سُنْ وَأَلْقَتَا بِمَجْذَافِيهِمَا لَدَى وَصُولِنَا إِلَى عَوَّامَةِ وَان-سُونِ. صَرَخَتْ غُو-جَا بِنَا كِي نَهْدَأُ بِحَيْثُ نَتِمَكَّنُ مِنْ سَمَاعِ نَفْسِ سَوْمِبِيسُورِيِّ الْخَاصِ بَوَان-سُونِ، لَكِنْ لَمْ تَحْمِلِ الرِّيحُ شَيْئًا إِلَيْنَا. أَخَذَتِ الْأَخْتَانِ تَمْسَحَانَ الْأَمْوَاجِ وَهُمَا تَدُورَانِ حَوْلَ نَفْسِيهِمَا بِبَطْءٍ. لَا بَدَّ أَنَّهُمَا ظَلَّتَا تَحَاوِلَانِ الْعَثُورَ عَلَى أَيِّ أَثَرٍ لِمُدَّةِ خَمْسِ دَقَائِقَ، وَهِيَ فِتْرَةٌ أَطْوَلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي تَسْتَطِيعُ الْهَيْنِيُو قَضَاؤُهُ تَحْتَ الْمَاءِ. بَدَتِ الْخَالَةُ مَرْعُوبَةً وَيَائِسَةً، وَبَدَتِ الْأُمُّ حَزِينَةً وَمُسْتَسْلِمَةً.

- «الْجَمِيعُ»، قَالَتْ غُو-جَا. «عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى الْمَاءِ. أَسْرَعْنَ». ثُمَّ نَطَقَتْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ يَرِغَبُ أَحَدٌ فِي سَمَاعِهَا: «يَجِبُ

أن نعثر على جثة وان-سون قبل أن تضع في البحر، وتحوّل هي إلى شبح جائع».

وضعنا أقنعة الوجه في مكانها مجدّداً، وقفز الجميع في الماء. أولئك اللواتي كنّ في البحر بالفعل أصبحن قريبات. نادتهنّ غو-سون: «نحن نبحث عن وان-سون، ابحثوا حيث أنتم».

انتشرت الغوّاصات-الطفلات، بمن فيهن ابنتي، عبر الهضبة. إذا كان أذن البحر قد أطبق على رمح بيتشانغ الخاص بوان-سون، أو إذا علق بطريقة ما شعرها أو ملابسها بصخرة ما، فسوف يعثرن على جثتها. سبحت الغوّاصات-الصغيرات، والغوّاصات-الجذّات عند حواف الهضبة. لا شيء. كانت النساء في كلّ مرة أصعد فيها إلى السطح يصرخن عبر الأمواج المتعاطمة بأسئلة مثل: هل بحثت هنا؟ لا شيء هنا. لا شيء هناك. إلى الأسفل مجدّداً.

في المرة التالية التي خرجت فيها إلى السطح، رصدت مين-لي وذراعاها ملفوفتان فوق تيواك وان-سون. لم أكن أصغر منها بكثير عندما تعرضت يو-ري لحادثتها، لذلك كنتُ مدركةً لشعور الذنب والندم الذي يعتري ابنتي. سبحتُ إليها.

- «ألا يجب أن تكون بالقرب من عوامتها؟»، سألتني مين-لي قبل أن تمصّ شفيتها كبتاً لمشاعرها.

- «فلنأمل ذلك»، قلتُ لها. «دعينا نبحث معاً».

أمسكت بيدها وسبحنا نزولاً تحت عوامة وان-سون مباشرة. اعتراني القلق على الفور ممّا رأيته وشعرتُ به. كنّا في أقصى حافة الهضبة. التيار كان قوياً هنا، ورحابة البحر تجذبنا إليها، لكنّ ابنتي كانت مركّزة جدّاً في البحث لتلاحظ ذلك. تركتها تضبط سرعتها والعمق الذي ستنزل إليه مدركةً أنّ وان-سون ما كانت لتذهب أسرع

أو أعمق من ابنتي. لم نكن قد قطعنا مسافة تعادل طول الجسد مرتين حين توقفت مين-لي. صَحَحنا وضعية جسدنا. لم تتمكّن مين-لي من حبس أنفاسها أكثر من ذلك، لكنني كنتُ بحاجة إلى أن أريها شيئاً. منعتهُ بيدي الحرّة من العودة إلى السطح، ثمّ أفلتُها. كانت قوّة سحب البحر هنا كبيرةً لدرجة أن مين-لي سُحِبَتْ بعيداً عني على الفور. مرّت نظرة رعب فوق ملامحها مع معرفتها أنّها يمكن أيضاً أن تُجرف مع تيّار يمكن أن يسحب جسدها لمئات الكيلومترات إن لم يكن أكثر. أمسكتُ بيدها وبقوّة سنوات طويلة من الغوص وجّهتُها بعيداً عن الخطر وصعدتُ إلى السطح.

انتهى بحثنا. لن نجد وان-سون اليوم.

حالما عاد الجميع إلى القارب، توجّهتُ إلينا غو-جا: «حين نصل إلى الشاطئ، سأبعث برسالة إلى رئيسات الهينيو في القرى المجاورة». وضعتُ يدها على كتف شقيقتها، لكنّ غو-سون هزّت كتفها مبتعدةً عنها. «بحلو نهاية يوم الغد، سيكون الخبر قد ذاع في أرجاء الجزيرة، ووصل إلى كلّ هينيو وصيّاد. فلنصلّي لإله البحر التّين وكلّ إلهة لها سطوة في البحر عسى أن يحضروا جثّة وان-سون إلى الشاطئ».

التقطت غو-جا مجذافها، وأخذت بقيتنا أماكنا. لم أستطع تخيّل ما الذي كان يدور في خلدها. إنّ التعامل مع حادثٍ أو وفاة هو بمثابة العذاب الأعظم لكلّ رئيسة هينيو. يجب أن تمارس دور القائدة حتّى وهي تشعر بالحزن والذنب. لم تكن والدتي مسؤولة عن جشع يو-ري أو مواجهتها مع الأخطبوط، لكنّ عبء ما حدث ظلّ يثقل كاهلها. هذا الوضع كان مختلفاً. صحيحٌ أنّه لم يكن بمقدور غو-جا توقّع هذه الكارثة، لكن بقيت الحقيقة أنّها اختارت بقعة الغوص هذه بدافع الغيرة والحقد. إنّ موت أيّ شخص لهو أمرٌ

فطيع، لكن لا بدّ أن غو-جا شعرت بحزنٍ أعظم حتّى لأنّ الضحيّة كانت ابنة أختها.

يقال إنّه بعد تجربة البحر الشاسع الذي لا تسبر أغواره، تتوصّل الابنة إلى معرفة أمّها وفهمها لأوّل مرّة. في الحقيقة، لقد رأيت والدتي بطريقة جديدة يوم حادثة يو-ري. والآن مين-لي أيضاً تراني على نحوٍ مختلف. ينبغي بكل طفلة أن تعرف حقّ المعرفة أنّ والدتها سوف تحبّها، وتعلّمها، وتحميها، لكنّ ابنتي كانت قد اختبرت شيئاً مختلفاً تماماً خلال مذبحة بوكتشون. أمّا الآن، فقد استوعبت بكامل حواسها لأوّل مرّة عمق حبّي لها. مع ذلك، كانت الأيام التالية صعبة. كانت مين-لي عليلةً بالندم وآلام القلب.

- «لو لم أغفل عنها —».

- «لم يكن بوسعك فعل شيء»، هذأتها. «لقد شعرت بالتيار. أنتِ لستِ قويّةً بعد بما يكفي لإخراجها منه».

- «ولكن لو بقيت معها —».

- «كنتِ ستُجرفين بعيداً معها. كنتِ سأفقدك للأبد».

صرخت محبّطة: «لكنني لا أرى فحسب كيف يمكن لهذا أن يحدث. لقد كنتِ معنا أثناء قراءة البخت. لقد حصلتِ على ستّ حبات أرز —».

أومأت برأسي متفهمة. «أحياناً نتحدّث عن القضاء والقدر، ونحب أن نخبرنا العرافون عن مستقبلنا. ثم نسأل أنفسنا لماذا أصابت وان-سون حظّاً طيباً في العِرافة لكنّها ماتت مع ذلك. بينما كان حظّ نساءٍ أخريات سيئاً ولكنهن ما زلن معنا. حتى أنا راودتني الشكوك. لطالما تساءلتُ لماذا علقْتُ كعكة الأرز التي رمت بها

الشامانة كيم على شجرة القرية خلال زفافي مبشرة إيانا بالسعادة وطول العمر، بينما كانت تنتظرنا الكثير من الأهوال والشدائد. لم أجد إجابة قطّ.

دفنت مين-لي رأسها في حضني وشرعت في البكاء، بينما أخذتُ أربّتُ على ظهرها.

«لكني أتساءل»، أكملتُ بتردد، «ما إذا كان لدى وان-سون سبباً لتكون مهملةً على هذا النحو».

تشنّج جسد مين لي تحت يدي. أردت أن أقول المزيد، لكن جون-لي جاءت لتحاول رفع معنويات أختها الكبرى. جلست على الأرض بجانبنا وفتحت نسختها من قصّة هايدي، وبدأت في القراءة. في هذه الليلة، جعلتِ القصة مين-لي تبكي بحرقة أكبر.

- «هايدي وكلارا كانتا أعزّ صديقتين»، تدبّرتُ بصعوبة أن تتلفّظ بهذه الكلمات. «أنا وو-ان-سون كنّا كذلك أيضاً. والآن خسرتها للأبد».

بذلتُ قصارى جهدي لأقدّم العزاء إلى ابنتي، لكنني كنتُ أيضاً أحاول التعامل مع معنوياتي المهتزة. حين لم أكن أتأمل في الحقيقة الجليّة التي مفادها أنّه كان يمكن لمين-لي أن تكون هي سُحبتُ إلى الأعماق، كانت تنهشني خواطري حول وان-سون في أيامها الأخيرة: كيف كانت بيضاء شاحبة حين كسرت جون-لي ذراعها، وكيف استحال لونها إلى أخضر يشي بالمرض في صباح اليوم التالي، إلى أن بدت وكأنّها ستتيّأ على متن القارب. حين لم أكن أتساءل ما إذا كنتُ الوحيدة التي اشتبهتُ في أنّ وان-سون قد تكون حبلى - وما إذا كانت ابنتي تعرف من كان الأب - كنتُ أرغي وأزبد جرّاء تفكيري بمي-جا وكيف لم يعد بوسعي اللجوء إليها للمشورة أو العزاء. حين لم أكن قابعةً في تلك الهاوية السحيقة المظلمة

والمألوفة، كنتُ أقلق بشأن غو-سُن وغو-جا. إحداهما فقدتِ ابنتها؛ والأخرى ستتحمل المسؤولية عن الحادث. لطالما كانت الأختان تتشاجران وتدخلان في نوبات من الغيرة، لكنهما كانتا لا تنفصلان أبداً. لم يسعني أن أتخيل ما كانتا تشعران به تجاه إحداهما الأخرى، أو ما هي الكلمات التي يمكن أن تقال للحصول على المغفرة. أعاد هذا مي-جا إلى ذهني مجدداً. كنتُ ذات يوم عزاءها، وكانت ذات يوم عزائي. وقد خسرتُ مين-لي ذلك الآن. لربما تكون غو-سُن وغو-جا قد خسرتا ذلك أيضاً. ثم، وفي لحظة من التجلي القلق، رأيتُ كيف وقعتُ كلُّ هذه الأحداث تقريباً كنتيجة للدراسة التي كان يجريها الدكتور بارك. لقد غيّرنا حضوره - هو والعلماء الآخرون - وغير الطريقة التي كنّا نرى فيها بعضنا البعض. لن نتعافى سريعاً من موت وان-سون، لكنّ أشياء تافهة أخرى - مثل شراء مي-جا دراجة لابنها، وكسر جون-لي لذراعها - ستظلُّ تعبتُ بذهني وتقصُّ مضجعي بطرقٍ لم أرغب في تخيلها.

بعد عشرة أيام، لم يُعثر على جثة وان-سون. وبذلك تحوّلت من فتاة قضتْ بطريقةٍ مأساوية وكان ينبغي أن تُدفن على نحوٍ لائق، إلى شبحٍ جائعٍ يمكن أن يتسبّب للأحياء بالمرض والمتاعب، لكن كان ينبغي بنا أيضاً الاعتراف بالحقائق بشأن هذا الوضع. فنظراً لأنّ أخبار الجهود المبذولة للعثور على جثة وان-سون قد انتشرت كالنار في الهشيم بين قرى الهينيو في أرجاء الجزيرة، فقد كان من الطبيعي أنّ الكثيرين باتوا يعرفون أنّنا سنجري طقوساً، وهو أمرٌ غير قانونيّ. يمكن لأيّ شخصٍ غريب أن يقوم بالتبليغ عنّا كي يكسب حظوة عند السلطات. كنّا بحاجة للبقاء متأهّبات وفي غاية الحذر، لذا فقد تمّ إخطار فقط أولئك اللواتي في البولتيوك خاصتنا بالتاريخ والموقع. التقينا في كهفٍ على شاطئ البحر على بعد عشرين دقيقةً

من هادو سيراً على الأقدام. بدت غو-سُن سقيمة، لكن أختها الكبرى بدت وكأنّها قد كبرت عشر سنوات. وقفنا معاً، مسرّبتين بالحزن. بيني وبين دو-سانغ كانت مين-لي. قرعت الشامانة كيم الجرس في الاتجاهات الأربعة كي تفتح أبواب السماء وتدعو الأرواح للانضمام إلينا. ضربت بسيفها في الهواء لطرد أيّة روح شريرة قد تحاول الحضور.

بدأت الشامانة كيم: «المرأة التي تموت وحدها في الماء ليس لديها من يمسك بيدها أو يداعب جبهتها، يصيبها البرد وليس هناك من يدفئها، ولا تصيب راحةً من أصدقاء أو عائلة. لكننا نعلم أيضاً أنّه عندما يعبر الموتى عن مخاوفهم بشأن الأحياء، فمن المسلّم به عندئذٍ أنهم قد تحرّروا من شبكة أحزانهم العنكبوتية. دعونا نرى ما ستقوله وان-سون». كانت الشامانة كيم مشهورة بقدرتها على الكلام المعسول، والإطراء، والتفاوض مع الأرواح. والآن هي تخاطب وان-سون مباشرة. «إذا كنتِ غير سعيدة لسبب ما، أخبرينا به حتى نتمكن من مساعدتك».

قرعت المساعِدات الطبول والصنوج بدائية الصنع. ملأَتْ أنوفنا روائح القرايين. والشامانة كيم تدور في الهانبوك الملون. تطايرت شرّاباتها يدوية الصنع هنا وهناك. ثمّ توقفت فجأةً مع مساعداتها في خضمّ الإيقاع. خيّم الصمت مثل لحظة سكونٍ وسط الفواق. والسبب: كانت مي-جا قد دخلت الكهف وظهرها إلى الحائط الخشن. كانت ترتدي ملابس محتشمة، وتمسك القرايين بين ذراعيها. لقد عرفت وان-سون منذ أن كانت طفلة، لكن وجودها كان مقلقاً للغاية.

استؤنف القرع والضرب. ضربت الشامانة كيم بسكاكينها في الهواء بشراسة أكبر. ثمّ أخذت حركتها تتباطأ حتّى توقفت تماماً،

ودخلت في غيبوبة. عندما تحدثت تالياً، بدا صوتها وكأنه أت إلينا من مكان بعيد. لقد وصلت وان-سون.

- «أشعر بالبرد الشديد»، قالت وان-سون. «أفتقد أمي وأبي. أفتقد عمي وعمتي. أفتقد الهينيو في البولتيوك، أفتقد صديقتي». عادت الشامانة إلى صوتها المعتاد. «أخبرينا يا وان-سون عن بؤسك العظيم».

لكن كان على الأرواح أيضاً في تلك الأيام أن تكون حذرة بشأن ما تقوله، وقد رفضت روح وان-سون البوح بكلمة أخرى. بدا هذا مقلقاً على نحوٍ فظيع. ثم حدث ما هو أكثر إثارة للقلق حتى. استدارت الشامانة كيم نحوٍ وتحرّكت حتى توقفت أمامي. - «كدتُ أفقد حياتي في البحر»، قالت الشامانة كيم بصوتٍ مختلف إذ دخلت في غيبوبة أخرى. «لقد كنتُ جشعة».

يو-ري! كم مرّة طلبتُ من الشامانة أن تبحث عنها، وعن زوجي وابنتي، دون أن أحصل على شيءٍ غير الصمت المطبق؟ - «عانيتُ لسنين طويلة»، قالت يو-ري بغم الشامانة كيم، «ثم حلّ آخر يوم في حياتي».

كانت نبرة العذاب التي تكتنف هذا الصوت تسبّب القشعريرة. بكت دو-سانغ حزناً على ابنتها.

ثم تحدّث صوت طفلٍ صغير: «أشتاق لأمي، لأخي ولأختي». كدتُ أنهار، إنّه سونغ-سو.

ركعت مين-لي بجانبني ووضعتُ ذراعها حول كتفي. جثت أخريات على ركبهنّ وأطرقنّ برؤوسهن نحو أرضيّة الكهف. لقد جئنا إلى هنا من أجل وان-سون، ولكنتني كنتُ أنا من تواصلت الأرواح معها.

لا يمكن لصوت الشامانة كيم أن يخرج مثل صوت زوجي،

لكنني تعرّفتُ على إيقاعه وأسلوبه النيق في الكلام. «المكان مزدحمٌ هنا في هذا القبر، لكنني ممتنٌ للرفقة. نحن نتشارك معاناتنا معاً». ثمّ بدا الأمر وكأنّ الثلاثة الذين فقدتهم يتقاتلون للحصول على مساحة داخل فم الشامانة كيم كي يتسنى لهم التعبير عمّا يجول في خواطرهم.

- «كنتُ طفلاً أراد أباه فحسب. كنتُ بريئاً، وقد قتلوني، لكنني وجدتُ الغفران».

- «كنتُ فتاة تآقت ذات يومٍ للزواج. كنت بريئة، وقد قتلوني، لكنني وجدتُ الغفران».

- «كنتُ زوجاً، وأباً، وشقيقاً. كنت بريئاً، وقد قتلوني، لكنني وجدتُ الغفران».

ثم غنّت الشامانة كيم الأشياء التي لطالما أردتُ قولها لهم. «أقول لولدي؛ أتمنى لو أنني تمكّنتُ من حمايتك. ولأخت زوجي أقول؛ أنا آسفة لسنوات معاناتك. ولزوجي أقول إنه كان ثمة طفل يكبر بداخلي حتى عندما كنت أرغب في الموت. لم يتسنّ لنا دفن أيّ منكم بطريقة لائقة، لكنني أعرف على الأقل أنكم معاً».

عادت الآن الشامانة كيم إلى نفسها كي تخاطب الأرواح بشكل مباشر: «أنتم الثلاثة لستم بأشباح جائعة بمعنى أنكم فقدتم في البحر، لكنكم مُثّم ميتةٌ فظيعة، وبعيداً عن موطن أجدادكم». ثم حوّلت انتباهها مجدداً إلى الشخص الذي كان السبب في حضورنا إلى هنا اليوم. «من فضلك يا وان-سون، جدي الراحة بحضور الآخرين من هادو». ثمّ قالت محاطبةً إيّانا: «دعونا معاً نسمح لدموعنا بالانهمار بينما أسأل إله البحر التّين أن يساعد روح وان-سون في السفر إلى عالم الآخرة، حتى يمكنها العيش بسلام».

استمرّ الحفل، مع القرايين، والموسيقى، والدموع، والغناء. لم

يكن من عادتنا استجواب الشامانة أو ذاك الذي قد يرسل الرسائل من خلالها، لكنني تساءلتُ حقاً عن سبب اختيار أولئك الذين فقدتهم لهذه المناسبة بالذات كي يأتوا للزيارة. هيج سماع أصوات مَنْ أحببتهم روعي. كنتُ ممتنةً. في نفس الوقت، كان يمكنني تذوق طعم المرارة التي شعرتُ بها تجاه مي-جا. عندما بحثت عنها، كانت قد ذهبت. لماذا جاءت؟

لم يكن لدى الهينيو خيار سوى إعالة أسرهم، لذا عدتُ في اليوم التالي إلى البولتيوك رفقة دو-سانغ. كان يوم دوام مدرسي، لذا لم تأت مين-لي، وهو ما كان جيداً كرمية من غير رام. أخذتُ غو-جا مكانها المعتاد، وجلستُ أختها بجانبها. بدت غو-سُن وكأنها لم تنم خلال شهر. كان هذا جانباً من الحداد أعرفه جيداً. لكنّ مظهر غو-جا كان صادمًا بحق. تسببتُ المأساة في جعل تجاعيدها التي حفرتها الشمس عبر السنين أكثر عمقاً حتّى، وهو ما جعلها تبدو أكبر سنّاً من حماتي. إذ شرعت في الكلام، ارتجفت يداها وارتعش صوتها.

- «منذ وقتٍ بعيد، تعرّضتُ مجموعتنا لحادث، وقد تأثرت بها رئيستنا أيّما تأثر. كان ينبغي بسُن-سيل أن تتنحّى. لكنّها لم تفعل، وبعد بضعة أشهر ماتت في البحر». أوّمت تلك الكبيرات في السن بما يكفي لتذكّر والدتي برؤوسهنّ على نحوٍ مهيب. «كرئيسة لهذه الجماعة، أنا أتحمل مسؤولية ما حدث لوان-سون. لهذا السبب، أطلب الآن تقديم ترشيحات لرئيسة جديدة».

كان رد فعل أختها خاطفاً لدرجة أنّ أحداً منّا لم يكن مدركاً مدى عمق إدانتها لأختها. قالت: «أرشح كيم يونغ-سوك لنفس

السبب الذي منعني من ترشيحها منذ سنوات. لا أحد يفهم الخسارة أفضل من شخص عانى الخسارة. ومن بيننا جميعاً، عانت يونغ-سوك من الفقد أكثر من غيرها، وهذا سيجعلها حذرة في قراراتها. سوف تكون حريصةً على الجميع».

لم يتم ترشيح أي شخص آخر، وحصلتُ على تصويت بالإجماع. إذا كانت هناك آخريات رغبن في مكاني، فلم أسمح بذلك قطّ.

أعطيتُ رسمياً تعليماتي الأولى وحددتُ المهام. «اليوم سوف ندخل البحر بحذر. دعونا نكون متنبهات لبقية دورة الغوص هذه. أرواحنا متعبة، ولا نعرف ما ترغب به الآلهة منّا. سنقدم المزيد من القرابين. سوف تبقى الغواصات-الطفلات بالقرب من الشاطئ. ستتولى الغواصات-الصغيرات، والغواصات-الجدّات مراقبتهنّ وحراستهنّ. نريد أن نكون متأكّدات من سلامة الجميع في المرة القادمة التي نذهب فيها إلى المياه العميقة».

كانت أوامري تعني أننا جميعاً سنكسب نقوداً أقل لفترة من الوقت، لكنّ أحداً لم يعترض.

ثمّ تابعتُ: «بالنسبة لشريكات الغوص، أنا أسأل غو-سُن إن كانت ترغب في الغوص معي».

أطرقتُ غو-جا محدّقةً في يديها المشبوكتين، خائفة من النظر إلى أختها.

أعطتُ غو-سُن إجابةً غير متوقعة. «لقد خرجتُ مع أختي إلى البحر مذكنا طفلتين صغيرتين. سأكون بمأمن معها أكثر من أيّ شخص آخر».

شهقتُ بضع نساء بصوتٍ مسموع. بالنسبة إليّ، أنا التي أحمل

الكثير من اللوم والغضب بداخلي، لم يكن بمقدوري فهم طريقة تفكيرها، لكنني قلتُ لها: «طالما أنَّ هذا ما ترغبين به». أنهيتُ الاجتماع بشيءٍ اعتادت والدتي أن تقولهُ: «إنَّ كلَّ امرأةٍ تذهب إلى البحر تحمل نেশاً على ظهرها. في هذا العالم، عالم ما تحت البحار، نحن نجرُّ خلفنا أعباءَ حياةٍ صعبة». ثمَّ أضفتُ بضع كلماتٍ خاصّة بي. «أرجو منكنَّ توخي الحذر اليوم وكلَّ يوم».

تعوّدتُ على مسؤولياتي بسرعة. كل التدريب الذي تحصّلتُ عليه من والدتي وحماتي تدفق الآن على نحوٍ طبيعي مِنِّي، وأحببتُ أن أعتقد أنَّني حظيت بالاحترام بسبب حكمي منذ اليوم الأول. رئيسة الجماعة. تساءلتُ ما الذي فكّرتُ به مي-جا عندما سمعت الخبر. ربما لم تفكر في أي شيء، إذ كانت لديها مشاكلها الخاصة للتعامل معها.

انتشرت الشائعات حول آخر يوم غوص لوان-سون. «كانت مريضة ذلك الصباح»، قالت لي زوجة الجزار بنبرة العارف بالأمر. علّقت المرأة التي تطحن الدخن قائلة: «من منا لم تكن مريضة في الأشهر الأولى من الحمل؟». «لقد أمضت الكثير من الوقت مع ابن مي-جا»، همست الحائكة حين جئتُ لأشتري القماش من أجل فستان لجون-لي. أنا لم أبدأ هذه الشائعات بالتأكيد. لستُ فخورةً بالاعتراف بهذا، لكنني في بعض الأيام أتمنى لو أنَّني فعلت. ما من عملٍ انتقامي يمكن أن يمحو الألم الذي سببته مي-جا لي، لكنَّ شيئاً كهذا ربّما يكون بداية. لم يثق جزء كبير من هادو بمي-جا يوماً - ابنة عميلٍ ياباني وزوجة شخص يعمل مع الأمريكيين ويعيش حالياً في البر الرئيسي. بات لديها الآن نقطة سوداء أخرى بصفتها أمّاً للصبيّ

الذي ربما يكون جعل وان-سون حبلً. «ربما كانت الفتاة تخشى إخبار والدتها»، قالت زوجة الجزار. «ربما أخبرها يو-تشان بأنه لن يتزوجها»، تكهنت المرأة التي كانت تطحن الدخن. الجميع كان لديهم نظريات، وقد تراوحت بين كون وان-سون مشتتة الانتباه بسبب مشاكلها وصولاً إلى فكرة أنها تركت نفسها تنجرف عمداً مع التيار جرّاء شعورها بالخزي من كونها حبلً.

التزمت ابتنائي الصمت حيال القيل والقال على نحوٍ مدهش. ربما كانت جون-لي صغيرة جداً ومخرجة من تكرار الشائعات أمامي، كما لم أكن راغبةً في إجراء محادثة معها حول الجنس بعد، لكنني في نهاية الأمر سألتُ مين-لي ما إذا كانت الشائعات صحيحة. - «أوه، أمي»، قالت مين-لي. «أنتِ تظنّين الأسوأ دائماً بيو-تشان وعائلته. كان هو وو-ان-سون صديقين. أردنا نحن الثلاثة تعليم جون-لي كيفية ركوب الدراجة فحسب. هذا كلُّ ما في الأمر». لم أعرف إذا كان يمكنني تصديقها أم لا.

جاء اليوم حيث اصطحب المعلمُ أوه جون-لي في حافلةٍ متوجّهة إلى مدينة جيجو للمشاركة في المسابقة. ثمَّ عادا بعد ثلاثة أيام حاملين معهما أخباراً رائعة. لقد فازت جون-لي بالمسابقة. اشتريتُ لها دراجةً ظناً منّي أنها ستمنع أي لقاءات مستقبلية مع يو-تشان. هذا لا يعني أنّه لم تكن لديّ مخاوف. «سوف تحصلين على مؤخرّة كبيرة حقّاً»، قلتُ محذّرة، لكنّها ضحكت وانطلقت مبتعدةً بها فحسب. ثمَّ أدركت بعد أن انعطفتُ عند الزاوية الخطأ الرهيب الذي ارتكبته. قد لا تكون بحاجةٍ إلى يو-تشان ليعطيها دروساً بعد الآن، لكن يمكن لكلّيهما الآن الركوب معاً، ولا يسعني

فعل شيءٍ حيال ذلك باستثناء الاعتماد على ثرثرة الآخرين كي أعرف ما الذي كانت ابنتي تنوي القيام به .

بعد أسبوع من المسابقة، زارنا المعلمُ أوه مجدّداً. «يوم سعيد!»، أعلن بحبور. «لقد اختيرت جون-لي للالتحاق بمدرسة مدينة جيجو المتوسطة».

كان ينبغي بي أن أكون سعيدة، لكنَّ أوّل ما تبادر إلى ذهني كان الجانب العمليّ. «المسافة بعيدة جدّاً بالنسبة إليها لتقطعها ذهاباً وإياباً كل يوم».

- «لن يكون هناك حاجة للسفر، ستعيش مع عائلة».

كان هذا أسوأ حتّى. «إنها في الثانية عشرة من عمرها فقط، لا أريد أن نفترق عن بعضنا».

مطّ المعلمُ أوه ذقنه. «لكنَّ كل بنات الهينيو يغادرن للعمل في البحر بعيداً عن الديار. حتّى أنتِ —».

- «لكنني لم أغادر هادو حتّى كنتُ في السابعة عشرة من عمري. وقد كنتُ مضطرة للمغادرة».

- «إذا فعلت جون-لي هذا»، استطرد كما لو أنّه كان قد تدرّب على ردّه، «فقد تكون قادرة على الالتحاق بكلّية أو جامعة في البر الرئيسي، أو»، لمعت عيناه، «ربما حتّى إلى اليابان».

لكنّه كان يشطح بخياله كثيراً.

- «كيف يمكنها مغادرة جيجو إلى البر الرئيسي، ناهيك عن مغادرة البلاد؟»، سألتُه. «لن تسمح السلطات بذلك أبداً».

- «لماذا ؟ لأن زوجك كان مدرساً؟».

- «نحن موصومون كمذنبين عبر نظام الجرم بالتبعية. نحن —».

- «أفضّل الاعتقاد أنّ السلطات تنظر إليك الآن كرئيسة جماعة

هينيو. والدتك وحمايتك كانتا رئيستي هينيو أيضاً. ربّما يكون هذا مفيداً. والأمر ليس كما لو أنّها فتىّ يمكن أن يتسبّب بالمشاكل في المستقبل. لقد سمعتُ عن العديد من الحالات التي لم يُقَبَل فيها الفتية في المدارس أو الأكاديميات العسكرية، بينما ذهبت البنات إلى البر الرئيسي للالتحاق بالجامعة والوظائف.

- «قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للبعض، لكنني فقدت ثلاثة من أفراد عائلتي في حادثة 4.3».

- «لا أعتقد أنك تفهمين»، قال المعلّم. «لقد قرّر كبار المسؤولين بالفعل النظر إلى حالة جون-لي على نحوٍ مختلف». صدمني هذا. «كيف يمكن ذلك؟».

هز كتفيه. «إنها ذكية بشكل استثنائي. لربّما قال الدكتور بارك كلمة طيّبة...».

لكنّه كان الآن يخبرني بقصة أخرى، فقلتُ له بصراحة: «أيّها بالضبط؟ هل أنّ المسؤولين قرّروا في النظر في الحالة على نحوٍ مختلف أم أنّ الدكتور بارك قدّم المساعدة؟ أم أنّها ذكية بما فيه الكفاية؟ أم أنّها ليست بصبيّ؟».

- «هل هذا يهمّ في شيء؟ لقد حصلت على فرصة لن يحظى بها إلّا القليل». تفحص وجهي قبل أن يضيف: «أفضل ما في الأمر أنّك لن تكوني مضطّرةً للقلق بشأن ركوبها الدراجة في الأزقة مع صبي أكبر منها».

لم يكن بحاجة إلى قول كلمة أخرى.

حزمتنا ملابس جون-لي وكتبها القليلة. مشيت معها العائلة بأكملها إلى موقف الحافلة حيث كان المعلّم أوّه في انتظارنا. كان

الطريق مزدحماً بأولئك السائرين إلى السوق. ارتدت النساء الأوشحة البيضاء وحملن السلال. رفع الرجال سراويلهم حتى منتصف ربله الساق، وشدوا قبعاتهم المصنوعة من شعر الخيل فوق آذانهم. جرَّ أحد المزارعين حماراً تكدّست أكياس الخيش المنتفخة فوق ظهره. لم يكن هناك بحسب ما رأيتُ في كلا الاتجاهين أثرٌ لسيّارة أو شاحنة أو حافلة. لم نستطع أنا ودو-سانغ ومين-لي التوقف عن البكاء، بينما وقف والدي وأخي وابني جانباً محاولين إخفاء مشاعرهم. مع ذلك، جون-لي لم تكن حزينة. لقد كانت متحمّسة.

- «سأعود إلى المنزل في كل عطلة ومهرجان»، قالت بصوت عال. «سأسأل عما إذا كان بإمكانني المجيء عندما يعود الدكتور بارك في الرحلة القادمة. أعدكم أن أعمل بجدّ».

رأيتُ الكثير من والدها فيها، حبها للعائلة جنباً إلى جنب مع الرغبة في التعلم، وإحساسها بالمسؤولية مقروناً بالرغبة في تجربة أشياء جديدة -ولكن لدى رؤية الحافلة قادمة من بعيد، اغرورقت عيناها أخيراً بالدموع.

- «أنت فتاة شجاعة»، قلتُ لها، لكنّ قلبي كان يعتصر ألماً. «نحن جميعاً فخورون بك. أبلبي حسناً. سنكون هنا جميعاً لدى عودتك».

توقفت الحافلة، وانفتح الباب. احتضنتُ ابنتي بين ذراعي بينما كان الغبار يتطاير من حولنا.

- «لن أنتظر هنا إلى الأبد»، صرخ سائق الحافلة عبر الباب. «لدي جدولٌ عليّ الالتزام به».

حمل المعلمُ أوه حقيقة جون-لي. «سأحرص أن تستقر جيّداً». أفلتتني جون-لي، وانحنى لي ولباقي أفراد الأسرة، ثمّ صعدت

الدرجات إلى الحافلة. انطلق السائق بالحافلة قبل أن تتاح لها فرصة الجلوس. آخر لمحة لها كانت وهي تسير في الممر.

بعد ثلاثة أيام، غادرت مي-جا ويو-تشان في حافلة الصباح. قال البعض إنهما غادرا لأنَّ مي-جا لم تستطع تحمّل سماع القيل والقال عن ابنها. دارت إحدى الشائعات حول انضمامها إلى زوجها في سيول، بينما تحدّثت أخرى عن انتقال العائلة بأكملها إلى أميركا. قال آخرون إنها لن تعود أبداً مستندين إلى حقيقة أنها باعت خنازيرها للجزار كدليل على ذلك، إذ لا يمكن لأحد أن يعيش حياة متحضّرة بدون الدورة الثلاثية: المرحاض، والخنازير، والطعام. أثار قليلون فكرة أنها لو كانت لا تنوي العودة أبداً لحاولت بيع منزل عمّها وعمّتها، وحصائر النوم، والصناديق، وأدوات الطبخ. لم تكن أيّ من هذه الشائعات منطقية بالنسبة لي.

لأول مرة منذ سنواتٍ عديدة، مشيت إلى جنب سات-دونغ من هادو، حيث عاشت مي-جا. فتحتُ بوابتها ودخلت، كان الفناء نظيفاً وسقف القش بحالة جيدة. كانت كومة من الجرار الفخارية الفارغة مكدّسة في الزاوية، ومخزن الحبوب حيث كانت تنام مي-جا عندما كانت صغيرة كان فارغاً. عرّشتُ كرمه بأزهار أرجوانية على طول الحائط. نما الخيار، والجزر، والخضروات الأخرى في رقعة بجوار المطبخ. لم يكن الباب مقفلاً، فدخلت. كما قال الناس، لقد تركت كل ما لديها من أثاث في مكانه. قد لا تكون مي-جا هنا، لكن روحها حلّت في كل شيء. فتحت ببرود صندوقاً في الغرفة الرئيسية. وجدتُ بداخله كتاب والدها. لم أصدق أنها خلّفته وراءها.

مرت أسابيع، ثم شهور بعد ذلك. لم تعد مي-جا ويو-تشان. ظل المنزل مفتوحاً. لم يُسرق شيء. ربّما كان الناس يتّبعون القول

المأثور الذي مفاده أنّه ليس لدينا لصوص في جيّجو. أو ربما كانوا خائفين من أن يجدونني هناك، فقد كنت أذهب إلى هناك كل يوم. وجدتُ نفسي أفتقد استراق النظر إلى مي-جا من بعيد. أفتقد إلقاء اللوم عليها. عندما كان هذا الفقد يتعاضم كثيراً، كنتُ أمشي إلى منزلها، ألمس أشياءها وأشعر بها في كل مكان حولي. أصبح المنزل بمثابة قشرة الجرح التي لم أستطع التوقف عن كشطها.

اليوم 4 (تتمّة): 2008

- «أنا بخير»، تعترف يونغ-سوك، رغم أنها لا تستطيع تخيل سبب اعترافها لابنة حفيدة مي-جا من بين كل الناس. «من الصعب أن أكون هنا فحسب».

تأمل كلارا في ذلك، ثم تقول: «هل دخلت المتحف بعد؟ لا تذهبي إلى هناك». تتوقف للحظة قبل أن تضيف، «أعني، لقد علمتُ للتو أن طائرنا هبطت فوق مقبرة جماعية. تم نبش الكثير من الجثث وأعيد دفنها، لكن مع ذلك. كم أن هذا فظ؟».

إن كلارا هي مصدر إزعاج. لا شك في ذلك. لكن يونغ-سوك تشعر بأنها مجبرة على تحذيرها. «قد تكونين أجنبية، لكن توخي الحذر بشأن ما تقوله. لا تزال هذه أوقاتاً خطيرة، وربما حتى أكثرها خطورة».

تميل كلارا رأسها وتسحب سماعة الأذن. «ماذا؟».

- «لا تلقِ بالاً. يجب أن أعود إلى عائلتي»، تقول يونغ-سوك.

- «لماذا؟ كي تتمكني من رؤية أسماء جميع الموتى؟ أو ما يوجد بداخل المتحف؟ أقول لك؛ لا تفعلي ذلك».

تلقي يونغ-سوك نظرة أخيرة على تمثال الأم التي تهدد طفلها

وقد التفتْ بقطعة قماش بيضاء، ثم تبدأ بالسير مبتعدة. تلحق كلارا بها «لطالما قالت هالمانغ مي-جا —».

- «كنتِ تناديها بـ هالمانغ مي-جا؟». مجرد سماع اسمها على هذه الشاكلة كان كفيلاً بجعل يونغ-سوك تنتفض بعنف.

«عادةً ما ناديْتُها بجَدَّتِي، لكنها كانت تفضّل هالمانغ. هي لم ترغب بالتأكيد في سماع كلمة الكبرى. قالت إنّ ذلك يجعلها تبدو كبيرة جدّاً في السن. على أية حال، دائماً ما كانت تقول إنّها عاشت حياةً صعبة. لم أقابل جَدِّي الأكبر أبداً، لكنّ الجَدّة مي-جا قالت إنه كان رجلاً سيئاً. كان يضربها، كما تعلمين. كثيراً ما فعل ذلك. هذا هو السبب في أنها كانت تعرج. هل كنتِ تعلمين ذلك؟». تحدّق كلارا بها باهتمام في انتظار الردّ؛ وإذ لا يأتي، تتابع قائلة: «لقد رَوَّعها، وسيطر عليها بالكامل».

تحدّق يونغ-سوك في اللاشيء. تتعرّض العديد من النساء للضرب، لكنّهن لا يَحْنُ أعزّ صديقاتهنّ. لم تقل هذا، إذ تشكُّ أنّ تفهمه الفتاة الأمريكية.

تواصل كلارا. «عندما انتقلتُ إلى لوس أنجلوس لأول مرة...». تهزُّ كتفيها. «ليس من السهل أن تكوني مهاجرة. تعلّمتُ ذلك في المدرسة، وكان صحيحاً تماماً بالنسبة إلى جدتي».

تتعثّر يونغ-سوك، فتأخذ كلارا بذراعها. «من الأفضل أن نجلس قليلاً. سوف تغضب منّي أمّي أشدّ الغضب إذا حدث شيءٌ لك».

تعثران على مقعد. تحاول يونغ-سوك تهدئة قلبها المتسارع. تبدو كلارا قلقة. تحتاج يونغ-سوك إلى دفعها للتحدّث مجدّداً.

- «إذاً كانت مي-جا تملك متجراً»، قالت محاولةً حثّ كلارا على الكلام.

- «في كوريا تاون (الحيّ الكوريّ في لوس أنجلوس). بقالة أمّ وأب (مصطلح يستخدم للدلالة على العمل العائلي الصغير) لكن بدون الأب. هل تفهمين ما أعنيه؟».
- «بالطبع». رغم أنها لم تفهم حقاً. «هل أنجبت مي-جا المزيد من الأطفال؟».
- «لا».
- «ابنها وزوجته —».
- «جدّي وجدّتي».
- «نعم، جدّك وجدّتك. هل أنجبا غير والدتك؟».
- «أمي طفلةٌ وحيدة».
- «ألم تحمل مي-جا زوجة ابنها على تقديم القرابين والصلاة إلى هالمانغ سامسيونغ؟»، تسأل يونغ-سوك بارتباك.
- «من هي هالمانغ سامسيونغ؟ هل هي جدّتي الكبرى الأخرى؟».
- «هالمانغ تعني الجدّة والإلهة»، تشرح يونغ-سوك. «هالمانغ سامسيونغ هي إلهة الخصوبة والولادة. من المؤكّد أنّ مي-جا أخذت زوجة ابنها لزيارة الإلهة —».
- «لم ألتق بجدّتي قطّ، فقد ماتت بعد فترة وجيزة من انتقالها إلى الولايات المتحدة. سرطان الثدي».
- يبدو أنّ الفتاة، ولأنّها لا تتوقّف عن الثرثرة، لم تلاحظ كم أصبحت يونغ-سوك بيضاء اللون.
- «نعم، أنا متأكّدة من أنّ أحداً لم يذهب لزيارة الإلهة. ما كانوا ليقدّموا القرابين أيضاً. نحن لا نؤمن بأشياء من هذا القبيل. لاسيما الجدّة مي-جا. لقد كانت أكبر مسيحية بينهم جميعاً —».
- «لكن جدّتك —».

- «سبق وأخبرتكَ أنني لم أقابلها أبداً. بعد وفاتها، أحضر الجدّ يو-تشان الجدّة مي-جا إلى لوس أنجلوس. كان بحاجة إلى شخصٍ ليعتني بأمّي. لاحقاً، عندما وُلدتُ، اعتنت بي الجدّة مي-جا، ثمّ بأخي. لقد عاشت معنا».

التواجد هنا في افتتاح النصب التذكاري يجعل هذه القصص أكثر إيلاماً، ويونغ-سوك لا يسعها إلّا أن تكون غير واثقة بكلّارا. لم هذه الفتاة مثابرة إلى هذا الحد؟ لماذا لا ينفكّ والداها يرسلانها للتحدّث إلى يونغ-سوك؟ لماذا لا يستطيعون جميعاً تركها وشأنها فحسب؟ - «أعلم الألم الذي سبّبه الجدّة مي-جا لك ولعائلتك»، تقول كلّارا. «ولكن بعد ما حدث، لقد فعلت كل شيءٍ لمساعدتك أنتِ وعائلتك».

- «أنتِ لا تعرفين شيئاً عن ذلك!».

لكن يبدو على نحوٍ مخيف أنّ الفتاة تعرف كل شيء عن ذلك. «ركضت مع الجدّة عبر أزقة الأولي. حوصرتُما في باحة المدرسة. توسّلت إلى الجدّة كي تأخذ أطفالك. قالت إنها تستطيع أخذ واحدٍ فقط. جعلتكَ تختارين. ومن ثمّ لم تأخذه. قتل الجنود زوجك وابنك الأكبر، وتلك التي كانوا يدعونها العمّة يو-ري. حكّت لي الجدّة عنها الكثير».

تتمعّن كلّارا في ملامح امرأة البحر الداوية. «منذ نعومة أظفاري»، تقول وهي تغطّي يديّ يونغ-سوك بيديها، «كان عليّ أن أفكر في الجانب المظلم للصداقة. هذا هو أكثر شخصٍ يعرفك ويحبك، أي أنّه يعرف كل الطرق لإيذائك وخيانتك». يطفو تعبيرٌ حزين فوق ملامحها. «وإليك المفاجأة! أنا ليس لدي أصدقاء. أمي وأبي قلقان بشأن ذلك. يريدان بشدّة أن يخضعاني لعلاج نفسيّ. لكنني لن أذهب لجلسات العلاج تلك!». هزّت رأسها، مدركة أنها

خرجت عن الموضوع. «لقد آذنتك الجدّة مي-جا. عذبت نفسها في كلّ يوم بسبب ذلك. كان ينبغي بك رؤية كيف كانت تبكي في الليل. والكوابيس التي لم تفارقها».

تحذق يونغ-سوك في عينيّ الفتاة. لا بدّ أنّ تلك النقط الخضراء بداخلهما تأتي من والدها الأبيض، لكن عدا ذلك، إنهما عينا مي-جا. عميقاً داخل تلك العينين، ترى يونغ-سوك الألم.

- «لطالما طرحْتُ عليّ الجدّة نفس السؤال. "ماذا كانت يونغ-سوك ستفعل لو أنّ مواقفنا كانت معكوسة؟". والآن أنا أسألك: هل كنت ستضحى بحياتك أو بحياة أطفالك لإنقاذ سانغ-مون أو يو-تشان؟ في مكانٍ ما بداخلك، لا بدّ أنّك تعرفين أنها لم تكن تعلم —».

- «إلى أيّ درجة ستكون العواقب وخيمة»، تنهي يونغ-سوك الجملة لها.

تفلت كلارا يدي يونغ-سوك، تنزع سماعات أذنيها، وتضعها في أذنيّ يونغ-سوك. ما من موسيقى. بدلاً من ذلك، هناك شخص يتحدث. إنه صوت مي-جا. تجمّعت الدموع في عينيّ كلارا. هي تعرف ماذا يوجد في التسجيل، لكنّ كلّ كلمة تضرب يونغ-سوك مثل حبيبات المطر الجليدي - باردةٌ جدّاً وحادة.

- «أجبرتُ نفسي كلّ يوم على قبول ما فعلته حين لم أفعل شيئاً»، تقول مي-جا. صوته عتيق، ناعم، ومرتعش؛ لا يحمل قوة أو جهازة صوت الهينيو التي كانت تمارس الغوص منذ ستين عاماً أو أكثر. «صلّيتُ ليسوع، والعذراء، والرب أن يمنحوني المغفرة —».

تنزع يونغ-سوك الأسلاك من أذنيها. تأخذ كلارا يديها مجدداً وتردد: «أن تدرك كلّ شيء يعني أن تغفر».

- «من قال ذلك؟».

- «بوذا» .

- «بوذا؟ لكنك كاثوليكية» .

- «والداي لا يعرفان كل شيء عني» . تترك تلك الجملة معلقةً في الهواء للحظة، ثم تكرر القول المأثور: «أن تدرك كل شيء يعني أن تغفر. الآن أعيدي وضع هذه الأشياء في أذنك» .

تجلس يونغ-سوك ساكنة بلا حراك مثل طائر مالك الحزين .
تعيد الفتاة سماعات الأذن إلى مكانها . مرة أخرى، تتكلم مي-جا .

- «لقد جربتُ طرقاً عديدة للتكفير عن ذنوبي؛ تحوّلني إلى مسيحية، جعلُ عائلتي بأكملها تذهب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد، العمل التطوّعي . لقد فعلتُ ما بوسعي من أجل جون-لي . . .» .

تسألها كلارا ضمن التسجيل: «إذا رأيتِ صديقتك اليوم، ماذا ستقولين لها؟» .

- «اقرأ أي رسائلني . أرجوك، أرجوك، أرجوك، اقرأ أي رسائلني .
أو يا كلارا، إذا قرأتِ رسائلني، فستعرف عندئذٍ ما الذي كان في قلبي» .

- «لكنني ظننتكِ قلتِ إنكما لا تعرفان القراءة —» .

- «سوف تفهم . أنا أعلم أنها سوف تفهم . سوف تفتحها وتعرف . . .» .

تسحب يونغ-سوك السماعات . «لا أستطيع . لا أستطيع وحسب» . تقف، وتثبت نفسها، ثمّ، وبالا اعتماد على القوة التي لطالما دعمتها في كثيرٍ من الظروف العسيرة، تضع قدماً أمام الأخرى، وتمضي تاركة الفتاة على المقعد .

الجزء 5

الغفران

1975 – 1968

أن تُولدي بقرة

مكتبة

t.me/soramnqraa

صيف 1968

جلسنا على عجيزاتنا خارج البولتيوك بينما جأر رجل بصوته نحونا عبر مكبّر الصوت. «اليوم ستقطع الغوّاصات-الجدّات مسافة كيلومترين للعمل في المياه العميقة. سأجعل القبطان ينزل الغوّاصات-الصغيرات في خليج صغير يزخر بقنافذ البحر. ليس معنا غوّاصات-طفلات اليوم، لذلك لا داعي للقلق بشأنهن. لا أنفكّ أخبركّ أننا بحاجة إلى المزيد من الغوّاصات-الطفلات. أرجو منكّ المواظبة على تشجيع النساء الشابات في عائلاتكّ على الانضمام إلى الجماعة».

أن يخبرنا رجل بما يجب أن نفعله كان شيئاً مزعجاً بما فيه الكفاية، لكنّ الصراخ فينا عبر مكبّر الصوت زاد الطينة بلة. ربما كانت لدينا بعض المشكلات في السمع، لكن كلّ النساء في الجماعة تمكّن دائماً من فهمي عندما جلسنا حول حفرة النار وناقشنا خطة اليوم. كنت مع ذلك لا أزال رئيسة جماعتنا، وكانت الهينييو الأخريات يتطلّعن إليّ لتصويب مسار هذا الرجل وجعله يرى الأمور على حقيقتها.

- «كيف يفترض بنا أن نضمّ غوّاصات-طفلات طالما أنكّ غيرت القواعد المتعلقة بمن يمكنه الغوص؟».

- «أنا لم أغير القواعد»، صاح بسخط.

- «حسنٌ. أنتَ لم تفعل. السياسيون في مكان ما بعيدٍ عن هنا أصدرُوا قانوناً بهذا الشأن، لكن ما الذي يعرفونه عن ممارساتنا وتقاليدنا؟».

زفر الرجل بنفاذ صبر. لم يكن ذلك خطأه حقاً، بل القانون الذي حدّد غوّاصةً واحدة لكل أسرة، ودخل خير التنفيذ قبل ست سنوات - دون أن تُسأل عن رأينا - وكان بمثابة ضربة كبيرة لجميع العائلات التي اعتمدت على الجدّات، والأمّهات، والبنات في تأمين دخل الأسرة.

- «لطالما كان الحال أنّه إذا تزوجت امرأة أو انتقلت بعيداً، فإنها تفقد حقوقها في تلك القرية»، قال الرجل.

- «وإن يكن؟ منذ سنوات، عندما تزوجت وانتقلت إلى قرية أخرى، قُبلت بسهولة في جماعة تلك القرية. أما الآن، فيمكن للمرأة التقدم بطلب للحصول على رخصة فقط بعد أن تعيش في قرية جديدة لمدة ستين يوماً. وإذا كانت حماتها أو أخت زوجها غوّاصة بالفعل، فحينئذ —».

- «المسألة هي —»، قاطعتني يانغ جين، «إذا كان مسموحاً بالترخيص لغوّاصة واحدة فقط لكل أسرة، فكيف من المفترض بنا أن نحضر بناتنا إلى البحر؟».

- «وحتّى لو كان بوسعي إحضارهنّ»، سألتُه مضيئةً إلى النقطة التي أثارته شريكتي، «لَمْ قد أفعل ذلك؟».

- «هل أنا على وشك أن أسمع عن جون-لي الآن؟»، سأل الرجل بتنهيده مسموعة.

نعم، لأنني كنتُ أعرف أنّ هذا يضايقه، «ابنتي الصغرى تدرس في الجامعة بسيول».

- «أعرف، أعرف».

- «وإذ ليست كل البنات محظوظات أو ذكيّات مثل جون-لي، فإنّ لدى كلّ امرأةٍ شابةٍ الآن فرص أقلّ خطورة بكثير من الغطس. انظر إلى ابنتي الكبرى. إنّها مثل أمّها؛ يمكنني القول إنّ مين-لي لم تكن يوماً الفتاة الأكثر ذكاءً، لكنها تساعد في إعالة أسرّتها عبر بيع البطاقات البريدية، والمشروبات الغازيّة، وزيت التسمير للسياح».

أومأت النساء من حولي برؤوسهن إيماءة العارف، رغم أنّ أيّاً منّا لم تكن قد سمعت بالمشروب الغازيّ أو زيت تسمير البشرة حتى وقت قريب.

- «لمّ قد تغوص بينما يمكنك أن تكون بأمان على اليابسة؟»، سألت يانغ-جين.

لم يكلف الرجل نفسه عناء الإجابة. هو لم يكن يخاطر بحياته بالنزول في البحر.

- «إذاً، مَنْ يترك لنا ذلك؟ أنت ترى من حولك نساءً عُصَنَ معاً لسنوات عديدة؛ الأختان كانغ، يانغ-جين، وأنا - في الواقع معظمنا هنا نقترّب من سنّ التقاعد. ماذا ستفعل عندما يحدث ذلك؟».

هزّ كتفيه، متظاهراً باللامبالاة، وهو ما جعلنا نضحك، وما جعله يحمّر خجلاً. أعاد المكبّر إلى فمه. «أنا أدير جمعيّة مصائد الأسماك القروية. أنا المسؤول هنا. يجب أن تمثّلن لأوامري».

عندها ضحكنا أكثر حتّى، وتدققت المزيد من الدماء إلى وجهه. لم يكن يدرك أنه أعطانا تشكيلة أخرى لجيجو من ثلاث: استعمل عباراته المميّزة، ضحكنا عليه، واحمرّ خجلاً. نفس الشيء، في كلّ يوم غوص.

لطالما كانت جيجو جزيرة الوفرة الثلاث. كان لا يزال لدينا

الكثير من الرياح والصخور، لكننا نحن النساء أجبرنا على التكيف بطرق لم تكن لدينا من قبل. لا أستطيع القول ما إذا كانت هذه حقيقة أم لا، لكنني اعتقدتُ أنَّ القانون التعاوني لتنظيم مهنة صيد الأسماك جاء بسبب النقص في عدد الرجال الناجم عن حادثة 4.3، وحرب 6.25، والثورة الصناعية في البر الرئيسي والتي أغرت الرجال بالذهاب بعيداً للعمل في المصانع. ظهر لدينا أيضاً صراع آخر بين الشامانية؛ التي كانت للنساء بشكل رئيسي، والكونفوشيوسية التي كانت تفضل الرجال. لم يُعر كونفوشيوس الكثير من الاهتمام للنساء: عندما تكونين ابنة، أطيعي أباك؛ عندما تكونين زوجة، أطيعي زوجك؛ عندما تكونين أرملة، أطيعي ابنك. لكنني عندما كنت فتاة، أطعتُ أمي؛ وعندما كنتُ زوجة، كان لي رأيٌ مساوٍ لرأي زوجي؛ والآن بعد أن أصبحتُ أرملة، كان على ابني الوحيد أن يطيعني. هذا لم يكن الحال في العديد من الأسر. كنتُ سعيدةً لأنني لستُ زوجةً أو ابنةً الآن، ولأنَّ ابني كان أذكى من أن يختبرني.

أكثر التغيرات إذهالاً وأهمّية كانت أنَّ الرجال أشرفوا الآن على جمعية مصائد الأسماك القروية. كانت لا تزال لدينا جماعتنا الخاصة وكنا نلتقي في البولتيوك، لكن الرجل أخبرنا من يمكنه العمل وإلى متى، لقد حاول السيطرة علينا - كحال الرجال الآخرين مع كلِّ جماعة هينيو في جميع أنحاء الجزيرة - لذا شعرنا بحرية أقلّ في أن نكون على سجيّتنا أو في أن نقرّر مستقبلنا. لقد جعلنا حتّى ندفع غرامات إذا تجاوزنا الحدّ المسموح للصيد أو إذا حصدنا شيئاً في غير موسمه. غرامات! لقد تدبّرتُ منع هذه الممرسات كرئيسة، لذا لم يتعيّن على النساء في مجموعتي دفع غرامات. إذا جمعتَ كلَّ هذه العوامل معاً - الرجال الذين يخبروننا بما يجب علينا فعله، والبنات اللواتي يذهبن إلى المدرسة ويحصلن على وظائف على الأرض

اليابسة، وعلى وجه الخصوص القواعد التي تحظر على أكثر من امرأة واحدة في الأسرة العمل كهينيو - فلا عجب أن عددنا أقل الآن. أضف إلى ذلك ما حدث بعد زيارة الرئيس بارك. ألقى نظرة على جزيرتنا، وقرّر أنه لم يكن من العمليّ بناء المصانع هنا، لكن، ونظراً لأنّ الطقس كان جيداً، أعلن أن الطريقة الوحيدة لكسب لقمة العيش كانت من خلال زراعة نوع من اليوسفي يسمى غامغيول. لذا بدأ الناس، بما في ذلك العديد من الهينيو، في زراعة اليوسفي المتنامية على الجانب الآخر من الجزيرة. عندما جاء الدكتور بارك أوّل مرّة، كان هناك حوالي ستة وعشرون ألف هينيو في جيغو. عندما جاء في العام الماضي - لقياس قدرة احتمالنا على إبقاء أيدينا في الماء المثلج - كان عددنا قد انخفض إلى أحد عشر ألف هينيو. أحد عشر ألفاً! راهنني أنّه في غضون خمس سنوات سنخسر نصفاً آخر بسبب خروج الكثير منّا للتقاعد.

بالنسبة لي، فإنّ الشيء الجيد الوحيد في جمعية مصائد الأسماك القروية كان أنّه يمكننا الاحتفاظ بكل ما حصلنا عليه خارج «الحصة المطلوبة». لقد أخذت هذه الأشياء وبعثتها في شوارع مدينة جيغو، فأمن الدخل تكاليف تعليم أطفالنا وحفل زفاف مين-لي، وسوف يساعدني في تغطية تكاليف المأدبة والترتيبات الأخرى المرتبطة بزفاف كيونغ-سو القادم والفتاة التي التقى بها في البرّ الرئيسي خلال خدمته العسكرية الإلزامية. سرعان ما سيكون لديّ أربعة أجيال تعيش داخل نفس السياج: حماتي، وأنا، وابني وزوجته، وأولادهما. - «والآن أسرعن!»، صاح الرجل. «اجمعن معدّاتكن!».

فعلنا ذلك، ثم صعدنا إلى مؤخرة شاحنته. قاد بنا إلى الرصيف، حيث انتظرنا زورق بخاري كبير. حالما بتنا على متنه، اتجّه القبطان إلى عرض البحر، حيث أنزل أولاً الغوّاصات-الصغيرات في خليج

صغير، ثم توجه عبر الأمواج المضطربة أبعد إلى الداخل. تولّيت المسؤولية لدى وصولنا إلى المكان المحدّد.

- «انتبهن إلى عواماتكن»، قلتُ لهنّ. «ابقين قريباتٍ من القارب. اصعدن على متنه حين تشعرن بالبرد. ورجاءً اعتنين ببعضكن البعض».

كانت الحياة قد تغيرت على الأرض، لكن البحر ظل كما هو. نفَسٌ، نفَسٌ، نفَسٌ، ثم إلى الأسفل... كانت المياه هنا صافيةً جداً والرؤية واضحةً إلى عمقٍ كبير. ارتفعت الصخور البركانية السوداء على النقيض من الرمال اللؤلؤية. إلى يساري، تمايلت غابة من الأعشاب البحرية كما لو كان ذلك بفعل هبوب ريح لطيفة. وكما هي الحال دائماً، تلاشى كل ما يقلقني فوق البحر عندما بدأت أركّز، وأبحث في الصخور عن كائنات لأضعها في شبكتي، وتنبّهت حواسي وتحفّزت لرصد المخاطر.

بعد أربع ساعات، عدنا إلى الشاطئ ثمّ أرجعونا إلى هادو حيث كان بضعة رجال ينتظرون توقّف الشاحنة. لا يزال الأزواج يمضون اليوم في ساحة القرية، ويهتمّون بالرضع والأطفال الصغار، لكنهم أيضاً ساعدوا زوجاتهم بطرقٍ لم يكن من الممكن تصوّرها في السابق. نحن الهينيو قويّات، ولطالما كنّا ننقل أشياءنا بأنفسنا. ونظراً لأنّ رجالنا لم يكونوا معتادين على العمل البدني، فقد تطلّب الأمر عادةً اثنين منهم لنقل ما جلبته الهينيو إلى الشاطئ. «عندما تتقبّلن مساعدتنا، سوف تتعاضمن أرباحكن»، أوضح الرجل المسؤول. لم يكن لديّ زوج بالطبع، وكان ولدي في البرّ الرئيسي. كانت شبكتي اليوم ثقيلة جداً لدرجة أنّني اضطررتُ لحمل وزنها إلى الانحناء حتّى بات وجهي موازياً للأرض تقريباً. كان لهذا العبء الثقيل طعم المال، والفرص، والحبّ.

ما زلنا نزن صيدنا معاً، لكن الرجل المسؤول أشرف على المبيعات وتوزيع الأموال المكتسبة من محاصيلنا البحرية. بمجرد الانتهاء من ذلك، كنّا ندخل البولتيوك، وندقئ أنفسنا عند حفرة النار، ثم نرتدي ملابسنا، ونشارك وجبة. لم يكن ذلك الرجل يدخل إلى هناك على الأقل. كانت تلك لتكون بمثابة إهانة كبيرة.

- «سمعت أن جون-لي ستعود إلى المنزل اليوم»، قالت غو-جا.

- «نعم، لعطلة الصيف»، أجبتها.

- «هل بدأت أفكارها تتجه نحو الزواج؟»، سألت غو-سُن.

وضعتُ يدي على كتفها، مدركةً كم يجب أن يكون صعباً طرح الأسئلة التي تدور حول ابنة وأخبار حياتها. «أنتِ تعرفين كيف هي جون-لي، يبدو أن أفكارها تدور حول الكتب فقط. أنا محظوظة لأنّ مين-لي قد منحني بالفعل حفيدين توأمين».

- «محظوظة جداً»، وافقتُ غو-سُن. «الآن لديك الضمانة

لجيل آخر من الصّبية لمساعدتك في العالم الآخر».

غادرنا البولتيوك معاً، لكننا افترقنا على الفور تقريباً. توجّهتُ إلى منزلي القابع على الشاطئ. لا تزال دو-سانغ التي تبلغ تسعة وستين عاماً الآن تعيش في المنزل الصغير، لكنني وجدتها في مطبخ المنزل الكبير تحضّر وجبة الترحيب بعودة جون-لي. اصطفت عند أحد الجدران جراراً مملوءاً بالفجل المخّل منزليّ الصنع، وأنواع الصلصات، والمعاجين. بالنسبة لي، كانت تلك الجرار مثل أكداس من سبائك الذهب، إذ كانت تمثّل النقلة النوعية التي انتقلتُها بعائلي.

- «لطالما أحبّبت جون-لي نقانق لحم الخنزير»، قالت

دو-سانغ. «لقد قطعْتُ هذه إلى شرائح رقيقة، بحيث يمكن لكل شخص الحصول على عدّة قطع».

بعد سنوات كثيرة، عرفتُ حماتي على نحوٍ جيّدٍ جدّاً، وهي لم تقل الحقيقة الخالصة. كانت عودة جون-لي إلى المنزل من سنتها الأولى في الجامعة مناسبة كبيرة، وقد وافقتُ على ذبح أحد خنازيرنا. استخدمنا كلّ جزء من الحيوان للاحتفال الليلة، لكنّ النقانق لم تكن لجون-لي. كانت من أجل التوأم. أحبّت دو-سانغ أن تدلل ابني حفيدتها.

- «ماذا أعددتِ أيضاً؟ وكيف يمكنني المساعدة؟»، سألتها.
- «استخدمتُ عظام الخنزير، والسرخس، والبصل الأخضر، للبدء في إعداد مرق اليخنة. يمكنكِ تحريك مسحوق الشعير كي يصبح أكثر سماكة، تذكري فقط أن —».

- «تستمرّي في التحريك لمنعه من التكتّل. أعرف».
- «ينبغي بمين-لي أن تكون هنا قريباً. لقد وعدتُ بإحضار سمك القرميد كي نشويه. وآمل أنك أحضرت أشياء من البحر أيضاً».

- «لدي سلة من صغار أذن البحر تصلح للشواء. أعرف أنّ جون-لي تحبّها».

- «إنها أملنا الأكبر»، قالت دو-سانغ مبتسمة.

لكن، يا إلهي، على مدار السنوات السبع الماضية لم يمرّ يوم لم أفتقدها فيه. لم أتمكّن من رؤيتها عندما كانت في المدرسة الإعدادية والثانوية للبنات في مدينة جيجو إلّا في المناسبات الخاصة، حتى أنّها بقيت في المدينة للمدرسة الصيفية. «أريد أن أحسّن فرصتي في الالتحاق بكلية أفضل»، كرّرت ذلك كثيراً خلال الأيام القليلة التي كانت تأتي فيها للزيارة. فكّرتُ أنّه ربّما تكون المدينة قد عبثت بعقلها حتّى تحلم بشيء بهذا الحجم، إذ كان ذهابها إلى تلك المدارس الخاصة شيئاً إعجازياً بما يكفي. كان يجدر بي أن

أكون أكثر فطنة، لأنها لم تُظهر، كلما جاءت إلى هادو، أية رغبة في الانضمام إليّ في البحر. بدلاً من ذلك، أرادت زيارة جمعية مصائد الأسماك القروية الجديدة! كانت الحكومة في البر الرئيسي قد أرسلت كتباً لإنشاء مكتبات صغيرة في كلّ جمعية حتى تتمكن الهينيو مثلي «من رفع مستوى القراءة والكتابة لديها»، لكنني لم أكن أعرف القراءة والكتابة في الأساس، لذا بدت هذه الهدية بمثابة إهانةٍ أخرى. لكنّ جون-لي أحبّت تلك الكتب. قرأت كلّ واحدٍ منها بطريقةٍ ممنهجة. وعندما حلّ الوقت، أبلت حسناً في امتحانات القبول لدرجة أنها فازت بمنحة دراسية في جامعة سيول الوطنية - أرقى مؤسسة تعليمية في البلاد. كنت مصدومة وفخورة جداً في آنٍ واحد. لكنّ موقفها حيال ذلك جاء مختلفاً.

- «لقد فُقد نصف الطلاب خلال سنوات الحرب»، قالت لدى استلامها رسالة القبول، «هم إمّا قُتلوا في المعركة أو انتقلوا إلى الشمال. تماماً مثلما هو الحال هنا في جيجو، يعاني البر الرئيسي من نقصٍ في عدد الرجال. إنَّهم يحتاجون إلى فتياتٍ مثلي لتغطية النقص».

قالت أختها الكبرى ما شعرتُ به في تلك اللحظة. «لقد عملتُ بجدّ من أجل هذا، لا تنبيهه عبر التصرف وكأنك لم تكسبه بشرف». لم يكن بوسعي التنبؤ بما سيحدث في المستقبل، ولكن حتى في هذه الأيام، كان عدد الأولاد الذين يذهبون إلى المدارس الإعدادية والثانوية ضعف عدد الفتيات. سوف تشتدّ المنافسة أكثر فأكثر مع مضيّ هؤلاء الأولاد قدماً، لكنني سأحرص على أن يذهب جميع أحفادي إلى المدرسة الثانوية، وربما حتى الكلية أو الجامعة، حتى لو كان ذلك يعني أنني ووالديهم سنفترق عنهم معظم أيام السنة. في بعض الأحيان، يجب أن يعتصر الألم قلبك كي تفوز بنتيجة عظيمة.

سمعتُ مين-لي تنادي: «أمّي! جدّتي!».

ركضتُ ودو-سانغ إلى الخارج.

- «انظرا على مَنْ عثرتُ في الزقاق»، قالت مين لي. كانت تحمل حقيبة أختها بيد وسلّة في اليد الأخرى. بجانبها كانت ابنتي الصغرى التي بدت مختلفة تماماً عما كانت عليه عندما لوّحت لها على الرصيف قبل تسعة أشهر. في ذلك اليوم، ارتدت جون-لي تنورة قصيرة، وكنزةً بأكمام طويلة، وكلاهما مصنوع من قماش البرسيمون. كان شعرها يتدلّى مضافوراً في جديلتين. الآن، هي ترتدي فستاناً بلا أكمام يعلو طرفه ركبتيها بعدة سنتمترات. قصّت شعرها بتسريحة غطّت فيها غُرَّتْها الجديدة حاجبيها، وطالت بقيّة شعرها عدّة بوصات إضافية، وكان يتأرجح نزولاً حتى خصرها. أمسك ابنا أختها التوأم البالغان أربع سنوات بيديها. كانت ابتسامتها كبيرة، لكنّ مؤخرتها لم تكن كذلك؛ لقد كنت مخطئة بهذا الشأن، وهو ما كنا جميعاً ممتنّين لأجله.

- «لا يا أمّي، لا أستطيع الذهاب معك إلى البحر»، أخبرتني جون-لي بعد أسبوعين عندما جاءت دورة الغوص التالية.

- «لا تقلقي بشأن القانون —».

- «لستُ قلقة بشأن ذلك. لا يمكنني الذهاب لأنني مضطّرة للدراسة».

- «ألا يمكنني حتّى أن أحملك إلى البحر كي تبرّدي جسدك؟».

- «ربما لاحقاً، يجب أن أنهي هذا الفصل».

نفس العذرين دائماً. كان عليها إمّا أن تدرس، أو أن تكتب الرسائل.

كانت هذه أطول فترة قضتها في المنزل منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، ولم يكن الأمر يسير على نحوٍ جيد. كنتُ أحبُّ ابنتي، لكنّها لم تستطع أن تكفَّ عن التذمّر والشكوى. لم تحبّ الذهاب إلى المحيط، لأنّه لم يكن لديها دشرّ لغسل الملح عن بشرتها. لم تحب أن تغسل شعرها في منطقة الاستحمام، لأنّ بلسم الشعر خاصّتها لا يعمل جيداً مع الماء المالح. لم تكن معتادة على المهامّ المنزلية، ولم تستيقظ باكراً لمساعدتي أو لمساعدة جدتها في جلب المياه أو جمع الحطب، لكنّها كانت تذهب بمفردها إلى البئر لإحضار دلو ماء أو اثنين كي تغسل شعرها. (جعلتُها تقوم بذلك خلف المنزل الصغير حتى لا يرى جيراننا كم كانت مبدّرة). لكنّها وقرّت أسوأ شكاويها للمرحاض: «إنّه نتن! الخنازير تزحف تحتي مباشرةً. والبعوض!».

كان لا يزال أماننا شهرين ونصف الشهر قبل أن تعود إلى سيول.

- «أخبريني عن الكتاب»، قلتُ وأنا أحاول إيجاد طريقةٍ للتواصل. «تذكرين عندما قرأت لي هايدي؟ ربّما يمكنك قراءة هذا لي —».

نظرتُ إليّ بانزعاج انقلب إلى نوع من الحزن. «أمّي، إنك لن تفهمي هذا الكتاب. أحاول أن أقرأ لصفّ علم الاجتماع الذي سأدرسه في الفصل الدراسي القادم».

علم الاجتماع. لم تكن هذه أوّل مرّة لا أعرف فيها ما الذي كانت تتحدث عنه.

- «حسنٌ»، قلتُ وأنا أستدير مبتعدة. «أنا آسفة. لن أزعجك ثانيةً».

- «أوه، أمي، لا تأخذي الأمر على هذا النحو». وضعت

الكتاب جانباً، وعبرت الغرفة باتجاهي، وضمتني بذراعيها. «أنا التي ينبغي بها أن تتأسف».

حدقتُ في وجهي، وذُهلْتُ - كحالي دائماً - كم كانت ملامحها الناعمة تذكّرني بوالدها. مسدتُ خصل الشعر حول أذنها. - «أنت فتاة طيبة»، قلتُ لها. «وأنتِ مدعاةٌ للفخر. عودي إلى دراستك».

لكنني في العمق، كنتُ مجروحة. رأيْتُها مثل زبد بحر - ينجرف مبتعداً عني شيئاً فشيئاً - ولم أعرف كيف لي أن أغيّر ذاك المسار المحتوم.

من بين كل الناس، غو-جا هي التي أخبرتي ماذا كان علم الاجتماع. «إنّه الدراسة التي تُعنى بكيف يتعايش الناس سوياً. لدينا ابن عم من الدرجة الثانية يمارس هذا العمل في مدينة جيغو». فاجأني أن يكون لدى الأختين كانغ قريبٌ متعلّم في المدينة، لكنّ هذا علّمني أيضاً أنني كنت بحاجة للتكيّف مع الظروف المتغيرة من حولي على نحوٍ أفضل، تماماً كما تكيّفتُ دائماً مع ظروف البحر دون الحاجة إلى التفكير.

- «هل تقصدين كيف يتعايش الأصدقاء أو العائلة؟»، سألتها. - «أفترض ذلك»، أجابتنني. «لكنني أظنُّ أنّ الأمر أشبه بما يحدث في البولتيوك خاصتنا».

لعدّة أيّام، فكّرتُ ملياً بما قالته لي غو-جا. وبدأتُ فكرةً تختمر تدريجياً في ذهني. عندما حلّت فترة الغوص الثانية في الصيف، دعوتُ جون-لي للحضور معي وجَدّتها إلى البولتيوك. «ليس للنزول

في البحر»، وضحّت لها، «بل لتتعرّفي على مجتمع الهينيو». شعرتُ
بسعادة غامرة حين وافقتُ.

حال وصولنا إلى البولتيوك، جلست جون-لي بهدوء تصغي إليّ
والى الغوّاصات الأخريات بينما كنّا نبذل ملابسنا. سألتُ
المجموعة: «هل من طعام على هذا الشاطئ؟». بينما كانت إجابات
التباهي النموذجية - من قبيل «طعامٌ أكثر من الصخور في حقلي، لو
أنّ لديّ أيُّ حقول» و«طعامٌ أكثر من لترات البنزين التي كنتُ
سأحتاجها لملء سيارتي، لو أنّ لديّ سيّارة» - تنهال عليّ، كانت
جون-لي تدوّنّها في دفتر ملاحظات. وبعد أن ذهبْتُ دو-سانغ
وصديقاتها إلى الشاطئ لجمع الطحالب التي جرفتها المياه إلى
الشاطئ، انضمت جون-لي إليّ والهينيو الأخريات في الشاحنة أثناء
الرحلة إلى الرصيف. لم تكن قد ربطت شعرها، فتطاير هنا وهناك،
وفي كل مكان. لم تغطّه بشكلٍ ملائم حتى عندما كانت تنتظرنا على
متن القارب بينما كنّا نغوص. بعد ساعات، وأثناء عودتنا إلى
الشاطئ، طرحْتُ أسئلة حول ما كنّا نفعله، لكنّها أسئلة جعلتني أبدو
كأم سيئة وحسب.

- «ألم تعلّمها أيّ شيءٍ عن الغوص؟»، سألتني غو-جا.
عندما أترك لشريط السنوات أن يمرّ في ذهني، يمكنني أن أرى
أنّني حاولت، لكنّ محاولتي لم تُؤتِ أكلها. كفتاة صغيرة، لم تهتمّ
جون-لي أبداً بأخذ عوّامة التيواك التي أعطيتها إياها إلى البحر. لم
تستعر عيني الكبيرتين قطّ، ولم تسألني أن أصنع لها ثياباً مائية. لقد
كانت تعيش بالفعل في مدينة جييجو عندما بلغت الخامسة العاشرة
فحسب، لذا لم يتسنّ لي تدريبها على الأعمال البحرية كما درّبتني
أمي. لم يسعني إلا أن أشعر بالحرّج أمام الجماعة، لكنّ ابنتي هبّت
للدفاع عني.

- «لا تضايقنَ رئيسَتكِ»، قالت برفق. «لقد عملتُ بجد
لتمنحني هذه الحياة. وأنتنَ فعلتنَ الشيء نفسه لبناتكنَ أيضاً، أليس
كذلك؟».

لقد فعلنَ، لكن بالطبع، فإنَّ أيّاً من هؤلاء الفتيات لم تبلِ حسناً
مثل جون-لي.

حالما وصلنا إلى البولتيوك، قمنا بما كنّا نقوم به في العادة:
تدفئة أنفسنا قرب النار، طهي وجبة، والثرثرة حول المشاكل في
عائلاتنا. تفتّحت جون-لي أمامي مثل زهرة وهي تطرح جميع أنواع
الأسئلة حول مجتمعنا الأمومي. كانت هذه المرة الأولى التي تسمع
أيّ منّا بهذه التسمية - ثقافة تركز على النساء - وقد أثارت فضولنا.
- «أنتن تَتخذن القرارات في أسركن»، أوضحت جون-لي.
«أنتن تكسبن المال. لديكن حياة جيدة —».

استهجنْتُ غو-جا الفكرة. «نحن نفكر في أنفسنا على أننا
مستقلّات وقويّات، ولكن كلّ ما عليك فعله هو الاستماع إلى أغانينا
كي تعرفي أنّ أيامنا صعبة. نحن نغني عن مصاعب العيش تحت
حكم الحَمَوات، وعن حزننا لفراق أطفالنا، وعن الحسرة على قسوة
هذا الوجود».

- «أختي محقّة»، قالت غو-سُن. «من الأفضل أن تُولدي بقرة
على أن تُولدي امرأة. مهما كان الرجل غيباً أو كسولاً، فهو أكثر
حظاً. ليس عليه أن يشرف على الأسرة. ليس عليه أن يغسل
الملابس، أو يدير شؤون المنزل، أو أن يعتني بكبار السنّ، أو أن
يلقِ بالاً ما إذا كان لدى الأطفال طعامٌ يأكلونه أو حصائر ليناموا
عليها. ليس عليه القيام بعمل بدني شاق في الحقول الرطبة أو
الجافة. تتمثل مسؤولياته الوحيدة في رعاية الأطفال والقيام بالقليل
من الطهي».

- «كان يُسمّى زوجةً في أماكن أخرى»، قالت جون-لي.

ضحكنا على هذا.

- «إذاً، إن كنتين رجالاً»، قالت جون-لي، «كيف كانت ستختلف حياتكن؟».

منذ أيامي الأولى كغوّاصة-طفلة؛ كانت المحادثة في البولتيوك تتمحور غالباً حول الرجال، والأزواج، والأبناء. ويمكنني أن أتذكر والدتي وهي تقود المجموعة أثناء النقاش حول ما إذا كان من الأفضل العيش كرجل أو امرأة، لكنّ سؤال ابنتي أرسل الهينيو في جماعتي في اتجاهات جديدة.

أجابت غو-جا أولاً: «إذا كنتُ رجلاً، فلن أقلق بشأن الأعمال المنزلية أو المسؤوليات. كنتُ سأجلس تحت شجرة القرية وأتأمل في الأفكار الكبيرة كما يفعلون».

- «كنت أحياناً أتساءل ما إذا كان من الأفضل أن أكون زوجي»، اعترفت غو-سُن. «هو يشربُ كثيراً منذ أن ماتت ابنتنا. لقد طلبت منه أن يعثر على زوجة صغيرة ويشاركها منزلها. وماذا كان ردّه؟ لمَ قد أفعل ذلك بينما أنتِ تأوينني وتطعميني بالفعل؟».

كنتُ أعرف قصة كل امرأة. مَنْ يشرب زوجها كثيراً، ومَنْ يقامر، ومَنْ يضربها. كلّما أتت امرأةٌ إلى البولتيوك مصابة بكدمات كنتُ أقول لها ما قلته لـمي-جا ذات يوم: اتركه! لكنهنّ نادراً ما فعلن ذلك، فطالما كنّ خائفات على أطفالهن، وربّما على أنفسهنّ.

- «الشرب والقمار هما الأصعب»، علّقت إحدى النساء. «حالما كبُر صغاري بما يكفي كي يعتني بهم أشقاؤهم الأكبر سناً، أصبح زوجي بلا هدف. شعرتُ بالأسف تجاهه، ولكن ماذا كان سيحدث لو بدأتُ أنا في الشرب والمقامرة؟».

- «كنت عبدةً في عائلة زوجي الأول»، اعترفت يانغ-جين.

«ضربني زوجي ووالد زوجي. إنها الحقيقة! أنا لا أريد أن أكون رجلاً يفعل شيئاً كهذا. أنا أسعد كامراً».

- «دائماً ما سيجد الرجل شخصاً ليهتمّ به»، قالت امرأة.

«أسألي نفسك إن كنتِ تعرفين رجلاً يعيش بمفرده».

لا يمكن لأحد أن يفكر حتى في رجل واحد يعيش بمفرده في هادو. هو يقيم مع أمه، أو زوجته، أو زوجته الصغيرة، أو أولاده.

انضمّت دو-سانغ أخيراً إلى المحادثة. «لا يستطيع الكثير من الرجال الاستغناء عن الزوجة، بينما يمكن لجميع النساء الاستغناء عن الزوج».

رفعت ابنتي عينيها عن دفتر ملاحظاتها. «يبدو ما تقلنه لي هو أنكِ المسؤولات، لكنك لستِ كذلك. عندما يموت الأزواج، تنتقل ملكية المنازل والحقول إلى الأبناء. لماذا يحوز الرجال على جميع الممتلكات؟».

- «أنتِ تعرفين السبب»، أجبتها. «لا يمكن للابنة أن تضطلع بطقوس تبجيل الأسلاف، لذا يجب أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبناء. هذه طريقتنا في شكرهم على الاعتناء بنا في العالم الآخر».

- «هذا ليس عدلاً»، قالت جون-لي.

- «إنّه ليس كذلك بالفعل»، وافقته. «كثيراً ما فقدن أبناءهنّ في الحرب أو أثناء» - خفضت صوتي - «الحادثة، ولهذا السبب لجأت بعض النساء هنا إلى تبني الأبناء. لكن هناك أخريات منّا - مثلي أنا - اشترين حقولاً كي نمنحها لبناتنا ذات يوم».

سألت جون-لي والفضول يعلو ملامحها: «اشتريت حقلاً لي؟». لم أكن حتى هذه اللحظة أفكر في احتمال أنّها لا تريد أرضاً في جيجو، أو أنها قد لا تعود على الإطلاق.

- «لا أعرف لماذا تتحدثن جميعكنّ عن كيف يقوم أزواجكنّ

بكل مهامّ الطهي ورعاية الأطفال»، قالت إحدى جاراتي. «في منزلي، الطبخ، والتنظيف، والغسيل من عمل المرأة؛ أيّ عملي. أنا أبقى الأمر بسيطاً على الدوام: عصيدة الشعير، وحساء بالخضار المخللة».

- «أعرف ما تقصدينه»، وافقت امرأة أخرى. «يتوق زوجي ليكون السيّد في عائلتنا، لكنني أنا التي أفعل كل شيء. أنا أعتبره مجرد ضيف في منزلي».

- «من الأفضل أن يكون لديك ضيف في منزلك على ألا يكون لديك زوج على الإطلاق»، قلتُ لها. «لقد أحببتُ زوجي، وسوف أحبه إلى الأبد. كنتُ لأعطي أيّ شيء كي يكون معي».

«لكنّ جون-بو كان مختلفاً عن بقيّة الرجال»، قالت غو-سُن.

«لقد ترعرعنا جميعنا معه، و —».

- «كان لديّ الزوج الخطأ في مرّتين»، قاطعتها يانغ-جين. «لم يفعل زوجي الثاني شيئاً لأجلي. الآن وبعد أن مات، لن أفكر في أيّ منهما ثانية».

- «لقد فقدتُ زوجي أيضاً»، قالت إحدى الغوّاصات-الصغيرات. «وأنا كذلك لا أفقده. هو لم يساعد عائلتنا أبداً. لم يكن بمقدوره الغوص. الرجال ضعفاء تحت سطح البحر، حيث نتواجه مع الحياة والموت كلّ يوم».

- «أنت تقسين كثيراً». سكّتُ لحظةً لأتبيّن كيف لي أن أقول هذا بحيث يفهمه. «الزمن يتغير. انظرون إلى ابني. هو لم يطلب الإذن بالزواج. زوجته المستقبلية ليست بهينيو. أنا أحبّ ابني، وأعرف أنّ كلّ واحدةٍ منكنّ تحبّ أبناءها. والأبناء يكبرون ليصبحوا رجالاً».

- «هذا صحيح، أنا أحبّ أبنائي»، وافقتُ غو-جا.

- «لقد فقدتُ وان-سون، لكنني سأموت إذا فقدتُ أحد أبنائي»، اعترفتُ أختها .
- «أنا أعلم ابني حفيدتي الطبخ»، تفاخرتُ دو-سانغ .
- «منذ الآن؟» .
- «هم لا يكونون أبداً صغاراً جداً على التعلّم»، قالت دو-سانغ . «أنا أعلمهما كيف يحضّران العصيدة» .
- «وأنا أيضاً!» .

وفجأةً، تحوّل شكل المحادثة عندما بدأت النساء في الكلام عن جبهنّ لأبنائهنّ وأحفادهنّ . واصلتُ جون-لي الكتابة، لكنني لم أكن متأكّدة أنّها تحصل على المعلومات التي كانت تأمل بها . أمّا أنا، فكنْتُ مضطّربة . لقد جعلتني أرى الأشياء على نحوٍ مختلف . كنّا نعيش على جزيرة الإلهات ؛ إلهةٌ لولادة الأطفال، وإلهةٌ لموت الأطفال، إلهةٌ للنار، وإلهةٌ للبحر، وما إلى ذلك ؛ مع آلهةٍ بمثابة أقرانهنّ . إلهتنا الأعظم كانت الجدّة سيولمونداي - الظهور المادي لجزيرتنا . وكانت كيم مانديوك أقوى امرأةٍ حقيقية بالنسبة لنا، وهي التي أنقذت الناس أثناء المجاعة الرهيبة، لكنّا استقينا الإلهام أيضاً من نساء وفتيات من وحي الخيال . كلُّ امرأةٍ في البولتيوك كانت إمّا قد قرأت أو أنّ أحداً قرأ لها قصّة هايدي . لكن مع كلِّ قوّتنا ومهما فعلنا، ما كان لأيٍّ منّا أن يتمّ اختيارها لإدارة جمعية مصائد الأسماك القروية أو أن تُنتخب في مجلس قرية هادو .

في أغسطس، عندما بات محصولنا من البطاطا الحلوة جاهزاً للحصاد، جاءت جون-لي في اليوم الأوّل معنا أنا ودو-سانغ للمساعدة . صمدتُ لساعةٍ واحدة بالضبط قبل أن تذهب لتجلس في

ظل الجدار الصخري الذي يحيط بالحقل . أخرجتُ راديو ودفتر ملاحظات من حقيبتها . تلك الموسيقى التي شغلتها؟ إبي . لقد آذت أذنيّ، لكنّها أبقت الغربان بعيدة أيضاً . شرعتُ في الكتابة . لا بدّ أنّها رسالةٌ أخرى .

- «إلى مَنْ تكتبين هذه المرّة؟» ، سألتها .

- «إلى صديق في سيول» .

نظرتُ إليّ دو-سانغ بطرف عيناها . كانت تلتزم الصمت بشأن ابنتي ، لكن كان يمكنني معرفة أنّها لا توافق على سلوك جون-لي .
- «أنتِ تكتبين كلّ يوم» ، قلتُ لها . «ثمّ تأخذين رسائلك إلى مكتب البريد ، لكنني لم أركُ أبداً تستلمين شيئاً بالمقابل» .

- «هذا لأنّ الجميع مشغولون للغاية» ، أجابتنى حتّى دون أن تتكبّد عناء رفع عينيها عن مفكرتها . «سيول ليست مثل جيجو . سحر سيول يكمن في أنّ الملل هناك مستحيل . هناك ثقافة ، وتاريخ ، وإبداعٌ في كل مكان» .

عندما كانت طفلة صغيرة ، تسبّب فضولها أحياناً في تورّطها ببعض المشاكل ، ولكنه أيضاً ذهب بها إلى حيث كانت الآن . كان ينبغي بي أن أكون مبتهجةً أشدّ الابتهاج بإنجازاتها ، لكنّ كلّ ما شعرت به كان الحزن .

ثمّ وبسرعةٍ كبيرة - رغم أنّها لم تكن سرعةً كافية من نواح كثيرة - حان وقت عودة جون-لي إلى جامعته . وضّينا أنا ودو-سانغ لها الأسماك المجففة ، والبطاطا الحلوة ، ومرطبانات من الكيمتشي لتأخذها إلى مسكنها . وحضرتُ لها مظروفاً يحوي نقوداً لتنفقها على الكتب واللوازم الأخرى ، حتّى أنني أعدتُ صبغ إحدى قطع ملابسها

المصنوعة من قماش البرسيمون لجعلها أقوى، رغم شعوري بأنها لن ترتديها أبداً في سيول.

كانت جون-لي ترتدي بالفعل ملابس السفر عندما دخلت الغرفة - كنزة بيضاء بلا أكمام وما تعلّمت أنها كانت تسمى تنورة قصيرة. أذهلني ما قالته عندئذٍ أكثر من أي شيء آخر قالته أو فعلته طوال الصيف.

- «أمي، قبل أن أغادر، هلاً أخذتني معك إلى منزل يو-تشان؟».

أخذت نفساً، أملاً في إبطاء دقات قلبي المتسارعة، ثم سألتها: «لماذا سأخذك إلى هناك؟».

رفعت أحد كتفيها. «أنت تذهبين إلى هناك كل يوم. اعتقدت أن بوسعك اصطحابي معك».

- «لم تجيبي على سؤالي».

أشاحت بوجهها، متجنباً النظر في عيني. «طلب مني يو-تشان إحضار شيء له».

بجانبي، كانت أسنان دو-سانغ المطبقة تصدر صفيراً. حدقت في ابنتي بصرامة، لكنني حاولت أن أحذر أين أضع قدمي.

- «هل أنت على اتصال بيو-تشان؟».

- «نحن نعرف أحداً الآخر منذ أن كنّا طفلين»، قالت وكأنني لم أكن أعرف ذلك.

- «لقد رحلا —».

- «لكننا التقينا مجدداً في سيول».

- «مجرد أنك تعرفينه هي مفاجأة كبيرة»، اعترفت وأنا أحاول الحفاظ على صوتي ثابتاً قدر الإمكان.

- «رأيتُه ذات يوم في الحرم الجامعي . تعرّفنا أحدنا على الآخر في الحال . لقد دعاني إلى مطعم لرؤية والدته —» .
- «مي-جا —» .
- «كانا لطيفين معي . إنّه يدرس في المدرسة العليا لإدارة الأعمال في الحرم الجامعي ، بالإضافة إلى —» .
- «جون-لي ، لا تؤذني بهذا الشكل» .
- «أنا لا أوذيكَ . نحن أصدقاء . هذا كلُّ ما في الأمر . إنهما يقومان أحياناً باصطحابي لتناول العشاء» .
- «ابقي بعيدةً عنهما رجاءً» . بالنسبة لي ، كان أن أتوسّل إلى ابنتي لأجل هذا أمراً عصياً على الفهم .
- حدقت بي بإحباط . «أنتِ تذهبين إلى منزلها كل يوم» .
- «هذا مختلف» .
- «الجذور العميقة تتشابك تحت الأرض» ، تلتُ جون-لي القول المأثور ، ثمّ تابعتُ : «تردّد والدّة يو-تشان هذا المَثَل للإشارة إليكما ، وأعتقد أنها على حق» .
- «أنا لست متشابكة مع مي-جا» ، قلتُ ، لكنني لم أكن صادقة . لا أعرف لماذا شعرتُ بأنّني مجبرة على زيارة منزلها كلّ يوم ، لكنني انجذبتُ إلى هناك على أيّة حال . سقيتُ الزهور التي تركتها وراءها . غسلتُ أرضياتها عندما اتّسختُ . ذهبتُ إلى مكتب المدينة كل عام للتأكد من أنّ الضرائب قد دُفعتُ (كانت كذلك) . إذا عادت مي-جا يوماً ، سأكون مستعدة لها . لكن في الوقت الحالي ، كان عليّ إقناع ابنتي بتجنب مي-جا وابنها . «سوف تهذّئ من روعي معرفة أنّك لا تلتقين بهما حين تكونين بعيدة عن المنزل . أرجوكِ ، هل يمكنك أن تعطيني بذلك؟» .
- «سأبذل قصارى جهدي» .

- «لقد قلت الشيء نفسه منذ سنوات عندما كسرت ذراعك،
وها نحن ذا».

اشتعلت نظرة تحدّ في عينيها، لكنّها قالت: «أعدك، اتّفقنا؟
والآن هل ستسمحين لي بإحضار الشيء الذي يحتاجه يو-تشان من
منزله؟ قلت إنني سأحضره له. بعد ذلك —».

- «ما هذا الشيء؟».

- «لا أعرف بالضبط. قال إنّه في صندوق مقابل الحائط في
الغرفة الرئيسية».

كنتُ أعرف كل شيء في ذلك المنزل، وما بداخل ذلك
الصندوق لم يكن يخصّ يو-تشان، بل يخصّ مي-جا. كان كتاب
والدها.

- «كما تعلمين»، تابعت ابنتي، «كان يمكنني أن أذهب إلى
هناك في أيّ يوم من هذا الصيف وأحضر ذلك الشيء. لم أكن
مضطّرة أن أسألك».

لكنّها كانت مضطّرة بالطبع، لأنني كنت سألاحظ في الحال لو
فقد أيّ شيء.

- «كنتُ أظهر لك الاحترام»، قالت بإصرار.

كان عليّ أن أصدّق ذلك.

- «كلّما أسرعنا في ترك هذا خلفنا، كان ذلك أفضل»، قلتُ
لها. «سوف آخذك».

كافأنتي جون-لي بابتسامة والدها.

لكنني كنتُ لا أزال مجروحة. اضطررتُ في السنوات القليلة
الماضية قبول الأوامر من الرجل من جمعية مصائد الأسماك القروية،
لكنّ عزائي كان معرفتي أنني أوّمن لابنتي أفضل تعليم ممكن. كانت
ذكية وطموحة. كانت تعرف أشياء ما كنتُ لأعرفها أبداً. لكنني بتُّ

الآن أرى حقائق أخرى: يمكنك أن تفعل كل شيء من أجل طفلة. يمكنك تشجيعها على القراءة وعلى القيام بواجبها في الرياضيات. يمكنك منعها من ركوب الدراجة، أو الضحك بصوت عال، أو رؤية صبي. لقد طلبتُ منها للتو أن تقطع وعداً بعدم رؤية يو-تشان أو مي-جا مجدداً. لكنّها كانت تفعل ذلك خفية. في بعض الأحيان يكون كل ما تفعله عديم الجدوى وغير فعال مثل الصراخ في وجه الريح.

ضيف لمئة عام

1972 - 1975

- «اجلس . اجلس»، قلتُ بلكنة إنجليزية ثقيلة للجنود الأمريكيين . جلست على مقعدتي، محاطة بأحواض بلاستيكية مليئة بأذن البحر، وخيار البحر، ونفّاث البحر، وقنّذ البحر . كان لديّ أيضاً سلّة مملوءة بأطباق ورقية، وملاعق بلاستيكية، ومناديل . بدا هؤلاء الجنود الذين كانوا في إجازة من المعارك في فيتنام يافعين، لكن كان لدى البعض منهم تلك النظرة المسكونة التي ميّزتها بسهولة . كانوا إمّا في حالة سكر، أو يتعاطون المخدرات .

- «ماذا تبيعين اليوم، يا جدتي؟»، سألتني فتى محليّ كان قد استأجره الجنود .

- «هذا نفّاث البحر - أو الجينسينغ البحري . سينفع هؤلاء الرجال في المنطقة تحت الحزام» .

ترجم الصبي ذلك . ضحك اثنان من الجنود . احمرّ أحدهم خجلاً . تظاهر اثنان آخران بالتقيؤ . الرجال اليافعون! حتى عندما يشعرون بالحرج يحاولون التفوّق على بعضهم البعض . الجيّد أنّه يمكنني الاستفادة من ذلك . مددتُ يدي إلى الحوض وسحبت نفّاث البحر .

- «انظروا كيف يبدو مثل الصخرة»، قلتُ بينما كان الصبي المحلي يردد بهدوءٍ كلماتي لكن بالإنجليزية. «انظروا عن كثب. إنه مغطى بطحالب البحر. ألا يبدو مألوفاً البتة؟». شققتُ بسكّيني الجانب السفلي وباعدتُ بين طرفي المخلوق. «ماذا يشبه هذا الآن؟ فرجُ امرأة! هذا صحيح!» انتقلتُ إلى الإنجليزية. «كُل».

الجنديُّ الذي احمرَّ خجلاً قبل قليل استحالَ قرمزيّ اللون، لكنه أكله مع ذلك. صفعهُ رفاقه على ظهره وصرخوا بشيءٍ لم أفهمه. صبيتُ نبيذ الأرز محلي الصنع في أصداف أذن البحر. أمسك الجنود الأصداف على شفاههم وارتشفوا السائل الأبيض. قمتُ بعدها بتقطيع أذن البحر، ثم غمّسوه في صلصة الفلفل الحار. عندما انتهوا من ذلك، أشرتُ إلى أخطبوط لا يزال حياً، يتلوّى في قاع أحد الأحواض. ابتسمتُ، سكبتُ المزيد من نبيذ الأرز في أصدافهم، وشجّعتهم على الشرب. راقبتُ بينما كانوا يحثّون بعضهم البعض على خوض التجربة. أخيراً، قال الصبي الذي وظّفوه. «سوف يجربونه».

سرعان ما كانت المجسّات المقطّعة تتلوّى وتتقافز داخل طبق ورقّي. «كونوا حذرين»، قلتُ بالإنجليزية، ثم تحوّلتُ إلى لغتي الأم. «هذه اللقيمات المتلوّية لا تزال على قيد الحياة. يمكن لأكواب الشفط أن تتشبّث بحلوقكم. لقد شربتم الكثير. لا أريد لكم أن تختنقوا وتموتوا».

صيحاتُ تحدٍّ. مزيدٌ من نبيذ الأرز. وسرعان ما اختفت قطع الأخطبوط. كان هؤلاء الرجال مختلفين تماماً عن أولئك الذين التقيتُ بهم أثناء عملي خارج الديار. تذكّرتُ يوم نزل الطباخ سلّم الحبال إلى قاربنا، ورفض أخذ أيّ شيء باستثناء أكثر شيء استطاع تمييزه: السمك.

أخرج أطول الجنود كدسةً من البطاقات البريدية، وأخذ يعرضها على أصدقائه الذين أومأوا برؤوسهم بإعجاب. ثم أمسك ببطاقة أمامي وأشار إليها، وقال جملةً من الكلمات الإنجليزية.

- «أخبرينا، يا جدتي»، قال الصبيّ من جيجو محاولاً الترجمة بأفضل ما استطاع. «أين يمكنهم أن يجدوا مثل هؤلاء الفتيات؟».

تفحّصتُ الصورة، كانت تُظهر نساء شابات - مشدودات السيقان والأذرع، ويرتدين ملابس مائية عارية الأكتاف، وشعرهن يتدلى فوقها - في أوضاع استفزازية. قرّرت الحكومة في البرّ الرئيسي أنّ الهينيو يمكن أن يشكلنّ نقطة جذب سياحي جيدة، لذا فقد كنّا الآن مادّة إعلانية بصفتنا فاتنات الأعماق وحوريات البحر في آسيا. لم تكن لدي أيّة فكرة من كانت تلك الفتيات في الصورة، لكنني كنت سعيدة لأنّ أياً منهنّ لا تعمل في جماعتي.

- «أخبرهم أنّي هينيو»، قلتُ له. «أخبرهم أنّي أفضل هينيو في جيجو!».

أذبل هذا حماسهم. كان مظهري حسناً، لكنني كنتُ في التاسعة والأربعين من عمري، وعلى بُعد ستّ سنوات فقط من التقاعد.

هكذا كان الحال بعد ظهر كلّ يوم سبت. أحضرت ما اصطدته من البحر، ساعدتني مين-لي في تحميل كل شيء في الحافلة، وركبتُ وصولاً إلى مدينة جيجو، وعثرتُ على زاوية شارع قرب المنطقة التي بها جميع الحانات والفتيات، وبعثُ بضاعتي هناك. كان زبائني في الغالب من العسكريين الأمريكيين. هنا حيث كانوا يقضون إجازتهم، هبطوا المنحدرات المواجهة للمحيط بواسطة الحبال، وسبحوا في حقولها الرطبة، وسابقوا بعضهم البعض فوق جبل هالا. كان لدي عملاء أمريكيون آخرون أيضاً. كانوا من فيلق السلام، ولكن الشائعات انتشرت بأنهم كانوا يعملون لصالح الحكومة

الأمريكية، وأنهم يراقبون النشاط «الأحمر». كان من الصعب معرفة ما هو صحيح وما هو مجرد ثرثرة، لكنّ هؤلاء جميعاً كانوا في العموم صغاراً وعديمي الخبرة لدرجة أنني غالباً ما أُلقيتُ ببطارخ قنفذ البحر مباشرة في أفواههم المفتوحة كما لو كانوا صغار عصافير. بعثُ آخر ما تبقى من بضاعتي، ذرع الجنود الشارع نزولاً ثمّ دخلوا الحانة. أفرغتُ أحواضي، وكدّستها، ومشيتُ إلى محطة الحافلات. مررتُ على طول الطريق بنساء يرتدين فساتين ضيقة. تمشّى الرجال بقمصانهم غير المزرّرة وسراويلهم القصيرة أو بنطلونات الجينز وصولاً إلى أولئك الشابات وتبادلوا معهنّ بضع كلمات. أحياناً كان يتمّ التوصل إلى اتفاق، لكن معظم النساء واصلن طريقهن، متجاهلات الاهتمام الحماسيّ.

عندما كنتُ فتاةً أذهب إلى ميناء جيغو، وأغادر منه للعمل في البحر بعيداً عن الديار، بدت مدينة جيغو آنذاك أكثر تقدماً بكثير من هادو. في الواقع، كانت لا تزال كذلك. في مدينة جيغو أكبر أسواق الأيام الخمسة في الجزيرة، حيث يمكن شراء أيّ شيء تقريباً، لكن كان بالمدينة أيضاً متاجر للهدايا التذكارية، واستوديوهات للتصوير، وصالونات التجميل، وأماكن لشراء أو إصلاح المراوح والمصابيح. شكّلت السيارات، والدراجات النارية، والشاحنات، والحافلات، وسيارات الأجرة حركة المرور التي شملت أيضاً عربات تجرها الخيول والحمير، بالإضافة إلى عربات اليد. كان الهواء يعبق بدخان السجائر، والعطور، وعوادم الديزل والبنزين، وروث الحيوانات. لا تزال مياه الصرف الصحيّ تمرُّ عبر المزاريب وصولاً إلى المرفأ حيث تلفظ السفن زيوتها، والأسماك تنتظر أن تُفَرَّغ في مصانع التعليب. كانت الأزقة مكتظةً بالحانات التي تقدّم نبيذ الأرز المحليّ، والبيرة، والشواء، والفتيات. كان عليّ الحذر عند مروري قرب هذه الأماكن،

إذ كان زبائنُها يحبّون رمي عظام الدجاج، والخنزير، والعجل عبر الباب إلى الرصيف، حيث كان الأطفال الفقراء يهرعون لالتقاط هذه الفضلات وأخذها إلى عائلاتهم.

كانت الشمس قد غابت عندما ركبْتُ الحافلة العائدة إلى هادو. امتدت الأضواء خارج النافذة إلى ما لا نهاية، من مقاءٍ ومنازل على طول المسافة إلى الميناء، ثم بعيداً عن الشاطئ إلى قوارب صيد الحبار والروبيان، التي تناثرَتْ نقطاً مضيئة في البحر الواسع وصولاً إلى خطِّ الأفق حيث التقى المحيط بالسماء المليئة بالنجوم. كان الطريق الذي يحيط بالجزيرة قد عبُد في العام السابق، وكانت الرحلة سلسلة وسريعة. نزلْتُ في هادو وسرْتُ إلى المنزل عبر زقاق الأولي. توهجتْ مصابيح الزيت هنا وهناك، لكنَّ الهدوء القديم كان قد اختفى. الناس هنا مقتصدون، لذا هم لم يستخدموا الكهرباء الجديدة دائماً لإضاءة منازلهم، وبدلاً من ذلك فضّلوا تشغيل أجهزة الراديو ومشغلات التسجيل.

سمعتُ الجلبة القادمة من منزلي حتى قبل أن أصل إليه. تنهَّدْتُ؛ إذ كنتُ متعبة، ولا أرغب في لقاء حشد من الناس. دخلْتُ من البوابة، وكان الفناء ممتلئاً عن آخره بالناس الذين جلسوا وظهورهم إليّ. كانت الأبواب المنزلقة الجديدة المؤدية إلى المنزل الكبير مفتوحة. جلس المزيد من الناس على الأرض داخل المنزل. جلس الجميع سواءً في الداخل أو في الخارج ووجوههم نحو التلفاز كما لو كانوا في السينما. لقد أحضروا الطعام أيضاً؛ كعكات الحنطة السوداء مع اللفت المبشور، ويخنات من كعك الأرز والأسماك الطافية في الصلصة الحمراء الحارة مع قطع الفلفل الحار المقلي. كانت الصورة التلفزيونية بالأبيض والأسود، وكان الاستقبال غير واضح، إلّا أنني ميّزْتُ البرنامج المعروف على الفور. ربّما الليلة

سيقبل مارشال ديلون أخيراً الأنسة كيتي. رصدت مين-لي، وزوجها، والتوأم - في الثامنة من عمرهما الآن - وابنتيهما اللتين في الخامسة والثانية على التوالي. فرك زوج مين-لي ظهرها. ستكون ولادة طفلهما الخامس في غضون ستة أسابيع، ومين-لي كانت تقف على قدميها طوال اليوم داخل محل بيع الهدايا في الفندق الذي كانت تعمل فيه. لقد عاشوا جميعاً في المنزل الكبير الآن.

شقتُ طريقي عبر الحشد إلى المنزل الصغير الذي يتنا نتشاركه أنا ودو-سانغ - الأرملة. وضعتُ أحواصي جانباً، وأضفتُ النقود التي كسبتها اليوم إلى صندوق القصدير حيث أحتفظ بمدخراتي. عندما انتهيت، قالت لي دو-سانغ معاتبة: «كانوا يتبولون في الفناء مرة أخرى».

- «اطلبي منهم أن يستخدموا المرحاض في المرة القادمة».

- «هل تعتقدين أنني لم أفعل؟».

لم نكن أول من حصل على جهاز تلفزيون في هادو فحسب، بل إنَّ مجمَّعنا السكني الصغير كان من بين أوائل المتأثرين بسيماول أندونغ - حركة القرية الجديدة - التي أطلقها النظام مؤخراً. قيل لنا إنه لا يمكننا الترويج للسياسة دون النهوض بالجزيرة. كان لدينا الآن سبابة داخلية، وكهرباء، وهواتف، وطرق معبدة، وخطوط طيران تجارية. وهذا عني من بين أمور أخرى أنه كان لا بد من استبدال أسطح القش بأسقف من الصفيح أو القرميد. قيل لنا إنَّ السيَّاح لن يُعجبوا بنظام الزراعة ذي الثلاث مراحل، وإنه يتعيَّن علينا التخلص من مراحيض الخنازير الخاصة بنا. لن يرغب السيَّاح في رؤية الخنازير أو شمِّ رائحتها، وبالتأكيد لن يرغبوا بوضع مؤخراتهم فوق خطوط الخنازير الشرهة. لم أكن أعرف عائلة واحدة مستعدة لهدم مرحاضها، وأنا أيضاً سوف أبقى على مرحاضي لأطول فترة ممكنة.

كانت التغييرات الكثيرة والسريعة مربكة، وقد قوّضت طريقة حياتنا ومعتقداتنا وتقاليدها.

- «لقد أفسدتِ أطفالك بالدلال، والآن أنت تفسدين أحفادكِ بهذا التلفزيون»، قالت دو-سانغ.

تقبّلتِ النقد. نعم، لقد أعطيتُ ملعقةً من السكر لتوأم مين-لي وابنتيها كلّما رأيتُهم، أي كلّ يوم. لم أبخل على أحفادي بالهدايا، لكن من الواضح أنّ التلفزيون كان خطأً بالكامل.

- «حاولي النظر إلى الأمر على هذا النحو»، قلتُ لها. «أنتِ تستطيعين رؤية أبناء أحفادك كلّ يوم، وأنتِ بصحّة جيدة بما يكفي للاستمتاع بصحبتهم. لا يمكن لكلِّ امرأةٍ في سنِّك أن تقول ذلك».

في الثالثة والسبعين من عمرها، كانت دوسانغ في حالة رائعة. استحالت صفائرها رمادية اللون، لكنّ جسدها كان قوياً. ورغم أنّها كانت قد تجاوزت سن التقاعد، إلا أنّها عادت للغوص مجدداً. كان هذا خرقاً لقاعدة الغواصة الواحدة لكلِّ أسرة، لكنّ الرجل المسؤول عن جمعية مصائد الأسماك القروية سمح لها بالانضمام إلينا من وقت لآخر لأننا كنا بحاجة إليها، ولنساءٍ مثلها، إذ كان من المستحيل هذه الأيام العثور على غواصاتٍ-طفلات. كان تخيّل شيء كهذا عندما كانت جدتي على قيد الحياة يكاد يكون مستحيلاً؛ أكثر حتّى من إعطاء سكرٍ للأطفال.

- «يوم الغد سيكون عظيماً»، ذكرّنتني. «ينبغي بك أن تطلبي من الجميع العودة إلى منازلهم».

- «أنتِ على حق، لكن أعتقد أنني سأنضمُّ إليهم لبعض الوقت أولاً».

- «هينغ!».

أخذتُ بعض حَبّات اليوسفي من الوعاء ودسستها في جيبي، ثم
عبرتُ الفناء إلى المنزل الكبير.

- «جدتي!».

- «جدتي!».

جلستُ وساقاي مطويتان تحتي، ومؤخرتي بين قدمي. صعدت
حفيدتاي إلى حضني، وعانقني حفيداي.

- «هل أحضرتِ لنا شيئاً؟»، سألت الفتاة الكبرى.

أخرجتُ حَبّات اليوسفي. قشّرتُ حبةً في خيط طويل واحد.
وعندما انتهيت، لففتُ القشرة معيدةً إيّاها على شكل حبة اليوسفي،
ثمّ وضعتها على الأرض. أحب الأطفال أن أفعل ذلك من أجلهم.
أعطيتُ كلّاً زوجاً من فصول الثمرة، ثم كررت العملية ثلاث مرات.

كم كنتُ محظوظة لأنّ لدي مثل هؤلاء الأحفاد الجميلين. كم
كنت محظوظة لأنّ مين-لي تزوجت من مدرّس كوالدها، وكان يعلمُ
هنا في هادو. مع ذلك، كنتُ أفتقد كيونغ-سو وعائلته. عندما أرسل
رسالة مفادها أنه مقبلٌ على الزواج، اعتقدت أن حفل الزفاف
سيحدث هنا. لكن حين أرجعته الإلهة إلى البيت، كان قد تزوّج
بالفعل في البرّ الرئيسي. لم أكن طرفاً في أيّ نقاشات بشأن مطابقة
تواريخ الميلاد أو طلب المساعدة من عرّاف الأرض لتحديد يوم
مناسب لإقامة حفل الزفاف. لقد جُرّحت مشاعري بطبيعة الحال،
لكنني نسيْتُ كلّ شيء عندما قابلت زوجة ابني للمرة الأولى ورأيتُ
أنّها كانت ضخمة ولديها طفلٌ في بطنها. أنجبتُ ولداً بعد عودتهما
إلى سيول، ومنحتني حفيداً آخر. كانت الآن حبلى بطفلها الثاني،
وكان كيونغ-سو يعمل في شركة الالكترونيات العائدة لوالد زوجته.
كنتُ أتمنى ألا يعيش ابني الوحيد بعيداً، لكن لم يكن هناك من شيء
يمكنني فعله حيال ذلك.

كنتُ أفتقد جون-لي أكثر من أي شيء. كانت في سيول خلال السنوات الأربع الماضية أيضاً. وفي الخريف، ستلتحق بكلية الدراسات العليا للصحة العامة بجامعة سيول الوطنية. هي عائدة إلى البيت غداً في زيارة قصيرة. قالت في الرسالة التي كتبتها إلى مين-لي: «لدي مفاجأة للجميع». تخميني كان أنها فازت بجائزة أخرى.

- «هل لديك المزيد من اليوسفي؟»، سألتِ الطفلة ذات الخمس سنوات. فتحتُ جيبِي لأريها أنه خاو. أخذت تمصُّ شفتها السفلى بخيبة أمل، فقبلتُ جبهتها.

كانت دو-سانغ على حق. لقد أفسدتُ هؤلاء الصغار بالدلال. قدّمتُ لهم ولوالديهم كلَّ شيء - إصلاح المنزلين وفقاً للمعايير الجديدة، وشراء الدراجات ثلاثية وثنائية العجلات، والتلفزيون حتى يتسنى لهم معرفة المزيد عن بلدنا والعالم - وقد جعلهم كلَّ ذلك ليّني العريكة. أراد الأطفال هذه الأيام حياة سهلة. لم يتمتعوا بالقوة الجسدية أو العاطفية التي كانت لدى جدّتهم أو جدّتهم الكبرى. مع هذا، لقد أحببْتُهم حبّاً، وكنتُ لأضحى بأي شيء من أجلهم، حتّى لو عني ذلك بيع المأكولات البحرية للجنود الأمريكيين عند زاوية الشارع.

كنت أرملة منذ ثلاثة عشرين عاماً، لكنني اعتبرتُ نفسي امرأةً محظوظة. حضنتُ التوأمين بقوة، فصرخا، لكنّ لم يكن هناك مَنْ يمانع الضوضاء، إذ كان الجميع مرّكّزين تماماً على إطلاق النار الذي يحدث على الشاشة.

في اليوم التالي، كان الغوص جيّداً. كنتُ آخر مَنْ غادر البولتيوك، وكنتُ أعبر لتوي الشاطئ باتجاه منزلي حين اقتربت درّاجة

نارية على طول الطريق المحاذي للشاطئ إلى أن توقفت ليس بعيداً عني. في الأمام جلس رجلٌ يرتدي سترةً جلديةً سوداء وخوذةً تخفي وجهه. جلستُ جون-لي خلف الرجل ممسكةً بخصره. لوّحتُ لي وقالت: «أمي! هذه أنا! لقد عدتُ إلى البيت!». قفزتُ عن الدراجة، وركضتُ على الدرجات نزولاً وعبر الشاطئ نحوي. تطاير شعرها الأسود الطويل خلفها، ورفرف قميصها القصير مع الريح. وإذا وصلتُ إليّ، انحنّتُ أمامي.

- «ظننتُ أنّك لن تأتي حتى وقت لاحق، الحافلة —».

- «لقد استأجرنا الدراجة». تضاءلت فورة حماسها الأولية إذ ذاك، ووقفتُ في حالةٍ من السكون جعلتني أشعر بالقلق على الفور.

- «استأجرتُما؟».

أخذتُ بيدي. «تعالِي، يا أمي. لم أقدر على الانتظار حتّى أخبرك. أنا سعيدةٌ جدّاً فحسب». كانت يدها ناعمة ودافئة في يدي، لكنّ صوتها كان كثيباً أكثر بكثير من أن يُعبر عن أي شيء له علاقةٌ بالفرح.

أبقيتُ عيني على الرجل الذي يقود الدراجة النارية. لم يكن عليه خلع الخوذة كي أعرف مَنْ هو، إذ كان تقريباً في نفس البقعة حيث جثم فوق درّاجته الجديدة منذ سنوات ليرى ما الذي يحدث على الشاطئ مع الدكتور بارك وفريقه. إذ ردّدتُ اسمه في ذهني -يو-تشان - هوث معدتي في سقوطٍ حرٍّ عنيف وسريع لدرجة أنّ العالم برّمته ادلهمّ لثانية. رمشتُ بعينيّ عدة مرّات وأنا أحاول إعادة الضوء إليهما. أسند يو-تشان الدراجة على الطريق، خلع خوذته وعلّقها على أحد طرفي المقود، ووقف يراقبنا ونحن نقترّب. وضع كفيه على فخذه وانحنى بشدّة عندما وصلنا إليه. إذ استقام، لم يلقِ

أي تحية ولم يشرع بأيّ مجاملات. بدلاً من ذلك، قال ببساطة: «جننا نخبرك أننا سنتزوج».

بدت حتمية هذه اللحظة جليةً ومتوقعةً، لكنها كانت لا تزال مؤلمة مع ذلك. ترددت لفترة طويلة جداً قبل أن أسأل: «ما رأي والدتك؟».

- «يمكنك أن تسألها بنفسك، إنها آتية في سيارة أجرة». شعرت وكأنني عالقة في كتلة من الهلام بينما كنت أراقبه وهو يستدير إلى الدراجة ويدفعها في الأمتار القليلة الأخيرة إلى منزلي، وجون-لي في إثره.

تراصفنا في زوجين قبالة أحدهما الآخر: ابنتي بجانب قبالة يو-تشان الذي جلس بجانب والدته التي كانت قبالي. جثمت صنيّة من فناجين الشاي على الأرض بينما. كنت أسمع صوت حفيدتي عبر الفناء تبكيان في المنزل الصغير، حيث اصطحبتهم مین-لي حتى يتسنى لي عقد هذا الاجتماع في المنزل الكبير. لم أرَ مي-جا منذ أحد عشر عاماً. عندما دخلت، رأيتُ أنّ عرجتها باتت أسوأ بكثير، وكانت تستخدم العصا. بدت أكبر مني بكثير رغم أن حياتها كانت أسهل من حياتي. كانت ملابسها فضفاضة وشعرها قد أصبح رمادياً بالكامل. إذ نظرتُ في عينيها، شعرتُ أنّهما بئر تعاسة عميق. لكنّ تلك لم تكن مشكلتي على أية حال.

- «نحن لم نستشر عرّاف الأرض لتحديد ما إذا كان هذا الاقتران جيّداً»، قلتُ لهم وأنا أحاول الحفاظ على جُملي وسلوكي رسميين قدر الإمكان. «لم نحضر وسيطاً. ولم يسأل أحد عمّا إذا كانت عائلتنا تمنح الإذن —».

- «أوه، يا أمي. لا أحد يفعل هذه الأشياء بعد الآن —». وجّهت الكلام إلى ابنتي مباشرة. «لم يرتّب أحدٌ اجتماع الخطوبة —».

- «دعونا نعتبر هذا اجتماع الخطوبة»، قالت مي-جا. خاطبتُ ابنتي مجدّداً. «لم أعرف أنّ أفكارك قد باتت منصّبةً على الزواج».

- «يو-تشان وأنا واقعان في الحبّ». بالكاد عرفت من أين أبدأ. «لقد سألتكِ منذ أربع سنوات أن تقطعي لي وعداً بأنكِ لن تريّنه مجدّداً. ثم احتفظت بهذا» - بحثتُ عن الكلمة الصحيحة - «الرابط سرّاً عني، أنا والدتك». «كنتُ أعرف كيف سيكون رد فعلك»، اعترفت جون-لي، «لكنني أردت أيضاً أن أتأكّد من قلبي. لم أرغب في أذيتكِ». - «لا يمكن لهذا أن يحدث».

- «نحن سعيدان»، قالت لي. «نحن نحب أحداً الآخر». قد تكون عنيدة، لكنني لن أراجع أبدأ. كان يمكنني إعادة استحضار الشائعات السيئة حول يو-تشان ووان-سون، لكن حتى أنا لم أكن أصدّقها، لذا ذهبتُ مباشرة إلى حُجّتي الدامغة. «أُنتظر منك أن تُظهري مثل هذا الازدراء لذكرى والدك —». - «أنا آسفة، لكن ليس لديّ أيّ ذكرى عن والدي».

كان هذا مؤلماً جداً. أغمضتُ عينيّ بينما عادت الصور المرعبة للتدقّق بقوة. كانت التفاصيل حيّة وعنيفة كحالها لحظة حدوثها، مهما حاولتُ مقاومتها وإبعادها: مي-جا وهي تلمس ذراع زوجها... يو-تشان في زيّه الموحد الصغير... زوجي إذ اخترقت الرصاصة رأسه... صراخ يوري... ابني الصغير يُؤخذ بعيداً... سوف لن أشفى أو أنسى أبداً.

تنحنحتُ مي-جا بهدوء، ففتحتُ عيني. «كان هناك وقتٌ تمنّينا فيه أنا وأنت أن يأتي هذا اليوم». سمحتُ لنفسها بابتسامة صغيرة. «على الرغم من أننا كنّا نظنُّ أنّهما سيكونان مين-لي ويو-تشان. لكنّ هذا اليوم جاء على أيّة حال. الصهر هو ضيف لمئة عام، أي للأبد. لقد حان الوقت كي تنحّي غضبك جانباً، حتّى يمكن لَهذين الاثنين اللذين لا يتحمّلان مسؤولية ما حدث الماضي أن يتزوّجا. أرجو أن تتقبّلي ابني كجزءٍ من عائلتك لمئة عام».

- «أنا —».

رفعتُ يدها لتسكتني. «كما قالت ابنتك، هما ليسا بحاجةٍ إلى إذنٍ منّا بعد الآن. كل ما يمكننا فعله هو أن نعطيها ما يريدانه فحسب. لم تكن لديّ رغبةٌ في العودة إلى جيجو، لكنني فعلت ذلك لأنّ جون-لي تريد أن تكون محاطة بأسرتها يوم زفافها. لقد أُجريتُ الترتيبات اللازمة لهما للزواج في الكنيسة الكاثوليكية في مدينة جيجو».

شهقتُ. كانت المسيحية قد نمت وازدهرت في الجزيرة، وكان أولئك الذين اعتنقوها أكثر تعصباً من حكومتنا عندما يتعلق الأمر بالشامانية. أخفضت جون-لي رأسها بينما ذهبت أصابعها لتلامس صليباً صغيراً يتدلّى من رقبتها؛ وهو ما أذهلني حضور يو-تشان ووصول مي-جا لدرجة أنني لم ألاحظه حتى الآن. هي لم تكن تؤذيني فحسب، بل كانت تتخلّى أيضاً عن تقاليد عائلتنا الهينيو على نحوٍ يفوق قدرتي على الاستيعاب.

تابعتُ مي-جا، غير مضطربة. «وسيعقب الحفل مأدبة وحفلة هنا في هادو».

طفى استيائي على السطح. «لقد أخذتِ منّي الكثير»، قلتُ لها. «لَمْ عليكِ أن تأخذي جون-لي أيضاً؟».

- «أمي!».

قالت مي-جا ردّاً على فورة ابنتي: «ربّما يكون من الأفضل أن تتحدّث الوالدتان على انفراد».

- «نريد أن نبقي»، قال يو-تشان. «أريد أن أجعلها تفهم».

- «صدقني»، قالت مي-جا بهدوء، «سيكون هذا أفضل».

بالكاد كان يو-تشان وجون-لي قد خرجا من الباب حين قالت مي-جا: «أنت لم تفهمي أيّ شيء قطّ. لقد أثقلت نفسك بالكرهية وبلومك لي دون أن تتكبّدي يوماً عناء سؤالي عمّا حدث بالفعل».

- «لم يكن عليّ أن أسألك. رأيتُ كلّ شيء بأمّ عيني. التقط ذلك الجندي ابني و—».

- «هل تظنين أنّ ذلك لا يمرّ في ذهني كل يوم؟ تلك اللحظة مشتعلّة أبداً في ذاكرتي».

بدت معذّبة، لكن ما الذي يعنيه ذلك؟ انتظرتُ لأرى ما ستقوله بعد ذلك.

- «بعد أن جَبنْتُ، كنتُ بحاجة إلى التكفير»، قالت أخيراً.

«حين بدأ زوجي يسافر وعرفتُ أنّه لن يفتقدني، عدتُ إلى هادو.

أردتُ أن أعرف إن كان بوسعي تقديم المساعدة لك».

- «لم أرَ أيّ مساعدة منك».

«كان عليّ الانتظار لوقتٍ طويل. اعتقدتُ أنّه ما من أملٍ أرجوه. ومن ثمّ ماتت وان-سون».

- «أتيت إلى الطقوس الشعائرية. لا أحد أرادك هناك».

- «ربّما لم ترغبني بوجودي، لكنّ أرواح أولئك الذين فقدتهم فعلت. لقد تحدّثوا إليّ —».

- «بل تحدّثوا إليّ —»، صحّحتُ لها.

- «أنتِ تغيّرين ما حدث، لأنك لا ترين شيئاً غير الشرّ عندما

تنظرين إليّ». كان لهدوئها تأثير معاكس عليّ. لا بدّ أنها شعرت بهذا، إذ أبقت صوتها منخفضاً وثابتاً، كما لو كانت تحاول هدهدي فأصدّقها في النهاية. «تأملي في ما حدث حقّاً: دخلت الشامانة كيم في غيبوبة؛ تحدّثت يو-ري أولاً —».

- «نعم، لقد تحدّثت إليّ. كنت أنتظر منذ وقتٍ طويلٍ جدّاً أن أسمع شيئاً منها، من أيّ منهم».

- «لكنّهم تحدّثوا فقط عندما كنتُ أنا هناك»، قالت مي-جا التي ربّما استشعرت شكوكي، ثمّ تابعت: «لم يأتوا إليك مرة أخرى أبداً، أليس كذلك؟».

شعرتُ برأسي يرتجّ وأنا أفكّر فيما قالته للتوّ. لا يمكن لهذا أن يكون صحيحاً.

- «كلّ واحدٍ منهم قال الشيء نفسه»، تابعت مي-جا برفق. «لقد وجدوا الغفران. لمن كانت تلك الرسالة، إن لم تكن لي؟».

كنت بريئاً، وقد قتلوني، لكنني وجدتُ الغفران. بدأتُ أرتعش. لربّما كانوا قد جاؤوا من أجلها.

- «إذا كان الموتى يستطيعون أن يغفروا لي، فلم أنتِ لا تستطيعين؟».

- «لن تفهمي أبداً، لأنّك لم تتكبّدي الخسائر الفادحة التي تكبّدتُها».

- «لقد عانيتُ بطرقي الخاصة».

شككتُ أنّها تريد مني أن أسألها، لكنني لم أفعل.

طالت اللحظة إلى أن قالت أخيراً: «رغم أنّك رفضت قبول ذلك، إلّا أنّني حاولتُ أن أعوّضك بكل طريقة ممكنة. عندما فازت جون-لي بالمسابقة، جاء المعلّم أوه إليّ —».

- «لا، هو لم يفعل».

- «بلى، لقد فعل. أوضح لي أنه قد عُرض عليها مكان في مدرسة راقية في مدينة جييجو لكنها كانت موصومة بسبب نظام الجرم بالتبعية. أخذت العبارة إلى البر الرئيسي والتقيتُ بزوجي. أخبرته أنني جاهزة لفعل كل شيء يريده إذا تدبر أن تحصل على مكانها. وذكرته كيف أنك وعائلتك ساعدتم في تعافيه بعد هروبه من الشمال. لا تزال لديه تلك الندوب كما تعلمين، من الداخل والخارج».

- «لكنه لم يفعل شيئاً في ذلك اليوم الرهيب لإيقاف —».

«لم يكن يعلم أنك كنتِ هناك، وبعدها كان الأوان قد فات. وعندما اكتشف ما حدث... حسنٌ، كان قد ضربني من قبل، لكن ليس هكذا. انتهى بي المطاف في المستشفى. مكثتُ هناك لأسابيع، ولهذا السبب لم أستطع القدوم إليك على الفور. تعافت معظم إصاباتي، لكن وركي لم يعد كما كان أبداً».

- «هل يُفترض بي أن أشعر بالأسف عليك؟».

انقلبتُ زوايتا فمها للأعلى في ابتسامة جرداء. «كل ما يهم هو أن سانغ-مون قال إنه سيحذف اسم جون-لي من سجلات الجرم بالتبعية حتى تتمكن من الذهاب إلى المدرسة. وفي المقابل، كان عليّ الانتقال إلى سيول والعيش معه مجدداً. قال إن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها إزالة لطخة أفعالي عن وجهه. قبلتُ بشروط سانغ-مون، وهو ما عني أنني اضطررتُ أيضاً إلى قبول الطريقة التي عاملني بها منذ اليوم الذي التقينا فيه على رصيف الميناء. لم أكن أثق به بالطبع، لذا بقيتُ في هادو حتى أكد لي المعلمُ أوه أن جون-لي قد استقرت في مدرستها».

لم أكن متأكدة ماذا كانت تريدني أن أشعر تجاهها. بالشفقة مثلاً؟ ربّما كنتُ أشفق عليها حقاً، لكن بطريقتي الخاصة، إلا أن ما

أخبرتني به جعلها تبدو أسوأ حتى ممّا كنتُ أعتقد. أن ينحي زوجها هي باللائمة عليها...

«إذا»، قالت لتكسر لحظةً طويلة أخرى من الصمت، «لقد فعلتُ ما بوسعي من أجل جون-لي. قمتُ بزيارتها مع يو-تشان في مدينة جيجو عندما كنّا نأتي إلى الجزيرة لرؤية والديّ سانغ-مون. وحين وصلتُ إلى سيول —».

- «حملتِ يو-تشان على الإيقاع بها».

- «يا للهول! الأمر أبعد ما يكون عن ذلك! لقد اصطدما ببعضهما في الحرم الجامعي. لم أتوقّع قطّ أن يقعا في الحب، لكنهما فعلاً. رأيته بوضوح في ملامحهما أول مرّة أحضرها إلى شقّتنا في سيول. لقد كانت مشيئة القدر، ألا ترين ذلك؟».

- «هل يؤمن الكاثوليك بالقدر؟»، سألتُها.

أخذتُ ترمش بعينيها بتواترٍ سريع. قد تتقبّل كراهيتي، لكنها ما كانت لتسمح لي بالسخرية من إيمانها. يا له من شيءٍ مثير للاهتمام!

- «لقد كانت جون-لي بمفردها لفترة طويلة جدّاً»، قالت مي-جا. «حاولتُ عندما كان ذلك ممكناً، أن أكون أمّاً ثانية لها. أنا أحبُّ جون-لي، وقد بذلتُ قصارى جهدي لمساعدتها».

- «تقصدين أنّكِ حاولتِ سرقتهَا منّي».

تلوّن خدّا مي-جا، وراحتُ تهزُّ إصبعها أمام وجهي. «لا، لا، لا».

جيد، لقد تمكّنتُ منها أخيراً. ربما تتكلّم بصدق الآن. لكنّها أخذت عندئذٍ نفساً، فبهت لون وجنتيها مجدّداً، وعادت إلى هدوئها المقلق الذي بدت وكأنّها تتقن الانخراط فيه.

- «لا فائدة تُرجى من محاولة أن أشاركك ما بقلبي»، قالت لي. «أنتِ مسمّمةٌ بغضبك. لقد أصبحت مثل هالمونغ جوسيونغ».

تلمسين كلَّ شيءٍ بزهرة الخراب. وتقتلين كلَّ ما هو جميل - صداقتنا، حبِّ لجون-لي، وسعادة ثنائيِّ شابٍّ». نهضتُ عن الأرض وسارت إلى الباب؛ إذ وصلتُ إلى هناك، التفتتُ إليَّ. «أخبرتني جون-لي أنَّك كنتِ تعتنين بمنزلي. لماذا؟».

- «اعتقدتُ أنَّني... أنا لا أعرف ماذا اعتقدت»، قلتُ معترفةً، إذ اتَّضح أنَّ السنوات التي أمضيْتُها في الاعتقاد بأنَّني سأكون مستعدَّةٌ لها عندما تعود، اتَّضح أنَّ تلك السنوات كانت زيفاً خالصاً. أنا لم أكن مستعدَّةً لأيِّ من هذا.

- «أشكركِ على أيَّة حال». رفعتُ ذقنها وهي تضيف قائلة: «ستقام المراسم غداً في الكنيسة كما سبق أن أخبرتك. وستكون المأدبة في منزل عمَّتي وعمِّي. سوف يحبُّ الولدان أن تكوني معهما في يومهما السعيد».

لكن وبقدر ما أحببتُ ابنتي، إلَّا أنَّني لم أقدر على الذهاب إلى حفل زفافها. أولاً وقبل كل شيء، كان ذلك سيمثلُ عدم احترام لوالدها، وشقيقها، وعمَّتها. وعلى مستوى آخر، كنتُ مجروحةً للغاية من سنوات الأكاذيب والوعود الكاذبة من جون-لي، مجروحةً أكثر من أن أرغب في رؤية وجهها. كان عليَّ أن أتغلب على الكثير ممَّا يعتمل في داخلي كي أخترق الحواجز التي باتت تفصلنا الآن. وهكذا، بقيتُ في اليوم التالي مع مين-لي - التي رفضت أيضاً حضور حفل الزفاف - وعائلتها خلال الساعات الطويلة الحارَّة حتى حلَّ الليل أخيراً. فرشوا حصائر النوم في الغرفة الرئيسية، حتى نكون جميعنا معاً. غطَّ الأطفال في النوم. وبدأ زوج مين-لي يشخر شخيراً خفيفاً. خرجنا أنا ومين-لي، وجلسنا على الدرج، أمسكت إحدانا بيديَّ الأخرى، واستمعنا إلى الموسيقى، والأغاني، وأصوات الضحك القادمة من الجانب الآخر من القرية.

- «الكثير من الذكريات السيئة»، همست مين-لي. «الكثير من الألم».

رَبْتُ على ظهرها بينما هي تبكي بهدوء. لا هي ولا أنا سنعود يوماً نفس الأشخاص بعد ما رأيناه وفقدناه قبل ثلاثة وعشرين عاماً، لكن يمكن قول ذلك أيضاً عن معظم الناس في الجزيرة. لم أستطع في هذه الليلة التوقف عن التفكير في جون-بو، وما كان يتمناه لأطفالنا، وما كان يخشاه حيالهم. في الشجرة كثيرة الأغصان، سيكون أخفّ نسيم كفيفاً بهزّ بعضها. لقد زرعنا شجرة كثيرة الأغصان. أحد الأبناء مات باكراً جداً، لكن لدينا الآن أحفاد يضمنون نسل عائلتنا. ولكن أينما كان جون-بو، هل يمكن أن يكون خائب الأمل في جون-لي، وهل يكون أكثر خيبة حيالي بسبب طريقي في تربيتهما؟ بالنسبة لي، فإنّ فخر حياتي، ابنتي الصغرى، كانت هي الغصن الذي انكسر بطريقة لم أتوقعها على الإطلاق. لقد حطّمت قلبي حرفياً بانضمامها إلى عائلة مي-جا.

بعد أربعة عشر شهراً، في صباح خريفي قائظ، أوصلت حفيديّ التوأم إلى المدرسة. كانا يذهبان مع والدهما في العادة، لكنّه اضطرّ لمغادرة المنزل باكراً لحضور اجتماع. رأينا أطفالاً آخرين في الأزقة. ارتدت الفتيات الزيّ المدرسي؛ تنورة زرقاء داكنة وكنزة بيضاء وقبعة عريضة الحواف، فيما ارتدى الأولاد سراويل زرقاء وقمصاناً بيضاء. التقينا بأحد المعلّمين عندما اقتربنا من المدرسة. لطالما كان جون-بو يرتدي إلى المدرسة الملابس التقليدية المصنوعة من قماش البرسيمون المصبوغ، لكن كان لمدرّسي هذه الأيام نسختهم الخاصة من الزي الرسمي: بنطلون وقميص أبيض وربطة

عنى. انحنينا لإظهار احترامنا له. أوماً المعلم لنا برأسه وتابع سيره
حشياً في اتجاه المدرسة الثانوية. لدى وصولنا إلى المدرسة
الابتدائية، أعطيتُ كلاً من حفيدي حبة يوسفي. في هذه الأيام، كان
المعلمون في هادو يتوقعون رؤية اليوسفي موضوعاً على شكل كومة
مرتبة فوق مكاتبهم كل صباح، وكنتُ فخورة بقدرة أحفادي على
المشاركة في ذلك. شاهدتهما وهما يركضان إلى الداخل، ثم عدتُ
إلى المنزل. كانت مين-لي تنتظر حيث تركتها جالسةً على جدار
حجري منخفض، وكانت تمسك بيدها مطروفاً. كانت هذه الرسالة
الأولى التي ترسلها جون-لي منذ زفافها.

- «هل أنتِ مستعدة؟»، سألتني.

- «افتحيه».

فتحَت مين-لي المظروف. تدفقت الأموال خارجة منه،
فجمعناها على الفور. ثم بدأتُ تقرأ: «أمي وأختي العزيزتين، لقد
أنجبتُ طفلة. هي بصحة جيدة، وأنا بخير. أطلقنا عليها اسم
جي-يونغ. آمل أن قلبكما قد رقَّ تجاهي وتجاه زوجي في الأشهر
الماضية، وأنكما ستأتیان إلى سيول لمقابلتها. لقد أرفقتُ أموالاً
لتغطية نفقات سفركما. سوف ننتقل إلى أمريكا في ديسمبر. سيعمل
يو-تشان في مكتب سامسونغ في لوس انجلوس، وآمل أن أصبح
طالبة في جامعة كاليفورنيا حتى أتمكن من إنهاء دراستي. لستُ
متأكدة متى سوف نعود. لذا يجب أن تأتيا لرؤيتنا. أمي، لطالما قلتُ
إنَّ الأطفال هم الأمل والفرح. جي-يونغ هي الأمل والفرح بالنسبة
لنا. آمل أنها ستكون كذلك بالنسبة لك أيضاً. مع فائق الحب
والاحترام، جون-لي».

تلاشى صوت مين-لي. تفحصتني وهي تحاول تكوين انطباع
عن مشاعري. كنتُ ممزقة من الداخل. بات لديّ حفيذة جديدة. هذه

نعمة بالطبع . لكنَّ هذه الطفلة كانت أيضاً حفيدة المرأة التي كادت أن تدمر حياتي .

- «إذا أردتِ الذهاب ، سأخذ إجازة من العمل وأتي معك . هل ترغبين في ذلك؟» ، قالت مين-لي بتردد .

- «أنتِ ابنة طيّبة» ، قلتُ لها ، «لكن دعيني أفكر في الأمر» . عبرت مسحة من الأسى ملامح مين-لي .

- «لا تسيئي الفهم» ، قلتُ لها . «إذا ذهبتُ ، سأحبُّ بالطبع أن تأتي معي ، لطالما كنتِ ابنة مثالية ، وسأحتاج إليك . لكنني لست متأكدة ممّا إذا كنت سأذهب» .

- «ولكن ، يا أمي ، إنها جون-لي . الطفلة . . .» .

نهضتُ ببطء . «دعيني أفكر قليلاً فحسب» .

طوال ذلك اليوم وتلك الليلة كنتُ أجلد ذاتي بشأن ما يجدر بي فعله . أدركتُ في أحلك ساعات الليل ظلمة أنني أحتاج إلى نصيحة من الشامانة كيم . اتبعتُ العادات المناسبة لتحضير نفسي . أخذتُ حماماً ساخناً ، ولبستُ ثياباً نظيفة . فتشّيتُ في ذاكرتي عن أيّ نشاطات شائبة ربّما أكون قد شاركت فيها ، ولم أجد شيئاً . لم أشرب خمر الأرز مؤخراً ، ولم أتخاصم مع الأصدقاء أو أفراد الأسرة أو النساء في البولتيوك . لم تعد الدورة الشهرية تزورني . لم أكن أتشارك الحب مع أيّ أحد . لم أذبح خنزيراً ، أو دجاجة ، أو بطّة ، ولم أحصد أي مخلوقات بحرية خلال الأسبوع الماضي .

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما لبستُ وشاحي الأبيض وخرجتُ من المنزل وعلى ذراعي سلّة مليئة بكعك الأرز وقرابين أخرى . عثرتُ على الشامانة كيم وابنتها في مزارٍ مؤقت لها لمانغ يونغدونغ - إلهة الريح . أصبحت الشامانة كيم طاعنة في السن الآن . وكانت ابنتها تتدرب لتحلّ محلّها .

- «زيارة الإلهة مثل زيارة الجدّة»، ردّدت الشامانة كيم القول المأثور إذ رأنتي. «من الأفضل دائماً الوصول إلى ضريح الإلهة قبيل الفجر حين تكونين متأكّدة أنها ستكون في مسكنها. يمكنك قول أي شيء لها، وستستمع إليك. يمكنك أن تبكي، وستواسيك. يمكنك الشكوى، وستكون صبورة». أشارت الشامانة كيم لي بالجلوس. «كيف يمكننا مساعدتك؟».

نقلْتُ لها خبر ولادة حفيدتي الجديدة، وأطلعتها على مشاعري المتضاربة.

- «ينبغي بك الذهاب إلى سيول بالطبع»، قالت لي عندما انتهيت.

لكن عقلي كان مشرّذماً لدرجة أنّه لم يكن بمقدوري تقبّل هذا الإخراج البسيط للمعضلة. «كيف يمكنني ذلك؟ سوف أنظر إلى الطفلة وأرى —».

- «الجميع فقدوا أحبّة، يا يونغ-سوك»، قالت الشامانة بنبرة غير حادة. «وأنت تعلمين جيّداً أنّك تريدين أن تسامحي. لو لم تكوني كذلك، اشرحي لي إذا لمَ لم تنتهزي الفرصة أبداً للانتقام من مي-جا. لقد اعتنيت بمنزلها طوال هذه السنوات بينما كان من السهل عليك جداً أن تضرمي النار في سقف القشّ».

- «لقد توقّفتُ عن زيارة المنزل بعد أن جاءت إلى هنا العام الماضي. بل ومن المقرر أن يتمّ هدمه أيضاً».

- «آه، ولكن كيف تعرفين هذه المعلومات؟ هذا لأنك تهتمّين أيّما اهتمام بمعرفة كل شيء عنها».

أدرتُ دقّة الحديث نحو الموضوع الذي كان يؤرّقني منذ آخر مرة رأيت فيها مي-جا. «قالت إنّ جون-بو، ويو-ري، وسونغ-سو تحدثوا فقط عندما ظهرت». قالت إنّ كل رسالةٍ منهم كانت موجهةً

لها . قالت إنَّهم غفروا لها . لكن كيف يمكن لأيٍّ من هذا أن يكون صحيحاً؟» .

ضاقَت عينا الشامانة كيم . «هل تشكِّكين في قدراتي على السماح للموتى بالتحدُّث من خلالي؟» .

- «أنا لا أشكُّك فيكِ أو في ما قالوه . أنا فقط أريد أن أعرف ما إذا كانوا يتحدَّثون إليها أم إليّ» .

- «ربما كانوا يتحدَّثون إليك وإليها . هل فكَّرتِ في ذلك؟» .

- «لكن —» .

- «لقد انتظرتِ وقتاً طويلاً قبل أن يأتوا إليك ، لكن هل سمعت حقاً ما قالوه؟ يجب أن تكوني ممتنة . لقد وجدوا المغفرة . لم لا يمكنكِ ذلك؟» .

- «ولكن كيف يمكنني أن أسامح مي-جا بعد ما حدث لهم؟ أنا أعيش مع ذلك كل يوم» .

- «نحن جميعاً نرى تأثير ذلك عليك ، ونشعر جميعاً بالأسف تجاهك ، لكنَّ كلَّ شخصٍ في الجزيرة قد تأدَّى في تلك السنوات الرهيبة؛ أنتِ أكثر من البعض ، ولكن أقلُّ من بعضٍ آخر أيضاً . لقد فعلوا هذا بي . لقد فعلوا ذلك بي . المرأة التي تفكر بهذه الطريقة لن تتغلب على غضبها أبداً . أنتِ لا تعاقبين على غضبك . أنتِ تعاقبين بغضبك» .

أصغيتُ لها ، لكنَّ الشامانة كيم لم تخبرني بشيءٍ لم أكن أعرفه بالفعل ، إذ كنتُ بالطبع أعاقب بغضبي . لقد عشتُ مع ذلك كل يوم أيضاً .

تركتُ قرابيني ، وغير راضية ، مشيتُ إلى منزل غو-سُن . كان الوقت لا يزال باكراً ، لكنها كانت قد أشعلت النار وسخَّنت الماء

- بالفعل . جلسنا معاً نشرب الشاي . شعرتُ بأنه يمكنني أن أكون صريحة معها ، لذلك قفزتُ مباشرة إلى النقطة المهمة .
- «كيف سامحتِ غو-جا على موت وان-سون؟» .
- «ماذا كان يمكنني أن أفعل غير ذلك؟» ، ردّت عليّ بسؤال .
- «غو-جا هي شقيقتي . نحن نتشارك دماء أُمّنا وأبينا . قد تكون غو-جا مخطئة ، لكن ربّما كان مكتوباً على وان-سون أن تُجرف مع التيار . حتّى أن ذلك ربّما كان خيارها . لقد سمعتُ الشائعات» .
- «ليس أن هذا مهمّ ، لكنني لا أعتقد أنّها كانت صحيحة» .
- «هل تقولين ذلك لأنّ يو-تشان صهرك الآن؟» .
- «إطلاقاً . أقول ذلك لأنني صدّقتُ ما أخبرتني به ابتائي» .
- «قد أثق بمين-لي» ، قالت غو-سُن ، «لكن جون-لي؟ لقد تزوّجتُ يو-تشان» .
- لم يكن لديّ طيلة هذه السنوات أيّ إحساس بمشاعر غو-سُن حيال يو-تشان . لقد أبقتها مخفية جيداً .
- فاجأتُ نفسي إذ قلت : «ما زلتُ أصدّق ابنتيّ . أيّاً كان ما حدث ، فلا علاقة ليو-تشان به» .
- سكنتُ نظرةً حالمة عينيها . «أظنّك تعرفين أنّني كنتُ حبلً قبل أن أتزوّج» .
- «الناس ثرثروا» .
- «لقد أردتُ الموت قبل أن يوافق زوجي على الزواج بي ، لذا أنا أتفهّم إن كان هذا ما حدث لوان-سون» .
- «ربّما كان مجردّ حادث . كان التيار في ذلك اليوم قوياً جداً بالنسبة لغواصة-طفلة —» .
- «ربّما . لكن إذا كانت حبلً ، لَكم أتمنّى لو أنّها أتت إليّ . كنت سأخبرها أنّه بمجرد أن تزوجنا أنا ووالدها ومنحته ابناً الأول ،

كنّا نحن الاثنين سعيدين . كنتُ أتمنى ذلك لها . لكنني أتفهم أنّ قدري ألا أعرف أبداً ما حدث لوان-سون، أو لِمَ حدث». .
ربض الحزن الذي يَسِمُ كلّ ذلك في قلب الصمت الذي خيم علينا .

أخيراً، قلت لها : «بشأن غو-جا . . .» .

- «سأخبرك بهذا»، قالت لي : «هناك أيام أعتقد فيها أنّ أختي عانت أكثر مِنّي . هي لن تسامح نفسها أبداً . كيف يمكنني ألا أحبّها لذلك؟» .

- «مي-جا تلوم نفسها أيضاً»، اعترفتُ، لكنني لم أخض بكل الوسائل التي حاولت من خلالها مساعدة جون-لي . «لكن هذا لا يكفي . يجب أن أعرف لماذا . كيف أمكنها أن تنقلب علي بهذا الشكل؟ كيف كانت على استعداد لتركنا نموت جميعاً؟ لقد توسّلتُ إليها أن تأخذ أطفالي، ولم تفعل شيئاً» .

- «فلتقبلي الأمر كما هو إذاً، واذهبي وقابلي حفيدتك . إنّها ابنة طفلتك المفضلة . بمجرد أن تحملها ستقعين في حبّها . أنت تعرفين ذلك حقّ المعرفة كجدة» .

أخذتُ نفساً طويلاً . كانت على حق، لكنني لم أستطع فعل ذلك فحسب .

- «لا أستطيع رؤية تلك الطفلة، ناهيك عن لمسها»، اعترفتُ لها . «إذا نظرتُ إليها، كلّ ما سأراه هو حفيدة عميلٍ وجانية» .

فاضت ملامح غو-سُن بالشفقة عليّ وهي تحديق في وجهي .
ألمني أن أعرف أنني لا أستطيع أن أغير ولا يمكنني أن أسامح، لكن كان علي التشبّث بغضبي ومرارتي كوسيلةٍ لتكريم أولئك الذين فقدتهم .

بعد حوالي ستة أشهر، سلّمنا ساعي البريد الرسالة الأولى من أمريكا، كانت مفتوحةً والطابع منزوعٌ عن المغلف .
- «يبدو أنّه خطُّ يد جون-لي»، قالت مين-لي .
- «لا بد أنه كذلك». هزرتُ كتفيّ متظاهرة بعدم الاهتمام . «من سيكتب إلينا من هناك غيرها؟» .

سحبت مين لي الرسالة من الظرف . استرقتُ النظر من فوق كتفها عندما فتحت الورقة . كانت معظم الأحرف المكتوبة قد طُمست بالأسود .

- «الرقيب»، قالت مين-لي موضحةً ما هو بديهيّ .
- «هل هناك أي شيء يمكنك قراءته؟» .
- «دعينا نرى . ”أمّي وأختي العزيزتين...“ . مرّت إصبع ابنتي فوق كل سطر ما سمح لي بمتابعتها . ”لقد كنا هنا من أجل... وظيفة يوتشان هي... الهواء بنيّ اللون... الطعام دهني... البحر موجود هنا لكنهم لا يحصلون على شيء منه... لا قنفذ البحر... لا قواقع بحرية... يصطادون أذن البحر هنا...“ .
ثم كانت هناك عدة أسطر مشطوبةً بالكامل . ثمّ بدأت الفقرة التالية ”ذهبتُ إلى الطبيب و... أتمنى لو كان بطيئاً... سريعاً... الوقت... هذه الأرض الأجنبية ليست موطناً...“ . توقفتُ مين-لي عن القراءة لتقول: «يبدو الأمر كما لو أنهم يريدون فقط إظهار أمريكا بصورةٍ سلبية» .

- «كانت تخطر ببالي الفكرة نفسها . ماذا عن هذا الجزء؟» .
وضعتُ إصبعي على الفقرة الأخيرة، والتي بدا أنّها تحتوي على أقل عدد من الأحرف المحبّرة .

- «تقول، ”كل الأمّهات يقلقن . أنا قلقةٌ بشأن ما سيحدث وكيف سيتدبر يو-تشان أمره . أتمنى منك... من فضلك... لو

استطعت أن أكون في الديار في جيحور... كنتِ سه... تذكّري دائماً
أنني أحبك، جون-لي». نظرتُ مين-لي إليّ. «ماذا يعني ذلك
برأيك؟».

- «إنّها تشعر بالحنين إلى الوطن». لكنّ الرسالة في الحقيقة
كانت أكثر إثارة للقلق من ذلك.

- «ماذا يجب أن أكتب لها؟».

- «ما أهميّة ما ستكتبه إذا كان الرقيب سيطمسه فحسب؟».

أرخت ابنتي فكّها. «سأكتب لها على أية حال».

أومأت برأسي. «افعلي ما عليكِ فعله».

في الشهر التالي، تلقينا رسالةً أخرى. ومجدّداً، المغلف
مفتوح، والطابع مأخوذ، ومعظم الرسالة قد تمّ تحبيرها. لكنّ خطّ
اليد كان مختلفاً. قرأت مين-لي: «عزيزتي الأم يونغ-سوك. هذا
يو-تشان. أنا أكتب لأمي». وكان هذا كلّ ما كانت قد قرأته قبل أن
أنهض وأسير مبتعدة. أخبرتني مين-لي في وقتٍ لاحق أنه لم تكن
ثمّة أخباراً حقيقية. مجرد كلمة هنا أو عبارة هناك. قالت لي: «الأمر
أشبه بمحاولة فهم قاع المحيط من خلال رؤية عشر حبات من الرمل
فقط». هذه المرة، مين-لي لم تردّ بشيء.

بعد ذلك، كانت تصل رسالة في بداية كلّ شهرٍ تقريباً. كانت في
تلك الأيام تصل مفتوحةً دائماً، لكنني لم أسحب الأوراق من
مظاريفها. خبأتها في صندوق خشبي صغير. شعرتُ بالارتياح لمعرفة
أنّه أياً كانت الأكاذيب التي ترغب مي-جا وابنها في إرسالها إليّ فقد
كانت مدفونةً في الظلام، حيث لن أضطرّ إلى سماعها أبداً. جعلني
هذا أشعر أنني فزت.

في الربيع، أزهرت حقول بذور اللفت باللون الأصفر، ممتدةً من منطقة الجبل الأوسط وصولاً إلى خط الساحل المتعرج. حافظ المحيط على نشاطه المتجدد. أزيدت تلك المياه الزرقاء العميقة في لحظة، ثم كادت تصبح رائقة تماماً في اللحظة التالية. قمتُ بأعمالي الزراعية، وذهبتُ إلى عملي في البحر. تمكّنتُ أثناء الغوص من إخراج ابنتي وحفيدتي من ذهني. غالباً ما تذكّرتُ الدكتور بارك وأبحاثه عن سر قدرة الهينيو على تحمل البرد أفضل من أي إنسان آخر على وجه الأرض. أعتقد أنني عرفت الجواب الآن. لم تكن ثمة برودة لا تذوب في أعماقي فحسب، بل أصبحت هذه البرودة بقساوة الجليد. لم أستطع فعل ما قالت لي الشامانة كيم وغو-سُن وغيرهما الكثير أن أفعله. إذا كنتُ عاجزةً عن الغفران، فيمكنني عندئذٍ على الأقل تغليف غضبي ومرارتي بقشرة جليدية. في كل مرة أغوص فيها في البحر، أطلق العنان لذهني خارج أسوار تلك القوقعة. أين أذن البحر خاصتي؟ أين إخطبوطي؟ أنا بحاجة لكسب المال! أنا بحاجة لكسب لقمة العيش! سأستمر في سعيي لأكون أفضل هينيو، حتّى لو كنتُ أعلم أنّ ذلك لن يدوم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

اليوم 4 (تتمّة): 2008

لا تعود يونغ-سوك إلى القاعة التذكارية لتبحث عن عائلتها أو صديقاتها. تشقُّ طريقها بدلاً من ذلك إلى موقف السيَّارات، وتنتظر سيارة أجرة أن تُنزل مجموعة أخرى من الزوار، ثمَّ تستأجرها لتذهب بها إلى المنزل. فتح الاستماع إلى كلارا وسماع صوت مي-جا في التسجيل عينيّ يونغ-سوك على شيءٍ ما. ماذا لو كنتُ مخطئة طيلة هذه السنوات؟ أو ربما لم أكن مخطئةً تماماً، لكن ماذا لو لم أفهم بعضاً مما حدث؟ لا ينفكُّ عقلها يعود إلى الأسئلة التي طرحها الرجل الذي تحدث في وقت سابق اليوم: مَنْ يسعه أن يسمي موتاً لم يكن مأساوياً؟ هل من سبيلٍ يجعلنا نستخلص معنىً من كلّ الخسارات التي عانينا بسببها؟ مَنْ يسعه القول إنّ لروح مظلوميةٍ أثقل من روحٍ أخرى؟ نحن جميعاً ضحايا. ونحتاج إلى مسامحة بعضنا البعض.

تعرف يونغ-سوك إنها كبيرة في السن، لكنّها تملك الآن لأول مرة فهماً أعمق لما يعنيه ذلك. تمضي الحياة بسرعة، وشمس حياتها تجنح نحو المغيب. لم يتبقَّ لديها متسعٌ من الوقت لتحبّ أو تكره أو تسامح. إذا حاولت أن تعيش، يمكنك العيش بشكل جيد. كم مرة ردّدت حماتها هذا القول المأثور؟ وقد اتّضح أنّه كان صحيحاً.

عملت يونغ-سوك طوال اليوم وعانت من آلام جسدها طوال الليل، لكنها كانت لتعيد الكرة من جديد لأجل أطفالها، لأنَّ الحياة بدونهم لا معنى لها. ومع ذلك، فقد تركت جون-لي تفلت منها. غضب يونغ-سوك أقنعها بأنها لا تهتمُّ بما قد تقوله لها ابنتها، أو يو-تشان، أو مي-جا، لكن كان عليها أن تحاول البحث عنهم بعد أن انتهى العمل بنظام الجرم بالتبعية وتمكَّنت أخيراً من الحصول على جواز سفر. لقد سافرت إلى لوس أنجلوس لزيارة عائلتها عدة مرات. في مناسبة واحدة فقط، كان عليها أن تطلب من السائق أن يقود بها إلى المنزل الذي كُتب على المظاريف في جهة المرسل، حتى لو لتسترق النظر إلى سكَّانه من نافذة السيارة فحسب.

تعانق سيَّارة الأجرة تعرَّجات خطَّ الشاطئ قرب هادو إلى أن تتوقَّف عند بوابة مجمَّعها الواقع على شاطئ البحر. تدفع للسائق، وثمان الرحلة الباهظ لا يؤرِّقها، وتهرع للداخل. تسحب صندوق الرسائل من أمريكا، وتعرج نزولاً إلى الشاطئ. تنظر حولها، لكن مع افتتاح النصب التذكاري، لم يكن هناك أي هينيو في الجوار، وحتى السيَّاح كانوا قد اختفوا.

أن تدرك كلَّ شيء يعني أن تغفر. مع كلمات كلارا تتردّد في ذهنها، تمُدُّ يدها إلى الصندوق، وتسحب كومة الرسائل الأمريكية وتقلبها رأساً على عقب بحيث يتسنى لها أن تبدأ من الرسالة الأولى. تمرر أصبعها فوق خطَّ جون-لي على المظروف الأول. تتذكر ما جاء في تلك الرسالة. ثم تأتي الرسائل التي كُتبت بخطَّ يو-تشان. وصلت المجموعة الأولى منها مرة في الشهر. ثمَّ بعد ستة أشهر وحتى عام مضى، تلقت يونغ-سوك رسالتين سنوياً: واحدة في ذكرى وفاة والدتها، والأخرى في ذكرى وفاة جون-بو، ويو-ري، وسونغ-سو. في السنوات الأولى، كانت كلُّ رسالةٍ منها تُفَتَّح من قِبل الرقباء، لكن

عناد يونغ-سوك منعها من سحب الرسائل من المظاريف. تمدّ يدها الآن داخل المغلف وفتحت الرسالة الأولى التي كتبها يو-تشان نيابة عن والدته. كان الرقباء نشطين مع هذه الرسالة، لذا لم يتبقَّ منها سوى أحرفٍ قليلة. تتساءل كيف اعتقدتْ مي-جا أنّها «ستفهم». تسحب الرسالة من الظرف التالي، وتفتحها، وهذه المرة تجد قطعة أخرى من الورق مرسوسة بالداخل. مجدّداً، الرسالة المكتوبة بخط اليد كان قد طُمس معظمها، أمّا الورقة الأخرى فقد ميّزتها على الفور. إنها صفحة من كتاب والد مي-جا. إنّها قديمةٌ ومصفرةٌ. ترتجف يدا يونغ-سوك وهي تفتحها. ها هو أوّل فركٍ بالفحم أنجزته مع مي-جا معاً: الصورة الخشنة التي صنعوها للحجر في يوم لقائهما الأوّل.

تصل للمغلف التالي: كان مفتوحاً أيضاً، والرسالة مطوية حول صفحة أخرى من كتاب والد مي-جا؛ المرحاض، في يوم مسيرة الهينيو الكبرى. المغلف التالي: شروق الشمس، اسم القارب في أوّل غوصٍ لهما معاً. يكشف كل مظروف عن فركٍ آخر يحيي ذكريات فتاتين في الأماكن التي زارتها والأحداث التي مرّت بها: سطح صدفة محار من هذا الشاطئ بالذات، منحوتةٌ أحبّتها في فلاديفوستك، الخطوط الخارجية لأقدام طفليهما. ربّما تقدّم الرسائل التي كتبها يو-تشان لوالدته كلمات اعتذار أو ندم، لكن يونغ-سوك لا تحتاج إلى سماعها. إنّ كنوز صداقتهما تعني أكثر من ذلك بكثير. إذ تصل إلى آخر فركٍ بالفحم تتذكر أنّها أنجزته مع مي-جا، تنظر إلى كومة الرسائل المتبقية - كانت جميع المظاريف مختومة، ما يشير إلى أنها جاءت بعد انتهاء الرقابة - وتتساءل عمّا يمكن أن يكون بداخلها. في المظروف الأوّل رسالةٌ أخرى لا تستطيع قراءتها. ولكن هذه المرة، طُوِثَت الصفحة من كتاب والد مي-جا حول صورة

فوتوغرافية. في صفحة الكتاب تظهر قدم طفل. وفي الصورة الفوتوغرافية، تجلس جون-لي في سرير المستشفى، وطفلٌ حديث الولادة بين ذراعيها. تحتوي الرسالة التالية على فركٍ بالفحم على قطعة ورق أكبر بكثير. لا تستطيع يونغ-سوك قراءتها، لكنها تتعرف على نمط الحروف والأرقام وتذكر أنها من شاهدة قبر ابنتها. تختنق يونغ-سوك بالعبرات.

حالما تنجح في لجم مشاعرها، تفتح بقية الرسائل. كلُّ واحدةٍ مصحوبة بصورة فوتوغرافية وفركٍ بالفحم مُظهرةً بعضاً من جوانب حياة حفيدتهما المشتركة، جانيت: مبتسمة، شعرها مربوط بشرائط زاهية الألوان، تقف على درجات منزل، وفي يدها صندوق غداء، تغني في نزهة، تتخرج من المدرسة الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، والجامعة. وصورة زفاف. ثمَّ بصمةٌ قدم طفل أخرى: كلارا، وبصمة قدم أخرى: شقيق كلارا. حاولت مي-جا أن تخبر يونغ-سوك بكلِّ ما كان يحدث، وكلِّ ما فاتها.

يونغ-سوك الآن في حالةٍ من التركيز الشديد والهيّاج العاطفي لدرجة أنها لا تشعر بالمرأة أو الفتاة اللتان اقتربتا منها.

- «لقد أرادت لك أن تعرفينا»، قالت جانيت بلهجة جيّجو الفقيرة خاصّتها. «وأرادت لنا أن نعرفكِ».

كانت جانيت وكلارا قد بدّلتا الملابس التي ارتدتاها في افتتاح حديقة السلام، وهما الآن ترتديان ملابس متطابقة تقريباً من السراويل القصيرة، والقمصان، والنعال. يتدلى جهاز الآيفون مع الأسلاك وسماعات الأذن من يد كلارا.

- «أرادت»، تقول كلارا مشدّدةً على كلِّ كلمة، «أن نسمع قصّتك، جانبك من القصة. ولكن يجب أن تسمعي جانبها أيضاً. لقد سجّلتُ ساعاتٍ كاملةٍ للجدّة مي-جا —».

- «بدأ الأمر كمشروعٍ مدرسيّ»، تشرح والدتها.

- «لقد ضبطته على الجزء الأكثر أهمية»، تقول كلارا. «هل أنت جاهزة؟».

نعم، يونغ-سوك جاهزة أخيراً. تأخذ السماعات وتضعها في أذنيها، ثمّ تومئ برأسها. تضغط كلارا على الزر، ويأتي صوت المرأة العجوز مي-جا.

- «لطالما قالت يونغ-سوك إنني يجب أن أطلق زوجي، تماماً كما قالت للنساء في جماعتها اللواتي كانت لديهنّ تجارب مماثلة لتجربتي. ولطالما كانت تتفهّم وضعهنّ عندما عجزنَ عن ترك أزواجهنّ، لكنّها لم تستطع أن تفكّر بنفس الطريقة عندما تعلّق الأمر بي».

- «كان ذلك أناًياً منها»، تقول كلارا في التسجيل.

- «ليس أناًياً. لقد أحببتها، وأحبّتي، لكنها لم تفهم أبداً من أو ماذا كنتُ بالضبط. وأنا كذلك لم أفهم. لقد استغرق مني الأمر سنوات عديدة لأدرك أنّي مختلفة عن هؤلاء النساء الأخريات. أعني أنّي كنتُ بالطبع أخاف من سانغ-مون كما يخفّن من أزواجهنّ. كنت في حالة رعبٍ دائمٍ ممّا قد يفعله بي. ما جعلني مختلفة عن الهينيو الأخريات المعنّفات من أزواجهنّ، هو أنّي كنتُ أستحق سانغ-مون والعقاب الذي أنزله بي».

- «لا أحد يستحق ما فعله بك، يا جدّتي».

- «بلى، كنتُ أستحقّه. لقد كان زوجي متزوجاً من إنسانة سيّئة».

تحاول كلارا في التسجيل إخبار جدّتها الكبرى بأنّها ليست شخصاً سيّئاً، وهو ما يمنح يونغ-سوك وقتاً لتتذكّر عندما حاولت هي

أيضاً مناقشة هذه النقطة مع مي-جا . لماذا لم تسمع ما كانت مي-جا تقوله حقاً؟ لماذا لم تطرح المزيد من الأسئلة؟ والأكثر إيلاماً أن هذه المحادثة حدثت عندما كان قلبها لا يزال مفتوحاً لمي-جا، أو هذا ما اعتقدته .

- «كنتُ شخصاً سيئاً»، تصرّ مي-جا في أذنيّ يونغ-سوك . «لقد قتلتُ والدتي لدى مجيئي إلى هذا العالم . كنتُ ابنة عميل . تركتُ سانغ-مون يدمرني . لكنّ عاري الأكبر حلّ عندما لم أوقف ما حدث في بوكتشون . منذ ولادتي وحتى تلك اللحظة، لم أعش سوى حياة العار» .

تسمع يونغ-سوك في التسجيل مي-جا وهي تبكي وكلارا تهدئها . مجدّداً، تعذب الذكريات يونغ-سوك . صوتُ نقرة، ثمّ نقرة أخرى، وتعود الأصوات . كانت مي-جا قد تماسكت .

- «أن تكوني محظّمة»، قالت مي-جا، «تعرفين ما يعنيه ذلك؟» .

- «جدّتي، لقد أخبرتني مرّاتٍ كثيرة، أحياناً تنسين —» .

- «نسيت؟ لا! لن أنسى أبداً . يونغ-سوك وأنا كنّا سعيدين للغاية . كنّا قد عدنا للتو إلى جيجو بعد العمل في البحر بعيداً عن الديار . بدا كلّ شيء مختلفاً جداً على رصيف الميناء . كان ذلك مخيفاً . عرض سانغ-مون أن يساعدنا . بدا رجلاً وسيماً، لكنّه كان شريراً . لا أعرف لمّ لم ترَ يونغ-سوك ذلك على الفور، لكنّها لم تره . لقد كرهته منذ اللحظة الأولى، ولا بد أنّه لمس فيّ ضعف نسبي وعائلي . كنت شخصاً سيستسلم بسهولة . عرف أنّ بوسعه الاستفادة من ذلك، وقد سمحتُ له بذلك . قام بفصلي عن يونغ-سوك بسهولة . وحالما غابثُ عن الأنظار، أخذني إلى مكتبه . عندما بدأ يلمسني، تجمّدتُ فحسب . تركته يُنزل سروالي —» .

- «أنتِ لم تسمحي له، يا جدتي. لقد اغتصبك».

- «فكرتُ أنه إذا لم أتحرك أو أصرخ، فسرعان ما سينتهي الأمر».

تبدأ مي-جا في البكاء مجدداً. يعود كلُّ هذا إذاً إلى ما قبل أحداث بوكتشون بكثير. حتى عندما ألمحت جدُّتها إلى ما حدث لمي-جا، رفضت يونغ-سوك تصديق ذلك، ناهيك عن طرح المزيد من الأسئلة. كانت منغمسة ببؤسها لأنَّ سانغ-مون لم يأتِ إلى هادو من أجلها.

- «لم أستطع إخبار يونغ-سوك بما حدث»، تقول مي-جا. «كانت ستشمئزُّ مني. ولن تنظر إليَّ مجدداً بنفس الطريقة».

- «إذاً من غير الممكن أنَّها كانت صديقة جيدة —».

يعود صوت مي-جا، حاداً بشكل مفاجئ. «لا تقولي ذلك أبداً. لقد كانت صديقة رائعة وغواصةً عظيمة. لقد أصبحت أفضل هينيو في هادو. تعلَّمتُ باكراً من حادثة يو-ري وخسارة والدتها كيف تحمي أولئك اللواتي يتطلَّعن إليها من أجل سلامتهنَّ وأمنهنَّ. لم يمت أحدٌ في جماعتها عندما كانت رئيسة».

أن تكون مي-جا قد عرفتُ هذا عن يونغ-سوك لربَّما هو أكثر إثارةً للدهشة. أم أنَّه ليس كذلك؟ لقد جعلت يونغ-سوك شغلها الشاغل أن تعرف كل شيء عن مي-جا. وربَّما فعلت مي-جا الشيء نفسه مع يونغ-سوك. تتخيَّل يونغ-سوك أثناء الصمت الذي يعقب فورة مي-جا شعور كلارا في تلك اللحظة - معاقبة، وربَّما حتى خائفةً أو محرَّجة - لكنَّها ولأوَّل مرة تفهم أنَّه وعلى الرغم من كل الغضب واللوم الذي حملته بداخلها في السنوات الماضية، فهي نفسها كانت أيضاً قد خذلتُ مي-جا من نواحٍ كثيرة.

- «كانت يونغ-سوك صديقتي الوحيدة»، تصرّ مي-جا. «لذا فإنّ كلّ هذا مؤلّم للغاية». صمّت طويلٌ آخر، ثم تواصل. «تعرفين، لقد كانت معجبةً بسانغ-مون. ظننتُها ستفكّر أنني كنت أحاول سرقة منها».

- «سرقة؟».

- «لطالما كان هناك جانبٌ من يونغ-سوك يشعر بالغيرة مني؛ لأنني أستطيع أن أقرأ وأكتب قليلاً، لأنّه تسنّى لي العمل في البولتيوك قبل أن يُسمح لها بالدخول إليه، لأنني كنتُ أجمل. أنتِ تنظرين إليّ الآن وترين وجهاً مسنّاً، لكنني كنتُ جميلةً ذات يوم».

البحر المتقلّب الذي أبقى يونغ-سوك غير متوازنة طوال اليوم، تتلاطم أمواجه وينقلب مجدّداً. تضع أصابعها فوق سماعات الأذن، وتدفعها أكثر داخل رأسها في محاولةٍ لحجب صوت الريح. كلارا وجانيت تحدقان في وجهها، تراقبان ردّ فعلها.

- «لذا إمّا أنها كانت ستشعر بالاشمئزاز مني أو أنّها كانت ستعتقد أنني ذهبتُ مع سانغ مون لإيذائها».

- «أوه، جدتي —».

- «ولاحقاً؟ لو أخبرتها بعد عمليات القتل لما صدّقني. كانت ستسمع أعداراً مختلفةً فحسب».

يسمح التوقّف المؤقت لشريط التسجيل ليونغ-سوك بفرض هذه المعلومات. تزمّ شفيتها في تقبّل لهذه الحقائق حول إخفاقاتها.

- «اتّخذتُ خياراً»، تواصل مي-جا. «قصدتُ جدّة يونغ-سوك وأخبرتها بما حدث. كانت تلك العجوز شرسة. توسّلتُ إليها ألا تخبر أحداً، لكنها ذهبتُ مباشرةً إلى عمّتي وعمي وسألتهما: ”ماذا لو كانت الفتاة حبلتُ؟“. استقل العمّ والعمّة الحافلة إلى مدينة جييجو،

وواجهها والديّ سانغ-مون. قالا إنّهُ إذا لم يتزوجني ابْنُهُما، فسيبْلَغان الشرطَة».

تحاول يونغ سوك استيعاب كل هذا في محاولة لفهم الأشياء التي حدثت منذ أكثر من ستين عاماً. أن يسمح عمّ وعمّة مي-جا لها بالدخول في هذا الزواج هو شيء، لكن أن يكون كلّ ذلك من ترتيب جدّتها، فهذا شيء آخر تماماً. والأكثر من كلّ ذلك أنّها لم تخبر حفيدتها بما حدث. تتذكر يونغ-سوك بقشعريرة لقاءها بمي-جا في زقاق الأولي بعد اجتماع خطوبتها. لقد أخبرتُ جدّتك بكل شيء. توسّلتُ إليها... وفي وقت لاحق، نشوة الانتصار التي غمرت جدّة يونغ-سوك عندما أخذوا مي-جا بعيداً عن هادو بعد زفافها. تلك الفتاة غادرت هادو كما أتتها - ابنة عميل. كانت يونغ-سوك تحبّ جدّتها. لقد علّمتُ يونغ-سوك الكثير عن الحياة والغوص، لكن كراهيتها لليابانيين ولأولئك الذين تعاونوا معهم تسبّبت في إرسال مي-جا إلى وضع وحشي لا يُغتفر. لكنّ الغشاوة على عينيّ يونغ-سوك هي التي كبحت رغبتها في معرفة الحقيقة، وقد فقدت نتيجة لذلك أخت قلبها. ولاحقاً جون-لي وعائلتها... لكن الآن... أن تدرك كلّ شيء يعني أن تغفر...

- «بعد ذلك»، تُكمل مي-جا، «وكما أخبرتك من قبل، أُجبر سانغ-مون على الزواج منّي. لقد اعتبر أنّ من واجبه أن يشاركني الحبّ كلّ ليلة. كان يحتاج ويريد ابناً، ووالداه يحتاجان ويريدان حفيداً. حتى أنهم أعادوني إلى هادو كي تتسنّى لي زيارة الإلهة مع يونغ-سوك. لطالما كنت أتوق إلى أن تكون لديّ عائلة، لكنني الآن لم أعد أرغب في فعل أيّ شيء من شأنه أن يساعد في زرع طفلٍ بداخلي».

لست متأكدة من أنني أريد أن أنجب طفلاً. قالت مي-جا هذا

مباشرةً لـيونغ-سوك في تلك الزيارة الأولى. لو أنَّ يونغ-سوك استجوبتها أكثر فحسب. لكنّها لم تفعل. كانت تفكر في سعادتها فقط.

- «كنتُ في حالة رعبٍ دائمٍ منه»، تتابع مي-جا. «عندما هرب من الشمال، كان حتّى أسوأ من ذي قبل. مشاركة الحبّ. يا للهول! أيّ كذبةٍ هذه! لم أعرف ماذا ينبغي بي أن أفعل، ولم يكن لدي مكانٌ لأذهب إليه. كنتُ طوال الوقت مجمّدةً ومذعورة كحالي يوم أفسدني أول مرة. ولم يقف الأمر عندي. الطريقة التي كان يضرب بها جدّك... فعلتُ كل ما في وسعي لحماية يو-تشان وتربيته ليكون رجلاً صالحاً».

تقول كلارا في التسجيل: «كان يجدر بك إخبار يونغ-سوك. لو فعلت ذلك، وإن كانت صديقتك حقاً، فلربّما كان كلُّ شيءٍ سيسير على نحوٍ مختلف».

إذ تفكّر يونغ-سوك في معاناة صديقتها... لسنواتٍ طويلة... كم كانت مي-جا شاحبة عندما التقت مع سانغ-مون بيونغ-سوك في موقف الشاحنات يوم تقابل الثلاثة لأوّل مرّة. والكدمات التي كانت تخفيها على مر السنين. كيف كانت تتجمّد فزعاً دائماً عندما يظهر. كيف اختلقت له الأعذار. لقد أخبرتها مي-جا بنفسها أنّ سانغ-مون جعلها تدفع ثمن فقدانه لماء وجهه أمام رؤسائه في ذلك اليوم في بوكتشون. وكيف رجعت مع ذلك إلى سانغ-مون من أجل مساعدة جون-لي...

تطلق مي-جا أنيناً معذباً عبر التسجيل. «مختلف؟ اعتقدتُ أننا جميعاً سنموت في ذلك اليوم في بوكتشون. لم يكن لديّ أمل في النجاة، لكن إذا كان عليّ أن أموت، فقد كنتُ ممتنةً لأن ذلك سيكون مع صديقتي. ثمّ وصل سانغ-مون مع يو-تشان. لم أحظْ

يوماً بأمّ تحبّني، ولطالما افتقدتُ إلى ذلك. لم أستطع المخاطرة بالسماح ليو-تشان أن يكبر بدوني ويعيش بمفرده مع والده».

مجدّداً، تتذكّر يونغ-سوك مرتعشة إحدى زيارات مي-جا. كانت قد تحدّثتُ كيف تختار بعض النساء الانتحار على العيش مع أزواجهنّ. وتساءلت: «لكن كيف يمكن لهذا أن يكون خياراً بالنسبة لأمّ؟ لديّ يو-تشان، يجب أن أعيش من أجله».

تضيف مي-جا سبباً آخر. «ثمّ عندما سألتني يونغ-سوك أن آخذ أطفالها، كان كلّ ما استطعتُ أن أفكر فيه هو الوحشية التي تنتظرهم».

- «أنا آسفة، يا جدّتي، لكنني أعتقد أنّه من الأفضل أن تكوني حيّةً وتعرّضي للضرب على أن تكوني ميتة».

- «لو أمكنك معرفة ما كان عليه ذلك اليوم... الصراخ... البكاء... رائحة الخوف... لكنك على حق»، تعترف مي-جا. «في النهاية، كلّ ما حدث كان مسؤوليتي وحدي. لم أستطع اصطحاب أطفال يونغ-سوك إلى منزله. لم أستطع حتى اصطحاب واحدٍ منهم. لم أستطع تحمّل فكرة ما قد يفعله سانغ-مون بهم وأنا أعرف بالفعل ما كان يفعله بيو-تشان وبي. ثم حدث كل شيء بسرعة كبيرة». تهدّج صوتها. «لاحقاً، عندما اكتشف سانغ-مون ما فعلته - أو ما لم أفعله بالأحرى، غضبَ منّي أيّما غضبٍ. كان قلقاً من أن يعود شبّح جون-بو والآخرين للنيل منه. قال إنني هدّدتُ موقعه في الحكومة عبر جعله يبدو في موقع ضعف. والأسوأ أنّني لم أتقدّم إلى الأمام منذ البداية وأتوسّل إلى القائد لأجل يونغ-سوك وعائلتها. لقد نظر إليّ ورأى عميلةً، وجانيةً، بل وخائنةً أيضاً، ولكن كلّ ما أردتُ فعله كان البقاء على قيد الحياة من أجل ابني».

تسحب يونغ سوك سماعات الأذن. تُنقّل عينيها بين الفتاة ووالدتها وصولاً إلى كومة الرسائل. تتخلخل مصاريع قلبها الذي بدأ ينفتح. ربّما لن تكون قادرة على تحمّل ذلك. المرأة الجيّدة هي أم جيّدة. لقد حاولت أن تعيش وفقاً لهذه الكلمات، وكانت تفتخر بنفسها لكلّ ما فعلته لأطفالها. والآن ترى أنّ مي-جا حاولت أن تفعل الشيء نفسه ولكن بنتائج مأساوية. هي تشعر بالمرح بينما بدأت عقود من الحزن، والغضب، والندم، بداخلها تتداعى وتذوب.

- «لم تكفّ جدّتي يوماً عن حبّك»، تقول جانيت. «لقد تقبّلت ما فعلته، وأرادت لك أن تعرفي كل شيء. وهو ما أحضرناه إليك».

لسنوات، ضايق الناس يونغ-سوك كي تخبر قصتها. كانت دائماً تقول لا. لكن الآن... أولئك الذين يطلبون ذلك يحملون بداخلهم دماء مي-جا ويونغ-سوك. نعم، سوف تحكي قصّتها أخيراً. ستخبرهم عن الألم الذي تحمّله ولكن أيضاً عن قلبها المغلق بإحكام والذي لم يقدر على الغفران.

تجشو كلارا على ركبتيها. «هل هناك أيّ طعام على هذا الشاطئ؟».

هذا السؤال قديمٌ قدّم أول هينيو، ولا بدّ أنّ كلارا تعلّمته من جدّتها الأخرى. تجد يونغ-سوك نفسها تبتسم. كيف يمكن لها ألاّ تسافر عائدةً بالزمن إلى العلاقة التي ربطتها بأقرب صديقاتها، على هذا الشاطئ بالذات، حيث تعلّمتا السباحة، واللعب، والحبّ معاً؟

- «يوجد به طعامٌ أكثر من سِعة ثلاثين ثلاجة في منزل جدّتي»، تجيب ثمّ تضيف قائلة: «لو كان لدى جدّتي ثلاجة».

- «هل ستأخذيننا إلى البحر إذّا؟»، تسأل كلارا. «هل ستعلّميننا؟».

لا تتردد يونغ-سوك. «هل أحضرتما شيئاً كي تسبحا به؟».
تبتسم كلارا وهي تنظر إلى والدتها التي تبتسم لها بالمقابل.
ترفع كلٌّ منهما كتفها لتكشف عن الشرائط ذات الألوان الزاهية
الخاصة ببزّات السباحة.
نَفْسُ،
نَفْسُ،
نَفْسُ.....

مكتبة

t.me/soramnqraa

ليزا سي

جزيرة نساء البحر

- «لقد فعلوا هذا بي. لقد فعلوا ذلك بي». المرأة التي تفكر بهذه الطريقة لن تتغلب على غضبها أبداً. أنت لا تعاقبين على غضبك. أنت تعاقبين بغضبك.

أصغيتُ لها، لكنها لم تخبرني بشيء لم أكن أعرفه بالفعل، إذ كنتُ بالطبع أعاقب بغضبي. لقد عشتُ مع ذلك كل يوم».



تأخذنا رواية جزيرة نساء البحر إلى عالم الهينيو، هؤلاء الغواصات الجسورات، وتررعنا في قلب الأحداث الزاخمة التي شكّلت حياتهن على جزيرة جيجو الكورية.

ومن خلال قلبي مي-جا ويونغ-سوك - فتاتان صغيرتان تنضجان لتصبحا امرأتين لكلٍ منهما عائلتها الخاصة - وعيونهما وتجاربهما، نكتشف ثقافة فريدة لا تنسى؛ ثقافة حيث النساء في موقع المسؤولية، ومنخرطات في أعمال خطيرة وذات طابع بدني، في حين أن الرجال هم الذين يعتنون بالأطفال. فننخرط في قصصهن، ونشارك أسرارهن الدفينة، ونعيش صداقاتهن وأحلامهن، ونسبر أغوار جراحهن ومشقاتهن، ونستمدُّ الإلهام من قدرتهن المذهلة على دفع أنفسهن مرةً بعد مرة من الأعماق صعوداً إلى السطح.

خذوا نفساً عميقاً، وغوصوا في أسلوب ليزا سي الأسر، توغّلوا عميقاً في هذه الرواية الساحرة التي ستستحوذ عليكم بالكامل؛ روايةً ستحتلُّ مكانها في قلوبكم إلى الأبد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com